الفرقان

فی تفسیر القرآن بالقرآن

الجزء الاول

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 5

الجزء الأول‏

المقدمة

مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

دار التراث الاسلامي تقدم للمكتبة الاسلامية العالمية أفضل تراث إسلامي هو «الفرقان» في تفسير القرآن بالقرآن و السنّة، مطأطئة الرأس أمام هذه الموسوعة العظيمة البارعة البديعة التي جاد بها يراع مؤلفه، جامعا فيها بين إناقة التعبير و علاقته، و عمق المعنى و لباقته، و قد تكون جملة و تفسيرا منقطع النظير بين سائر التفسير التي جاد بها أقلام مفسري القرآن قديما و حديثا حيث تمتاز بميّزات تالية مؤلّفا و مولّفا:

فالمؤلّف عاش القرآن أليفا و مدفقا دارسا و مدرسا خلال ما يربوا أربعين عاما في الحوزتين المباركتين: النجف الأشرف و قم المشرفة، و منها سبعة عشر عاما هي سنى هجرته من شرّ الطاغوت- الشاه عليه لعنة اللّه- حيث كان مدرسا و مبشرا قرآنيا في مكة المكرمة و لبنان و سوريا و العراق، و قد خرّج مئات من طلاب علوم القرآن إلى أنحاء العالم الاسلامي. و ألّف في مختلف العلوم الإسلامية كتابات قيّمة، خاتمتها حتى الآن هي «الفرقان»، و من ميّزات المؤلّف بلوغه إلى أعلى قمم الاجتهاد في علوم القرآن، و على ضوءها في الفقه و الفلسفة الاسلامية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 6

و أما المؤلّف فهو يمتاز بأساليب عدة تكفى واحدة منها لتجعله متميّزا عن سائر كتب التفسير:

منها جمعيته لأقدم الأساليب في التفسير و أحدثها، فقد جمع بين سنّة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و أئمة أهل البيت (ع) تفسيرا للقرآن بالقرآن، و بين أحدث النظريات التي وصل إليها العلم الحديث، جاعلا للقرآن إماما ككل و كل ما سواه يأتمّ به دونما أي تحميل عليه بدقيق أو جليل.

و منها رعاية جمعية الدلالات القرآنية، دون تضييق لها بمضايق التفسير و لا توسعة كما يفعله المفرّطون و المفرطون، الذين يتضايقون أو يتواسعون في نصوصه و ظواهره دونما حجّة من علم أو أثارة من علم أو كتاب منير.

و منها تفصيل البحوث الفقهية بكل حقولها على ضوء آياتها دونما تأثّر شارد بروايات أو إجماعات أو شهرات تخالف القرآن ، مهما بلغت من العدّة و العدّة ما بلغت، فان للّه الحجة البالغة.

و منها المقارنة في كافة المواضيع القرآنية مع سائر كتابات الوحي و سواها، مما قد يجعله أفضل تفسير مقارن. فلقد حاول المولّف دام ظلّه و إفضاله كل جهده في إظهار مرادات اللّه، دونما نقل إلا آيات كأصل و روايات على هامشها بكل هيمنة قرآنيه بارعة دونما إصغاء إلى أقوال أم أقاويل و لا ذكر لأصحابها، لا تصغيرا للعلماء و إنما تكبيرا للقرآن و السنة الاسلامية السامية، و إخراجا لكتاب اللّه عن معترك الآراء، و عن المذهبيات المتعصّية. و القيلات المترسّبة.

و نحن إذ نتواضع أمام هذا المشروع العظيم نسأل اللّه العلي القدير أن يوفق المؤلف لإكماله بتمامه و كماله و يجعله ذخرا للامة الاسلامية.

بيروت: دار التراث الاسلاميّه طهران: انتشارات فرهنگ اسلامى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 7

رسالة من صاحب تفسير «الميزان» تعريفا بتفسير الفرقان‏

من عشرات الرسائل التي وصلتنا تعريفا بتفسير الفرقان من مختلف رجالات العلم و عباقرة الفضل و التفكير و أصحاب التفسير في شتى أنحاء العالم رسالة صاحب «الميزان» الإمام الأعظم سماحة الحجة السيد محمد حسين الطباطبائي دام ظله الوارف على رؤوس المسلمين، و إليكم ترجمتها الحرفية:

فضيلة شيخنا الشيخ الدكتور محمد الصادقي المحترم دامت إفاضاته.

السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

زرنا مجلدين من تفسيركم الشريف (الفرقان) مع كتابكم الكريم، فبعد فراق طويل بيننا بأعوام عدة، و انقطاع اخباركم عنا بزمن بعيد، يسرني أن وصلني نبأ صحتكم و توفيق سماحتكم، فحمدت ربي، و أرجو منه سبحانه أن يقرنكم دائما بالعافية و التوفيق، و أن يسدّد خطاكم، و يؤيدكم بألطافه و عناياته الخاصة.

إن تفسير «الفرقان» الشريف الذي زرته، إنه لكتاب يقرّ عيوننا، و هو سند عزنا و أصل من مفاخرنا- نحن المفسرين- إن شاء اللّه تعالى تكرس كافة طاقاتك و إمكانياتك و تبذل جميع مساعيك في مواصلة هذا الأسلوب الفريد من التفسير- أعني: تفسير القرآن بالقرآن- فلا تملّ و لا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 8

تكسل و لا تفشل في هذا المشروع العظيم، خدمة للمعارف القرآنية، و كشفا للقناع عن ذخائر هذا الكتاب المكنون السماوي، و أرجو من اللّه عز اسمه لكم التوفيق و أن يؤيد سماحتكم في هذه السبيل، و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

محمد حسين الطباطبائي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 11

المدخل‏

بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجا. قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا.

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا و هاديا إلى اللّه باذنه و سراجا منيرا.

و صلواته التامات الزاكيات على من أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و كفى باللّه شهيدا!.

اللهم صل و سلم و زد و بارك على محمد عبدك و رسولك و نبيك و نجيّك و صفوتك و صفيك و خير خيرتك نبي الأمة و إمام الرحمة، و على آله الطاهرين المعصومين الذين أذهبت عنهم الرجس و طهرتهم تطهيرا.

رب ادخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا.

رب وفقني لتقواك و اجعل لي من أمري يسرا و كفر عني سيئاتي و أعظم لي اجرا. و اجعل لي مخرجا و «فرقانا» انك كنت بنا بصيرا.

رب اشرح لي صدري و يسر لي امري و احلل عقدة من لساني يفقهوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 12

قولي و كفى بك هاديا و نصيرا.

إن القرآن «نور و برهان»: «قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» (4: 174) و «بيان»: «هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (3: 138) و «مبين»: «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ» (26: 2) ..

«قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (39: 28) و تبيان: «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» (16: 89).

و هذا النور البرهان- المبين البيان التبيان: قرآن عربي لا عوج له في كونه و كيانه، في بيانه و برهانه، مفصحا بليغا بأعلى القمم لأعلى القيم في تبيانه، و ترى النور بحاجة الى نور، و البرهان يحتاج الى برهان؟! و هو نور الأنوار «نُورٌ عَلى‏ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ..»!.

«إن هذا القرآن هو النور المبين، و الحبل المتين، و العروة الوثقى، و الدرجة العليا، و الشفاء الأشفى، و الفضيلة الكبرى، و السعادة العظمى، من استضاء به نوّره، و من عقد به أموره عصمه اللّه، و من تمسك به أنقذه اللّه، و من لم يفارق أحكامه رفعه اللّه، و من استشفى به شفاه اللّه، و من آثره على سواه هداه اللّه، و من طلب الهدى في غيره أضله اللّه، و من جعله شعاره و دثاره أسعده اللّه، و من جعله إمامه الذي يقتدي به، و معوّله الذي ينتهي اليه أداه اللّه إلى جنات النعيم و العيش السليم» «1».

«إنه هدى من الضلالة، و تبيان من العمى، و استقالة من العثرة، و نور من الظلمة، و ضياء من الأحداث و عصمة من الهلكة، و رشد من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الامام الحسن العسكري عن أبيه عن آباءه عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 13

الغواية، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، و فيه كمال دينكم، و ما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار» «1».

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فانه شافع مشفّع، و ما حل مصدّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل و ليس بالهزل ... ظاهره أنيق، و باطنه عميق، له نجوم (تخوم) و على نجومه (تخومه) نجوم (تخوم) لا تحصى عجائبه، و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، و منار الحكمة، و دليل المعرفة لمن عرف الصفة فليجل جال بصره و ليبلغ الصفة نظره ينج من عطب و يتخلص من نشب فان التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور فعليكم بحسن التخلص و قلة التربص» «2».

«نور لا تطفأ مصابيحه، و سراج لا يخبؤ توقّده، و بحر لا يدرك قعره، و منهاج لا يضل نهجه، و شعاع لا يظلم ضوءه، و فرقان لا يخمد برهانه، و تبيان لا تهدم أركانه، و شفاء لا تخشى أسقامه، و عز لا تهزم أنصاره، و حق لا تخذل أعوانه، فهو معدن الايمان و بحبوحته، و ينابيع العلم و بحوره، و رياض العدل و غدرانه، و أثافي الإسلام و بنيانه، و أودية الحق و غيطانه، و بحر لا ينزفه المنتزفون، و عيون لا ينضبها الماتحون،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي 2: 600- ابو علي الاشعري عن بعض أصحابه عن الخشاب رفعه قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام): و اللّه لا يرجع الأمر و الخلافة الى أبي بكر و عمر ابدا و لا الى بني امية ابدا و لا في ولد طلحة و الزبير ابدا و ذلك انهم نبذوا القرآن و أبطلوا السنن و عطلوا الأحكام و قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ...

(2) اصول الكافي 2: 598 علي بن ابراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن أبيه عن آباءه (عليهم السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 14

و مناهل لا يفيضها الواردون، و منازل لا يضل نهجها المسافرون، و أعلام لا يعمى عنها السائرون، و آكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله اللّه ريّا لعطش العلماء، و ربيعا لقلوب الفقهاء، و محاجّا لطرق الصلحاء، و دواء ليس بعده داء، و نورا ليس معه ظلمة، و حبلا وثيقا عروته، و معقلا منيعا ذروته، و عزا لمن تولاه، و سلما لمن دخله، و هدى لمن ائتم به، و عذرا لمن انتحله، و برهانا لمن تكلم به، و شاهدا لمن خاصم به، و فلجا لمن حاجّ به، و حاملا لمن حمله، و مطيّة لمن أعمله، و آية لمن توسم، و جنّة لمن استلأم، و علما لمن وعى، و حديثا لمن روى، و حكما لمن قضى» «1».

و هو

بيان ما قبلكم من خبر، و خبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم، و هو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه اللّه، و من التمس الهدى في غيره أضله اللّه، و هو حبل اللّه المتين، و هو الذكر الحكيم، و هو الصراط المستقيم. لا تزيغه الاهوية، و لا تلبسه الأقضية، و لا يخلق على الرد، و لا ينقضي عجائبه، و لا يشبع منه العلماء، هو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: «إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ» من قال به صدق، و من عمل به أجر، و من اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مما يروى عن علي امير المؤمنين من غزير كلامه حول القرآن (نهج البلاغة).

الخطبة 193 ص 22- عبده.

(2)

تفسير العياشي باسناده عن الحارث الأعور قال‏ دخلت على امير المؤمنين (عليه السلام) فقلت يا امير المؤمنين! انا إذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا و إذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة و لا ندري ما هي- قال: أوقد فعلوها؟ قال: قلت: نعم قال سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول اتاني جبرئيل فقال يا محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! ستكون في أمتك فتنة- قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب اللّه فيه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 15

انه‏

«بقية استخلفها عليكم كتاب اللّه الناطق و القرآن الصادق و النور الساطع، و الضياء اللامع، بينة بصائره منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد الى الرضوان اتّباعه مؤدّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج اللّه المنورة، و عزائمه المفسّرة، و محارمه المخدّرة، و بيناته الجالية، و براهينه الكافية، و فضائله المندوبة، و رخصه الموهوبة، و شرائعه المكتوبة» «1»

و

قد سئل علي (عليه السلام) هل عندكم من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شي‏ء من الوحي؟ قال: لا و الذي فلق الحبة و برأ النسمة، إلا أن يعطي عبدا فهما في كتابه‏ «2»

تدليلا على أن القرآن هو الوحي الأصيل، و الضابطة بلا بديل، و وحي السنة هامشي ليس يوصّل إلا فهما لوحي القرآن و تفصيلا.

فلنخضع للقرآن كما للّه فإنه خير كلام للّه، و

قد روي عن الإمام الصادق (ع) انه قال: «من قرأ القرآن و لم يخضع له و لم يرقّ عليه و لم يغش حزنا او وجلا في سرّه فقد استهان بعظم شأن اللّه و خسر خسرانا مبينا، فقارئ القرآن يحتاج الى ثلاثة أشياء: قلب خاشع و بدن فارغ و موضع خال، فإذا خشع للّه قلبه فرّ منه الشيطان الرجيم، و إذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض فيحرمه نور القرآن و فوائده، و إذا اتخذ مجلسا خاليا و اعتزل من الخلق بعد ان أتى بالخصلتين الأوليين استأنس روحه و سره باللّه، و وجد حلاوة مخاطبات اللّه عباده الصالحين، و علم لطفه بهم، و مقام اختصاصه لهم، بقبول كراماته، و بدائع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من خطبة الصديقة الطاهرة الزهراء بنت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حينما غصب حقها.

(2) عن مصباح الشريعة المنسوب الى الإمام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 16

إشاراته، فإذا شرب كأسا من هذا المشرب فحينئذ لا يختار على ذلك الحال حالا و على ذلك الوقت وقتا بل يؤثره على كل طاعة و عبادة لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة فانظر كيف تقرأ كتاب ربك و منشور ولايتك، و كيف تجيب أوامره و نواهيه، و كيف تمتثل حدوده فانه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فرتله ترتيلا، وقف عند وعده و وعيده، و تفكر في أمثاله و مواعظه و احذر ان تقع من إقامتك حروفه في اضاعة حدوده» «1».

فالأصل في كل شارد و وارد هو القرآن، يردّ اليه غير الضروري من الدين، ليعرف به المارد عن الوارد، و يميّز به الغث عن السمين و الخائن عن الأمين.

و إذا كان القرآن هو المعوّل و المرجع لسواه، فبأن يكون مرجعا لنفسه أحرى، حيث التمسك بالقرآن في الأمور المشتبهة إصلاح لها، و وصول للرشد فيها، فهو هو أحق ان يمسّك في تفسيره بنفسه: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (7: 17)! فالذين لا يمسكون بالكتاب او يمسّكون في تفسير الكتاب بغير الكتاب هم من المفسدين، حيث المرجع الوحيد في المختلف فيه هو اللّه، و لا يمثل الحكم فيه إلا كتاب اللّه: «وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» (42: 17) ثم و موقف السنة المحمدية هو موقف الهامش الشارح لكتاب اللّه، ما ثبت أنها من سنته، و لا يعرف إلا بموافقته لكتاب اللّه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ‏ءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (4: 59)-

«فاردد الى اللّه و رسوله ما يضلعك من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن مصباح الشريعة المنسوب الى الامام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 17

الخطوب و يشتبه عليك من الأمور، و الرد الى اللّه الأخذ بمحكم كتابه، و الرد الى الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة» «1».

ثم و «أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» هم حملة السنة المحمدية السليمة، كما امر اللّه بطاعتهم المطلقة بعده و بعد رسوله: فطاعة اولي الأمر هي طاعة الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث لا يصدرون إلا عن الرسول، فمثنى الذيل في الآية «فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ» هو مثلث الصدر فيها «.. وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» فإنهم لا يحملون إلا سنة الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

ففي هذا المثلث البارع من الطاعة المطلقة طاعة اللّه هي القاعدة الرصينة و طاعة الرسول بعدها هي الزاوية الأولى حيث يصدر عن اللّه، و «أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» هم الزاوية الأخيرة حيث يصدرون عن رسول اللّه، و لا سبيل للتعرف الى واقع السنة التي ترويها الرواة إلا موافقتها لكتاب اللّه و «ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا»: مأخذا و مآلا.

«فالقرآن يفسر بعضه بعضا و ينطق بعضه على بعض» «2»

و آيات العرض و أحاديثه المتواترة تفرض على المستفسرين عن آي الذكر الحكيم ان يبدءوا بالتدبر في القرآن نفسه كما يجب، ثم عرض الأحاديث المفسّرة للقرآن على القرآن فيستفسر الموافق له و يرفض المخالف، لكي يحصل على معاني متلائمة، غير متضاربة: «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام).

(2) نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 18

و لا يعني تفسير القرآن بالقرآن ضرب بعضه ببعض دون رعاية لمناسبات الآيات، و ان تنثر آياته نثر الدقل دون تأمل في رباطاتها

«و قد رأى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوما يتدارءون فقال: هلك من كان قبلكم، بهذا ضربوا كتاب اللّه بعضه ببعض، و انما نزل كتاب اللّه يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا و ما جهلتم فكلوه الى عالمه» «1».

و خرج على قوم يتراجعون القرآن و هو مغضب فقال: «بهذا ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم و ضرب الكتاب بعضه ببعض» «2».

فعلى المفسر التدبّر التام في آي الذكر الحكيم، متحللا عما أثبته هو او أثبتته الطرق العلمية أو العقلية أمّاهيه، مستنطقا كل آية بنظائرها في المغزى، فيستفسر عنها أشباهها و نظائرها، متثبتا عن الأحاديث الموافقة الملائمة لها.

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، و اختلاف المفسرين من جراءه، و من اختلاف افهامهم و أساليبهم، هذه الاختلافات ترد إلى القرآن نفسه، فلا يصدّق عليه إلّا ما يصدقه.

إذا فمسالك التفسير كلّها هباء و خواء إلّا تفسير القرآن بالقرآن، كما و ان الرسول و الائمة من آل الرسول سلكوا هذا المسلك القويم في تفسير آي الذكر الحكيم، و على المفسرين ان يتعلموا هذه الطريقة المثلى من هؤلاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور- اخرج احمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

(2) الدر المنثور- اخرج ابن سعد و ابن الضريس في فضائله و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 19

المعلمين المعصومين. رجوعا الى أساليبهم السليمة في تمسكهم بالكتاب، تفسيرا للآيات بالآيات، ثم سلوكا في صراطهم المستقيم على طول الخط و مر الزمن.

فالتفسير بين حق و باطل، تفسير بالقرآن و تفسير بالرأي «و من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» «اخطأ أو أصاب كان مصيره الى النار» و لا يعني التفسير بالرأي إلا ان تحمل معك رأيا لك او لغيرك من قولة او رواية غير ثابتة، ثم تحمّله على آية لا تتحمّله، او لا توافقه او تخالفه، و ليس الكثير من اختلافات المفسرين في تفسير الآيات إلّا لتفرقهم ايادي سبا عن تفسيره بنفسه، او عدم المؤهلات لمن حاول تفسيره بنفسه، فان له شروطا جمة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روى ابو عبد اللّه محمد بن ابراهيم بن جعفر النعماني في تفسيره باسناده عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ان اللّه تبارك و تعالى بعث محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فختم به الأنبياء فلا نبي بعده و أنزل عليه كتابا فختم به الكتب فلا كتاب بعده أحلّ فيه حلالا و حرم فيه حراما فحلاله حلال الى يوم القيامة و حرامه حرام الى يوم القيامة فيه شرعكم و خبر من قبلكم و بعدكم و جعله النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) علما باقيا في أوصياءه فتركهم الناس و هم الشهداء على اهل كل زمان و عدلوا عنهم ثم قتلوهم و اتبعوا غيرهم و أخلصوا لهم الطاعة حتى عاندوا من اظهر ولاية ولاة الأمر و طلب علومهم قال اللّه سبحانه: «وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى‏ خائِنَةٍ مِنْهُمْ» و ذلك انهم ضربوا بعض القرآن ببعض و احتجوا بالمنسوخ و هم يظنون انه الناسخ و احتجوا بالمتشابه و هم يرون انه المحكم و احتجوا بالخاص و هم يقدّرون انه العام و احتجوا باوّل الآية و تركوا السبب في تأويلها و لم ينظروا الى ما يفتح الكلام و الى ما يختمه و لم يعرفوا موارده و مصادره إذ لم يأخذوا عن اهله فضلوا و أضلوا و اعلموا رحمكم اللّه من لم يعرف من كتاب اللّه عز و جل الناسخ من المنسوخ و الخاص من العام و المحكم من المتشابه و الرخص من العزائم و المكي و المدني و اسباب التنزيل و المبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة و المؤلفة و ما فيه من علم القضاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 20

فالمحدث يفسره بما يجده من أحاديث تناقلتها الرواة، ناظرا الى أسانيدها، غضا عن متونها، فإذا قيل: إسناده صحيح، صحّح به تفسير القرآن وافقه ام خالفه، رغم وجود الكثير من وثنيات و إسرائيليات و مسيحيات و أضرابها من خرافات تسربت الى أحاديث الإسلام فترسبت في كتب الحديث، مهما صحت أسناد منها او ضعفت.

كما يروى من طريق السنة «ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سحر» مسا من كرامة النبوة، و القرآن يقول عن هؤلاء المختلقين انهم ظالمون: «إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً» (35: 9) «1».

و يروى من طريق الشيعة في تفسير دابة الأرض أنها علي عليه السلام! مسّا جاهلا او متجاهلا من كرامة الخلافة الإسلامية المنصوصة المنصوبة.

و كثير أمثال هذه الخرافات الزور التي تناقلتها الرواة و المفسرون من الفريقين دون رعاية لصريح القرآن او ظاهره حيث يمجّه و ينافيه.

فهذا ليس تفسيرا للقرآن بالسنة، و انما بالرواية التي يعتبرها رواتها سنة و يتقبلها المفسر بالسنة كسنة، و ما هي سنة، فانها ليست إلّا قول الرسول او فعله و تقريره، و لا سبيل إليها قويما إلّا موافقتها للقرآن حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و القدر و التقديم و التأخير و المبين و العميق و الباطن و الابتداء من الانتهاء و السؤال و الجواب و القطع و الوصل و المستثنى منه و الجار فيه و الصفة لما قبل مما يدل على ما بعد و المؤكد منه و المفصل و عزائمه و رخصه و مواضع فرائضه و احكامه و معنى حلاله و حرامه الذي هلك فيه الملحدون و الموصول من الألفاظ و المحمول على ما قبله و على ما بعده- فليس بعالم بالقرآن و لا هو من اهله و متى ادعى معرفة هذه الأقسام بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على اللّه الكذب و رسوله و مأواه جهنم و بئس المصير».

(1). راجع ج 30 ص 539 حول آية النفاثات في العقد، و ج 15 حول آيته و كذلك الفرقان الآية 8.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 21

لا يتبع الرسول في كل ما يفعل او يقول إلا وحي القرآن: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ» (6: 50) فلا يصدّق على الرسول ما يكذبه القرآن و ان صحت أسناده، و قد يصدّق عليه ما يصدقه القرآن و ان ضعفت أسناده، فلا يسند الحديث صحيحا إلا متنه الموافق للقرآن دون سنده، و لا نحتاج الى صحة السند في متن صحيح إلا لاتقان النسبة الى الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فان المتن الصحيح لا يختص بالرسول، ثم لا تفيدنا صحة السند في متن لا يلائم القرآن، فان الباطل لا يصدر عن الرسول‏ «1».

و

قد تواتر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «لقد كثرت عليّ الكذّابة و ستكثر فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوء مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب اللّه و سنتي فما وافق كتاب اللّه و سنتي فخذوا به و ما خالف كتاب اللّه و سنتي فلا تأخذوا به» «2».

او

«ما جاءكم عني يوافق كتاب اللّه فأنا قلته و ما جاءكم يخالف كتاب اللّه فلم اقله» «3»

حيث السنة، و هي الشارحة الموافقة لكتاب اللّه- تندغم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حالات الحديث اربع: 1 صحيح السند و المتن 2 ضعيف السند و المتن 3 صحيح السند ضعيف المتن 4 ضعيف السند صحيح المتن- فالأول يسند الى الرسول و الأئمة من آل الرسول- و الثاني يضرب عرض الحائط و كذلك الثالث إذا لم يتحمل التأويل، و الرابع يصدق و لكن لا يسند الى الرسول- و الأصل في صحة المتن موافقته لكتاب اللّه او سنة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الثابتة، و لا دور للسند الا صحة الاسناد الى المسند اليه إذا كان المتن صحيحا- فصحة السند لا تصحح المتن، و انما هي من اسباب صحة النسبة على هامش صحة المتن.

(2- 3) رواه الطبرسي في الاحتجاج بالإسناد الى أبي جعفر الجواد (عليه السلام) عند احتجاجه على يحيى بن أكثم- و رواه مثله الكافي 1: 69 عن محمد بن إسماعيل عن الفضل بن الشاذان عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم و غيره عن أبي عبد اللّه و في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 22

في كتاب اللّه، دون ان تكون فيها محادة لكتاب اللّه، و انما هي كظل و هامش يوضّح منه ما خفي على القاصرين.

ثم لا يفرق في هذا العرض حديث البرّ عن الفاجر، كما

في الصادقي‏ (عليه السلام): «ما جاءك في رواية من برّ او فاجر يوافق القرآن فخذوا به و ما جاءك في رواية من بر او فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به» «1».

«.. فاتقوا اللّه و لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا و سنة نبينا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فإنا إذا حدثنا قلنا قال اللّه عز و جل و قال رسول اللّه» «2» كما رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليس له قال إلا قال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المحاسن (221) البرقي عن أبي أيوب المدائني عن ابن أبي عمير عن الهشامين جميعا و غيرهما عنه (عليه السلام) و في المستدرك 3: 186 محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن هشام بن الحكم عن أبي عبد اللّه- الا انها بحذف سنتي، و انما «كتاب اللّه‏

(1). المستدرك 3: 183 عن محمد بن مسلم قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) يا محمد و مثله ما في الصادقي (عليه السلام) ايضا سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به و منهم من لا نثق به قال إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب اللّه او من قول رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الا فالذي جاءكم به اولى» و في الكافي 1: 69 محمد بن يحيى عن عبد اللّه بن محمد عن علي بن الحكم عن ابان بن عثمان عن عبد اللّه بن أبي يعفور قال و حدثني الحسين بن أبي العلاء أنه حضر ابن أبي يعفور في هذا المجلس قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) و رواه في المحاسن (225) مثله.

(2)

رجال الكشي (146) حدثني محمد بن قولويه و الحسين بن الحسن البندار القمي قالا حدثنا سعد بن عبد اللّه قال حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن‏ ان بعض أصحابه سأله و انا حاضر فقال له: يا محمد! ما أشدك في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 23

اللّه، بلفظ القرآن ام سواه- «فما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» و كيف يناقض او يضاد وحي اللّه وحيه!.

فالقرآن هو النور الذي يصوّب الصواب و يخطئ الخطأ و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «إن على كل حق حقيقة و على كل صواب نور فما وافق كتاب اللّه فخذوه و ما خالف كتاب اللّه فدعوه» «1».

و

في الباقري (عليه السلام) «انظروا أمرنا و ما جاءكم عنا فان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحديث و اكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا فما الذي يحملك على رد الأحاديث فقال حدثني هشام بن الحكم انه سمع أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: لا تقبلوا علينا حديثا الا ما وافق القرآن و السنة او تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة فان المغيرة بن شعبة لعنه اللّه دسّ في كتب اصحابي أحاديث لم يحدث بها أبي فاتقوا اللّه ...

(1). اصول الكافي 1: 69 علي بن ابراهيم عن أبيه عن السكوني عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و في امالي الصدوق (221) قال: حدثنا احمد بن علي عن ابراهيم بن هاشم قال: حدثنا أبي عن أبيه ابراهيم بن هاشم عن الحسين بن يزيد النوفلي عن إسماعيل بن مسلم الكوفي عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) عن أبيه عن جده قال قال علي (عليه السلام) قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذكر مثله و في المحاسن (226) البرقي عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن آبائه عن علي (عليه السلام) مثله عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الا انه قال: فخذوا به و

في الوسائل 3: 382 سعيد بن هبة اللّه الراوندي عن محمد و علي ابني علي بن عبد الصمد عن أبيهما عن أبي البركات علي بن الحسين عن أبي جعفر بن بابويه عن أبيه عن سعد بن عبد اللّه عن يعقوب بن يزيد عن محمد بن أبي عمير عن جميل بن دراج عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة و ذكر مثله و في المستدرك 3: 186 محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن إسماعيل بن أبي زياد عن جعفر عن أبيه عن علي (عليه السلام) انه قال في حديث و ذكر مثل ما في المحاسن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 24

وجدتموه للقرآن موافقا فخذوا به و ان لم تجدوه موافقا فردوه و ان اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده و ردوه إلينا حتى نشرح لكم ما شرح لنا» «1».

و

في الصادقي (عليه السلام): «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف» «2»

و هكذا نجد مستفيضا من الأحاديث ان ما لا يوافق كتاب اللّه او يخالفه فهو زخرف او فاضربوه عرض الحائط، و كفى بما أوردناه نماذج و ان كان يكفينا كتاب اللّه: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (29: 51) «و ما اختلفتم فيه من شي‏ء فحكمه الى اللّه» و ما أجمله توافقا بين الكتاب: المتن، و السنة: الهامش، في وجوب عرض الحديث على القرآن!.

و هنا فوائد هامة:

1- آيات العرض و أحاديثه شاهدة على أن ظهور الكتاب- فضلا عن صريحه- حجة، و إلّا فكيف يقاس الحديث على كتاب غير مفهوم، ام لا حجة في دلالاته؟ و ما قولة القائل: «القرآن قطعي السند ظني الدلالة و الحديث ظني السند قطعي الدلالة» إلا خرافة جارفة و مسا من كرامة القرآن الذي بيانه افصح بيان و ابلغ تبيان‏ «3» و ما تفسير السنة للكتاب الا إيضاحا لما أجمل على القاصرين لا لقصور في دلالات الكتاب، فانها بينات حتى في المتشابهات، و انما الغامض هو المعاني العالية المطلّة على الافهام، دون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الوسائل 3: 383 الحسن بن محمد الطوسي في الامالي عن أبيه عن المفيد عن جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام).

(2، 3) فهناك كثير من الأحاديث هي ظنية بين مشكوكة الصدور و ظنيته، و متحملة التقية ام تغيير النص الى غيره، ام منسوخة أماهيه و لكن القرآن لا يتطرق فيه شي‏ء منها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 25

الألفاظ التي هي في أعلى قمم الفصاحة و البلاغة، و الرواية القائلة ان القرآن لا يفسّر الا بالأثر الصحيح عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) او عن الأئمة (عليهم السلام) تؤوّل الى الحظر عن تفسيره بالرأي، و يا ترى إن تفسير القرآن بالقرآن محظور، ثم و إذا فسرته بالحديث فلا محظور! رغم ان القرآن تبيان لكل شي‏ء و بيان للناس بلسان عربي مبين، فكيف يكون بيانا للناس و لا يفهم من ظاهره شي‏ء، ان ذلك وصف له باللغز و المعمّى! و قد مدح اللّه الممسكين به: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (7: 170) أنهم هم مصلحون، و مدح المستنبطين: «لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» (4: 83) و ذم غير المتدبرين في القرآن: «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها» (47: 24) ثم و أحاديث العرض و الثقلين تحملنا على الرجوع اليه كأصل، و كيف نراجع مالا حجة في ظاهره، و كيف نعرض على ما لا يفهم شي‏ء من ظاهره، إن هذا الا هراء جارفة تمس من كرامة هذا الكتاب المبين الذي فيه تبيان كل شي‏ء! 2- ادلة العرض تحثّنا على التدبر في القرآن كما يصح و يجب، قدر ما يمكن أن يعرض عليه الحديث، فيعرف الغث عن السمين و الخائن عن الأمين، و ما الأحاديث المروية إلا كهوامش مختلفة على متن الكتاب، ما تلائم منها المتن تقبل له شارحة، و ما لا تلائم تضرب عرض الحائط، و ما يشك فيه يرد الى قائله او راويه.

فليس للمفسر ان يعتمد على حديث ما لم يعرضه على القرآن، و لا له ان يعرضه ما لم يتدبر حقه في آيته، تأملا في جملاتها، و لغاتها مستفسرا للحصول على معناها من الآيات النظيرة لها، لا ان يفسر آية بتفسير آية اخرى بضرب القرآن بعضه ببعض و نثره نثر الدقل، و إنما بسرد الآيات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 26

المتماثلة المغزى، المتشابهة المعنى، و نضدها تدبرا: ان يجعل كلّا دبر الاخرى كما يقتضيه ترتيب المعنى .. ناظرا الى الآية نفسها، ثم ما تحتفّ بها، و من ثم نظائرها في سائر القرآن، ثم يراجع الأحاديث الواردة في تفسيرها ناظرا إليها من زاويتين: نظرة التثبت من صدورها بموافقتها للآية، ثم نظرة الاستيضاح لما استخفى منها من اشاراتها و لطائفها و حقائقها ان لم يكن هو من أهلها، او يستزيد منها عن أهليها الذين هم من اهل بيت القرآن، فأهل البيت أدرى بما في البيت.

فأقل ما يجب التحري فيه هو فهم العبارة من الآية، و هي المعنى المطابق الظاهر، ثم يتبناه لسائر الزوايا في مربع التفسير حيث هو على العبارة و الاشارة و اللطائف و الحقائق‏ «1»، كما يتبناه في عرض الحديث على القرآن إذا كان يعني تفسير العبارة، كما يتبنى الثلاثة الاخرى فيما الحديث يعني تفسيرها.

3- مما تدل عليه آيات العرض و أحاديثه ان هذا القرآن المعروض عليه هو النازل على النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كلمات و آيات و ترتيبات دون نقائص او مزيدات، و إلا فكيف يحتل المركز الأصيل الوحيد المعروض عليه للأحاديث كل الأحاديث. إذا فكل ما ورد في تحريف القرآن بزيادة او نقصان هي مما اختلقته ايدي الزور و البهتان فانها مخالفة للقرآن، و ان كان الخلاف في نقطة او اعراب او ترتيب او تركيب تخالف القرآن المتواجد عند المسلمين، المتواتر مر الزمن، و من لطيف الأمر ان الأحاديث الحاملة لكلمات او آيات يدّعى انها محرفة بزيادة او نقصان، هي بذواتها تشهد انها أكاذيب زور اختلقتها ايادي أثيمة إسرائيلية او مسيحية و تسربت الى جهال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يرويه الامام الحسين (عليه السلام) عن أبيه علي امير المؤمنين (عليه السلام) كما ياتي بكامله (سفينة البحار تحت الحرف ك).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 27

يحسبونهم علماء! «1».

و القرآن جملة و تفصيلا دليل على براءته من زيادة او نقصان، فما هي هذه الزيادة التي اختلطت بآي القرآن و ما تميزت حتى الآن عند الخبراء باللسان، و نرى كلام الرسول و علي (عليهما السلام)- و هما أبلغ البلغاء- لا يخلطان بالقرآن، إلا و هو لائح حتى عند السوقيين العرب و غيرهم.

و كيف يجرأ أحد ان ينال من القرآن بزيادة او نقصان حتى في حرف منه او إعراب و قد ضمن اللّه حفظه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (15: 9) «.. وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 42).

ان مدعي التحريف انما يهرف بما لا يعرف جهلا، او ما يعرف تجاهلا، و لا نجد لهم حجة إلّا عليهم، و سوف يمرّ عليكم قول فصل حول صيانة القرآن عن التحريف على ضوء آية الحفظ و العزة و اضرابهما و اللّه من وراء القصد.

4- و مما تشهد عليه ادلة العرض ان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الائمة من آل الرسول (عليهم السلام) لا يفسرون القرآن إلا بحجة الدلالات القرآنية، دون خلاف على معاني اللغات او سرد الجملات ادبيا ام ماذا؟ و انما القرآن و القرآن فقط هو حجتهم على ما يقولون، و كما كانوا يأمرون أصحابهم ان يتساءلوهم فيما يفتون، اين ذلك من كتاب اللّه؟ حتى يروضوا في حياتهم العلمية على دلالات القرآن، دون أن تأخذهم الآراء و الأهواء ايادي سبا!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد جمع الميرزا حسين النوري في فصل خطابه ستة عشر موضعا- بعد كدّ مديد- مما يحتج به على وجود التحريف بالنقيصة، أكثرها تنحو نحو حذف اسم الامام علي (عليه السلام) و هو هو المحذوف لم يشر ابدا الى هذا الحذف! المظلوم اليتيم!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 28

و إذا كان تفسير القرآن بالحديث- دون نظر في متنه و عرض على القرآن- تفسيرا بالرأي، فتفسيره بآراء المفسرين، متفردين او مكثرين او مجمعين، او تفسيره بالآراء العلمية في مختلف الحقول، ان ذلك لأحرى ان يسمى تفسيرا بالرأي، فانه يجمعه تفسيره بغير حجة من كتاب او سنة قطعية، تفسيرا فيه تحميل على القرآن ما لا يتحمله او لا يلائمه.

فعطف القرآن على الرأي كعطف الهدى على الهوى يعطفان بالإنسان الى الهاوية و الردى و

قد يروى عن الإمام علي امير المؤمنين (عليه السلام) في اصلاحات المهدي القائم (عليه السلام) انه «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى و يعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي» «1».

فالذي يفسر القرآن جاهلا بموازينه، او تجاهلا عما يجب في تفسيره، انه في ضلال مبين، مهما أتى بعبارات براقة، فلسفية او عرفانية اماهيه؟

فان هذا الأسلوب الجاهل او المتجاهل او المبتدع المغرض يجعل من النور ظلاما، و من الهدى ضلالا: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً (17: 82).

مثل ما يهرأه الهارعون المفرطون ان العبادة انما هي لغرض اليقين و الوصول الى المعبود. فإذا أتاك اليقين فلا عبادة، مستندين الى الآية:

وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (15: 99) رغم ان اليقين درجات يتنقل العابد دوما بين هذه الدرجات، كما و ان المعرفة درجات، و لا نهاية لهذه او تلك و حتى لرسول اللّه و هو اوّل العابدين فضلا عن هؤلاء المدعين، ف «حتى» هنا لا موقف له منتهى حتى تنتهي عنده العبادة، و قد عبد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة في كلام له (عليه السلام) حول الامام المهدي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 29

الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ربه و قام في عبادته حتى تورمت قدماه فنزلت: طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏ فهل إنه بعد لم يكن اوّل العابدين واصلا الى درجة من اليقين التي وصلها هؤلاء المدعون! و هو هو المخاطب في‏ وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ‏؟ دون هؤلاء الأغباش الذين هم لم يصلوا بعد الى درجة من الايمان فضلا عن اليقين!.

او ما يتقوله بعض الفلاسفة ان للّه عالمين: عالم الأمر و هو إحداث المجردات، و عالم الخلق و هو إحداث الماديات مستندين الى الآية: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (17: 85) و الآية: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (7: 54).

فالروح من عالم الأمر المجرد عن المادة دون الخلق المادة! رغم ان الأمر في الأولى هو مجموع الخلق و التقدير، و في الثانية الخلق هو الخلق و الأمر هو التدبير إذ ليس‏ «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» الا بعد عرض الكون خلقا و تقديرا: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (7: 54) «فأَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» تنبيه أن له أمر التدبير و التسخير في السماوات و الأرض كما له خلقهما، دون ان يكون هو الخالق، و المدبر سواه، او هو المدبر و الخالق سواه، بل انه‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» في الخلق و التدبير سواء، ثم و خلق السماوات و الأرض يعني خلق الكون اجمع فلا وجود لمخلوق مجرد عن المادة حتى يختص به الأمر، بل الأمر يشمل كلّ الخلق، و من المستحيل قرآنيا و عقليا ان يكون كائن مجرد عن المادة او الطاقة المادية سوى اللّه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين و الماديين» و كذلك بطيّات آيات الخلق و الأمر في الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 30

او ما يحمله على القرآن بعض من يتسمى فقيها، من رأى اتخذه تقليديا، كحرمة حلائل الأبناء من الرضاعة التي تنفيها الآية: وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ (4: 23) متقولا ان قيد الأصلاب انما هو لإخراج الأدعياء، رغم ان أبناء الأصلاب نص في حرمة حلائلهم فقط و في حلية حلائل الأبناء من الرضاعة مع الأدعياء، و لو كان المقصود ما يهرفونه لكان النص «غير ادعيائكم» و من ذلك كثير نأتي عليه في طيات آياتها.

و من متفرنج أدهشته العلوم العصرية لحدّ كأنها هي الأصل و القرآن من فروعها، كالشيخ الطنطاوي في جواهره! حيث يعتبر فرضية انفصال الأرض عن الشمس لمفترضيها الأوروبيين قانونا علميا ثم يختلق لها تفسيرا لبعض الآيات كالتي في سورة الأنبياء: «أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما ..» (21: 29) متقولا عليها أن السماوات هنا تعني الشمس و الأرض هي هذه الأرض حيث فتقها اللّه عن الشمس بعد رتقهما و «أَ وَ لَمْ يَرَ» الماضي تعني هذا المستقبل الزاهر أن العلماء الكفار الغربيين يرون انفصال الأرض من الشمس!.

و في ذلك تحميل على الآية مالا تتحمله من تحويل ماضيها الى مستقبلها، و تفسير سماواتها إلى شمسها التي هي ذرة صغيرة من ادنى الجزر السماوية الاولى إلينا، و من ثم ففتقهما، لا فتق الأرض من السماوات:

الشمس!.

ثم الآيات في فصّلت تفصّل ان خرافة هكذا فصل باطلة حيث تقول بعد عرض خلق الأرض و كمالها: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها ... فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» و شمسنا هذه هي من مصابيح السماء الدنيا المخلوقة في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 31

السبع بعد دخان السماء، إذا فالشمس متأخرة عن الأرض بمرحلتين!.

و من ذلك كثير عند المتفرنجين من المفسرين الذين غرقوا في العلوم و النظريات الجديدة، و نسوا ان القرآن هو علم اللّه فلن يتبدل، و العلم دوما في تبدل و تحوّل من خطأ الى صواب و من صواب الى أصوب! ..

فتفسير القرآن بفرضية العلم او رأيه، او برأي العقل غير الضروري، منك امّن سواك من مفسرين او علماء آخرين، أو أحاديث غير ثابتة و لا ملائمة للآيات أو أيا كان من تفسير للقرآن بغير القرآن أومأ يصدقه، كل ذلك تفسير له بالرأي، دون علم او أثارة من علم او كتاب منير.

فلا تغتر بالتحقيقات الفلسفية و التلطيفات العرفانية، و التدقيقات العلمية! التي تحول دون استنباط القرآن كقرآن، تحميلا عليه ما لا يتحمله.

و تحلّل- حين ما تروم تفسير القرآن- عن كل شارد و وارد حتى و عن مذهبك فضلا عن رأيك او آراء الآخرين، تحلل عن كل ذلك و عش الآية التي تعني تفسيرها، بمفرداتها و جملها، بموقفها مما قبلها و ما بعدها، و بنظائرها التي تعني معناها، عشها كذلك محقّقا صافي القلب خالي الذهن إلا عما تستمد به في تفهمها بمفهومها او مصاديقها، سنادا الى عقل رائع و علم بارع دون تحميل على الآية ما لا تتحمله نصا أو ظاهرا، او لا تخالفه و لا توافقه حيث لا تمتّ بصلة دلالية او معنوية بما تحمله عليها، و اللّه من وراء القصد.

فالذي يفسر القرآن برأيه او برأي مذهبه او تقليده أو أيا كان من آراء انما يفسر نفسه او مذهبه عبر القرآن بهواه، دون ان يهتدي بهداه، تفسيرا لنفسه دون تفسير القرآن نفسه، فلذلك «كان مصيره الى النار» «و ليتبوء مقعده من النار».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 32

و لان الأهوية و الآراء تختلف، و المذاهب تتخالف، و النظريات تتضارب، فمعاني الآيات لمن يحمل هذه و تلك تتهافت، و يصبح القرآن مجال القيل و القال و معترك الآراء و الأقوال.

و أما إذ صدر المفسرون عن مصدر واحد، و ساروا في مسير واحد، مفسرين للقرآن بالقرآن، على ضوء السنة القطعية الملائمة للقرآن، اغتربت خلافاتهم، و اقتربت أفكارهم، و إذا جعلوا أمرهم شورى بينهم قلّ قليلهم و صح عليلهم، و استشرفوا الى ينبوع الوحي و إن كانوا في ذلك درجات.

صحيح أن القرآن بيان للناس، إلّا ان بيانه درجات كما الناس درجات، و كما

يروي الامام الحسين عن أبيه علي امير المؤمنين عليهما السلام: «إن كتاب اللّه على اربعة أشياء، على العبارة و الإشارة و اللطائف و الحقائق، فالعبارة للعوام و الإشارة للخواص و اللطائف للأولياء و الحقائق للأنبياء»

و هذه الأشياء المراحل هي متلائمة رغم درجاتها.

فالعبارة- و هي ما يعبّر عنه اللفظ- هي التفسير الظاهر، و الإشارة هي التحقيق على هامش الظاهر، و اللطائف هي البطون، و الحقايق هي التأويل‏ «1» فالذي لا يعرف التفسير الظاهر هو أدنى من العوام- «2» و يروى عن ابن عباس «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سوف نبحث عن التأويل و المعاني الباطنية على ضوء آية التأويل‏ «.. وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» إنشاء اللّه تعالى.

(2) بما ان الاشارة بعد المعنى الظاهر فليست العبارة هنا إلّا التعبير عن الظاهر، و كثير كثير هؤلاء الذين يدرسون عشرات من السنين في الحوزات العلمية و لم يصلوا بعد الى درجة العوام في تقسيم الامام عليه السلام.

(3) و المقصود تقدم العلم و العقل على مرّ الزمن، فليس هناك آيات متشابهات لإبهام دلالي، و انما لعلوّ مدلولي عقليا او علميا فالتقدم العقلي و العلمي يفسر هذه التشابهات على قدره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 33

و المتشابه على حدّ

قول الامام الرضا (عليه السلام): «ما اشتبه علمه على جاهله»

فالتشابه في آياته ليس من مقولة الدلالة اللفظية، ان تكون الآية قاصرة الدلالة، و انما هو لعلو المدلول على وضوح الدلالة، و كما الافهام درجات في مفاهيم الآيات، كذلك الآيات درجات في محكمات و متشابهات، رب محكمة من جهة متشابهة من اخرى، و رب محكمة عندك متشابهة عند الآخر، فلا توجد إذا آيات معدودات هي بعينها متشابهات و أخر محكمات، و انما هي حسب درجات الأفهام، فالتشابه و الإحكام أمران نسبيان، و ان كانت بعض الآيات محكمات لكل من يعرف اللغة «1» و بعضها متشابهات كالحروف المقطعة في أوائل بعض السور.

فليس للمفسر الخوض في آيات اللّه، قائلا بغير علم او أثاره من علم فليعلم أنها نازلة بعلم اللّه، قدر ما يحتاجه العقلاء طول الزمن إلى انقراض العالم، فليأخذ كلّ نصيبه من الفهم، متثبتا متدبرا في تفهمه، فتقدم العقول و العلوم يكشف جديدات و جديدات من معارف القرآن، متشابهات عقلية او علمية تصبح محكمات على ضوء تقدم العقل و العلم، فلا يستعجلوا فيما يخفى عليهم زاعمين ان لهم تفسير كل آية، او كل زاوية من زواياها.

و على المفسر العارف ان يفسر الآيات- كما تهديه- بعضها ببعض، دون اتكالية على آراء المفسرين، فليسبر في كل آية غورها، دون تحويل الى كتب أو مقالات اخرى، فلا يحوّل البحث و التنقير عن آيات الأحكام الى الفقه او الى ما الف في آيات الأحكام، حيث الفقه كما نراه لا يعتمد كما يجب على الآيات في الأحكام، اللهم إلّا أحيانا و هامشيا محولا الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سوف نسبر غور البحث عن المحكم و المتشابه في آية التقسيم من آل عمران.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 34

التفسير او الكتب المؤلفة في آيات الأحكام، فتصبح آياتها غير مفسرة لا في التفسير و لا في الفقه، و لذلك نرى فتاوى تخالف كتاب اللّه من فقهاء الإسلام شيعة و سنة «1» و لا قيمة لفتوى لا تعتمد على أحاديث او شهرات تخالف القرآن ام و إجماعات مضادة له. حيث القرآن هو المصدر الأصيل.

و لعمر اللّه لقد كانت تنحية القرآن عن القيادة المستقيمة، و إخراجه عن الحوزات العلمية حدثا هائلا في تاريخ الإسلام و نكبة قاصمة في حوزات الإسلام، لم يعرف لها التاريخ مثيلا في كل ما ألمّ المسلمين من نكبات، فلا نجد كتابا ظلم و لا نبيا أكثر من القرآن و نبي القرآن! لقد كان القرآن يقود المسلمين بعد ما فسدت الأرض و تعفنت الحياة و القيادات، و ذاقت البشرية الويلات من القيادات العفنة، و لكنّما الاستعمار من ناحية، و جهل المسلمين من أخرى، تعاونا في تنحية القرآن عن المجتمع الإسلامي و عن الحوزات العلمية بوجه خاص، لحد لا يعتبر مدرس التفسير و متعلمه من طلاب الحوزات و علمائها، بل و يعتبر أحيانا من مخربيها و ناقضي سنتها! نرى الطالب في حوزة علمية يدرس عشرات من السنين، ثم يتخرج و ليست له معرفة بمعارف القرآن، و المسلمون بحاجة ماسة إليها و قد «ضعف الطالب و المطلوب»!.

نرى القيل و القال في كل مجال من بحوث ادبية- اصولية- منطقية ام ماذا؟ نراها متأصّلة متعرّقة في متون الحوزات، في حين أن القرآن لا مجال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد هذه الخلافات في طيات آيات الأحكام، و ان ساعدني التوفيق لا كمال الفقه على ضوء القرآن تجد فيه مجموعة من الفتاوى المخالفة للقرآن او غير الموافقة للقرآن. و حرمة وحي اللّه أحرى بالرعاية من حرمات الفقهاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 35

له و لا هامشيا، و هذا ما يريده الاستعمار و يغتنمه إذ يرى بغيته- و هي تنحيته القرآن عن أهله- حاصلة دونما صعوبة او محاولة مستمرة.

ذلك! و رغم أن الاحتكام الى اللّه، المتمثل في كتاب اللّه ليس نافلة و تطوعا، نراه نافلة ضئيلة في حياتنا و كقرائه فقط، رغم ان هذه البشرية- و هي من صنع اللّه- لا تفتح مغاليق عقليتها و فطرتها إلا بمفاتيح اخرى من صنع اللّه و هي هي القرآن لا سواه! «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» (17: 9) فلا أقوم منه و لا قيّم و لا أقيم، ثم و لا يسامى أو يوازى بكتاب سواه و لا ما بين يديه من وحي الكتاب فضلا عن سائر الكتاب.

لقد تسلم القرآن القيادة الخالدة روحيا و زمنيا منذ بزوغه حتى يوم القيام، و لكنما المسلمون قبل من سواهم تحللوا عن قيادته الزمنية الى الطواغيت، و عن قيادته الروحية الى اجتهادات متخلفة مختلفة، و لو انهم تبنّوا فيها القرآن كرأس الزاوية، و هندسوا بنيان الإسلام على هذه الزاوية لقلّت خلافاتهم، و ذلت أعدائهم.

و من المضحك المبكي ان المسلمين ككل او جل لا يبالون بالقرآن مبالاتهم بروايات و نظرات، و هم مصدقون كمبدء ايماني أنه هو أصل الإسلام و أثافيّه، و حجة رسوله في رسالته و دعوته، فأصبح مثله عندهم كمثل الموت على حد

تعبير الامام الرضا (عليه السلام) «ما خلق اللّه تعالى يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت».

فالقرآن- و هو يقين لا شك فيه- أصبح شكا لا يقين فيه، لحدّ لا يقتنع طالب العلم بآيته قبل روايته، و هو مقتنع بروايته قبل آيته! «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 36

فحيّا الى القرآن، علم اللّه النازل، كتاب الزمن، الوحي الأخير الذي يجمع مجامع الوحي في تاريخ الرسالات و زيادات.

و لسوف ترون لو ان القرآن دخل في الميدان في حوزاتنا العلمية كركيزة متينة أصيلة، و من جراءها دخل المجتمع الانساني، لشملت علومه و معارفه العالم، و حلّقت على كافة العقول و في كافة الحقول: أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (29: 51).

و لا يعني‏

الحديث عن الامام المهدي (عليه السلام): ياتي بكتاب جديد ...

إلا أن اهل القرآن قبله تركوه ورائهم ظهريا فنسوا او تناسوا معارفه و احكامه، و لقد جرّبت مرارا هذه التجربة المرة في بعض الحوزات العلمية انني لما استشهد بآية قرآنية في مسألة خلافية فقهية ام سواها، تقوم قيامتهم عليّ، و بأي حديث تستدل، و اي قائل من العلماء يصدقك، لا تكفي الآية بمفردها ..! في حين يستندون- أحيانا- بأحاديث أحاد لا توافق القرآن، ام الى فتاوى لا شاهد لها من كتاب او سنة.

فهل ان حوزة كهذه اسلامية و قرآنية بعد:؟! «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ»؟!.

و هكذا ابتلي جمع من إخواننا السنة أنهم يفتون بما في مسانيدهم دون رعاية للعرض على القرآن، و هذا الذي كان يزعج جمعا منهم في مكة المكرمة و المدينة المنورة، إذا أنا أقول قال اللّه و هم يقولون: قال فلان و فلان، و انهم يفضلون صحيح البخاري- عمليا- على كتاب اللّه، و قليل هؤلاء الذين يعتمدون على القرآن، رفضا لما لا يلائم القرآن، من شيعة او سنة، و كثير هؤلاء الذين يفضلون الحديث على القرآن من سنة «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يفتون بحرمة المتعتين خلاف الآيتين‏ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 37

و شيعة «1»، و ان كان إخواننا السنة اكثر خلافا على القرآن، كما تعرفه في هذا التفسير، و انما الطريقة المثلى هو اتباع القرآن كأصل، و اتباع الحديث على ضوء القرآن، دون افراط من يقول: حسبنا كتاب الله و يترك السنة، او تفريط من يقول: حسبنا السنة او الحديث و لا يفهم كتاب الله إلا بدلالة الحديث، كأنما القرآن لغز غير مفهوم! فكيف أصبح حجة على الأولين و الآخرين لاثبات رسالة الرسول، و قبل ان يصدقوه و أهليه المعصومين.

و حقيق على حوزة تريد ان تتسم بسمة اسلامية ان تؤصل القرآن في كافة حقولها، و تفرع عليه كافة علومها و عقولها، تعودا على مراجعة القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فَرِيضَةً «فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» و يفرضون الشاهدين في النكاح دون الطلاق معاكسين نصوص القرآن حيث الطلاق بحاجة الى شاهدين:

«وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ» دون النكاح حيث لا دلالة عليه في القرآن، و يجوزون الطلقات الثلاث دون رجعات خلافا للنص: «الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ‏ ... فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» (2: 230) و محللين ذبائح اهل الكتاب و ان لم يذكروا عليها اسم اللّه، و آيات تنص عليه‏ «وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» و رادّين نصف الميراث الى غير البنت الواحدة من عم او خال او ابن لهما و النص: «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ» و ترى انهم اولى من البنت التي هي اقرب الى المورث منهم.

(1). كما نرى الكثير من فقهاء الشيعة يفتون بحلية نكاح الزانيات و إنكاح الزناة على كراهية و النص يحصر الحلية بالمحصنات: «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» و يحرم مناكحة الزانيات: «الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» و يحرمون حلائل الأبناء من الرضاعة كما من الأصلاب و النص يخص التحريم بالاصلاب: «وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ..» و يفرضون الأضحية للحاج في الأضحى و ان هدرت لحومها التي هي حق الفقراء و النص: «فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا البائس الفقير» و أمثالها غير قليل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 38

كأصل لا ريب فيه. في كل اصل او فرع عقائدي او فقهي او فلسفي ام ماذا، نابع من ينابيع سوى القرآن أيّا كان و من اي كان و أيّان، لكي تكون الحوزة صادرة عن القرآن، واردة موارده، و إلا فهي ماردة غادرة، ضالة ناكبة شاردة.

و لقد ضاع القرآن بين حالة منعزلة عن الحياة، بهالة قدسية لا تنالها الأفهام عند من يبررون موقفهم السلبي و جاه القرآن، قدسية خيالية خاوية تعزلها عن الحياة الاسلامية، و كأنه كتاب ورد و دعاء تكفينا قراءته في حل المشاكل، و يكفي شفاء للمرضى و شفاعة و رحمة للموتى! رغم انه حياة مستقيمة لمن شاءها: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ‏ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ‏! و بين حالة بسيطة يناله كل من يعرف من لغته شيئا، ثم و ليس وراء ما يفهمه البسطاء إشارات و لطائف و حقائق، فلذلك لا حاجة الى دراسته و مدارسته! و القرآن بيان للناس و فيه تبيان كل شي‏ء: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها!.

و لسوف ترون ان القرآن برهان قاطع و بيان ساطع لا مرد له لاثبات المبدأ و المعاد و ما بينهما، و لاثبات كل ما يحويه و يبديه من احكام عقلية ام ماذا؟ فانه برهان بنفسه لمن أنزله و على من أنزل و لماذا أنزل؟: كتاب تدوين يحلّق على التشريع و التكوين ببرهان يقين! في هذا المدخل نقدم تنبيهات على امور كثرت فيها الأقاويل فخلقت القال و القيل في الوسط الاسلامي و سواه من أوساط، كالنسخ و التحريف و التفسير بالمأثور و شأن النزول و بطون معاني القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 39

كلام حول النسخ:

القرآن- في جملة واحدة- ناسخ لسواه و ليس منسوخا بسواه، قبله او معه او بعده، و ان كان فيه بعض التناسخ لنفسه في احكام مؤقتة امتحانية كحكم النجوى و الزنا و عدد الكفاح في قتال الكفار: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

و لان الحكم الناسخ يبطل الحكم المنسوخ، فعزة القرآن و غلبته تجعله بحيث لا يبطل و لا ينسخ جملة او تفصيلا، كلا او بعضا «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» من كتابات السماء حيث تؤيده و لا تبطله، «وَ لا مِنْ خَلْفِهِ» حاضرا لديه كوحي السنة، او آتيا بعده كفتاوى الخلفاء و الائمة، فلو أن حكما من الأحكام زمن الوحي أو بعده ينسخ حكما من أحكامه فقد أتاه الباطل، الذي يبطله و يحوّله. و القرآن هو نفسه يحيل للرسول ملتحدا سواه: اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (18: 27) فانه الوحي الخالد الأم الذي يتبنى شريعة الإسلام طول الزمن، و مهما كان وحي السنة ايضا وحيا و لكنه شارح له هامشي، لا يمكن أن يختلف عنه و ينسخه، و قد أمر الرسول ان يتبعه، فيعيش متابعة وحي القرآن طوال الرسالة: وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (10: 109): إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (4: 105).

و قد حصر الرسول حياته الرسالية باتباع ما يوحى اليه: قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى‏ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي .. (7: 203) إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ وَ ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 40

أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (46: 9).

و ما مرت على الرسول و لا مرة يتيمة أن يخالف وحي القرآن و لو نسخا لحكم من أحكامه. إلّا ما اختلقته ايدي الزور و الغرور أنه نسخ حكم المتعتين، و ليبرّروا بدعة فلان التي يسمونها بدعة حسنة!.

و لان القرآن هو الوحي الأصيل الخالد حجة على العالمين. لم يكن اللّه ليوحي الى رسوله و حيا في سنة تنسخ وحي القرآن، فالأحاديث التي تتحدث عن نسخ الكتاب بالسنة تضرب عرض الحائط، لأنها تخالف الكتاب جملة و تفصيلا، كما و أن آيات العرض و أحاديثه المتواترة تضربها عرض الجدار، مهما كثر محدثوها و مفتوها.

و إذا الرسول‏ «لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً» فما لغير الرسول يسمح لنفسه أن ينسخ القرآن‏ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ‏ ... هُمُ الظَّالِمُونَ‏ ... هُمُ الْفاسِقُونَ (5: 44- 45- 47).

فنسخ القرآن كفر و ظلم و فسق بل و أظلم منها و أنكى، فان ثالوث الكفر و الظلم و الفسق هو لمن لم يحكم بما أنزل اللّه، فما هي حال من حكم بخلاف ما أنزل اللّه؟

فالسنة إذا لا تنسخ القرآن، كما و لا تنسخ نفسها، حيث السنة المنسوخة إن كانت خلاف القرآن فهي باطلة منذ كونها و ليست سنة حتى تنسخ، و إن كانت وفاق القرآن فنسخها إذا نسخ للقرآن و لن يكون!، اللهم إلا في سنة لا توافق القرآن و لا تخالفه إذ لم يأت وحيها بعد في القرآن فقد يكون تناسخ بينها قبل قرآنها.

و اما نسخ القرآن للسنة فقد يكون، حيث الرسول كان- قبل ان يوحى إليه القرآن- مستنا بسنة من قبله من رسول، او سنته الخاصة الناسخة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 41

لما قبله، و وحي القرآن يتدرج طوال الرسالة، فقد كان ينسخ ما عنده و قد كان يقرّه.

إذا ففي مثلث النسخ المدّعى لا نجد إلّا نسخ القرآن للسنة في نجومه النازلة هنا و هناك، او تناسخ السنة أحيانا.

ثم النسخ- خلاف ما قد يزعم- ليس إلا في الأحكام التكليفية او الوضعية، و أما الأحكام العقلية، و الإخبارات الكونية، فليس التناسخ فيها إلّا تكاذبا، كذبا فيهما او أحدهما، و حاشا عن ذلك وحي القرآن و السنة.

و كما أن نسخ القرآن بالسنة لا يصدّق في إزالة حكم من أحكامه، كذلك في تقييد إطلاقاته أو عموماته التي هي نص في الإطلاق او العموم‏ «1» او في حمل ظاهر مستقر الى غير ظاهره، فإنه أظهر من ظاهر الحديث أو و نصه، أو في إطلاق آية مقيدة او تعميم آية خاصة او تخصيص آية عامة، او تقييد آية مطلقة، اللّهم إلا في عام او خاص قرآني ليسا في مقام البيان فيصح تخصيص عامه و تقييد مطلقة بما ثبت من السنة، و سوف تجد تفاصيلها في هذا التفسير.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فقوله تعالى:((و حرم الربا)) نص فی الاطلاق لأنه من القضایا التی قیاساتها معها یعنی:حرمة الربا انما هی لکونها الربا . ولکن قوله تعالی(( و امهات نسائکم))-قبل-((و ربائبکم اللاتی فی حجورکم من نساءکم اللاتی دخلتم بهن))-(سورة النساء/الآیة23)- لیست نصاً ولا ظاهراً فی الاطلاق بل هی ضابطة تتقید ب:((دخلتم بهن)) فلا فرق بین امهات نساءکم و ربائبکم فی شرط وجوب الدخول بهن لأن ((من)) فی((من نساءکم)) نشویة و تبیینیة ف : ((من نساءکم)) تتعلق بالامهات و الربائب.و لو کانت امهات نساءکم مطلقة،لتأخرت عن الربائب لتکون نصاً فی الاطلاق. فلتقدّم الاحادیث الناطقة بمماثلتهما.و من النص في العموم قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» و ليس المحال شيئا حتى يستثنى تعلق القدرة به، و كذلك العمومات و الإطلاقات الظاهرة في العموم او الإطلاق، الا ان تكون سنة ثابتة تخصّص او تقيّد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 42

صيانة القرآن عن التحريف:

لو لم تكن شنشنة أعرفها من جاهل او متجاهلين، الذين يخرفون فيهرفون بما لا يعرفون عن القرآن، هرفا في التحريف، لما كتبت عنه شيئا، لأن القرآن فوق هذه الأقاويل الزور، و التي تسربت إلى أحاديث الإسلام فترسّبت عند من غرب عقله، فلذلك أجمل البحث عنه كما أجمله شيخ الطائفة و أضرابه، «1».

و جملة القول ممن تقوّل في هذا المضمار: أن القرآن محرف بنقصان فقط و في التأليف‏ «2» و اما الزيادة فمجمع على بطلانها، و لا ريب أن الآيات الموجودة كلّها قرآن، و منها ما تصرّح بعدم التحريف أيا كان، فقولة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قال في مقدمة تفسيره «التبيان: و اما الكلام في زيادته و نقصانه فمما لا يليق به ايضا لان الزيادة مجمع على بطلانها و النقصان منه فالظاهر ايضا من مذهب المسلمين خلافه و هو الأليق بالصحيح من مذهبنا و هو الذي نصره المرتضى و هو الظاهر في الروايات غير أنّه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة و العامة بنقصان كثير من آي القرآن و نقل شي‏ء منه من موضع إلى موضع طريقها الآحاد التي لا توجب علما و لا عملا و الاولى الإعراض عنها و ترك التشاغل بها لأنه يمكن تأويلها و لو صحت لما كان ذلك طعنا على ما هو موجود بين الدفتين فان ذلك معلوم صحته لا يعترضه أحد من الأمة و لا يدفعه.

و رواياتنا متناصرة بالحث على قراءته و التمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع اليه و

قد روي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رواية لا يدفعها احد انه قال: اني مخلف فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ابدا كتاب اللّه و عترتي اهل بيتي و انهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض-

و هذا يدل على انه موجود في كل عصر لأنه لا يجوز ان يأمر بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به .. و إذا كان الموجود بيننا مجمعا على صحته فينبغي ان نتشاغل بتفسيره و بيان معانيه و نترك ما سواه».

(2) راجع ج 29 ص 281- 284 على ضوء الآية: ان علينا جمعه و قرآنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 43

التحريف إذا تناقض القرآن: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9) و الذكر هنا هو القرآن، فانه منزّل، و ليس الرسول و هو الذكر المنزل: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ ..» (65: 10) فالرسالة دفعية منزلة، و ليست تدريجية منزّلة، ثم الذكر قبل آيته هو القرآن: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (15: 6) و حفظ قرآنه حفظا لبرهانه الرسالي الخالد يخفّف عنه وطأة تهمة الجنون، فليس إلّا حفظا له ككلّ و في أيّة ناحية كقرآن، طوال الرسالة الإسلامية، و بمتناول أيدي الناس، لا حفظا في صدره هو و صدور المعصومين من خلفائه- فحسب، فانه لا يحافظ على كيان الرسالة إلّا عند أهليها، و الآية في مقام الامتنان، و ماذا يجديه حفظه عنده إذا كان ضايعا عند الأمة، فهل نزل هذا الذكر إلّا للأمة: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

و لا نجد آية كآية الحفظ- في أية مهمة إسلامية- فيها هذه التأكيدات العديدة: 1- إنّ. 2- نا- 3- نحن. 4- نا. 5- إنّ. 6- نا. 7-

له. 8- ل 9 حافظون.

فهل نسي اللّه أم عجز أو بخل عن حفظه و صيانته في تأليفه؟ أو عن زيادته أو نقصانه إذ غلب على أمره؟ و اللّه غالب على أمره! و هو القائل العزيز: «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 42): لا يأتيه الباطل من اي تهريف او تحريف، رغم ما يأتيه المبطلون- لا يأتيه من بين يديه من وحي سابق يكذبه و يبطله، او لا حق او معاصر كذلك، فضلا عن غير الوحي من دس المبطلين، لأنه‏ «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»!: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 44

لَوْحٍ مَحْفُوظٍ».

انه محفوظ جملة و تفصيلا، نزولا و تنزيلا، تأليفا و ترتيبا، حتى في حروفه و نقطه و إعرابه، فضلا عن جمله و آياته، و كما يشهد بذلك القرآن نفسه‏ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» و قد يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عدد كلمات القرآن و حروفه.

ثم و حديث الثقلين، و آيات العرض و أحاديثه، شهود صدق على صيانته عن التحريف، فكيف يكون القرآن المحرف معروضا عليه لكل حادث و حديث؟ او يكون الثقل الأكبر بعد الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مع أصغره حتى يردا عليه الحوض؟.

و ما خرافة تحريف القرآن إلّا اختلاقا إسرائيليا وجد له سبيلا الى غفلة جاهلين، او طائفيين من سنة و شيعة، كلّ يصدق اختلاقا حول التحريف ليثبت مذهبه تغافلا عن كيان القرآن و هو أساس الإسلام.

فالسني يهرف بنقصان آية الرجم: «الشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» ما يعرفه كل سوقي عربي انه لا يشبه الوحي القرآني.

و الشيعي يخرف بنقصان اسم الامام علي و آله في مواضع هي غاية الكدّ و الكدح في باطله من أخبار آحاد «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما فعله ميرزا حسين النوري في «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» كالتالي:

1- فبدل الذين ظلموا آل محمد حقهم قولا غير الذي قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم رجزا من السماء!- و الذين ظلموا هنا هم جماعة من اليهود حيث ظلموا أنفسهم و نبيهم فبدلوا قول الحق «حطة» بقولهم «حنطة»، استهزاء، فأين ظلمهم بآل محمد او محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه في حنطتهم؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 45

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

2- «بئسما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما انزل اللّه في علي» و هم انما كفروا بما عرفوه من النبوة المحمدية و لما يصل الأمر بعد إلى علي! 3- «و لتكن منكم أئمة كنتم خير أئمة» و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يختصان بالأئمة و انما هما واجب الامة على شروطهما.

4- «يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم في ولاية علي و ان تكفروا بولايته فان له ما في السماوات و الأرض» و كأنما الرسول جاء بالحق فقط في ولاية علي قبل ان تثبت ولايته (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ام ماذا؟.

5- «يا ايها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا في علي نورا مبينا» و الآية «بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى‏ أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» (4: 47).

و الكتابي المنكر للرسالة الاسلامية- و هي الأصل- كيف يوجّه الى فرعها و هو ولاية علي (عليه السلام)؟ ثم لا أدري كيف يتصل قوله: «نورا مبينة». ب «مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ ...»؟

6- «أوفوا بالعقود التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب» و يا ليت شعري ما هي المناسبة بين عقد الولاية و بعدها: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى‏ عَلَيْكُمْ» اللهم الا ان مختلق هذا الحديث هو من بهيمة الانعام!.

7- «بلغ ما انزل إليك في علي» و قد وردت في روايات ان «في علي» تفسير لمورد الآية و ليست من الآية.

8- «و اللّه ربنا ما كنا مشركين بولاية علي بن أبي طالب» و ناكر الولاية و حتى النبوة لا يسمى مشركا، و انما هو المشرك باللّه، ثم و هذه مقالة أصاب الجحيم و نائر ولاية علي (عليه السلام) لا يستحق بذلك النار.

9- «إنما أنت منذر و علي لكل قوم هاد» و ليس علي هاديا للأقوام السابقين كما محمد لم يكن، و انما هو هاد منذ خلافته، كما محمد منذر منذ رسالته.

10- «رب اغفر لي و لولدي إسماعيل و إسحاق- او- إسحاق و يعقوب- او- الحسن و الحسين» و ليت شعري كيف أقحم إسحاق مع إسماعيل و لمّا يولد، فضلا عن:

إسحاق و يعقوب، و أخيرا: الحسن و الحسين! و أبوهما وجدهما أحرى بالدعاء لو أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 46

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ابراهيم يريد الدعاء لمن يأتي.

11- «ان هذا صراط عليّ مستقيم» و هنا غفل المفتري عن ان «مستقيم» وصفا ل «صراط» المعرف بالاضافة الى علي- كما زعم- يجب تعريفه «المستقيم».

12- «ان تكون أئمة هي ازكى من أئمتكم»! ...

13- «و لقد عهدنا الى آدم من قبل في محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمة من ذريتهم» و لم يكن العهد المنسي الا الطاعة المطلقة للّه و عدم طاعة الشيطان، و اما في محمد و آله (عليهم السلام) فالآيات تلمح و الروايات تصرح انه كان عارفا بهم مؤمنا.

14- «يا ليتني اتخذت مع الرسول عليا وليا».

15- «يا محمد يا علي القيا في جهنم كل كفار عنيد» و ليسا هما من الزبانية! 16- «وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» و المودّة لا تقتل و إنما الموءودة هي التي كانت تقتل! 17- «وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ‏ بولاية الشياطين‏ عَلى‏ مُلْكِ سُلَيْمانَ» و هنا يبدو الاختلاق الاسرائيلي واضحا حيث يفتري على سليمان- وفقا لما في التورات- ان ملكه كان بولاية الشياطين- و قد غفل المفترى عن ذيل الآية «وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا» و من هؤلاء الشياطين مختلقو هذه الفرية على سليمان في التورات و في الآية المزعومة القرآنية!.

(18) «متاعا الى الحول غير إخراج مخرجات» وليته يشعر ماذا تفيده «مخرجات» الا تناقضا في الحكم- حيث المعنى: متعوا المتوفى عنهن أزواجهن الى الحول دون إخراج لهن حالكونهن مخرجات! (19) «لقد جاءكم رسول من أنفسنا عزيز عليه ما عنتنا حريص علينا بالمؤمنين رؤوف رحيم» و معلوم ان «كم» هم المرسل إليهم و «نا» هو المرسل، فهل هناك جمع من الآلهة بعثوا واحدا منهم رسولا الى الناس؟ او ان اللّه عبر عن نفسه بصيغة الجمع عناية الى جمعية الصفات، ثم الرسول هو من ذاته تعالى! هذه زبانيتهم التسعة عشر التي اضرموها ليحرقوا بها القرآن و لكنهم مفضوحون! و أكثرها من هرطقات بعض المتظاهرين انهم شيعة، و ليسوا إلا شنيعة، يروون او يصدقون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 47

و لكنما القرآن يقول كلّه تلميحا، و تقول بعض آياته تصريحا، انه لم يحرف و لن، و لكنما الحرفة الطائفية ليست لتسمح الرجوع في ذلك الى القرآن نفسه، لحدّ يستدل قائله بآية مشوهة حيث لم يجد فرصة للرجوع الى القرآن، إذ كان يسبر أغوار الأحاديث من عشرات و عشرات مؤلفات تضمها «1».

و قد يعني [البعض من أحاديث التحريف- غير الصريحة في نقص او زيادة لفظية- تعني‏] تحريف المعنى، إمالة لمعاني آيات الى غير معانيها، و هذا مما نعانيه منذ نزول القرآن: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ‏ ... عَنْ مَواضِعِهِ ..» (5: 41- 4: 46) و كما تشهد له‏

رسالة الإمام الباقر (عليه السلام) الى سعد الخير: (و كان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه و حرفوا حدوده، فهم يروونه و لا يرعونه، و الجهال يعجبهم حفظهم للرواية، و العلماء يحزنهم تركهم للرعاية) «2»

كما و ان التأويل المصطلح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

روايات إسرائيلية تنوّه كأنما القرآن نزل- فقط- ليثبت فضل آل محمد، و اما محمد فليس إلّا رسولا ليبلغ الى الناس هامة الولاية لآله فقط! ان المحاولة الاسرائيلية المسيحية وجدت بين جهال من المسلمين من يستجيب لهم، كخدمات مذهبية: شيعية او سنية، ليشوهوا سمعة القرآن كما كانت كتبهم و لكن‏ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

(1). ينقل المحدث حسين النوري آية الذكر في كتابه المخطوط بيده: «انا أنزلنا الذكر و انا له حافظون» ثم يقول: الإنزال لا يدل على أنه الكتاب بل استعمل الإنزال للرسول في قوله:

«أنزلنا إليكم ذكرا رسولا» هذا! رغم ان آية الحفظ تقول «نزلنا» و هو ينقلها «أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ» فلم ينظر الى آية الذكر حتى يعرف انه ذكر منزّل و ليس منزلا، و لا الى ما قبلها ليعرف أنّه القرآن! فيا له مراما ما أبعده و ذكرا ما أغفله!

(2) اصول الكافي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 48

للآيات- و هو تفسيرها بخلاف ظواهرها المستقرة- هو ايضا تحريف و تفسير بالرأي.

فالتحريف لغويا هو الإمالة للشي‏ء عن وجهه الى غير وجهه، فيشمل وجه اللفظ الى لفظ آخر، و وجه المعنى- و هو ظاهره- إلى معنى آخر، و وجه التركيب الى تركيب آخر و ما الى ذلك من وجوه التحريف في الآيات، و نحن لا نصدق إلّا واقع التحريف في وجوه المعاني الصريحة او الظاهرة الى غيرها، المندّد به في القرآن و الحديث، دون غيره حيث يكذبه القرآن و الحديث.

ثم و في صيانة القرآن عن التحريف صيانة للسنة المحمدية عن التجديف و صيانة لسائر كتب السماء عما تدخل فيها من وحي الأرض، حيث يهيمن على ما قبله من كتاب، و على حدّ ما يروى عن رسول القرآن و اهل بيته الكرام (عليهم السلام) فانه الثقل الأكبر بعد الرسول، حيث يستمر به الثقل الأصغر، إذ تعرض رواياتهم عليه فيعرف الخائن المفترى من الأمين و الغث من السمين.

و في تحريف القرآن- و هو كتاب الزمن- ضياع لكافة الرسالات الإلهية و لرسالة القرآن، و زوال للحجة البالغة الإلهية عن العالمين.

«وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (16: 64) «يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ» (5: 16).

و هذا القرآن فيه من التواتر العام طوال القرون الإسلامية لحد أصبح كالشمس في رايعة النهار، و ما تهريف التحريف الا كذباب أو ذباب تحاول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 49

كسف الشمس بجناحها و ذبها.

فكل أمر يرجع إلى القرآن لفظا و معنى و ترتيبا و قراءة، إذ لا نصدق أية قراءة لا توافقها المتواترة المتداولة، المخطوطة و المطبوعة، فذة او في التفاسير، و لا سيما القراءات التي تغير المعاني.

و سوف ترى في هذا التفسير ان وصمة التحريف تهريف هراء من بعض الجهال او المعاندين، و تجديف في أحاديثنا من إسرائيليات و مسيحيات تعني تشويه القرآن كما شوهت سائر كتابات السماء، و أن القرآن بنفسه يذود عن نفسه هذه الوصمة الجاهلة، بألفاظه و معانيه، كما هو يثبت كونه و كيانه أنه إلهي واصب كالشمس في رايعة النهار، فهو هو دليل لكل دليل و مدلول، و لا يحتاج بنفسه إلى دليل، اللهم الّا لمن لم يعش القرآن قلبه، او يعشو قلبه عن نوره المبين و تبيانه المتين، فلينبّه لذكراه، ليهتدي إلى هداه.

و من آياته أن تسمت جملاته بالآيات، حيث اتسمت بأنها دالات بكونها بذواتها إلهيات، فكما أن معجزات الرسالات آيات كذلك القرآن كله آيات و لكنها خالدات.

التفسير المأثور:

نجد الكثير من أحاديث التفسير لا تعني تفسير المفاهيم، و انما المصاديق الجلية او الخفية او المختلف فيها، دون أن تحصر الآيات بنفسها إذ لا تتحملها.

فتفسير النباء العظيم و الصراط المستقيم بعلي امير المؤمنين (عليه السلام) هو من قبيل الجري و التطبيق، و بيان مصداق مختلف فيه، و لو كان هو- فقط- الصراط المستقيم لأصبح النبي طالبا في صلواته ليل نهار صراط علي كأنه (عليه السلام) أعلى منه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 50

و تفسير الرزق في‏ «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» ب (مما علمناهم يبثون) بيان لمصداق خفي من مفهوم الرزق- الواسع، و أحرى ان يشمل علم الدين الذي هو رزق الروح.

فهذه تنبيهات ممن نزل في بيوتهم القرآن، أن الاقتصار على المفاهيم المحدودة عند الناس خلاف ما يعنيه القرآن و هذه المحدودية الفكرية تجعل آيات متشابهات، و لكن كلما اتسع الفهم زال على مداه تشابه الآيات، و لنكرر

قول الامام الرضا (عليه السلام) في معنى المتشابه: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله».

شؤون النزول:

ان شؤون نزول الآيات و إن كانت تساعد على تفهّم معانيها أحيانا و لكنّها ليست شرطا في التعرّف الى معاني آيها، و لا أنها تحدّد معاني الآيات بمواردها، فلو أن الآية ماتت بموت الشأن الذي نزلت فيه، إذا لماتت الآيات كلها، و إنما شؤون النزول مبرّرات وقتية لنزولها، تماشيا مع كل حادث و حديث في نزولها، فالآيات مستقلة في دلالاتها على معانيها، عرفت شؤونها أم لا، و انما تكمّل دلالاتها رعاية قرائنها القرنية لها قبل او بعد او مع، ام البعيدة عنها من نظائرها، و اما شؤون نزولها فلا شأن لها أصيلا في تفسيرها، و إنما الشأن الأصيل هو شأن الآيات أنفسها دون شؤون سواها.

«و لو ان الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شي‏ء و لكن القرآن يجري اوله على آخره ما دامت السماوات و الأرض و لكل قوم آية يتلونها هم منها من خير او شر» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 21 عن محمد بن خالد الحجاج الكرخي عن بعض أصحابه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 51

الظاهر و الباطن:

ظاهر القرآن هو اللائح من المعنى المطابقي حسب قانون الأدب اللفظي، نصّا أو ظاهرا مستقرا، و الباطن هو الإشارة و اللطيفة و الحقيقة، و هذه مراحل اربع و كما

يرويه الامام الحسين عن أبيه علي امير المؤمنين: «كتاب اللّه على أربعة أشياء على العبارة و الإشارة و اللطائف و الحقائق فالعبارة للعوام و الإشارة للخواص و اللطائف للأولياء و الحقايق للأنبياء»

و لعل الحقائق هي التأويلات: المآخذ و النتائج كما ياتي حول آية التأويل.

فالعبارة هي المعبّرة عن المعنى الظاهر دون مجرد اللفظ بلا عبارة له عن المعنى، و لو كانت هي اللفظ لكان ثانيه المعنى دون الإشارة، و قد ثنّاه بالإشارة التي هي بعد المعنى، ثم هذه العبارة المعنى تشير للخواص الى لطائف، و هذه اللطائف قد تشير إلى الحقايق و هي خاصة بأهل الوحي:

أهل بيت الرسالة المحمدية (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

إذا فالمعاني الباطنية هي سلسلة إشارات فلطائف ثم حقائق تنبع من المعاني الظاهرية لمن شرح اللّه صدره بالقرآن، عاش قلبه القرآن فعاش القرآن قلبه، فأصبح عشيرا للوحي القرآني‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رفعه الى خثيمة قال قال ابو جعفر (عليه السلام): ..

(1). قال المغفور له الفيض الكاشاني في المقدمة الخامسة من تفسيره: ان من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه و لكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة الى درجته التي هي حده و مقامه، بل القرآن و الاخبار و الآثار تدل على أن في معاني القرآن لأرباب الفهم متسعا بالغا و مجالا رحبا قال اللّه تعالى:

«أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها» و قال: «لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» و

قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 52

فليست الإشارات إلا من مشيرات المعاني الواسعة لمن شرح اللّه صدره، و لا اللطائف إلّا من هذه الإشارات، درجات تلو بعض لمن يتدرج إليها بمدارج التدبير و لطيف التفكير و واسع الصدر، دون فوضى ادّعاء لكل من يهوى ما يهواه فيسميه إشارة او لطيفة او حقيقة!.

فليتجنب المفسر عن استعمال القياس في القرآن- ف «من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس و من دان اللّه بالرأي لم يزل دهره في ارتماس» «1»- «مائلا عن المنهاج، طاعنا في الاعوجاج، ضالا عن السبيل، قائلا غير الجميل» «2».

و

في الصادقي (عليه السلام): «إن للقرآن بطنا و للبطن ظهرا و ليس شي‏ء أبعد من عقول الرجال منه، إن الآية لتنزل أولها في شي‏ء و أوسطها في شي‏ء و آخرها في شي‏ء و هو كلام متصل ينصرف على وجوه» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ثم قال: فالصواب ان يقال: من أخلص الانقياد للّه و لرسوله و أهل البيت (عليهم السلام) و أخذ علمه منهم و تتبع آثارهم و اطلع على جملة من أسرارهم بحيث حصل له الرسوخ في العلم و الطمأنينة في المعرفة و انفتح عينا قلبه و هجم به العلم على حقائق الأمور و باشر روح اليقين و استلان ما استوعره المترفون، و أنس بما استوحش منه الجاهلون و صحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالمحل الأعلى، فله ان يستفيد من القرآن بعض غرائبه و يستنبط منه نبذا من عجائبه، ليس ذلك من كرم اللّه تعالى بغريب و لا من جوده بعجيب، فليست السعادة وقفا على قوم دون آخرين و قد عدوا جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم قالوا: سلمان منا أهل البيت.

(1). قرب الاسناد حدثني هارون بن مسلم قال و حدثني مسعدة بن صدقة قال حدثني جعفر بن محمد عن أبيه ان عليا (عليه السلام) قال: ...

(2) المستدرك عن الامام الحسين (عليه السلام).

(3) العياشي عن جابر قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) يا جابر: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 53

و

في النبوي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «ان للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن»

و هذه السبعة- كما

في الصادقي (عليه السلام) هي ادنى ما للإمام ان يفتي علي سبعة وجوه- ثم قال: «هذا عطاءنا فامنن أو أمسك بغير حساب». «1».

و

في الباقري (عليه السلام): «إن للقرآن بطنا و للبطن بطنا و ظهرا و للظهر ظهرا» «2».

و هكذا يشار الى مراتب البطون، ان الظهر الاول ظهر لأولى البطون و هذا البطن ظهر للبطن الثاني و الثاني ظهر للثالث، فكل بطن ظهر لما بعده و بطن لما قبله، سلسلة تنبّؤات و خواطر متدرجة تنبع من منبع النص و الظاهر القرآني.

و

في العلوي (عليه السلام): ان اللّه جل ذكره لسعة رحمته و رأفته بخلقه و علمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام، فجعل قسما منه يعرفه العالم و الجاهل، و قسما لا يعرفه إلّا من صفى ذهنه و لطف حسّه و صحّ تمييزه ممن شرح اللّه صدره للإسلام، و قسما لا يعرفه إلّا اللّه و أنبياءه و الراسخون في العلم، و انما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من علم الكتاب ما لم يجعله اللّه لهم، و يقودهم الاضطرار إلى الايتمار لمن ولاه أمرهم ... «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

العياشي عن حماد بن عثمان قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) ان الأحاديث تختلف عنكم؟ قال فقال عليه السلام: ان القرآن نزل على سبعة أحرف ...

(2- 3) تفسير البرهان و نور الثقلين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 54

فتجريد الآية عن مضيق من شأن نزولها هو من البطن الاوّل‏ «1» فإذ يقول اللّه تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً» لا يحمل الآية فقط على‏ «الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ» بل يجريها و بأحرى- على: «الذين حملوا القرآن ثم لم يحملوها» فمثلهم إذا ليس فقط- كمثل الحمار، بل أضل سبيلا، كما أن حمل القرآن أثقل فإنه أقوم قيلا.

إذا فنحن المسلمين المحمّلين القرآن كل على حدّه المستطاع، كثير منا مثله كأضل سبيلا من الحمار، من تارك حمله في علومه و معارفه، و من تارك تطبيقه بعد معرفته و من ...!.

ثم و تحريرها عما تستأنسه الأفهام العامة من معاني محدودة هو من البطن الثاني، و تزويدها سعة و عمقا و إيضاحا بنظائرها من آيات هو من البطن الثالث، و تحريرها عما قبلها و ما بعدها من قرائن و متعلقات غير أصيلة من البطن الرابع، و هكذا الى بطون اخرى، رعاية لأصل الدلالة اللفظية كمنطلق، و حجج و دلالات قرانية أخرى كوسائل للتحرير و التوسعة، معتمدين في كل ذلك على حجة من علم الكتاب أو أثارة من علم، متجنبين عما نهواه من أهواء علمية أمّاهيه، لكي نبتعد عن تفسير القرآن بالرأي، و انما القرآن بالقرآن، و على ضوء السنة و اللّه هو الموفق لهداه.

و القول ان القرآن هدى للناس و هو بيّن لهم كلهم و مبين فلا حاجة الى التأمل الزائد في تفهّم معانيه أو بطون له؟ إنه غير متين، كما مضت في هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من البطن الاوّل هم الذين عملوا بمثل اعمال من نزلت الآية فيهم كما

يروي عن الامام الباقر (عليه السلام) «ظهر القرآن الذين نزل فيهم و بطنه الذي عملوا بمثل اعمالهم» (البرهان 1: 20 عن حمران بن أعين عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 55

الروايات و صرحت به آيات التفقه‏ «1» و التدبر «2» و التفكر «3» و التعقل‏ «4» و التذكر «5» و العلم‏ «6» و الشعور «7».

اجل ان القرآن بيان و تبيان و هدى للناس إذا تفقهوا و تدبروا و تفكروا و عقلوا و تذكروا و علموا و شعروا، و أما أن يتقنوا فقط اللغة ثم يحيطوا علما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» (6: 65) «قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ» (6: 98).

(2) «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها» (47: 24) «أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» (23: 68) «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ» (38: 29).

(3) «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» (2: 219) و 226) «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (7: 176) «كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (10: 24) «وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (13: 3) «فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (16: 69) «وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (59: 21)

(4) «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (2: 242) «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» (3: 118) «إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (12: 2) «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (24: 61)

(5) «أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ» (16: 17) «سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (24: 1) «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (51: 49) «وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ». 56/ 63

(6) «وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ» (29: 43).

«أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى‏ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ».

(13: 19) «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ» (38: 29).

(7) آيات تحمل تنديدات كثيرة بالذين لا يشعرون‏ «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ» (2: 12) «وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ. (3: 69) «وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (6: 26) «وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (6: 123)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 56

بكل معاني القرآن فلا! حيث الفرق بين الترجمة و التفسير ام ماذا؟

الترجمة و التفسير و التأويل‏

فقد يترجم القرآن من لغته الى اخرى تحويلا للمعنى المفهوم منه- كما يفهمه العربي الساذج- إلى لغات أخرى.

او يفسّر كشفا للقناع عن المفهوم منه حيث المفاهيم القرآنية درجات فوق بعض و لا يفهمها كل عارف باللغة العربية، أم كشفا للقناع عن الإجمال المقصود حيث لا يراد التفصيل فلتفسّر الآية بآية أو آيات أخرى تعني تفصيل ما أجمل فيها «1».

و اما ان يفسر كشفا عن قناع في المعنى الذي لا سبيل إلى تفهمه، أم قناع في اللفظ قصورا «2» او تقصيرا «3»، فساحة القرآن بريئة عن هذا المثلث فانه بيان للناس، لا قصور في دلالته و لا تقصير، و لا غموض في معانيه لحد لا يمكن تفهمه.

و التأويل راجع الى المعنى المفهوم من القرآن إرجاعا إلى مأخذه أو نتيجته، و لم يأت التأويل في سائر القرآن إلّا بهما، خلاف ما يهرف أنه تفسير بخلاف النص او الظاهر لدلالة عقلية أو علمية أو حسية أم ماذا!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمثل قوله تعالى: «أَقِيمُوا الصَّلاةَ» لا يدل على تعدادها و أوقاتها، و إنما المتكفل لهذا البيان آياتها المفصلة حيث تفسّر أعداد الصلاة و أوقاتها.

(2) قصور الدلالة فيما يقصر المتكلم عن بيان مراده و لا قصور في ساحة الألوهية

(3) التقصير في الدلالة فيما يقصر المتكلم في بيان مراده على امكانية البيان كما في بعض العبارات المغلقة الغامضة رغم وضوح المفهوم لو كانت الدلالة ظاهرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 57

فالترجمة راجعة إلى اللفظ و التأويل يخص المعنى و التفسير يشملهما، معنى عاليا بعيدا عن تفهم الناس إلا من كان عاليا في التفهم، أم لفظا لا يعني فيما يعني هنا ما تطلبه من تفصيل، ففي خماسيّة المحتملات للمعنى من التفسير لا يصح إلا هذان دون الثلاثة الأخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 59

سورة الفاتحة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 61

«سورة الفاتحة- مكية- و آياتها سبع».

[سورة الفاتحة (1): الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (1)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لا الضَّالِّينَ (7)

«سورة الفاتحة» التي افتتح بها الكتاب تأليفا كما افتتح تنزيلا- هي صورة مصغّرة عن «تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين» أفرد اللّه بها الامتنان على الرسول العظيم (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذ جعلها ردفا للقرآن العظيم: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (15: 87) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عيون أخبار الرضا (عليه السلام) باسناده الى الامام الحسن العسكري (عليه السلام) مسلسلا عن أبيه عن آباءه عن علي (عليه السلام) قال: سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ان اللّه عز و جل قال: يا محمد! و لقد آتيناك سبعا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 62

نجد فيها تجاوبا رائعا بين كتابي التدوين و التكوين عدّة و عدّة، فآياتها سبع، و أسماءها سبعة، كما السماوات سبع، و الأرضون سبع، و أيام الأسبوع سبعة، و الطواف بالبيت و السعي سبعة أشواط، ثم و تغلق بسبعها أبواب الجحيم السبع‏ «1» كما نرمي الشياطين بجمرات سبع حيث الشيطنات هي السبع‏ «2»: كما و تفتح بها أبواب الجنة الثمان‏ «3».

1- فهي فاتحة الكتاب‏ «4».

لافتتاحه بها تنزيلا و تأليفا براعة بارعة لاستهلاله، حيث تنير علينا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من المثاني و القرآن العظيم، فأفرد الامتنان علي بفاتحة الكتاب و جعلها بإزاء القرآن العظيم و إن فاتحة الكتاب اشرف ما في كنوز العرش، و إن اللّه عز و جل خص محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و شرّفه بها و لم يشرك معه فيها أحدا من أنبيائه ما خلا سليمان فانه أعطاه منها «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» (1: 301 و البحار 92: 227)

و

في الدر المنثور 1: 2- أخرج الواحدي في اسباب النزول و الثعلبي في تفسيره عن علي (عليه السلام) قال: نزلت الفاتحة بمكة من كنز من كنوز العرش.

(1).

تفسير الفخر الرازي 1: 175 روي‏ ان جبرئيل (عليه السلام) قال للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يا محمد! كنت أخشى العذاب على أمتك فلما نزلت الفاتحة أمنت، قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لم يا جبرئيل! قال: لان اللّه تعالى قال «و ان جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم» و آياتها سبع فمن قرأها صارت كل آية طبقا على باب من أبواب جهنم فتمر أمتك عليها سالمين.

(2) و هي: الشيطان- البقر- النمر، ثم كل جمع بين اثنين منها ثم مجموع الثلاثة فهي سبع‏

(3) و علّها باب المعرفة بما تكبر اللّه في صلاتك و- 2- باب الذكر بالبسملة و- 3- باب الشكر بالحمد له و- 4- باب الرجاء بالرحمتين الرحمانية و الرحيمية و- 5- باب الخوف يوم القيامة و- 6- باب الإخلاص في العبودية و الاستعانة الناتجة عن معرفة الربوبية و 7- باب الدعاء و الضراعة في طلب الهداية و- 8- باب الاهتداء الى صراط اهل النعمة.

(4) و قد تواترت الأحاديث لهذا الاسم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 63

دروبا من علوم الكتاب جملة كما يفتح الكتاب تفصيلا، فتفتح بها أبواب خزائن أسرار الكتاب لأنها مفتاح كنور لطائف الخطاب.

2- 3- و هي ام القرآن و ام الكتاب‏ «1».

أمّا لتفصيل الكتاب بآياته المحكمات و المتشابهات، كما المحكمات هن أم الكتاب، فكما المحكمات هن أم للأطفال المتشابهات، كذلك آيات الكتاب كله هي أطفال الأمّ السيدة.

فكل أصل و كل مجتمع و كل مأوى و محور أمّ، و القرآن المفصّل يضم مربع الربوبية و النبوة و المعاد و ما بين المبدء و المعاد بتفاصيلها، و أم القرآن يضمها محكمة مختصرة، حكيمة محتصرة.

و من ثم الأم تأتي بمعنى الراية للعسكر و الفاتحة راية لعساكر السور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أنها أم القرآن و ام الكتاب‏

و

فيه اخرج البخاري و الدارمي في سننه و ابو داود و الترمذي و ابن المنذر و ابن اي حاتم و ابن مردويه في تفاسيرهم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» ام القرآن و ام الكتاب و السبع المثاني-

و

من طريق اهل البيت (عليهم السلام) روى العياشي 1: 19 عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: اسم اللّه الأعظم مقطّع في أم الكتاب، و عن عبد الملك بن عمر عنه (عليه السلام) إن إبليس رنّ أربع رنّات ..

و حين نزل ام الكتاب، و

في دعوات الراوندي عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) قال: سمع بعض آبائي رجلا يقرء ام القرآن فقال: شكر و اجر (البحار 92: 261) و رواه مثله محمد بن احمد بن يحيى بسند عن جعفر بن محمد (عليه السلام) عن أبيه (عليه السلام) (تهذيب الأحكام 8: 190)

و

روى الشيخ الطوسي في تبيانه 1: 22، عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه سماها ام القرآن‏

و

أخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن عن الترمذي عن أبي بن كعب قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما أنزل اللّه في التوراة و لا في الإنجيل مثل أم القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 64

بآياتها و هيبة لجنودها، فحقا هي راية القرآن إذ تقدمه و تعرّفه و تعنيه!.

4- و هي أساس القرآن:

إذ أسست تفاصيله فيها مجملة جميلة وضّاءة «1» و القرآن المفصل يتبنّى الأساس أساسا لتفاصيله.

5- و هي الكافية:

تجزي ما لا تجزي شي‏ء من القرآن حيث «تكفي من سواها و لا تكفي عنها سواها» «2» في اولى السورتين من الأوليين لفظيا حيث تكفي من سائر القرآن في الركعتين و لا يكفي سائره عنها فيهما، و معنويا فانها على اختصارها تحمل متنا حاصرا من غزيرة الوحي الهاطل، و خطابا لربنا في معراج الصلاة إذ تكفي عن كافة التفاصيل المسرودة في الذكر الحكيم حيث تناسب ذلك الخطاب.

6- و هي الحمد:

حيث تحمل أحمد حمد لرب العالمين، و خير ما يحمده به الحامدون، حمد غائب «الحمد للّه ..» و من ثم حاضر «إياك نعبد ...» فانها بشطريها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 2 اخرج الثعلبي عن الشعبي‏ ان رجلا شكا اليه وجع الخاصرة فقال: عليك بأساس القرآن قال: و ما أساس القرآن؟ قال: فاتحة الكتاب.

(2) المصدر اخرج الثعلبي عن عفيف بن سالم قال: سألت عبد اللّه بن يحيى بن أبي كثير عن قراءة فاتحة الكتاب خلف الامام فقال عن الكافية تسأل؟ قلت: و ما الكافية؟

قال: الفاتحة، اما تعلم انها تكفي عن سواها و لا تكفي عنها سواها؟

و

أخرج ابو نعيم و الديلمي عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شي‏ء من القرآن و اخرج الدار قطني و الحاكم عن عبادة بن الصامت قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ام القرآن عوض عن غيرها و ليس غيرها عوضا عنها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 65

حمد مهما اختلف الموقف و التعبير و كله عبير، ثم و هي بادءة بالحمد، فلذلك كله سميت- فيما سميت- بسورة الحمد.

7- و هي السبع المثاني‏ «1»:

لأنها حسب القرآن العظيم سبع من المثاني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 105- اخرج الدارمي و ابن مردويه عن أبي بن كعب قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): فاتحة الكتاب هي السبع المثاني-

و فيه 1: 3-

اخرج الدار قطني و صححه و البيهقي في السنن عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إذا قرأتم الحمد فاقرؤا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏- إنها ام القرآن و أم الكتاب و السبع المثاني و «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» إحدى آياتها و اخرج ما في معناه عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) البخاري و الدارمي في مسنده و ابو داود و الترمذي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و احمد في مسنده و ابن جرير و الطبراني في الأوسط و البيهقي و البخاري و النسائي و ابن حبان و ابو عبيد و ابن خزيمة و ابو ذر الهروي و عبد اللّه بن احمد بن حنبل في زوائد المسند و ابن الضريس في فضائل القرآن- أخرجه هؤلاء الحفاظ في مسانيدهم كما رواه علي امير المؤمنين (عليه السلام) و عمر ايضا عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)-

فما يروى عن ابن عباس في بعض رواياته و سعيد بن جبير دون نسبة الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انها السبع الطوال: البقرة- آل عمران- النساء- المائدة- الانعام- الأعراف- يونس- انها لا تصدّق لمخالفتها المتواتر عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أنها الفاتحة، و أنها نزلت قبل السبع الطوال و سواها من مدنيات و مكيات، و انها ليست مثاني باي معنى من معاني المثاني اللهم إلا كما القرآن كله مثاني «كتابا مثاني» و لا يخص السبع- و

من طريق اهل البيت (عليهم السلام) عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الآية فقال: فاتحة الكتاب يثنىّ فيها القول (العياشي 1: 22) و رواه مثله عن يونس بن عبد الرحمن عمن رفعه قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن هذه الآية قال: هي سورة الحمد، و رواه مثله عن محمد بن مسلم و عن السدي عمن سمع عليا (عليه السلام) يقول مثله‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 66

وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (15: 87) و مهما كان القرآن كله مثاني: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ ..» (39: 29) و لكن «سبعا» و من ثم «القرآن العظيم» تخصها بهذه المثاني بما لها من مثنيات و معاني، فهي تحمل ازدواجية المثاني.

ثم «المثاني» جمع المثنية او المثنى و هو الذي يثنى، فأقلها ثلاث مثنيات و لكننا نجد لها سبعا من المثاني:

1- مثنى نزولا في عهدي المكي و المدني، اوّل ما نزلت بمكة، و حين حولت القبلة في المدنية، و لا مثنى هكذا إلّا هيه!.

2- مثنى في اوّليتها في التأليف كما في التنزيل و لا مثنى هكذا إلّا هيه!.

3- مثنى في الصلوات مفروضات و مسنونات‏ «1» إذ تثنى في أوّلييها إلّا في وتر الليل.

4- مثنى إذ تثنى بغيرها في الصلوات كلها إلّا في وتيرة العشاء.

5- مثنى في ثنائية التأويل حيث تعني القرآن جملة و يعنيها القرآن بالتفصيل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 104- اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس في الآية قال: هي ام القرآن تثنى في كل صلاة و أخرج ابن جرير و ابن الضريس عن قتادة في الآية قال: فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة مكتوبة و تطوع و أخرجه ابن الضريس عن أبي صالح مثله- و

في تفسير العياشي 1: 19، عن يونس بن عبد الرحمن رفعه قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن هذه الآية قال: هي سورة الحمد، و انما سميت المثاني لأنها تثنى في الركعتين‏

و عن محمد بن مسلم عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) هي فاتحة الكتاب يثنى فيه القول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 67

6- مثنى في المعنى الاتجاه فنصفها ثناء اللّه و نصفها عطاء اللّه.

7- و مثنى بثنائية الآيات حيث تتبنى في كل من السبع أمرين اثنين ف:

1- «بِسْمِ اللَّهِ- الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» 2- «الْحَمْدُ لِلَّهِ- رَبِّ الْعالَمِينَ» 3- «الرَّحْمنِ- الرَّحِيمِ». 4- «مالِكِ- يَوْمِ الدِّينِ» 5- «إِيَّاكَ نَعْبُدُ- وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» 6- «اهْدِنَا- الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» 7- «صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ- غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ»!.

مثان سبعة في السبع المثاني في أم كتاب التدوين تتجاوب مع سبع التكوين، سبع الزمان و سبعي المكان: سماوات و أرضين، و سبعي الطواف حول البيت و بين الصفا و المروة، كما و مراتب خلقة الإنسان سبع:

«وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (23: 14).

كذلك و مراتبه الباطنة سبع: الروح- الفطرة- العقل- الصدر- القلب- اللب و الفؤاد، و كما الصلاة أعمالها الظاهرة الملموسة سبعة حيث النية فعل القلب، و هي: القيام- الركوع- الانتصاب منه- السجدتان- و الانتصاب جلوسا بينهما- و القعود تشهدا و سلاما، و السبع المثاني لهذه السبع كالروح في الجسد، كما هي روح للإنسان.

و كما الشيطنات و الشياطين و أبواب الجحيم سبع و هي تغلق بالسبع المثاني!.

«و الذي نفس محمد بيده ما أنزل في التوراة و لا في الإنجيل و لا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 68

الزبور و لا في الفرقان مثلها» «1»

«من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان» «2».

لذلك‏

رنّ إبليس أربعا حين نزلت فاتحة الكتاب و حين لعن و حين هبط إلى الأرض و حين بعث محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «3»

فقد جعلت عدلا للرسول كما هي عدل القرآن، حيث الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو القرآن و القرآن هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هي تمثلهما جملة كما هما يمثلانها تفصيلا.

إنها اوّل ما نزلت على الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فانها فاتحة الكتاب، و أصل الكتاب المنزل ثم الكتاب المؤلف، و لا تحمل الخمس الأول من العلق النازلة قبل الفاتحة إلّا البسملة «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 4- اخرج جماعة ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) خرج على أبي بن كعب فقال، يا أبي! و هو يصلي- فالتفت أبي فلم يجبه فصلى أبي فخفف ثم انصرف الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: السلام عليك يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

كيف تقرء في الصلاة؟ فقرأ بأم القرآن فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

و الذي نفسي بيده ...

(2) المصدر 1: 5- اخرج ابو عبيد في فضائله عن الحسن قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ..

(3) المصدر اخرج وكيع في تفسيره و ابن الأنباري في المصاحف و ابو الشيخ في العظمة و ابو نعيم في الحلية عن مجاهد قال: رن إبليس اربع رنات و من طريق اهل البيت (عليهم السلام) في تفسير البرهان 1: 41 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) مثله و رواه مثله العياشي 1: 20.

(4) القمي في تفسيره في قوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ .. قال قال: اقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏، و في أسباب النزول للواحدي النيسابوري عن ابن عباس انه قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 69

فقد توحي «اقرأ» أنه ما كان قارئا قبله، ثم «باسم ربك» يعلمه بماذا يبدأ قراءة الوحي، و لأن أفضل أسمائه هو اللّه، فباسم ربك هو «بسم اللّه» ثم «الذي خلق» هو «الرحمن» حيث الخلق هو أعم الرحمات و لا أعم من «الرحمن».

و من ثم‏ «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ» هو الرحيم، فانه رحمة خاصة، ثم الأخص منه‏ «الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» ثم‏ «عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» رحيم في أخصه حيث يعم سائر الوحي على سائر رجالات الوحي.

فبداية الوحي تلميحة كتصريحه بأفضل آية من كتاب اللّه‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» حيث هي تقرأ قبل كل أمر ذي بال و القرآن يفوق كل أمر ذي بال! و قد صلى الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مع علي و خديجة لما رجع من بازغة الوحي، و بطبيعة الحال قرأ الحمد، إذ

«لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اوّل ما نزل به جبرئيل عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال يا محمد استعذ ثم قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏.

(1).

الدر المنثور 1: 2- اخرج ابن أبي شيبة في المصنف و ابو نعيم و البيهقي كلاهما في دلائل النبوة و الواحدي و الثعلبي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال لخديجة: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد و اللّه خشيت ان يكون هذا امرا فقالت: معاذ اللّه ما كان اللّه ليفعل بك فو اللّه إنك لتؤدي الامانة، و تصل الرحم و تصدق الحديث- الى ان قال-: سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا في الأرض فقال ورقة لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني فلما خلا ناداه يا محمد! قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ الحمد للّه رب العالمين- حتى بلغ- و لا الضالين- فأتى ورقة فذكر له ذلك فقال ورقة ابشر ابشر فاني اشهد أنك الذي بشر به ابن مريم و انك على مثل ناموس موسى و انك نبي مرسل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 70

و رواية نزولها في المدينة تعني نزولها الثاني عند تحول القبلة، و هي نازلة قبلها في مكة، و آية السبع المثاني المكية ليست لتعني سورة مدنية لو لا نزولها بداية في مكة.

و كما القرآن المحكم نزل على قلب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في ليلة مباركة هي ليلة القدر بعد زهاء خمسين ليلة من بداية الوحي، ثم القرآن المفصل بعد الحمد إلى المائدة، تفصيلا للمحكم النازل ليلة القدر.

فالحمد للّه الذي جعل لنا نصيبا من القرآن المحكم كما خص رسوله بنصيبه ليلة القدر، و اين محكم من محكم؟

ثم البسملة هي أفضل آيات السبع المثاني، كما السبع أفضل القرآن العظيم، مهما كانت الأقوال حول: هل هي آية من الحمد و سائر القرآن إلّا البرائة عشرة كاملة «1» إلا أن تسعة منها ناقصة مناقضة لحجة الكتاب و السنة.

فكونها آية من النمل دون خلاف يؤكد كونها آية قرآنية أينما حلت،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).، و هي- 1- ليست آية من أيّة سورة!- 2- آية من كل سورة سوى البرائة- 3- آية من الفاتحة دون غيرها- 4- بعض آية من الفاتحة فقط- 5- آية مستقلة أنزلت لبيان رؤوس السور تيمنا و للفصل بينها- 6- يجوز جعلها آية من الحمد و غير آية لتكرر نزولها بالوصفين- 7- بعض آية من جميع السور- 8- آية من الفاتحة و جزء آية من سائر السور إلّا البرائة- 9- جزء آية من الفاتحة و آية من السور الا البرائة- 10- انها آيات مستقلة حيثما كانت، و ترى ان ما سوى القول الاوّل من هذه العشرة متفقة على كونها آية و ان اختلفت في جهات أخرى و لا حجة في القول الاول كما لا حجة في كونها بعض آية- تأمل:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 71

فجملة واحدة كيف تكون هنا آية و في سواها ليست آية و ليست هي إلّا هيه؟! و كون السورة سبعا من المثاني بشهادة القرآن و الرواية المتواترة تجعلها آية منها، و إلّا فهي ست من المثاني، و قد رقمت بواحدة مهما لم ترقم في سواها، فما أمرها إلا واحدة لأنها آية واحدة.

و كونها فصلا بين السور لا تجعلها غير آية، و لا تفتتح بها البراءة و هي سورة فذة، و لا غرو ان تفصل بين السور بآية مكررة كما يعرف بها ختام سورة و بداية أخرى.

و كيف يقحم في القرآن ما ليس منه مهما كان لفصل و سواه، إذ يحصل الفصل بسواه، أ فإقحاما في القرآن جملة كآية لكل سورة إلا البراءة؟

و قد امر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في بازغ الوحي ان يقرأه بالبسملة «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ..» كما أمر دائبا مستمرا بقراءتها في الصلاة «وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» (87: 5) و الصلاة بلا تكبيرة او بسملة دخول في الدار دون استئناس و استئذان من صاحب الدار «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 7- أخرج ابن أبي حاتم و الطبراني و الدار قطني و البيهقي في سننه عن بريدة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا أخرج من المسجد حتى أخبرك بآية- أو سورة- لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري قال: فمشى فتبعته حتى انتهى الى باب المسجد فأخرج إحدى رجليه من اسكفة المسجد و بقيت الأخرى في المسجد فقلت بيني و بين نفسي ذلك فأقبل عليّ بوجهه فقال: بأي شي‏ء تفتتح القرآن إذا فتحت الصلاة؟ قلت: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏- قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): هي هي ثم خرج،

و

اخرج الدار قطني عن ابن عمران رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: كان جبرئيل إذا جاء بالوحي اوّل ما يلقي عليّ‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 72

ثم و في كل القرآن‏ «وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا» (73: 8) أ فليست هي بعد آية من القرآن، و هي أفضل آية من القرآن حيث تعني أمّ القرآن إجمالا كما هي تعنيه اجمالا و هما تعنيانها تفصيلا مهما بان تفصيل عن تفصيل.

و لان البسملة أفضل آية في الذكر الحكيم‏ «1» فلتذكر في أفضل عبادة هي الصلاة، و ليكن عبد اللّه بسملة للّه في مجراه و مرساه، فابتداء أقواله و أفكاره و أعماله «بسم اللّه» و انتهاءها «بسم اللّه» إذا قام «بسم اللّه» و إذا نام «بسم اللّه» إذا عقد النطفة «بسم اللّه» و إذا حضر الموقف «بسم اللّه» و ليكن هو بتمامه اسما للّه، يدل بكله على اللّه، إعلانا- بالثناء على اللّه، و إذاعة لذكر اللّه، كما و ان الكون كله اسم اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان عن تفسير العياشي عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سرقوا أكرم آية في كتاب اللّه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

، و عن الحسن بن خرزاد و

روي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إذا أم الرجل القوم جاء الشيطان الذي هو قريب الإمام فيقول: هل ذكر اللّه؟ يعني: هل قرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏؟ فان قال: نعم هرب منه، و إن قال: لا ركب عنق الإمام و دلّى رجليه في صدره فلم يزل الشيطان إمام القوم حتى يفرغوا من صلاتهم. و عن عيسى بن عبد اللّه عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) قال: بلغه أن أناسا ينزعون‏ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏. قال: هي آية من كتاب اللّه أنساهم إياها الشيطان،

و

عن إسماعيل بن مهران قال قال ابو الحسن الرضا (عليه السلام) ان‏ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ أقرب الى اسم اللّه الأعظم من سواد العين الى بياضها

، أقول و سواد عين البسملة هو اللّه حيث توسط بياضها، و

عن خالد بن المختار قال سمعت جعفر بن محمد (عليهما السلام) يقول: ما لهم قاتلهم اللّه عمدوا الى أعظم آية في كتاب اللّه فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها و هي‏ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 73

فما لهم تركوا أفضل آية من كتاب اللّه، اخفتوا بها ثم تركوها، و الكتاب القاطع و السنة القاطعة حجتان لا مرد لهما أنها آية «1» يجهر بها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير الثعلبي روى الشافعي عن مسلم بن جريح عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أنها قالت: قرأ رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فاتحة الكتاب فعد «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» آية «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» آية «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» آية «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» آية «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» آية «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» آية «صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ» آية

و

في الدر المنثور 1: 3- اخرج الدار قطني و صححه و البيهقي في السنن عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا قرأتم الحمد فاقرأوا «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» انها ام القرآن و ام الكتاب و السبع المثاني و «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» احدى آياتها

، و

فيه اخرج الدار قطني و البيهقي في السنن بسند صحيح عن عبد خير قال: سئل علي (عليه السلام) عن السبع المثاني فقال: الحمد للّه رب العالمين فقيل له: انما هي ست آيات؟ فقال:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» آية

، و

فيه اخرج الطبراني في الأوسط و ابن مردويه في تفسيره و البيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الحمد للّه رب العالمين سبع آيات‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» إحداهن و هي السبع المثاني و القرآن العظيم و هي فاتحة الكتاب،

أقول: و من أمثاله نتبيّن ان‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» تعبيرا عن السورة لا يعني استثناء البسملة عنها، بل هو تعريف بأول آية غير مشترك فيها و لأنها سورة الحمد.

و

أخرج الدار قطني، و البيهقي، عن أبي هريرة ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان إذا قرء و هو يؤم الناس افتتح‏ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏،

و

اخرج ابو عبيد و ابن سعد في الطبقات و ابن أبي شيبة و احمد و ابو داود و ابن خزيمة و ابن الأنباري في المصاحف و الحاكم و صححه و الخطيب و ابن عبد البر كلاهما في كتاب المسألة عن ام سلمة أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان يقرء «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ..» قطعها آية آية و عددها عد الاعراب وعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ و لم يعد عليهم‏

، و

اخرج الثعلبي عن أبي هريرة قال: كنت مع النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في المسجد إذ دخل رجل يصلي فافتتح الصلاة و تعوذ ثم قال: الحمد للّه رب العالمين- فسمع النبي (صلى اللّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 74

في الجهرية فرضا و في الاخفاتية نفلا. فمن تركها فلا صلاة له كما استفاضت بها السنة مهما اختلف المتخلفون عنها فيها.

فعلى كل من يؤمن بالقرآن و أنه لم يحرف بزيادة و لا نقصان، الايمان بأنها آية من القرآن.

و على كل من يؤمن بالسنة المحمدية (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يتابع أثر الرسول فيما كان يفعل و يقول، و كما أجمع عليه أئمة اهل البيت (عليهم السلام) و الخلفاء الثلاث في أصلها، و الشافعي في الجهر بها، و أحمد أنها آية منها، و أبو حنيفة في أصل قرائتها و جماعة آخرون من الصحابة و التابعين‏ «1» في انها آية جهرا او إخفاتا «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) فقال: يا رجل أ قطعت على نفسك الصلاة؟ اما علمت ان‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» من الحمد فمن تركها فقد ترك آية و من ترك آية فقد أفسد عليه صلاته‏ و أخرجه الثعلبي عن طلحة بن عبيد اللّه مثله‏

، و أخرج الشافعي في الأم و الدار قطني و الحاكم و صححه و البيهقي عن معاوية انه قدم المدينة فصلى بهم و لم يقرء «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» و لم يكبر إذا خفض و إذا رفع فناداه المهاجرون و الأنصار حين سلم يا معاوية! أسرقت صلاتك؟ اين‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» و اين التكبير؟ فلما صلى بعد ذلك قرء «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» لأم القرآن و للسورة التي بعدها و كبر حين يهوي ساجدا، و اخرج البيهقي عن الزهري قال: سنة الصلاة أن يقرء بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ و إن اوّل من أسرّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة و كان رجلا حيييّا!

(1). كابن عباس و عمار و إسحاق و ابو ثور و ابو عبيد و ابو هريرة و ابن عمر و عايشة و ام سلمة و النعمان بن بشير و الحكم بن عمير و انس و بريدة و جميع من رووا حديثها عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عن و أئمة اهل البيت (عليهم السلام).

(2) رواه عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فيمن رواه علي بن أبي طالب (عليه السلام) و عمار و ابو هريرة و انس و ابن عمر انه صلى خلف النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أبي بكر و عمر فكانوا- يجهرون ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ و

النعمان بن بشير أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 75

فحتى و لو لم تكن آية فلتقرء قبل كل تلاوة لا سيما القرآن، فكل امر ذي بال لا يبدأ فيه‏ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ فهو أقطع أو أبتر أو أجذم كما في مستفيض السنة، فهلّا تكون الفاتحة أمرا ذا بال و في الصلاة و هي خير موضوع، و هذه عمود الدين و تلك عمود القرآن، إذا فالصلاة دون بسملة مقطوعة بتراء و اللّه منها براء.

و كما أن الفاتحة هي فاتحة الكتاب، فأولى بالبسملة لأنها فاتحة لكل كتاب من قرآن و سواه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: أتى جبرئيل فجهر بها، و الحكم بن عمير أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) جهر بها في المكتوبة و النافلة

، و

عن عائشة أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان يجهر بها،

و

أخرج الدار قطني عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): علمني جبرئيل الصلاة فقام فكبر لنا ثم قرء «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» فيما يجهر به في كل ركعة،

و أخرج الثعلبي عن علي بن زيد بن جدعان أن العبادلة كانوا يستفتحون القراءة ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ يجهرون بها و هم: عبد اللّه بن عباس و عبد اللّه بن عمر و عبد اللّه بن الزبير، و

أخرج البزار و الدار قطني و البيهقي في شعب الايمان من طريق أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) و عمارا يقولان: ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان يجهر في المكتوبات ببسم اللّه الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب،

و

اخرج الطبراني و الدار قطني و البيهقي في شعب الايمان من طريق أبي الطفيل و الدار قطني و الحاكم عن انس قال: سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يجهر ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏،

و

اخرج الدار قطني عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يجهر ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ في السورتين جميعا،

و أخرج عن ابن عمر قال: صليت خلف النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أبي بكر و عمر فكانوا يجهرون ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏، و

أخرج عن النعمان بن بشير قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أمّني جبرئيل (عليه السلام) عند الكعبة فجهر ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 76

فكيف لا يجهر بها أو تترك من أصلها و هي إعلان ثناء على اللّه و كما يعلن بالثناء على غير اللّه: «فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً» (2: 200) أشد نداء في الجهر به، و أشد ذكرا في إكثاره، و أشد تبركا في الافتتاح به و أشد معرفيا في عبوديته.

و لان القرآن هو كتاب من اللّه الى الناس ليحيدوا عن أخلاق النسناس نرى كتاب اللّه يبدأ باسم اللّه و يختم بالناس، إيحاء بأنه يحمل جميع رحمات اللّه، عامة رحمانية، و خاصة رحيمية للجنة و الناس و للعالمين أجمعين.

و كما التنزيل بازغ باسم اللّه كذلك التأليف، فهو البداية و هو النهاية، و هو المبدء و هو الغاية.

و لكي نقرء القرآن سورا أم آيات فلنبدء بالاستعاذة «فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ» (16: 98) فقل: أعوذ باللّه- او- أستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم.

يردّد المسلم هذه السورة قليلة الآيات، كثيرة الطويّات و المحتويات في الصلاة مرات و مرات، حين يقف بين يدي ربه مبتهلا، فارضا او متنفلا، و لا تقوم صلاة إلّا بها و كما

استفاض عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب.

و فيها من كليات التصورات الأصلية و العقيدة الإسلامية، و المشاعر السلمية السليمة، ما توحي بطرف من حكم اختيارها مناجاة في معراج الصلاة، فكل صلاة دونها باطلة، و كل صلات من دونها عاطلة، كما و كل صراط غيرها مائلة قاحلة.

ان الصلاة و هي خير موضوع، و قد وضعت الحمد قبلها كخير موضوع في خير موضع، إنها تتبنى أركانا معنوية هي الركينة فيها و قد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 77

تتبناها أركانها بسائر فروضها الظاهرية.

فلتعرف يا عارجا معراج ربك من أنت؟ و أمام من واقف أنت؟ و ماذا تعني فيما تفعله و تقوله أنت؟:

أنت اللّاشي‏ء حقا، مهما كنت شيئا بما هباك اللّه، فكلّ شيئك أمام ربك لا شي‏ء، فانه الواهب كل شي‏ء لكل شي‏ء! و هو كل شي‏ء إذ خلق الشي‏ء الذي منه كل شي‏ء لا من شي‏ء! أنت الفقير في غناك فكيف لا تكون فقيرا في فقرك، و هو الغني ..

اعرف من أنت، و أمام من واقف أنت، و ماذا تقول أو تعني بما تفعله أنت، و لتكن في صلاتك قطعا بصلاتك عما سوى اللّه، وصلة كلّك باللّه، و لا حول و لا قوة إلّا باللّه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ لأنها تحوي ما تحويه الحمد كما حوت هي القرآن كله، فالبسملة إذا هي القرآن كله، فعلينا التدبر فيها بكل إناقة و عملاقة لكي نحصل- لأقل تقدير- على الأصول الثلاثة، المستفادة من خماسية الكلمات في البسملة.

فالباء هي مثلثة المعاني مصاحبة و استعانة و ابتداء، و الاسم مسبّعة المصاديق، و الحاصل واحد و عشرون أكثرها معنية بالبسملة، و «بسم» تتعلق بالمعاني الثلاثة: أبتدء و أصاحب و أستعين باسم اللّه الرحمن الرحيم.

و هل الاسم من الوسم: العلامة؟ او السّمو: الرفعة؟ ظاهر الأدب لفظيا و المناسبة معنويا يساعد الوسم، قلبا للواو الى الألف خلاف السّمو، و أن الاسم علامة لمسماه و ليس يعلوه مرتفعا عليه.

إلّا أن وصليّة الألف حذفا لها عند الوصل، دليل لعدم أصالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 78

الألف بديلة عن الواو، ثم تصغيره على سميّ و جمعه الأسماء دليل حذف الواو عن آخره، و إلّا فلا سميّ و لا أسماء و لا حذف للألف عند الوصل لو كانت من الأصل.

إذا فالإسم من السّمو الرفعة، رفعة العلامة على المعلم، في الدلالة دون الرتبة، حيث الاسم يتقدم المسمى معرفة مهما كان المسمى يتقدمه مرتبة و رفعة.

و علّه مشتق من الوسم و السمو معا باعتبار المعنيين و اللفظ للسمو، فهو- إذا- علامة للشي‏ء تعلوه لتدل عليه، علوّ التدليل دون التعالي لديه، مهما كان أدنى منه او يساويه ام و يعلو عليه.

ثم الاسم منه لفظي هو الأدنى علامة فانه بالوضع، و منه عيني و هو أعلى منه حيث الدلالة ذاتية دون وضع، ثم الاسم العيني للّه تبارك و تعالى منه ذاتي كصفات ذاته الثلاث: الحياة و العلم و القدرة، أم فعلي كصفات الفعل المشتقة من صفات الذات، ام خلقي كسائر الخلق، فانه مثل للّه يدل عليه بما يفتقر في ذاته إليه.

1- فمن أسمائه اللفظية: اللّه- الرحمن- الرحيم» إمّا هيه.

2- و أسماؤه الذاتية هي واقع الحياة و العلم و القدرة.

3- و أسماؤه الفعلية هي واقع صفاته الفعلية.

4- و من أسماءه الخلقية كلّ الخليقة.

5- ثم الخاص منها أنت الواقف أمامه.

6- ثم الأخص منها العبادة فانها سمة من سماته.

7- ثم أخص الخواص هم أنبياء اللّه و أفضلهم خاتمهم و أئمة أهل بيته المعصومين. (عليهم السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 79

ففي اسمه اللفظي تأتي الابتداء و المصاحبة كما

يروى عن الإمام علي (عليه السلام): «إن العبد إذا أراد أن يقرء أو يعمل عملا فيقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏-

أي: بهذا الاسم أعمل هذا العمل، فكل عمل يعمل يبدأ فيه‏ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ فأنه مبارك له فيه» «1» ثم لا استعانة بهذا الاسم إلّا بضرب من التأويل.

و في أسماء الذاتية و الفعلية تأتي الاستعانة كما

عن الإمام علي الهادي (عليه السلام): «أستعين على أموري كلها باللّه الذي لا تحق العبادة إلّا له» «2»

و أما الابتداء فضلا عن المصاحبة فلا يناسبان هذه الأسماء، مهما صاحبنا اللّه بصفاته الفعلية ام و الذاتية بضرب من التأويل، و «الاسم صفة لموصوف» «3» و نحن لا نصاحب صفات اللّه او نبتدئ بها، فان صفاته تعالى تصاحبه ذاتية أم فعلية، و نحن نستعين بها فيما نروم من مرضاته.

و في أسماءه الخلقية بوجه عام لا مصاحبة و لا استعانة و لا ابتداء إلّا في مثلث الخواص، اللّهم إلّا مصاحبة في عبادة اللّه و السجود للّه‏ «لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (طَوْعاً وَ كَرْهاً) وَ ظِلالُهُمْ ..» (13: 15)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان نقلا عن تفسير الامام العسكري (عليه السلام) عن الامام علي (عليه السلام) و عن محمد بن جرير الطبري باسناده عن ابن عباس قال: ان اوّل ما نزل به جبرئيل على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال يا محمد قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال: قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏، قال قال له جبرئيل: قل بسم اللّه يا محمد! يقول: اقرء بذكر اللّه ربك و قم و اقعد بذكر اللّه:

(2) تفسير الامام العسكري عن الامام علي (عليهما السلام).

(3)

ابن بابويه بسنده عن ابن سنان قال: سألت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) عن، الاسم، ما هو؟ قال: صفة لموصوف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 80

و استعانة بهم فيما يصح سلوكا الى اللّه.

و في ذاتك كاسم من أسمائه الخلقية تأتي مثلث معاني الباء، مصاحبة و استعانة و ابتداء، أصاحب نفسي في عبادة اللّه و سواها فلأجرّدها عن الهوى حيث النفس آية من آيات اللّه فلتصاحب نفسها كآية تدل على اللّه.

و أبتدء بنفسي في العبادة و سواها مما يرضاه اللّه، حيث البداية في الخير بازغة بنفسك ثم من سواك: «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً».

ثم ابتداء بعبادة اللّه و بكل فعل يرضاه اللّه تقديما لمرضاته على سواه، و مصاحبة لها على أية حال، و استعانة بها في كل حل و ترحال: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ» (2: 45) و كما

عن الإمام الرضا (عليه السلام): أسم على نفسي سمة من سمات اللّه و هي العبادة و السّمة هي العلامة «1»

ثم ابتداء- في عبادة اللّه- برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أهل بيت الرسالة كدلالة للطريق فهم السبل إلى اللّه و الأدلّاء على اللّه.

و استعانة بهم في سلوكنا الى اللّه، و مصاحبة لهم، فما صحبة الرسول هي ملازمته في حياته الجسدية الدنيوية، بل هي صحبته في رسالته الإلهية، استنانا بسنته و اتباعا لشرعته و استجابة لدعوته، فهم القائلون «نحن أسماء اللّه الحسنى» و يصدقهم قول اللّه. «.. وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها» فإنهم الذوات القدسية من أهل بيت الرسالة المحمدية (عليهم السلام) كما «ثُمَّ عَرَضَهُمْ» يدل عليه حيث «هم» و هو لذوي العقول لا تعني إلّا إياهم!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 44 عن ابن بابويه القمي في توحيده باسناده الى علي بن الحسن الفضال عن أبيه قال سألت الرضا (عليه السلام) عن بسم اللّه قال ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 81

فنحن في مثلث الاستعانة المصاحبة الابتداء للسبعة أسماء اللّه، إلّا ما لا يناسب ساحته و سماحته، فابتداء كل أمر ذي بال ببسم اللّه توحيد للّه، و تركه إلحاد في اللّه، و إشراك غيره في الابتداء به ابتداع و إشراك باللّه، و كل ذلك- لأقل تقدير- في لفظة القول، و على الموحد أن يوحد اللّه قالا و حالا و افعالا.

و لأن الاسم في «بسم» جنسه لا شخصه، فقد تعني كلّ هذه الأسماء، حيث تتبنّاها «اللَّهِ- الرَّحْمنِ- الرَّحِيمِ».

فاللّه هو ذاته بصفاته الذاتية و الفعلية كما هو اسمه اللفظي، و الرحمن صفاته الفعلية العامة، و الرحيم هي الخاصة، و هما تعمان المنفصلة و سواها و هكذا تعني البسملة ما تعنيه السبع المثاني و القرآن العظيم جملة و تفصيلا! ثم‏ «اللَّهِ- الرَّحْمنِ- الرَّحِيمِ» أسماء ثلاثة تكفي عن سائر الأسماء و لا تكفي عنها سائر الأسماء.

ف «اللّه» هو اسم للذات المقدسة لا يسمى به سواه‏ «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» (19: 65) كلّا يا اللّه! و هو الاسم الأعظم الظاهر، كما «هو» هو الأعظم الباطن، و قد اشتقت منه كلمة التوحيد: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» حيث الّفت من حروفه الثلاثة، و كذلك «هو» في وجه‏ «1».

و فيما

يروى عن امير المؤمنين (عليه السلام) «اللّه» أعظم الأسماء من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من لطيف الأمر في ميّزات اسم الجلالة «اللّه» بين أسمائه الحسنى أنك كلما حذفت منها حرفا تبقى الدلالة على الذات المقدسة بحاله و محفوظة عن شريك ف «اللّه» تجده محذوف الالف في «اللّه» و محذوف اللّام ايضا في «إله» ثم محذوف اللام الثاني في «هو» حيث الواو ليست فيه متنا يبقى كما و تحذف في «هم- هما» ف «اللّه» و «هو» اسمان مختصان بالذات المقدسة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 82

أسماء اللّه و هو الاسم الذي لا ينبغي ان يسمى به غير اللّه لم يتسم به مخلوق».

فطالما المشركون يسمون أصنامهم و طواغيتهم آلهة، و لكنهم لم يسموها «اللّه» إذ كانوا يرونه الأصل في الألوهية فحادوا عن تسميتها باسم «اللّه».

فكما اللّه واحد في ذاته و أفعاله و صفاته كذلك في اسمه «اللّه» و قد ذكر في الذكر الحكيم (2697) مرة و هي اكثر بكثير من سائر أسماءه و أسماء من سواه، اهتماما زائدا به إلى مسماه، و أنه اسم للذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال جمالا و جلالا.

ثم «اللّه» علم للذات المقدسة، سواء أ كان أصله «الإله»، معرفا فعلم باختصاص، أم علما في الأصل عربيا كان أم عبريا او سريانيا، جامدا او مشتقا، كما اختلف فيه علماء اللغة و الأدب و احتاروا فيه كما احتار الفلاسفة و العرفاء في ذاته المقدسة و صفاته ذاتية و فعلية.

و على أية حال فالألف و اللّام فيه أصليان لا تسقطان و لا الألف، بخلافهما في التعريف و الوصل، فالهمزة أصل و ليست و صلا سواء أ كان أصلها غيرها و هي بديلها أم هي هيه، و حتى إذا كان للتعريف فهو الآن لا يحتاج إلى تعريف فمنسلخ- هو- إذا عن التعريف.

أو علّه ليس مشتقا من شي‏ء كما لا يشتق منه شي‏ء، فلا يقال اللّهي او الّاها أمّا هي.

و لان «اللّه» في العبرانية في الأصل «يهواه» و على الهامش «الوه» فقد نحتمل أنه معرب «الوه» أم و له أصل في العربية ايضا بين «إله» و «ولاه» هما من «الوه»-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 83

و لكن «إلوهيم» جمع «الوه» قد يجعل الأصل العبراني سواه، فإن اللّه لا يجمع، و قد لا ينافيه كما يجمع الإله ايضا بالآلهة و إن كان اللّه ليس ليجمع.

إذا ف «إلوه» هو «إله» يجمع ب «إلوهيم» في العبرية و ب «آلهة» في العربية و لكن «اللّه» لا يجمع بشي‏ء.

ثم الأصل العبراني ل «اللّه» علّه كما أنه «إلوه»: «إله» كذلك هو و بأحرى معنويا «يهواه».

و «اللّه» كاسم ظاهر للّه هو أقرب أسمائه إلى الاسم الباطن «هو» و علّه مشتق من «هو» كما هو مشتق من «إله» و قد تشهد له آياته ال «80».

ثم الأصل المشتق منه فعلا في العربية في نظره لغوية او سمع مما قدمناه بين «و له- اله- اله» و تناسبه كلها في معناه، و أصل هذه الثلاث «إله».

فهو من «اله» يعني عبد، و اللّه هو المعبود الحق و سائر الآلهة باطلة، أم من ألهت إلى فلان اي سكنت و لجأت حيث يطمئن و يسكن إليه‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (13: 28).

أم من الوله و هو ذهاب العقل و الحيرة الكاملة التائهة، و هو واقع لا مردّ له بالنسبة للسالكين في سبيل المعرفة فقد تاهت العقول عن كنه معرفته.

ام من «لاه»: ارتفع- لأنه المرتفع المترفع عن سائر الكون ذاتا و صفاتا و افعالا، و عن أن تطير إليه طائرات العقول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 84

ام من «أله فيه يأله إلها» إذا تحير، إذ حارت العقول عن كنه معرفته.

ام من «لاه يلوه» إذا احتجت حيث احتجب بكنه ألوهيته، فلا يرتفع حجاب ذاته للسالكين اليه و حتى لأوّل العابدين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فضلا عن سواه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا من هو اختفى لفرط نوره‏ |  | الظاهر الباطن في ظهوره‏ |

ام من «أله» الفصيل إذا ولع بأمه، حيث العباد يولعون به و يتضرعون إليه.

أم من أله الرجل يأله إذا فزع حيث الخلائق يفزعون إليه و يستجيرون به.

ثمانية معان عدد أبواب الجنة الثمان كلها واردة بحق اللّه تبارك و تعالى فانه- 1- المعبود- 2- المسكون إليه- 3- المؤله فيه- 4- المرتفع عن خلقه- 5- المتحيّر فيه- 6- المحتجب عن خلقه- 7- المولع به- 8- المفزوع إليه، و هي كلها منصوصة في روايات عدة متظافرة.

ثم «الرحمن» هي في الدرجة الثانية من صفاته و أسمائه الحسنى، فإنها الرحمة العامة بجميع خلقه، و لا تعم صفات ذاته فضلا عن ذاته، ف «اللّه» تعني الذات المقدسة بنوعي الصفات، و «الرحمن» تخص صفات الفعل المتشعبة عن صفات الذات: «العلم و القدرة و الحياة» فانها صادرة عن هذه الثلاث، كما هي و الذات واحدة وحدة الذات و صفات الذات، دون زيادة صفات على ذات و لا تعطيل للصفات.

ثم «الرحيم» هي الثالثة حيث تخص خاصة الرحمات و لا تعم عامتها، و هي و الرحمن مبالغتان في الرحمة، و لكنما الرحمن أبلغ من الرحيم لزيادة المبني و توسّع المعنى، و الرحيم أرق و أدق لأقلية المعنى كما و المبنى،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 85

مهما كان كيفها أعمق و اشفق:

تذكر «الرحمن» في ساير القرآن (57) مرة وحدها، أم مع الرحيم التي تقابلها، أم عامة الرحمات التي تفسرها، في حين لا نجد «الرحيم» في سائر القرآن ال (95) مرة، لا نجدها وحدها إلا قرينة بخاصة من الرحمات تدليلا على أنها أخص من الرحمن.

و الرحمة الرحمانية المطلقة ليست إلّا الخلق و الهداية. «.. الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) و هي الهداية العامة التي تعم كل شي‏ء.

و من ثم سائر الرحمات كلها رحيمية قياسا لها، مهما كانت بالنسبة لبعض البعض، رحمانية و رحيمية مع بعض.

«رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» رحمانية مطلقة، و «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ» رحيمية بالنسبة لمطلق الخلق، و لكنها رحمانية أمام‏ «وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» ثم و هذه الرحيمية رحمانية بالنسبة لرحمة الايمان في الإنسان المعلّم ما لم يعلم.

و فيما يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أئمة أهل بيته (عليهم السلام) تجاوب لطيف حفيف مع الآيات كما هي دأبهم دائبين مشيا على ضوء القرآن الكريم! «فالرحمن اسم خاص بصفة عامة و الرحيم اسم عام بصفة خاصة» «1» و من خاص الرحمن اختصاصها تسمية و معنى باللّه إذ لا يسمى بها سواه، و كما لا رحمة عامة لسواه، و الرحيم يسمى بها سواه كما الرحمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين عن الامام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 86

الخاصة، كما هي له تكون لسواه، مهما بان البون بين الرحمتين على أية حال.

كما و الرحمن خاصة بالأولى لعموم الخلق و الهداية فيها، دون الأخرى حيث المعاد في المعاد هم المكلفون فقط لا سواهم، و المرحومون بينهم هم المؤمنون لا سواهم، و الرحيم تعم النشأتين «فالرحيم أرق من الرحمن و كلاهما رفيقان» «1».

و قد تعم الرحمن الآخرة كما الاولى نسبيا «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ» (25: 26) فهو «رحمن الدنيا و الآخرة و رحيمهما» «2» حيث المكلفون كلهم يحشرون برحمة رحمانية كما خلقوا اوّل مرة ثم المؤمنون منهم يرحمون برحمة رحيمية.

و لأن الرحمة العامة أوفق بالأولى من الأخرى، كما الخاصة أوفق بالأخرى من الأولى، إذا ف «الرحمن رحمن الدنيا و الرحيم رحيم الآخرة» «3».

«وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 9- اخرج البيهقي عن ابن عباس عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حديث‏ تقسيم الحمد، بين اللّه و عبده فإذا قال العبد «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» قال اللّه: عبدي دعاني باسمين رفيقين أحدهما ارق من الآخر فالرحيم ارق من الرحمن و كلاهما رفيقان.

(2) المصدر-

اخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن سابط قال‏ كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يدعو بهؤلاء الكلمات و يعلمه: اللهم فارج الهم و كاشف الكرب و مجيب المضطر و رحمن الدنيا و الآخرة و رحيمهما ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك.

(3) مجمع البيان للطبرسي عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 87

(7: 156) فالرحمة الواسعة هي الرحمانية حيث تسع كل شي‏ء، و المكتوبة هي الرحيمية التي تخص المؤمنين المتقين.

و ما

«الرحمن بجميع خلق و الرحيم بالمؤمنين خاصة» «1»

إلّا بيانا لمصداق خاص للرحيم بين مختلف مصاديقها، فانها تعم الكافر الذي هو في سبيل الهدى كما تصرح لها آيات و تلمح لها أخرى، كما تعم السابقين و المقربين المخلصين، و بينهما متوسطون، و هم المؤمنون فعلا بدرجاتهم‏ «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» (9: 128).

ثم الرحمة و هي في الخلق رقة، ليست في الخالق كما هيه، فانه‏

«رحيم لا يوصف بالرقة» «2»

ان الرحمة ما يحدث لنا منها شفقة، و منها وجود، و ان رحمة اللّه ثوابه لخلقه، و الرحمة من العباد شيئان أحدهما يحدث في القلب الرأفة و الرقة لما يرى بالمرحوم من الضر و الحاجة و ضروب البلاء، و الآخر ما يحدث منا بعد الرأفة و اللطف على المرحوم، و المعرفة بما نزل به، و قد يقول القائل: أنظر إلى رحمة فلان، و إنما يريد الفعل الذي حدث عن الرقة التي في قلب فلان، و إنما يضاف إلى اللّه عز و جل من فعل ما حدث عنا من هذه الأشياء، و أما المعنى الذي في القلب فهو منفي عن اللّه كما وصف عن نفسه، فهو «رحيم لا رحمة رقة» «3».

فالرحمن و الرحيم هما من الصفات المتشابهة: كالسميع و البصير و أضرابهما، يجب ان تجرد للّه عن صفات الحدوث، مشاركة في الألفاظ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 44 محمد بن يعقوب باسناده عن عبد اللّه بن سنان قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن تفسير بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ فقال ...

(2) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

(3) في كتاب الإهليلجية عن الامام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 88

و مباينة في المعاني، فانه تعالى و تقدس «باين عن خلقه و خلقه باين عنه» و «لا يتغير بانغيار المخلوقين كما لا يتّحد بتحديد المحدودين» فإنما رحمته تعالى رحمانية و رحيمية هي معاملة الرحمة دون رقة في قلب أو سواه، إذ ليس له انفعال و انغيار أو رقة في قلب أو سواه، فصفات اللّه تعالى تفسّر كما يناسب ساحة الذات‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ‏ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

و إذا كان البدء باسم اللّه يمثّل ما يعيشه المسلم من الكلية الأولى من توحيد اللّه، فان استغراق الرحمة لحالاتها و مجالاتها رحمانية و رحيمية يمثّل كلية ثانية تقريرا لعلاقة المسلم في حياته كلها باللّه، عائشا في ظلال رحمته أينما حلّ و ارتحل.

و قد أجملت البسملة عن الأصول الثلاثة، ما توضّحه الفاتحة، و تفصّله القرآن العظيم.

«بِسْمِ اللَّهِ» تعني الفقر الى اللّه، و لزوم مصاحبة عبادة اللّه، تدليلا من رسول اللّه، و سواها مما تعنيه في مثلّث معاني الباء و مسبّع الاسم.

كما «اللّه» تدل على وحدانيته، حيث الكائن اللّامحدود و هو صرف الوجود بكافة اللّانهايات من كمالات الوجود، يستحيل تعدده، فان لزام التعدد وجدان كل ما يفقده الآخر و هو نقص وحدّ.

ثم الرحمن تدلنا على باسط رحمته و واسع رأفته، و قضيته‏ «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) و كما الأشياء درجات، فهدايتها درجات حسب الدرجات، و للإنسان و هو في أحسن تقويم أعلى الهدايات.

ثم الرحيم تقتضي هذه الرحمة الخاصة بالإنسان، و قضيتها هداية الوحي المعصوم بواسطة نبي معصوم حيث يحمل رسالة اللّه بهداه، و قضيته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 89

ثانية ضرورة المعاد «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» و لو لا المعاد لكانت رحمة الهداية زحمة، و كيف العالم القادر العدل الرحيم يترك القضاء العدل بين عباده؟ فإذ لا نرى جزاء وفاقا في الأولى فليكن في الأخرى «و لله الآخرة و الأولى».

فهذه جملة مما في البسملة من المبدء و المعاد و ما بين المبدء و المعاد.

و علّ من حكم تثليث الأسماء «اللَّهِ- الرَّحْمنِ- الرَّحِيمِ» لتشمل عباد اللّه أجمع‏ «فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ» (35: 32) فهو «اللّه» للسابقين إذ يعبدونه لأنه اللّه و تلك عبادة الأحرار، و هو الرحيم للمقتصدين إذ يعبدونه بين طامع في ثوابه و خائف من عقابه، و هو الرحمن بسائر خلقه من الظالمين من يعفى عنهم و من لا يعفى، فإنهم تشملهم رحمته الرحمانية في الدنيا مهما كانوا كافرين!.

و البسملة حتى الضالين من كلامنا كما علّمنا ربنا كيف نكلّمه في معراجنا، فانه تعالى لا يستعين أو يبتدء و يصاحب أمرا في أموره‏ «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» كما و أنه لا يعبد و يستعين و إنما يعبد و يستعان، و لا يطلب الهداية لنفسه إلى صراطه المستقيم، مهما يحمد نفسه ب «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» و لكنه ايضا إعلام و تعليم.

«بِسْمِ اللَّهِ» في كل ما عناه لأنه «اللّه» و «بِسْمِ اللَّهِ» لأنه «الرحمن» و «بِسْمِ اللَّهِ» لأنه «الرحيم» فإذا «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ».

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (2).

ان «الحمد له» تتلوا البسملة في الفضيلة فانها بداية كل امر ذي بال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 90

كما هيه‏

«كلّ أمر ذي بال لم يبدأ، فيه بحمد اللّه فهو أقطع» «1»

فانها بلام الجنس تستغرق كل حمد من كل حامد للّه دون إبقاء، إذ تستجيش له كل حمد دون سواه، أولا لأنه‏ «اللَّهِ- الرَّحْمنِ- الرَّحِيمِ» و أخيرا لأنه‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ‏. مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» دون سواه‏ «لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى‏ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (28: 70).

إنها فاتحة الكتاب كأول دعوى في الاولى، ثم في الاخرى لأهل الجنة هي آخر دعوى: «وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (10: 10):

و هي خير تحميد للّه تبارك و تعالى بخير أوصاف كما علّمها عباده المخلصين: «وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» «2» و أكمله‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» كما هنا و في سواها «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (40: 65) و قد ذكرت الحمد للّه رب العالمين قرينة بربوبيات خاصة (32) مرة في سائر القرآن، بيانا لربوبيته تعالى في مختلف الخلق و التدبير و يجمعه‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ».

و قد تشهد آيات من الحمد بخماسية السبب في اختصاص الحمد به دون سواه.

فلأنه اللّه: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ» (17: 111)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حديث مستفيض في الحمد و البسملة عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الائمة من آل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(2) فانها بنفس الصيغة تذكر في (6: 45) (10: 10) (37: 182) (39: 75) (40: 65).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 91

و لأنه الرحمن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ..» (6: 1).

و لأنه الرحيم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى‏ عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً» (18: 2) و لأنه رب العالمين في آيات خمس سوى الفاتحة و «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» (15: 98) و لأنه مالك يوم الدين: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» (39: 24) و هذه الخمس هي أسس الربوبية المطلقة تبتدء باللّه و تنتهي إلى‏ «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» و بينهما متوسطات‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ- الرَّحْمنِ- الرَّحِيمِ».

و يا له من تجاوب لطيف بين القرآن المحكم «الحمد» و القرآن المفصل في آيات الحمد ما يطمئن أن السبع المثاني صورة مصغّرة عن القرآن العظيم.

إن‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» هي «رأس الشكر» «1» و «فاتحة الشكر و خاتمته» «2» فائقا على النعم المشكور لها فلا قيمة لها أمامها «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 11- أخرجه جماعة من ارباب السنن عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ..

(2)

تفسير الفخر الرازي 1: 284 روي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان ابراهيم الخليل (عليه السلام) سأل ربه و قال: يا رب! ما جزاء من حمدك؟ فقال:

الحمد للّه، فالحمد للّه فاتحة الشكر و خاتمته.

(3)

الدر المنثور 1: 11- 12- اخرج جماعة عن انس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 92

و هي‏

كمال العقل في مدحته لربه‏ «1».

و كما لام الحمد تستغرقه للّه، كذلك اللام في للّه تختصه باللّه دون أن يعدوه إلى سواه.

و على الحامد للّه أن يحمده بفطرته و عقله و صدره و قلبه و لبه و فؤاده و كل جوانحه و جواره، فيصبح بكله حمدا للّه وفاقا بين جنباته دون نفاق، دون قولة فارغة منافقة يكذبها الجنان و سائر الأركان.

فعلينا أن نعيش‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» و نعيّش ب «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» في كل حل و ترحال، على أية حال و مجال، في كل فكر او فعل او قال حتى نصبح‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» تجاوبا مع الكون كله في محراب الحمد، من رعده و برقه و الملائكة من خيفته:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليه و آله و سلم): ما أنعم اللّه على عبده نعمة فقال: الحمد للّه الا كان الذي اعطى أفضل مما اخذه‏ و روى مثله عن جابر و الحسن عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

و

في تفسير الفخر الرازي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: إذا أنعم اللّه على عبده نعمة فيقول العبد «الْحَمْدُ لِلَّهِ» فيقول اللّه تعالى: انظروا الى عبدي أعطيته ما لا قدر له فأعطاني ما لا قيمة له‏

، أقول: و هذه نهاية الرحمة الإلهية و مما لا قدر له أنه علمنا الحمد له ثم وفقنا بالحمد له ثم قدر انه لا قيمة له!.

(1).

تفسير الفخر الرازي روى عن علي (عليه السلام) انه قال: خلق اللّه العقل من نور مكنون مخزون من سابق علمه فجعل العلم نفسه و الفهم روحه، و الزهد رأسه و الحياء يمينه و الحكمة لسانه و الخير سمعه و الرأفة قلبه و الرحمة همه و الصبر بطنه ثم قيل له تكلم فقال: الحمد للّه الذي ليس له ند و لا ضد و لا مثل و لا عدل الذي ذل كل شي‏ء لعزته فقال الرب: و عزتي و جلالي ما خلقت خلقا أعز عليّ منك:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 93

«وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» (13: 13) و من كل شي‏ء: «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44).

و من لزام الحمد معنويا أن يشفّع بالتسبيح، تسبيحا بحمده، حيث الحمد ثناء على ثبوتية الصفات، فلأنها فيما نعرفه من صفات تصاحب خالجة الإمكانيات الخارجة عن ساحة الذات، نسبّحه بحمده عن صفات الممكنات، فنعني من حمده بعلمه و حياته و قدرته نفي الجهل و الموت و العجز عن ذاته حيث الثابتات منها في معروفنا ممكنات و لا نستطيع تصورها كما يناسب ساحة قدسه‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 16):

لذلك لم يرد في ساير القرآن حمد بألسنة غير المخلصين من المكلفين، إلّا اللّه حيث يحمد نفسه، فهذا نوح يؤمر: «فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (23: 28): و إبراهيم‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ» (14: 39) و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» (27: 93) و داود و سليمان‏ «وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ» (27: 15) إلّا ما حكاه عن أهل الجنة و هم المطهرون من خطأ القول و خطله: «وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (10: 10).

فنحن إذ نؤمر بالحمد في الحمد و في ساير الأحوال فلنشفعه بتسبيحه حتى يكون كما وصفه عباده المخلصون: «وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (7: 180).

و الحمد- ككل- هو الثناء الجميل على الجميل ذاتا و أفعالا و صفات، ف «اللّه» حمد للذات بصفات الذات، و «رَبِّ الْعالَمِينَ» حمد لصفات الفعل و الأفعال، فهو «الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 94

كما و أسماءه جميلة: «لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها» (7: 180) كما و ذاته أجمل الذوات.

ثم و كل جمال و كمال في الخلق فائض منه و راجع إليه، فليختص به الحمد كلّه، كشعور يفيض به قلب المؤمن حين يذكر اللّه، في كل خطوة و في كل لحظة أو لمحة، و في كل خالجة او خارجة، كقاعدة رصينة للتصور الايماني المباشر المعاشر.

فليكن‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» كما البسملة في موقعها اللائق و هو كل أمر ذي بال، و لا أقل من أقل الحلال، فإنها في غير الحلال تستبع‏ «اسْتَغْفِرِ اللَّهَ».

ثم الرب هو المالك المدبر المتصرف للإصلاح و التربية اللائقة السابغة، فمن مالك لا يدبّر جهلا أو عيّا او بخلا أمّاذا، و من مدبّر لا يملك المدبّر حتى يسطع على إصلاحه كما يحبّ و يجب، و هذا و ذاك هما مطلق التدبير و الملك، و للّه الربوبية المطلقة لا يعرقلها اي مانع و لا يردعها اي رادع، لا كربوبية الخلق دون الأمر، و لا الأمر دون الخلق‏ «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (7: 54).

و كما ربوبية الخلق تعم الخلق لا من شي‏ء كالخلق الاوّل، و الخلق من شي كسائر الخلق، كذلك ربوبية تدبير الأمر و هي هداية كل شي‏ء لشيئه: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) من جماد و نبات و حيوان و الملائكة و الإنس و الجان أم أيا كان، فلكلّ سبيل يسلكه بما هدى اللّه، تكوينية و غريزية و تشريعية أماهيه؟.

فإطلاق الربوبية للعالمين دون إبقاء هو نظام التوحيد الحق و جاء فوضاها التي تفسح لغير اللّه مجال ربوبيات أو تسمح، و قد تطاردها براهين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 95

العقل و الآيات حيث توحّد الربوبية في اللّه و توحده في كافة الربوبيات.

و هذا هو مفرق الطريق بين نظام الربوبية و فوضاها، تزيل كل شائبة و كل غبش و هاجسة عن توحيد اللّه، هذه التي تعزل الرب عن الحياة و تصرفاتها، انقساما في الألوهية بين الذات و الصفات و الأفعال.

«رَبِّ الْعالَمِينَ» هو مالكهم و خالقهم و سائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون و من حيث لا يعلمون، فالرزق معلوم مقسوم و هو يأتي ابن آدم على أي سيرة سارها من الدنيا ليس تقوى متق بزائده و لا فجور فاجر بناقصه، و بينه و بينه ستر و هو طالبه ..) «1».

و العالمين هم الخلق أجمعين، و هو جمع العالم من العلم العلامة، او من العلم المعرفة، و كل العالم علامة للخالق و آية، و كل العالم يعلم ربه و يسبح بحمده، و جمعه السالم سليم عن الشذوذ، ففيما يعني الخلائق أجمعين هو ترجيح لجانب العقلاء بينهم برزخا وسطا من الحقيقة و المجاز، ام هو حقيقة تحتاج الى قرينة كما هنا و في سائر ال (73) موضعا من الذكر الحكيم، اللّهم إلّا فيما يخص ذوي العقول، كذكرى القرآن: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْعالَمِينَ» (6: 90) و الرسول: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» (12: 104) و رحمة الرسالة: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» (41: 107) و نذارتها «لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1).

حيث القرآن، و الرسول برسالته و نذارته يخصّان العقلاء المكلفين دون سائر العالمين، و لان الملائكة غير مكلفين برسالة القرآن و منهم الرسل الى الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ليست لهم شهوة النفس حتى يسمى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عن الإمام علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 96

تكليفهم تكليفا، و لم يرد في القرآن، و لا لمحة أنهم مكلفون بالقرآن، و أن اقل الجمع ثلاثة، فليكن بعد عالم الإنس و الجن ثالث لأقل تقدير ام يزيد لكي يعنيهم «العالمين» و قد تلمح لهم آية الشورى: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» حيث الدابة العاقلة في السماوات الراجع إليها «هم» فيمن هو راجع إليه، ليست هم الملائكة، فهم إذا ثالث من العالمين أم و يزيد.

لا تجد في ساير القرآن «عالما» إلّا «العالمين» جمعا للخلائق أجمعين، ام خاصا بالمكلفين، فليعن ضروب المكلفين في أبعاد الزمان و المكان دون إبقاء.

و أفضل الربوبيات- هي طبعا- لأفضل البريات، و هو الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم، فشريعة الإنسان شرعة لسائر المكلفين، كما رسول الإنس رسول لهم أجمعين، مهما كانوا أدنى من الإنسان كالجان، ام بمستواه في حسن التقويم كمن لا نعرفهم لحد الآن.

ثم الأفضل الأحسن بينهم! و الأكثر حظوة من هذه الربوبية القمة هو الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فانه أول العابدين‏ «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ».

تلك هي الربوبية الوحيدة الموحدة اللائقة بالذات المقدسة دون الضئيلة المحددة التي اختلقتها ركام الظنون و الأساطير و التصورات الخاوية و الجارفة المجازفة، خليطة من حق و أضغاث الباطل، فإذا الحق يعرض بصورة الباطل، و الباطل يفرض بصورة الحق، و هنالك استحوذ الشيطان على أوليائه و نجى الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى.

لقد كانت البشرية تعيش تيها لا قرارة فيه، لضخامة الركام الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 97

كان يبتليه، فجاء الإسلام فأخرجها من الظلمات إلى النور، إلى صراط العزيز الحميد، من ظلمات الفلسفات و الهرطقات التي تخبطت فيها، إلى نور الحق المبين بالقرآن المتين و الرسول الأمين.

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3).

أ تراهما مكرورتان و بفاصل آية واحدة؟ حسب الظاهر نعم، و في الحق لا! حيث البسملة على كونها آية و أفضلها، هي بنفسها مكرورة للفصل كما للفضل، فليست- إذا- لتحلّ محل الآي في كل سورة، فالرحمتان هما كآية مستقلة في صلب السورة بعد ان كانتا بعض آية من البسملة، تأكيدا للسمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة، و تأبيدا لها في كل مقالة و مجالة، و تثبيتا لقوائم الصلة الدائبة بين الرب و المربوبين، التي تقوم على الطمأنينة و تنبض بالمودة.

و قد تعنيان في البسملة رحمن الدنيا و رحيمها و في الحمد له رحمن الآخرة و رحيمها، أم هناك تعم الآخرة و الأولى، و هنا تخص الآخرة كما تلمح لها «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

فحتى و لو كانتا مكرورتين بنفس المعنى، ففي التكرار عناية ليس في الوحدة، فرب العالمين ليس ليطارد المربوبين مطاردة الخصوم كآلهة الأولب في أساطير الإغريق، فحتى فيما له غضب، لم يكن إلّا و قبله منه نضب، فقد سبقت رحمته غضبه، لا يعذب عباده المستحقين إلّا اقل ما يستحقون، ما لولاه لكان إجحافا بالصالحين، و حيفا للطالحين، حيث الإنذار له موقعه في ترك المحظور، و الإنذار؟؟؟ عن واقع العذاب إدغال و تدجيل و إغفال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 98

مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4).

إنه دون ريب «مالك» في كتب القرآن تواترا دون خلاف، و هل يصح «ملك» كما صح «مالك»؟ فيه روايتان عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) متهافتتان، فإنهما متفقتان في «كان يقرأ» مختلفتان في «مالك» و «ملك» فالاستمرارية المستفادة من «كان يقرأ مالك» تنفي «ملك» كما المستفادة من «كان يقرأ ملك» تمنع «مالك» و الثلاثة المشتركون في روايتهما تزيد تهافتا فيهما على ما كان، و بعرضها على القرآن يصدق «مالك» لا سواه، و مثلهما المرويتان عن الصادق (عليه السلام) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

فقد اخرج جماعة من ارباب السنن عن ام سلمة و انس و سعيد بن المسيب و البراء بن عازب و الزهري و أبي هريرة عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه كان يقرأ «ملك» من دون الف،

كما

اخرجوا عن انس و سالم عن أبيه و الزهري و ابن شهاب و أبي هريرة و ابن مسعود عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه كان يقرأ «مالك» بالألف‏ (الدر المنثور 1: 13- 14).

فالثلاثة: انس- ابو هريرة، و الزهري مشتركون في نقل الروايتين فالتعارض فيهما منهم من ناحيتين، مهما كان سائدا من جهة واحدة في رواية غيرهم فأم سلمة و سعيد بن المسيب و البراء بن عازب يرون كلمة واحدة «ملك» ثم سالم عن أبيه و ابن شهاب و ابن مسعود يروون «مالك».

و قد يجمع بينهما أنّ الناقل «ملك» ظن «مالك» في امالة القراءة «ملك».

و

من طريق أصحابنا روى العياشي في تفسيره عن محمد بن علي الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه كان يقرأ «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»

و

روى عن داود بن فرقد عنه (عليه السلام) قال‏ سمعته (عليه السلام) يقرأ ما لا احصى «ملك يوم الدين».

و قد قرأ عاصم و الكسائي و خلف و يعقوب «مالك» و الباقون «ملك» و هذا تعارض القرائتين، و المتعارضان رواية و قراءة معروضان على القرآن، و هو يصدق في متواتر كتبه «مالك».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 99

و القول بالتخيير بين «مالك و ملك» لا يلائم الروايتين و لا القراءتين، و هو مخالف للقرآن، و إضافة إلى أن السنة ليست لتخالف القرآن، كيف تثبت سنة في مثل هذه المسألة العامة الدائمة الابتلاء، بمثل هذه الرواية المبتلاة بمعارضة؟

و لو أن الآية كانت نازلة بهما لكانت مثبتة فيه بهما، أم ثابتة كما القرآن ب «مالك» و بمتواتر السنة «ملك» فالأقوى بل القوي انحصار القراءة في «مالك» و انحسارها عن «ملك» و كيف يترك القرآن المتواتر برواية غير متواترة، و لا يترك حتى بمتواترة، اللّهم إلا تواترا يوازي القرآن في التخيير بين القراءتين، و هنا واحدة تحمل «ملك» قائلة أن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ام حفيده الصادق (عليه السلام) كانا يقرءان «ملك» و هو على ضعفه في أصله يرفض «مالك».

«مالك» في ساير القرآن يذكر هنا و في‏ «مالِكَ الْمُلْكِ» (3: 26) ثم «ملك» في خمس: «فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» (20: 14) و 23: 116) «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ» (59: 23) و 62: 1) و «مَلِكِ النَّاسِ» (114: 2).

و من ثم «الملك» تأييدا للملك في (24) موضعا، و من مجموع ال (29) نرى الملك قرينا بيوم الدين في اربع: «قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» (6: 73) «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (40: 16) «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ» (22: 56) «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ» (25: 26).

أ ترى أن اكثرية الملك بقرينة ترّجحه في الفاتحة على «مالك» ام- لأقل تقدير- تسمح له بديلا عن مالك؟

كلّا! فانها إنما ترجّح في غير القرآن ترجيحا لصدور الراجح على المرجوح، و أما القرآن الثابت دون ريب فلا تراجح فيه صدورا، و قرن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 100

الملك بيوم الدين لا ينفى الملك فإنهما متلازمان في اللّه، مهما كان بينهما عموم من وجه فيمن سوى اللّه.

ثم الملك ليوم الدين و الأمر فيه و من فيه نجده في آيات أخر، مما يجعله مثلثا فيه دون إبقاء لأي ملك فيه إلّا و يحويه: «فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» (54: 55) شاملة لها كلها «يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» (82: 19) شمولا للأمر كله‏ «وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (43: 86) «فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ» (34: 42). «رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً» (78: 37).

ثم هنا ليس من الملك و الملك إلّا المجازي المستودع لبعض ما في الزمان و المكان، دون الزمان أيا كان و أيّان، و دون المكان إلّا خصوص ما يملكه ملكا او ملكا، فقد يملك الملك و قد لا يملك، كما قد يكون المالك ملكا و قد لا يكون، و فيما يجتمعان يختصان ببعض المكان، و بعض ما- او- من في الزمان و المكان.

و لكن اللّه مالك و ملك لمثلث الزمان و المكان و ما في الزمان و المكان ملكا و ملكا حقيقيا لا حول عنه، فالكون أيا كان لزامه ذاتيا في العمق أنه مملوك للّه و هو مالكه و ملكه، إذ «بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (36: 83) و هي حقيقة الملك و الملك، و الملك أعمق تدليلا على السلطة المطلقة من الملك و إن كانت الحقيقة منهما متلازمتان دون فكاك و لا احتكاك، حيث المالك يملك العبيد و ليست لهم أية خيرة أمام المالك، و للملك سلطة على الرعية و لهم حق المطالبة بما يرونه حقهم، فلكي تجتثّ خالجة أيّة خيرة للعبيد يوم الدين ياتي هنا «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» دون «ملك» و هما للّه سيّان! حيث العبيد أدون حالا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 101

من الرعايا.

ثم المالك ليوم الدين على وجه الإطلاق يملك كل مالك بملكه و كل ملك بملكه حيث يملك مثلث الزمان و المكان بما فيهما، و لكن الملك قد يكون بجنبه مالكون، فالوجهة العامة في التصور عنهما تصور المالك المطلق أملك من الملك المطلق، مهما كانا في اللّه على سواء، و هو ملك كما هو مالك، و لكنما أم القرآن بسبعها المثاني تقتضي أمّ التعبير، و «مالك» أمّ ل «ملك» و إلى سائر التعبير كما الدين حيث يشمل كل ما في القيامة و هو أبرز سماته و حجر الأساس من كل خصوصياته.

إذا فهو مالك لكل كائن و ملك على كل كائن، ملكا و ملكا للزمان و المكان و ما فيهما، و من الهراء القول أن «مالك» لا يناسب‏ «يَوْمِ الدِّينِ» حيث لا يملك الزمان، فانه يخص كل زماني دون خالق الزمان! و إذا كان هو مالك الزمان فلما ذا خص هنا ب «يَوْمِ الدِّينِ» و هو مالك يوم الدنيا كما يملك يوم الدين؟ كما و أنه مالك الملك يوم الدنيا و يوم الدين.

إنه ليس في الحق من الإختصاص، فانما ترجيح ذكرا ليوم الدين، فان آيته تخص الإنذار بيوم الدين، و في عرض مالكيته بخصوصه تهيّؤ أكثر و تهيّب للمصدقين بالدين، و لان مالكيته يوم الدنيا كانت قرينة في طولها بمالكية عرضيّة مستودعة لأهل الدنيا، و هذه منفية عن أهلها يوم الدين‏ «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» فان قال «ملك الأيام» لم يكن بذلك التحديد و التهديد، حيث الملوك و الملّاك يوم الدنيا مخيّرون بجنبه فيما يفعلون و يفتعلون، فعلّهم كذلك يوم الدين، فلا يصل الى كل ذي حق حقه! و أما «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» فقد يحصر المالكية له يوم الدين دون سواه و إن مستودعا باختيار لاختبار، فإنهما ليسا في عقبى الدار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 102

كما و ان مالكيته الحقيقية تبرز لنا كريها يوم الدين، و تزداد ظهور و بهورا لمصدّقيها يوم الدين، و في هذه الأربع كفاية لظاهر اختصاص «مالك» هنا ب «يَوْمِ الدِّينِ».

و الدين في الأصل هو الطاعة و الشريعة، شريعة الطاعة و طاعة الشريعة، عنيت منه في (47) موضعا في القرآن، مهما عني الجزاء بها يوم الجزاء في (15) موضعا آخر.

و لكنما الجزاء على طاعة الشرعة و عصيانها هي بروز لحقيقة الطاعة أو عصيانها، فلها إذا يومان، يوم التكليف بها و هو الاولى، و يوم ظهورها بحقيقتها و هو الأخرى‏ «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (27: 90) فالدين هو الطاعة للشّرعة كما هو ظهورها جزاء في الآخرة «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» تعني الثانية مهما يملك يوم الأولى كما هيه.

فلأن بروز الطاعة بحقيقتها هو جزاءها في الأخرى، تسمى يوم الدين، كما المالكية الإلهية بارزة يوم الدين اكثر مما هي يوم الدنيا، تختص هنا بيوم الدين.

كما و أن من أيام اللّه‏ «وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ» (14: 5) هي الأيام التي تبرز فيها شريعة اللّه و حكمه و طاعته، و هي على الترتيب يوم الرجعة و الموت و القيامة، فيوم الدولة المهدوية (عليه السلام) من أيام اللّه حيث تظهر فيه شرعة اللّه كما في قسيميه مهما اختلف ظهور عن ظهور، كما و قد تظهر قبل دولة المهدي (عليه السلام) موضعيا و على هامشها فله نصيب من أيام اللّه قدر ما له نصيب من تحقيق شرعة اللّه.

و مالكية يوم الدين تمثّل قاعدة ضخمة رزينة رصينة، عميقة التأثير في حياة التكليف، فكثيرون يدينون بألوهية اللّه و خالقيته- أم- و توحيده، و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 103

يدينون بيوم الدين، عائشين حياة اللامبالاة و الأريحيّة إذ لا يخافون يوما آخر للدين، و آخرون يدينون بيوم الدين معتبرين استمرارية الملك و الملك فيه لآخرين، فهم يملكون فيه إعفاء أو تخفيفا أو إفلاتا عن حكم أحكم الحاكمين.

و إذ كان اللّه لا سواه‏ «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» يملك يومه بمن فيه و ما فيه من حساب و ثواب و عقاب او توبة و شفاعة و عفو أو إعفاء، إذا فلا مجال لأمنيّات كاذبة كاسدة رخيصة في فوضى الحساب و الجزاء يوم الدين، ف «الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» (82: 19) و «إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ» (88: 26) و «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ».

و قد تعم‏ «يَوْمِ الدِّينِ» مثلث أيام اللّه، مهما كان الأصل هو القيامة الكبرى إماتة و إحياء، فالبرزخ برزخ في الدين، و دولة المهدي (عليه السلام) ساعة من ساعات الدين كما هي من أشراط الساعة الدين.

و «يوم» هنا مطلق الزمان، محدودا كما لأهل النار، و غير محدود كما لأهل الجنة، «يَوْمِ الدِّينِ» كمطلقه غير محدود فإن لأهل الجنة «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

و لأن «الدين» هو أبرز سمات ذلك اليوم و أجمعها، يختص السبع المثاني بذكره، إشارة إلى كل سماته في القرآن العظيم، إجمالا يشير إلى تفصيل، و كما هو سائر في آياتها السبع.

فالقيامة بتدميرها و تعميرها و حسابها و سائر ما لها من أسماء بسماتها، مطوية في «الدين» فانه ظهور الطاعة و خلافها، فهو الأصيل الأصيل، و هي كلها من فروعها و آثارها، و قد دلت عشرات من الآيات على انعكاس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 104

الأعمال كلها يوم الدين، و أنها هي بنفسها الجزاء، و أنّ الدين الحق هو الميزان لثقل الميزان و خفته‏ «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» فالقيامة هي يوم الدين الشّرعة و الكتاب ميزانا، و الدين الطاعة و المعصية ظهورا، و الدين بحقيقته جزاء وفاقا.

هكذا يكون آيات السبع المثاني بكلماتها، نماذج رئيسية محكمة عن تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5).

العبادة هي الانتصاب للمعبود في منصب المعبودية، استجاشة لكل الطاقات و الإمكانيات في جانحة او جارحة لخدمته، بكل ذل و انكسار، بعيدا عن كل عزّة و استكبار، و هي درجات كما الاستكبار دركات، و لأن العبد «المملوك» قد يملك بعضه و يملك في بعض، لمالك او مالكين، و هو مطلق العبد، و آخر يملك كله لشركاء متشاكسين و هو العبد المطلق و لكن ليس في إطلاق العبودية و إخلاصه لمالك واحد، و قد يملكه مالك واحد و لكنه يستسلم له مع أهواء آخرين، و ذلك الثالوث خارج عن مغزى‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» فإنها عبادة خالصة للّه رب العالمين، بملكية حقيقة لا تشذ عن ذاته و لا عن عبادته شيئا لغير اللّه و في غير اللّه.

و هي جوهريا تنافي الاستكبار: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ» (40: 60) كما الإخلاص فيها ينافي الإشراك لها: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (18: 110) كما و بأحرى ينافي الإشراك فيها «وَ قَضى‏ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (17: 23).

إن المعبود الحق و هو اللّه يملك عبادا سواك‏ «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 105

السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا» (19: 94) و لكنك لا تجد معبودا بحق سواه، و هو يربّيك كأن ليس له عبد سواك، ثم أنت تعبده- ان كنت عابده- كأن لك أربابا سواه! إنه لا بد لك من معبود حقا أو باطلا، و قولة القائل: إن العبودية ذلّ أيا كان المعبود، و الإنسان عزيز أيا كان، فليرفض العبودية لايّ كان، إنه هرطقة هراء، و اللّه منها براء.

أجل إن العبودية الذل أمام الذليل و الأذل كما يفعلها الذين يعبدون من دون اللّه، إنها ذلّ و ظلم و مس من كرامة الإنسان، و لكنها أمام اللّه عز و عدل و فضل يرجع إلى الإنسان، و لا يتحلّل أي ذي حجى أم ذي شعور عن عبادة مّا حقا أو باطلا.

و بصيغة مختصرة محتصرة إن في الكون إلهين اثنين معبودين: حق و باطل، فالباطل هو عبادة النفس و الهوى، و الحق هو عبادة اللّه على هدى، و ليست عبادة من سوى اللّه إلّا ناتجة عن عبادة الهوى: «وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى‏ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (38: 26).

و مثلا على العابدين الإنسان أيا كان، و حتى الذي يدعي الألوهية من دون اللّه، فإن له إلها و آلهة من أصنام و أوثان، مهما كان هو طاغوتا لمستضعفي الإنسان، و لأقل تقدير هو يعبد نفسه و هواه‏ «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ» (45: 26).

إنه ليست للّه تعالى حظوة في عباداتنا، فنحن الذين نحظوا بعبادته، حظوة معنوية لأنها اتصال معرفي باللّانهاية في الكمال، و أخرى حيويّة أخرى، أنه يدلنا بها إلى التقوى و يردعنا عن الطغوى: «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 106

هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» (51: 58) «يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (2: 21).

و الناس بين من يعبد اللّه وحده على درجاتهم، أم يعبده مشركا في عبادته، أم مشركا به معبودا سواه، ام لا يعبد إلا سواه، بديل ألّا يعبد إلّا إياه‏ «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» فضلا عن تخصيص العبادة لغير اللّه.!

إن العبودية العادلة الحكيمة هي مفرق الطريق بين التحرر المطلق عن كل عبودية، و بين العبودية لغير اللّه من طواغيت، و أوثان و أصنام و نظم و أوهام و عادات و أحلام، فالناس بين عابدين لغير اللّه، و مدعين التحلل عن كل عبادة و عبودية حتى اللّه، مفرطين فيها أو مفرّطين عنها، رغم استحالة التحلّل عن أية عبادة و عبودية، فإنهم يعبدون شهواتهم و مشتهيات غيرهم من طواغيت ثم يدعون التحلل عن كل عبودية و لهم منها أبطلها و أحمقها!.

فإذا يعبد الإنسان ربه الخالق له المدبر أمره فهذه مفخرة له إذ ترفع من كيانه، و حين يعبد أضرابه أو من دونه فقد حطّ من كيانه كإنسان، و ردّ إلى أسفل سافلين.

ثم و «نعبد» قد تكون من العبودة كما هي من العبادة، فمن العبودة الرضى بلا خصومة، و الصبر بلا شكاية، و اليقين بلا شبهة، و الشهود بلا غيبة، و الإقبال بلا رجعة، و الإيصال بلا قطيعة.

و من العبادة الصلاة بلا غفلة، و الصوم بلا غيبة، و الصدقة بلا منة، و الحج بلا إراءة، و الغزو بلا سمعة، و الذكر بلا ملالة، و سائر العبادات بلا أية رئاء و سمعة و آفة.

ف «نعبد» تشمل بإطلاق التعبير كلا العبادة و العبودة كما كلّ منهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 107

درجات و في التخلف عنهما دركات.

و هنا في‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» انتقالة من غياب الحمد إلى حضور العبادة و الاستعانة، حيث المعرفة البدائية و هي شرط العبادة، هي غائبة بطبيعة الحال، و من ثم إلى حضور المعبود المعروف بما عرّف نفسه و تعرّفنا إليه في خطوات سابقة سابغة: «بِسْمِ اللَّهِ‏- إلى- مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» أنت قبل صلاتك منشغل عن اللّه بمشاغل الحياة و شواغلها، فلما تكبّر و تعني به أنه أكبر من أن يوصف، تأخذ في التغافل عما سوى اللّه و الانشغال باللّه، و لكي تتهيّأ لحضوره في معراج الصلاة تقدّم ما تقدّم على‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ ..» و حين تكمّل أصول المعرفة و الدين بالبسملة- إلى- مالك يوم الدين، هنا يسمح لك أن تخاطب صاحب المعراج ب «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

فمن قبل كنت في غياب هو مطلق الحضور، و أنت الآن في الحضور المطلق.

ف «اعبد ربك كأنك تراه و إن لم تكن تراه فإنه يراك».

في‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» خرق لكافة الحجب ظلمانية و نورانية، و هو مجال فاسح لمقام التدلّي في «أو أدنى» بعد ما «دنى» فالدنو المعرفي العبودي كقاب قوسين، يعني أن ليس بينه و بين اللّه أحد، ثم التدلي هو أن ينمحي العابد عن نفسه كما محّى ما سواه فلا يبقى إلّا حجاب الذات المقدسة و هو لزام الألوهية: بيني و بينك إني ينازعني- فارفع بلطفك إني من البين.

اللّه تبارك و تعالى حاضر لدى كل كائن، و ناظر إليه رقيب عليه، و هو أقرب منه إليه‏ «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» قربا علميا و قيوميا، لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 108

ذاتيا او زمانيا و مكانيا فانها بعد في ساحة الألوهية، و مس من كرامة الربوبية:

فلتكن في حاضر خاطرك، في علمك و عملك، في سرّك و علانيتك، في جوارحك و جوانحك، حاضرا لديه، أقرب منك إلى نفسك فضلا عما سواك، انمحاء لنفسك لكمال الحضور، فانعدم هنا عن كافة شخصياتك و تعلقاتك أمام ربك حتى تنوجد متعلقا بل و تعلقا بربك متدليا به.

أم تحضر بحضرته كما أنت حاضر لنفسك، ام- لأقل تقدير- كما أنت حاضر عند عزيز من أعزتك و أنت تراه، أم و ادنى منه أنه يراك، آه يا ويلنا و نحن بعيدون في معراجنا عن هذه الأربع، بل نجد كل ضالة سوى اللّه في صلاتنا! أ فنحن أضعف من نساء في المدينة بالنسبة لحضرة يوسف‏ «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» و يوسف عبد من عبيد اللّه، فهن؟؟؟ أنفسهن فيقطعن أيديهن من جمال الحضور، و نحن نتثاقل عن معراج الصلاة لحد النفور، فأين تفرون؟! فليكن المصلى في معراجه حضورا مطلقا لدى ربه دون غياب، فان إليه الإياب و عليه الحساب و هو رب الأرباب.

تتقدم «إياك» هنا على «نعبد و نستعين» تدليلا على حصر العبادة في اللّه و للّه، و حصر الاستعانة في اللّه: نعبدك أنت لا سواك، و نستعينك أنت لا سواك، تعبيرا عبيرا عن‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

تتقدم، لأن اللّه أحق في التقديم عليك و على عبادتك بكل موازين التقديم، فمن أنت حتى تتقدم على ربك و إن في حضرة العبودية، و ما هي عبادتك حتى تتقدم على المعبود في حضرته؟! و «نعبد .. و نستعين» جمعا ليس جمع التعظيم للمفرد حيث المقام مقام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 109

التطامن و التذلل، فإبراز نفسك كفرد زائد أمام ربك فضلا عن جمعك.

و إنما يعني أمورا عدة بين راجحة و مفروضة، و كلها مفروضة في شرعة المعرفة.

فلكي لا تكذب في صلاتك ادعاء لحصر عبادتك في اللّه، تدمج نفسك في جموع العابدين، من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين، من السابقين و المقربين و أصحاب اليمين، حتى تصدق دعواك في حصر العبادة، فان المخلصين صادقون في حصرهم بأسرهم، فأنا- إذا- قائل عنهم، و ناقل منهم و ان لم أكن بنفسي أهلا لتلك الدعوى، فلّعلي أسير بسيرتهم فأكون معهم‏ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (4: 69).

فإذا أنت تقبل حق العبادة أيها الرب الجليل، فاقبل مني أنا الذليل البائس الهزيل، تلك العبادة الخليطة بعبادات المخلصين.

ثم دمجا لنفسي في كل العالمين ممن يعبده و يسجد له طوعا أو كرها ف «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً» و الكون محراب فسيح تعبد فيه الكائنات ربها بلسان فصيح و غير فصيح.

و لأن الصلاة جماعة أحرى أم هي مفروضة كأصلها «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» هي حكاية الحال الحاضرة و المقال لجموع المصلين، و معنا ملائكة اللّه إن كنا في صلاتنا فاردين، و معنا سائر الكون على أية حال.

و حتى إن كنا في حصر العبادة للّه صادقين، علينا أن نخفي أنفسنا في جموع العابدين تحرزا عن الإنّية و الظهور، و إعفاء لأثر الشخوص و الغرور، فلا أنا لائق للإشخاص و الشخوص، و لا عبادتي تليق بحضرة المعبود، إذا ف «نعبد و نستعين و اهدنا» في مثلث من انمحاء الشخصية أمام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 110

حضرة المعبود.

إن العبودية المطلقة تقتضي الطاعة المطلقة و بينهما عموم مطلق، فكل عبودية طاعة و ليست كل طاعة عبودية اللهم إلّا مطلق العبودية الجامعة مع الشرك خفيا و جليا.

و لماذا تنحصر العبادة بأسرها في اللّه؟ لأنه «اللّه- الرحمن- الرحيم- رب العالمين- مالك يوم الدين» و كل من هذه برهان تام لا مردّ له على ضرورة الانحصار.

فهو «اللّه» في مثلث الزمان و قبله و بعده، سرمديا ما له من فواق و لا رفاق، الكمال المطلق الصادر منه كل كامل و كمال‏ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟ «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ»؟! و هو «الرحمن» لا سواه، قبل أن يخلقك و بعد خلقك، لا رحمان إلّا إياه، «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ» «أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ»؟!.

و هو «الرحيم» بمن يستحق خاصة الرحمات لا سواه.

و هو «رَبِّ الْعالَمِينَ» لا ربّ سواه خلقا و لا تدبيرا، فمن ذا نعبد إلّا إياه؟

و هو «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ليس إلّا إيّاه فكيف نعبد سواه، و إليه الإياب و عليه الحساب؟

فإن كنت تعبد ما تعبد حبا للكمال المطلق فهو اللّه فلا تعبد- إذا- إلّا إياه.

و إن كنت تعبد استدرارا للرحمة أم إدرارا فالرحمة المدرار خاصة باللّه فلا تعبد إلا إياه، شكرا و استكمالا به، و احتراما لديه ما أنت المحتاج إليه دونه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 111

و إن كنت تعبد لمكان الربوبية فلا تعبد إلّا إياه فانه- فقط- رب العالمين لا سواه:

و إن كنت تعبد طمعا في الثواب أو خوفا من العقاب فلا تعبد إلّا إياه فانه- فقط- «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» لا سواه:

فمثلث: العبادة الحرة و طلب الثواب و خوف العقاب، منحصر في اللّه منحسر عن سواه، فكيف- إذا- تعبد سواه و قد «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»؟! ثم الواجب في شرعة التوحيد عبادة الذات «اللّه» حضورا و إدراكا:

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» «و من زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب» عبادة من لا يحضره فلا يعرفه اللّهم إلّا بما أنعم، فلولا النعمة لم تكن عبادة! و «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» تنافي الغياب، فاللّه تعالى حاضر لك و أقرب إليك منك، فلتكن حاضرا لديه علما به و إدراكا دون إحاطة، فلو كانت عبادتك بالصفة الفعلية فهي إحالة على غائب، و كثير هؤلاء الذين يعبدون الغائب:

«و من زعم أنه يعبد الصفة و الموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف» و هي الصفة الفعلية دون الذاتية فانها عين الذات، فعبادة الذات بصفة الفعل، أم بصفة الذات اعتبارا لها زائدة على الذات، إنها ناحية عن خالص التوحيد إلى خالص الشرك أم شائبه، حيث الثانية شرك في الذات و شرك في العبادة، أن تعبد الذات بصفات الذات كأنها زائدة على الذات، و الأولى شرك في العبادة أن تعبده لأنه «الرحمن الرحيم- رب العالمين- مالك يوم الدين» فإنها عبادة التجار و العبيد دون الأحرار، حيث يعبدون اللّه لأنه اللّه، و مهما صحت الثلاث و قبلت، إلّا في شرك الذات- فالعبادة الصحيحة هي عبادة الذات سواء كانت للذات فقط، أم للذات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 112

و الصفات تعليلا لعبادة الذات، و أما أن يعبد الذات و الصفات ذاتية او فعلية، او يعبد الصفات كما هيه، أو يعبد الصفات تفريعا عليها الذات، فكل ذلك إبطال للتوحيد فذلك بين إشراك و إلحاد! «و من زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير» «1» حيث يجعل الصفات أصلا يفرّع عليها الذات، ففي عبادتهما هكذا مع بعض شرك أنحس من التسوية، و في عبادة الصفات أصالة بتفريع الذات انزلاق إلى إلحاد، و في عبادة الذات بأصالة الصفات، أن يعبده هو لهذه الصفات، تحلّل عن عبادة الأحرار إلى العبيد و التجار «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» (6: 91).

فالعبادة درجات: 1- خوفا من عذاب اللّه و هي عبادة العبيد و كثير ما هم و 2- طمعا في ثواب اللّه و هي عبادة الأجراء و هم أقل منهم‏ «2»- 3 أن تعبد اللّه لأنه اللّه و هم أقل قليل و كما

عن مولانا امير المؤمنين علي (عليه السلام): ما عبدتك خوفا من نارك و لا طمعا في جنتك و لكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك‏ «3».

و هذه المراتب مطوية في‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» في ظلال ما قبلها، «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» لأنك اللّه، فأنت أهل أن تعبد «لا نريد منك غيرك، لا نعبدك بالعوض و البدل كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يرويه إخواننا عن الامام الصادق (عليه السلام) و بين الأقواس بيانات منا.

(2)

الكافي محمد بن يعقوب باسناده عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان العباد ثلاثة قوم عبدوا اللّه عز و جل خوفا فتلك عبادة العبيد و قوم عبدوا اللّه طلب الثواب فتلك عبادة الاجراء و قوم عبدوا اللّه حبا فتلك عبادة الأحرار و هي أفضل العبادة.

(3) مرآة العقول للمجلسي من باب النية ج 2 ص 101.

(4) تحف العقول عن الامام الصادق (عليه السلام):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 113

و إياك نعبد لأنك «الرحمن- الرحيم- رب العالمين» طمعا في رحمتك و ربوبيتك:

و إياك نعبد لأنك‏ «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» طمعا في ثوابك او خوفا من نارك و هذا أضعف العبادة.

و هذه الدرجات الثلاث كل منها درجات كما أن عبادة غير اللّه دركات.

و كما «الْحَمْدُ لِلَّهِ» تتبنّى هذه الخمس، كذلك‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» فإنه كمال الحمد.

و كما أن عبادة التأليه تخصه، كذلك عبادة الطاعة، و عبادة الأفعال و الأقوال، فالقول: لو لا اللّه و فلان لما نجحت إشراك في القول، و سجدة الاحترام و ركوعه لغير اللّه إشراك في فعل الاحترام، و الطاعة المطلقة لغير اللّه إشراك في طاعة اللّه، و إن كان‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» و لكنها طاعة للّه دون سواه.

و لماذا تتقدم‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» على‏ «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»؟ و الاستعانة لزام العبادة، حيث الموكول إلى نفسه على توفّر العراقيل بينه و بين ربه ليس ليعبد ربه؟

علّه حث لاستجاشة الطاقات و تكريس الإمكانيات ل «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» ثم إكمالها ب «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فالعبادة هي فعل العبد مشفوعا بعون اللّه، فعليك الحركة، و على اللّه البركة، رفضا للاتكالية في الأمور المختارة، و تحريضا على السعي ثم الاستعانة في كماله و إنتاجه.

كما و ان الاستعانة تعم العبادة و سواها، و العام يذكر بعد الخاص تعميما له و لسواه، «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» في‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» و في كل ما ترضاه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 114

ثم العبادة لا تنحصر في مجالات الذكر و الصلاة و الحج: فانها تشمل كافة حركات الحياة و سكناتها، فلتكن كلها صلاة للّه وصلات باللّه لتصبح الكل عبادة للّه.

و لأن العابدين فرادى و جماعات لا يقدرون على إخلاص العبادة للّه لضعفهم في أنفسهم و وجاه عرقلات الشياطين، فلا حول عن معصية اللّه إلّا بعصمة اللّه، و لا قوة على طاعة اللّه إلّا بعون اللّه، فعلينا الاستعانة باللّه في‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» كما في سواه، استعانة تكوينية و تشريعية في: كيف نعبده، هديا إلى صراط مستقيم في عبادته، و في تحقيق حق العبادة الخالصة هديا إلى الصراط إيصالا إلى المطلوب منه، فلو لا الإعانة تشريعية و تكوينية لم تتحقق العبادة اللّائقة الخالصة.

«إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» على طاعتك و عبادتك‏

«و على دفع شرور أعدائك و ردّ مكائدهم و المقام على ما أمرتنا به» «1»

و «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»: استزادة من توفيقه و عبادته و استدامة لما أنعم اللّه عليه و نصره‏ «2» «وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»: أفضل ما طلب به العباد حوائجهم‏ «3».

و لماذا «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» دون «بك نستعين»؟

لأن بينهما فارقا و النص يوحي بتوحيد الأولى دون الثانية، سامحا للاستعانة بغير اللّه في اللّه و إلى اللّه حين يأذن اللّه و يرضى، فالمستعان- فقط- هو اللّه، ثم المستعان به في اللّه و إلى اللّه في إعانة هو اللّه و من يأذن به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(2) من لا يحضره الفقيه عن العلل عن الرضا (عليه السلام).

(3) مجمع البيان عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 115

اللّه، حيث الدار دار الأسباب، و إن كان اللّه قد يقطع الأسباب كأيّة رسالة أو كرامة أو عناية خاصة بمن يحبّ و يرضى.

ففي توحيد الاستعانة باللّه منع عن كل استعانة بغير اللّه، و أمّا التوحيد في استعانته فهو سائد في الاستعانة بما يأذن به اللّه كما في الاستعانة باللّه.

فكما «الْحَمْدُ لِلَّهِ» و العبادة للّه، كذلك المستعان هو اللّه لا سواه، و مهما حمدنا سواه و استعنّا بسواه فلسنا لنعبد سواه إذ «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ».

فنحن «نستعين» بهدي الرسول اللّه في: كيف نعبده‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ».

و «نستعين» باستغفار الرسول اللّه في غفرانه كما أمر اللّه: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64).

كما «نستعين» بدعاء الرسول و شفاعته اللّه بإذنه «لا يملكون الشفاعة إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38).

او «نستعين» اللّه بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذويه (عليهم السلام) في كشف الكربات و دفع الأذيّات و أضرابها من حاجات كوسائل كريمة مأذونة لم تخرج عن توحيد استعانة اللّه، ابتغاء الوسيلة إليه بإذنه:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (5: 35).

وسيلة مشفوعة بالتقوى و الجهاد، دون اكتفاء بها و استقلال لها متاركين التقوى فيها و الجهاد، و إنما استغلالها بأمر اللّه و إلى ابتغاء مرضات اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 116

فليس لنا ان نتوسل بكل شي‏ء إلى اللّه، و لا أن نؤصّل شيئا فيما نبغي أمام اللّه فنستقلها بجنب اللّه.

إذا فاللّه يستعان فقط دون سواه، و بغير اللّه يستعان إلى اللّه و في اللّه بإذنه و رضاه، فقد نستعين اللّه فيما نستعين به ممن سوى اللّه، لأن الإعانات كلها من اللّه، و راجعة إلى اللّه، بوسائط أم دون وسائط، و لكنما الوسيط في الاستعانة تكوينا و تشريعا لا بد له من إذن اللّه، و كما استعان ذو القرنين في بناء الردم بمن ظلموا: «قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً» (18: 95).

إذا فالاستعانات الإيمانية بإذن اللّه كلّها استعانة اللّه، و هي هي اللّاإيمانية إشراك باللّه أو إلحاد في اللّه.

فالتوسل بالأصنام و الأوثان أو عبادتها ليقربوكم إلى اللّه زلفى، أم يؤثّروا تأثيرات، استعانة بغير اللّه فيما منع اللّه شركا باللّه أو إلحادا في اللّه.

كما التوسل بالأحجار و الأشجار أماذا من جمادات و نباتات أم حيوان و إنسان أم ملك أو جان أم أيا كان، كل ذلك توسّل شركي إن توسلت بها إلى اللّه، أم إلحادي فيما تستقلها من دون اللّه.

فنحن نتعاون في اللّه: «تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى‏ وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ» (5: 2) و نستعين بعبادة اللّه: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ» (2: 45) و نستعين برسل اللّه و كل الهداة الى اللّه تعرفا الى مرضاة اللّه، و كلّ ذلك استعانة اللّه و استعانة باللّه‏ «وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ» (12: 112).

و الضابطة السارية في الاستعانة بغير اللّه في اللّه و إلى اللّه في أمور عادية غير عبادية، أن تكون مأذونة بالوحي بصورة خاصة أو عامة، فعدم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 117

الإذن- إذا- دليل المنع لأن منصب العون خاص باللّه فضلا عن المنع.

و من المأذونة بصورة عامة هو التعاون و الاستعانة في كافة الأمور و المشاغل الحيويّة المباحة، و هي في غير المباحة- فقط- غير مباحة دون شرك أو إلحاد، إلّا إذا أشركت باللّه أم استقلّت بجنب اللّه.

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) هل يصح «السراط» كما في الشواذ؟ كلّا و إن اتحد المعنى، حيث النص المتواتر هو «الصراط» مهما كان أصله اللغوي من سرط الطعام‏ «1».

و هو هنا الدين ككل لأنه مؤدّ إلى استحباب الثواب و استدفاع العقاب، طريقا قاصدا و منهجا رائدا و بيانا زائدا يوصل إلى الهدف المقصود.

إنها خير دعاء و استدعاء في قلب السبع المثاني، و هي قلب الصلاة، كما هي قلب العبادات فإنها خير موضوع، و إن لها خير موضع في خير موضوع، فإنها بعد خطوات المعرفة و العبودية و الاستعانة، فلأن الدعاء هي مخّ العبادة فلتكن في مخّ العبادة.

و إنها دعاء لا يستغني عنها أحد من عباد اللّه حتى أسبق السابقين و أقرب المقربين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و آله الطاهرين (عليهم السلام) فضلا عمن دونهم من سائر المخلصين و المخلصين و عباد اللّه أجمعين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 1: 14- اهدنا السراط بالسين عن عبد اللّه بن كثير و ابن عباس و في أسانيد عن ابن عباس «الصراط» و كما أخرج الحاكم و صححه و تعقبه الذهبي عن أبي هريرة ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قرء «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 118

و لأن موقع الدعاء هو أقرب حالات القرب إلى اللّه، فدعاء الهداية و هي قمّة الدعاء أصبحت رابع الخطوات، بعد المعرفة الغائبة في‏ «بِسْمِ اللَّهِ‏- الى- مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم الحاضرة بخالص العبادة في‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» ثم أخرى هي بخالص الاستعانة، فلما اكتملنا خطواتنا الثلاث و وصلنا إلى القمة المقصودة، فلكي نثبت على ما نحن عليه من الهدى، ثم نستزيد هدى على هدى، نقول: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ».

و الهداية هي الدلالة بعطف و لطف بكل مرونة و ازدهار، دون أية خشونة و استكبار، و حتى بالنسبة لأكبر المستكبرين فرعون: «فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً. لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» (20: 44).

ثم من الهدى- و هي رحمة- عامة تعنيها «الرحمن» و خاصة تعنيها «الرحيم» و هنا أخصّ تعنيها «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» و الخلق في مثلث الهدى درجات حسب الدرجات.

1- و رحمانية الهدى هي تكوينية لا سواها: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) مهما اختلفت درجات الخلق و بمستواها هداها، و هي لزام كلّ خلق دونما حاجة إلى استدعاء، فالقوانين المحكّمة على المادة تكوينية دونما استثناء، من كيماوية و فيزيائية و فيزيولوجية نباتة أم حيوانية أم إنسانية أمّا هيه- و الكون كله على صراط مستقيم في هذه الهداية الإلهية دونما تخلّف و اختلاف، حيث الربوبية الإلهية مستقيمة دون خلاف‏ «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (11: 56):

2- و من ثم تكوينية رحيمية كما في هدى العقل و الفطرة: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» (90: 10) و هما لكافة المكلفين من الملائكة و الجنة و الناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 119

أجمعين امّن هم ممن لا نعرفهم؟ و نحن نطلب فيما نطلب تجلّي الفطرة و زيادة العقل، لكي نهتدي إلى صراط مستقيم.

3- أم تشريعية ككلّ شرعة إلهية: هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى‏ وَ الْفُرْقانِ‏ و هذان حاصلان لكل مكلف قدر تكليفه، فلولاهما لم تك من المصلين حتى تطلب الهداية، إذا فلا دعاء لهما و لا استدعاء اللهم إلّا تداوما فيهما و استزادة، أن يزيدنا لبّا و نورا و فرقانا لتعرّف أعرف إلى شرعته.

4- ام رحيمية تكوينية هي التوفيق لقبول الهداية لمن يتطلّبها «فَرِيقاً هَدى‏ وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» (7: 30) فكذلك الأمر، فلولا قبول الهدى لما اهتديت إلى الصلاة:

5- ام هي واقع الهدى بعد الاهتداء إليها توفيقا لمزيد الإيمان و عمل الصالحات: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ» (10: 91) «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (5: 116) فهذه من أحسن الدعوات و أفضل المستدعيات لأن هديها من أفضل الهديّات.

6- ام هي التوفيق لدوام الهدى و الثبات عليها بعد الوصول إليها: أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ (60: 90) و منها العصمة و التسديد في البقاء على هدي الصراط المستقيم‏ «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74) «وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا» (17: 86).

7- أم هي استزادة من هدي الصراط المستقيم‏ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 120

حيث الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو «لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» يتطلّب في صلواته ليل نهار هدي الصراط المستقيم، فضلا عمن دونه في صراطه.

8- ام هي- أخيرا- صراط الجنة الأخرى على هدي الجنة الأولى، التي هي جنّة عن كل ضلالة في الأولى و الأخرى: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ (7: 43) و هي في الأخرى جنتان ثانيتهما و أولاهما جنة المعرفة و الرضوان: «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».

فبالسبعة الأخيرة من هذه الثمان:- عدد أبواب الجنان- نغلق أبواب النيران و نفتح أبواب الجنة الثمان: فأولى الهدى هي الفطرة و العقل، غير مكسوفة بطوع الهوى، و أخراها هي لمن بلغوا الذروة من الرعيل الأعلى و بينهما متوسطات، و لكلّ نصيب مما كسبوا و ما ربك بظلام للعبيد، و العطيّات حسب القابليات، و الطرق إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق، فما من أحد إلّا و هو يحتاج هدي الصراط المستقيم.

و لماذا نطلب هداية الصراط المستقيم، دون الهداية «إلى» أم «على» أم «ل»؟ علّه لأن الهداية «إلى» لا تعم الهداية «على» و هي الحيطة الشاملة على الصراط المستقيم، فإنها واقع الهدى، لا السبيل إليها و الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو على صراط مستقيم، مهما كان إليه في البداية:

«قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً ..» (6: 161) فقد كان إليه ثم أصبح عليه فكيف يتطلّب «اهدنا إلى او على الصراط المستقيم»! ثم الهداية «على» تخص أهلها الخصوص، و الهداية «ل» أمر بين أمرين، و دعاء الهداية في الصلاة تعم عامة المصلين، و أما هدى الصراط المستقيم فهو يعم مثلث الهدى!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 121

فهدى الصراط المستقيم في مثلّث و لكلّ درجات، و لأن دعاء الهداية عامة فلتشمل كافة المتطلّبين، حتى و من هو على صراط مستقيم، أم هو هو صراط مستقيم حيث يهدي إليه‏ «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (42: 52).

إذا «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» تعم الهداية «إلى» و «ل» و «على» ثم و أعلى منها كالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذويه الذين هم- فعلا- على صراط مستقيم.

و الجمع في «اهدنا» كما الجمع في «نعبد و نستعين» يجمع في دعاء الهداية كل العابدين اللّه و المستعينين اللّه في مثلث الدرجات، من هو مثلك أو دونك أم فوقك، و حاش للّه أن يستجيبك فيمن فوقك كما هي طبيعة الحال، ثم يتركك بمن هو مثلك أو دونك على ما أنتم، و هذه من أسس الدعاء أن نجمع إلى أنفسنا غيرنا من صالحين و طالحين، ليستفيد الطالحون، و يفيدنا الصالحون.

كما «الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» دون إليه أو عليه لمحة إلى أن القصد دمجنا في الصراط المستقيم، و دمجه فينا حتى نصبح نحن الصراط المستقيم، و لكي نثبت عليه و نهدي إليه، في أيّة درجة من مدارجه.

و نحن نطلب هداية الدلالة و التوفيق و الإيصال لما لم نصله حتى الآن، و التثبيت على أصل الهدى التي وصلناها حتى الآن، تثبيتا حتى لا نرجع القهقرى، و دلالة لما فوقها بمعنييها تكاملا إليها، فنحن- إذا- في أبعاد أربعة من تطلّب الهدى.

و الصراط- كما السراط- من سرط الطعام إذا ابتلعه و زرده بسهولة و دون إبقاء، فهو السبيل المستسهلة السوية التي يبتلعها سالكها أو تبتلعه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 122

منحدرة إلى المقصود، ضامنة لسالكها أن ينحدر و لا ينهدر.

و المذكور منه في ساير القرآن (45) مرة، موصوفا في كله بالمستقيم أو ما يعني معناه كالعزيز الحميد (14: 1) و الحميد (22: 24) ام‏ «سَواءِ الصِّراطِ» (38: 22)- «صِراطاً سَوِيًّا» (19: 43) مما يدل على أن هناك صراطا غير مستقيم و لا سوي، مضادا لصراط العزيز الحميد كصراط الجحيم. احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى‏ صِراطِ الْجَحِيمِ (37: 23) فهو- إذا- صراط المغضوب عليهم و يتلوه صراط الضالين.

فصراط المغضوب عليهم إلى الشيطان ثم إلى الجحيم يسرطهم ابتلاعا دون إبقاء، فيوصلهم بلا هوادة إلى الجحيم.

ثم الضالين يسرطهم صراطهم ابتلاعا في ابتلاء الضلال، فلا يدعهم ليهتدوا، فهم من‏ «بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» فقد انقسم الصراط إلى ثلاثة، نهتدي إلى قسم المستقيم‏ «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ».

فهنا طريق ثم سبيل و من ثمّ صراط هو أبلجه و أنهجه، و هو المستقيم للمنعم عليهم.

فالطريق هي التي تطرق و يمشى عليها باستواء أو ارتفاع أم انحدار، فمنها ما هي إلى الجنة: «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى‏ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» (46: 30) و ما هي إلى النار: «إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً» (4: 196) ثم هي بين طريق باطن كما هما، ام و ظاهر: «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً» (20: 77).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 123

و السبيل هي الطريق المنحدرة المسبّلة للسالكين، فهي أخص من الطريق و أكثر استعمالا في غير الظاهر، و أسهل سلوكا للسالكين، و لكنها- على انحدارها- قد توصل إلى المنزل المقصود بسهولة أو صعوبة و قد لا توصل، فلذلك قد تجمع كما الطريق، فليست واحدة إلّا طريق او سبيل مستقيم:

«وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (6: 153).

فالسبل منها سبل السلام و منها دون ذلك، و الصراط المستقيم إلى الحق سلام و ليس دون ذلك: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (5: 116) فسبل السلام هي درجات لا تخلو إلّا واحدة منها من ظلمات يخرجهم اللّه منها فيستخلصون إلى صراط مستقيم ليس فيه أيّ ظلام، مهما كان هو أيضا درجات حسب الدرجات.

فبين نقطة العبودية و الربوبية صراط مستقيم بين سبل السلام، كما هي بين كافة السبل، و من ثم هي ايضا بين كافة الطرق.

خط مستقيم لا عوج له و لا حول عنه، بين سائر الخطوط الملتوية، منحنية او منكسرة، موصلة على عقباتها أم غير موصلة.

و للصراط المستقيم درجات أعلاها صراط الرب‏ «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (11: 56) صراط يخصه لربوبيته، لا شريك له فيه و لا يشرك فيه أحدا، إذا فلسنا نطلبه من ربنا و لا أوّل العابدين، و كما لسنا لنطلب صراط الهدى التكويني، الرحمانية الأولى، فإنها كائنة لزام كل خلق على أية حال! و أين صراط من صراط؟

و أدناها «الصورة الإنسانية التي هي الطريق إلى كل خير، و الجسر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 124

الممدود بين الجنة و النار» (48) ظرفا صالحا كأصلح ما يكون لتطلّب الصراط المستقيم، و لكنها كائنة لكل إنسان أيا كان، و حتى من انكدرت فطرته و غرب عقله، فهذا يستدعى ربه أن يهديه إلى صورته الإنسانية حتى يهتدي بها إلى صراط مستقيم، و لأن الصورة الإنسانية درجات سبع، من الروح و الفطرة و العقل و الصدر و القلب و اللب و الفؤاد، فالمستدعاة منها- إذا- لكلّ صورة تلو بعض، ليستعدّ السالك براحلته في هذه الرحلة المدرسية العالية، معرفة بربه ثم عبودية، إذ لا عبودية إلّا بعد شي‏ء من المعرفة تجذب إلى عبودية.

و بينهما متوسطات من الصراط، كصراط العبودية: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (3: 51) و هذا الصراط لزام عشير منذ الأول حتى الأخير، راحلة و وسيلة و غاية، فبإقدام العبودية و المعرفة يحضر العبد محضر الربوبية الذي هو الصراط المستقيم.

و هو اعتصام باللّه: «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (3: 101) فلا عصمة في هذه الرحلة دون اعتصام باللّه إلّا انفصاما عن العروة الوثقى، و لا اعتصام إلا بعصمة المعرفة و العبودية.

كما الاعتصام و الايمان به ذريعة إلى صراط أعلى مستقيم: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» (4: 174) فلا اعتصام إلا بإيمان كما لا إيمان إلا باعتصام بعشيريهما المعرفة و العبودية.

و هذه كلها لا تحصل إلّا على ضوء هدي القرآن: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 125

نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (5: 116) حيث القرآن أقرب السبل الواضحة المعصومة من اللّه إلى اللّه، يعرّفنا كيف نؤمن باللّه و نعتصم باللّه و نعرف اللّه و نعبد اللّه، مخطّئا كلّ خالجة خارجة عن الحق في هذه الرحلة.

و إلّا على هدي رسول القرآن: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (42: 52) حيث الرسول كما القرآن بيان من اللّه يبيّن القرآن و يفسره، و في سنته ما لا يتوضّح من القرآن، فهو صراط مستقيم كما القرآن، يهديان إلى صراط مستقيم:

ثم الإسلام المطلق بالعبودية الضافية، و التوحيد بالمعرفة الصافية هما الصراط المستقيم، نتذرّع إليهما بالصورة الإنسانية و بالعبودية و الايمان و الاعتصام باللّه، على ضوء هدي القرآن و نبي القرآن: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ. وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» (6: 126) «قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (6: 161) فالهدف هنا ليس هو الرسول و القرآن، فإنما هما بما معهما من وسائل زاد للسالك إلى الصراط المستقيم: إسلام التوحيد و توحيد الإسلام، كما و الصورة الإنسانية هي الظرف و الراحلة، و لكلّ درجات حسب درجات السالكين.

فالرسول الهادي إلى صراط مستقيم، و هو على صراط مستقيم، ليس ليتطلّب لنفسه ما هو عليه و يهدي إليه، و إنّما صراطا مستقيما أعلى لنفسه، كما الاستمرار على صراطه المستقيم، ثم و صراطا مستقيما يهدي إليه لمن دونه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 126

فهو- إذا- في مثلث الدعاء لمثلث الصراط له و لآخرين، و قد يجمعها «رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» (3: 8) في بعدي التثبيت و الاستزادة، و كما

يروى انه‏ «استرشاد لدينه و اعتصام بحبله و استزادة في المعرفة لربه عز و جل و كبرياءه و عظمته» «1»

و

«أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك فيما مضى من أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا .. و هو ما قصر عن العلو و ارتفع عن التقصير فاستقام فلم يعدل الى شي‏ء من الباطل» «2»

و

«أرشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك و المبلغ دينك و المانع من ان نتبع أهواءنا فنعطب او نأخذ بآرائنا فنهلك» «3».

كل ذلك يعنيها الرسول في «اهدنا» لغيره تحصيلا لما قصروا عنه و تثبيتا لما حصلوا عليه، و لنفسه تداوما لعصمته و تكاملا لمعرفته.

و نحن أيضا مع الرسول نتطلب لأنفسنا و له و لمن دوننا من هذه السبعة من الصورة الإنسانية- العبودية- الإيمان الاعتصام باللّه- كتاب اللّه- رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الإسلام للّه و توحيد اللّه، سبعة في قلب السبع المثاني يجمعها «الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» و لكلّ درجات، كما لكلّ أهل، فلا يستعني عنها ككلّ أي من العالمين و حتى أول العابدين، حيث يطلب لنفسه استدامة ما هو عليه و استكماله، و لآخرين ما ينقصهم من درجات الصراط المستقيم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 51 عن ابن بابويه في الفقيه عن الامام الصادق (عليه السلام).

(2) المصدر عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

(3) المصدر عن الامام الرضا (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 127

و إن كانت هذه السبع بين درجات ثلاث من أصل الصراط المستقيم، كالعبودية الخالصة للّه، و الإسلام له و التوحيد الخالص، و المعرفة به و من الذرايع إليه، و هي إلى الصراط المستقيم، كالإيمان و الاعتصام باللّه و عبوديته على ضوء القرآن بنبي القرآن، و من الظرف الصالح له كالصورة الإنسانية، فإنها راحلة للسالك، فكيف تطرق الطريق دون أيّة راحلة صالحة، و العبودية وسيلة هي أحرى منها غاية، حيث الغاية هي الزلفى و المعرفة، و لكن العبودية هي لزامها على طول الخط، فكلما ازدادت العبودية ازدادت المعرفة و كلما ازدادت المعرفة ازدادت العبودية.

فإسلام التوحيد و توحيد الإسلام بمعرفة و عبودية قمة هي الغاية المقصودة، و غيرها بين ظرف و وسيلة.

فالإسلام التام هو العبودية التامة، و التوحيد التام هو المعرفة التامة.

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» يمثّل الأولى الغاية، و «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» الثانية الوسيلة، و العبد يمثّل الظرف: الثالثة، بالفطرة و العقلية السليمة حيث تتقبل هذه و تلك.

و لأن النص هنا «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» فقد يشمل مثلث الصراط بمسبّعه، به و إليه و إياه، فأكمل بها دعاء و أجمل.

ثم فاعتراف الجمع في «نعبد و نستعين» و الدعاء للجمع في‏ «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» ذلك الجمع المثلث هو قاعدة الإيمان الجماعي التي تمثّل جامعية الإسلام و اجتماعيته، حتى و في صلاته حيث تضم ضمن الصلاة للّه صلات بعباد اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 128

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ (7).

و النّعمة- كسرا- هي الحالة الحسنة حسية و روحية، تأتي في سائر القرآن (34) مرة و هي فتحا- حالة رديئة تقليبا لنعمة اللّه كفرا و نعمة: «وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ. وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ» (44: 27) «ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا» (73: 11) و هل تصح «سراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و غير الضالين»؟ كما قرء في الشواذ «1» قطعا لا، لمخالفتها النص المتواتر في القرآن مهما اتحد المعنى أو صح اللفظ و هو لا يصح.

فلأن الصراط قد يكون مستقيما بين نقطتي العبودية و الربوبية، أم غير مستقيم يفرّق بالسالك عن سبيل اللّه او يحرّجه، أم هو بين نقطة العبودية و الشيطنة و هو صراط الجحيم، لذلك يعرّف هنا بإثبات و سلبين، فالإثبات يتكفّل لاستقامته، و السلب الأوّل لما يقابله من صراط الشيطان، و الثاني هو العوان بينهما قضية الضلال، فلا إلى الحق عارفا و لا إلى الضلال عامدا، مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور: 15 بسند عن عمر بن الخطاب أن كان يقرأ: «سراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و غير الضالين» و عن عبد اللّه بن الزبير مثله إلّا في «سراط» و كما عن عكرمة و الأسود مثله و

في نور الثقلين 1: 24 ج 106 تفسير القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه قرأ «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و غير الضالين» قال: المغضوب عليهم النصاب و الضالين اليهود و النصارى‏

، و

عنه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) «غير المغضوب عليهم و غير الضالين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 129

فإنما المستدعاة هنا هي صراط المنعم عليهم، دون المغضوب عليهم الذين يعرفون نعمة اللّه ثم ينكرونها: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14) يعرفون الحق ثم يحيدون عنه كأنهم لا يعرفون، أو يعرفونه باطلا، و دون الذين ضلوا عن الحق قاصرين او مقصرين فلم يهتدوا إليه.

و لأن الهدى هي الروحية، و الصراط الحق المستقيم هنا هو الموصل إلى حقها و حاقّها، و أن نعم الدنيا تعم المغضوب عليهم و الضالين، إذا ف «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» تعني النعمة القمّة الروحية، و لأنها لم تقيّد هنا بقسم دون آخر، فهي مطلق النعم السابغة الروحية.

من الصورة الإنسانية جسرا إلى كل نعمة، و الايمان و الاعتصام باللّه في صحبة العبودية الصالحة، و الإسلام للّه و توحيده على ضوء كتاب الشّرعة و سنة رسولها، و أفضل النماذج السابقة السابغة للمنعم عليهم- على مختلف درجاتهم- هم: النبيون و الصديقون و الشهداء و الصالحون: «فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ... وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً. وَ إِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً. وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً. وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً. ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ عَلِيماً» (4: 70).

هنا نجد القمّة العليا بين المنعم عليهم و هو الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فمن يطع اللّه و الرسول فأولئك مع هؤلاء المنعم عليهم في تلك الطاعة مهما اختلفت المرتبة و كما هم درجات، النبيون أعلاهم و الصالحون أدناهم، و الصديقون و الشهداء أوسطهم، و هم كلهم برفاقهم المطيعين للّه و الرسول، عائشون تحت ظل ظليل من هذا الرسول العظيم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 130

و هو على عظمه و صراطه القمّة المقتدى به يتطلّب في صلواته ليل نهار «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ»! و كيف لا يكون هو صراطا و مطاعا للمنعم عليهم طول الزمان و عرض المكان، و قد كانت نبواتهم و كتاباتهم مشروطة بالإيمان به و نصرته، فهو أوّلهم ميثاقا و خاتمهم مبعثا:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (6: 75).

و نرى في سرد حكيم في الذكر الحكيم للأولين من مربع المنعم عليهم، عديدا من النبيين: كزكريا- يحيى- عيسى- إبراهيم- إسحاق- يعقوب- موسى- إسماعيل و إدريس: «إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا، وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا: أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا» (19: 58).

و علّ ممن هدينا و اجتبينا من لم يذكروا من النبيين، و كذلك الصديقين و الشهداء و الصالحين.

ثم النّعمة للأولين و أضرابهم من المعصومين كالصديقين، هي نعمة العصمة على درجاتها، فإنهم كانوا على صراط مستقيم، هادين إلى صراط مستقيم.

و المعيّة المعنيّة هنا لمن يطع اللّه و الرسول هي المعية في أصل الصراط، لا سيما و أن الصراط المستقيم إلى اللّه واحد، مهما كان الطرق إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق، و الصراط المستقيم- على أية حال- هو سلالة ما تستهدفه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 131

رسالات اللّه و كتاباته، يحمله رسل اللّه، كائنين عليه دالين إليه، فلولا الرسول لم يكن قرآن و لا إسلام التوحيد و توحيد الإسلام، و لا صورة إنسانية جادّة، و لا اعتصام تامّ باللّه، و لا عبودية صالحة.

إذا فالرسول يمثّل الصراط المستقيم، كما أن صنوه، و مثيله الذي صنعه على مثاله، و بنيه المعصومين من بعده، هم الصراط المستقيم بعده كما في متظافر الروايات.

فطالما النبيون و من ثمّ الصديقون هم على صراط مستقيم، إلّا أن لكلّ درجات‏ «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» فالأمة الإسلامية تتطلّب الهدي إلى صراط الصديقين، و هم طالبون صراط محمد خاتم النبيين (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، و كما سائر النبيين يطلبون صراطه و يؤمنون به قبل ابتعاثه، فكل إلى ذاك الجمال يشير.

لذلك نرى أن الصراط المطلوب لنا في صلواتنا هو «صراط محمد و آله» «1» كما يرويه الفريقان، أم «صراط علي» «2» كمصداق ثان لذلك الصراط، كما سائر مصاديقه هم أهل بيت الرسالة المحمدية (عليهم السلام) «3» كما و أن صراطهم هو صراط محمد (صلى اللّه عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2، 3) اخرج الثعلبي في الكشف و البيان في الآية قال مسلم بن حيان سمعت أبا بريده يقول: صراط محمد و آله، و في تفسير وكيع بن جراح عن سفيان الثوري عن السدى عن أسباط و مجاهد عن عبد اللّه بن عباس في الآية قال: قولوا معاشر العباد: أرشدنا الى حب محمد و أهل بيته، و

أخرج الحموي في فرائد السمطين باسناده عن أصبغ بن نباتة عن علي (عليه السلام) في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ» قال: الصراط ولايتنا اهل البيت‏

، و اخرج ابن عدي و الديلمي في الصواعق ص 111 عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: أثبتكم على الصراط أشدكم حبا لأهل بيتي‏

، و

أخرج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 132

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

شيخ الإسلام الحموي باسناده في فرائد السمطين في حديث عن الامام جعفر الصادق (عليه السلام) قوله: نحن خيرة باللّه و نحن الطريق الواضح و الصراط المستقيم الى اللّه‏

و

اخرج ابو سعيد في شرف النبوة عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: أنا و أهل بيتي شجرة في الجنة و أغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلا (ذخائر العقبى ص 16) و أخرجه مثله الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 57) بسند متصل عن أبي بريدة و بسند آخر عن ابن عباس‏

و ثالث‏

عنه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي بن أبي طالب: أنت الطريق الواضح و أنت الصراط المستقيم و أنت يعسوب الدين،

و بسند رابع‏

عن جابر بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إن اللّه جعل عليا و زوجته و أبناءه حجج اللّه على خلقه و هم أبواب العلم في أمتي من اهتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم.

و

من طريق أهل البيت في عيون الاخبار ص 35- 36 باسناده عن سيد العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) قال: ليس بين اللّه و بين حجته حجاب و لا للّه دون حجته ستر نحن أبواب اللّه و نحن الصراط المستقيم و نحن عيبة علمه و نحن تراجمة وحيه و نحن أركان توحيده و نحن موضع سره.

و

فيه عن جعفر بن محمد (عليه السلام) في‏ «صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» يعني محمدا و ذريته.

و

في أمالي الصدوق (ص 173) عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من سرّه أن يجوز على الصراط كالريح العاصف و يلج الجنة بغير حساب فليتولّ وليي و وصيي و صاحبي و خليفتي على أمتي علي بن أبي طالب، و من سرّه أن يلج النار فليترك ولايته فوعزة ربي جل جلاله إنه لباب الذي لا يؤتى إلّا منه و إنه الصراط المستقيم و إنه الذي يسأل اللّه عن ولايته يوم القيامة،

و

أخرج ابن شهر آشوب في المناقب ج 3: 72 عن إبراهيم الثقفي باسناده عن أبي برزة الأسلمي قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية:

«أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ» سألت اللّه أن يجعلها لعلي ففعل، و رواه مثله المجلسي في البحار ج 35: 364 و السيد البحراني في غاية المرام ج 1: 247 عن الروضة لابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 133

و سلم) و الذي يستهديه محمد نفسه لنفسه هو صراط فوقه و التثبيت على ما هو عليه، و لمن سواه- بطبيعة الحال- دونه‏ «لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (6: 132) «هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» (2: 163) و «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (6: 83):

و الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ‏ هم كل من غضب اللّه عليه دون جماعة خصوص، و تفسيرهم باليهود «1» تفسير مصداقي كأصدق مصاديقهم و أنحسهم فإنهم منهم و ليسوا كلّهم، فمن اليهود من لم يغضب عليهم مهما لم يكونوا مسلمين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الفارسي، و روى محمد بن الحسن الصفار بإسناده عن أبي حمزة الثمالي في الآية قال: هو و اللّه علي هو و اللّه الميزان و الصراط (غاية المرام ج 1: 246).

و

عن جابر بن عبد اللّه‏ ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بينما أصحابه عنده إذ قال- و أشار بيده إلى علي- هذا صراط مستقيم فاتبعوه (ج 2: 435)

و

عن سعد عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: آل محمد الصراط الذي دل عليه‏ (تفسير العياشي (ج 1: 384)

و إلى عشرات من هذه الأحاديث أخرجها الفريقان عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عن اهل بيته المعصومين (عليهم السلام).

(1). كما

عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في روايات عدة أخرجها عبد الرزاق و أحمد و ابن مردويه في مسنده و البيهقي في الشعب و عبد بن حميد و ابن جرير و البغوي في معجم الصحابة و ابن المنذر و ابو الشيخ عن عبد اللّه بن شقيق عن أبي ذر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هم اليهود.

كما و أخرجه سفيان بن عيينة في تفسيره و سعيد بن منصور عن إسماعيل بن أبي خالد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أخرجه احمد و عبد بن حميد و الترمذي و حسن و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم عنه (صلى اللّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 134

كالمستسلمين للحق مهما كانوا من الضالين، او المقصرين فيه غير معاندين و لا مكذبين، كما و من غير اليهود مغضوب عليهم و ان كانوا من المسلمين إذ «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (4: 123).

فذكر اليهود كأنهم هم المغضوب عليهم دون سواهم ليس إلّا لأنّهم كمجموعة- لا ككل- هم أنحس حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي و الرسولي‏ «57».

فمن المغضوب عليهم‏ «مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ. ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ. أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ. لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ» (16: 109).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) و أخرجه احمد و ابو داود و ابن حبان و الحاكم و صححه و الطبراني عن الشريد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) (الدر المنثور 1: 16).

(57)

في نور الثقلين: 1: 24 ح 106- القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه قال ... المغضوب عليهم النصاب و الضالين اليهود و النصارى‏

و

عنه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عنه (عليه السلام) قال ... المغضوب عليهم النصاب و الضالين الشكاك الذين لا يعرفون الامام‏

و

في الفقيه فيما ذكره الفضل من العلل عن الرضا (عليه السلام) انه قال: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» استعاذة من ان يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به و بأمره و نهيه «و الضالين» اعتصام من ان يكون من الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة و هم يحسبون انهم يحسنون صنعا.

و

في احتجاج الطبرسي و روينا بالإسناد المقدم ذكرها عن أبي الحسن العسكري (عليه السلام) ان أبا الحسن الرضا (عليه السلام) قال: ان من تجاوز بأمير المؤمنين (عليه السلام) العبودية فهو من المغضوب عليهم و من الضالين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 135

و منهم الذين يحاجون في اللّه بعد كمال الحجة و اتضاح المهجة:

«وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ» (42: 16).

و المكذبون بآيات اللّه: «قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ..» (7: 171).

و الطاغين في رزق اللّه: «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى‏» (20: 81) هذا، فباحرى الطغاة على اللّه! و المولّين أدبارهم في الجهاد: «وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى‏ فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» (8: 16).

و القاتلين المؤمنين متعمدين: لإيمانهم: «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً» (4: 13) و هكذا نرى أن المغضوب عليهم- على مختلف دركاتهم- هم الذين شرحوا بالكفر صدرا، أم طغوا في رزق اللّه أم على اللّه، أم كذبوا بآيات اللّه، أم حاجوا في اللّه من أية طائفة كانوا، ملحدين او مشركين ام كتابيين، هودا او نصارى أم مسلمين، مهما اختلفت دركات الغضب عليهم كما المغضوب عليهم جزاء وفاقا.

و لكيلا، يغتر غير اليهود بالأماني الكاذبة، يأتي الأمان العام لمن آمن و عمل صالحا من الذين هادوا كسواهم، بعد ضرب الذلة عليهم و المسكنة و الغضب من اللّه معللا بما علّل. «.. وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 136

بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 62).

و كما نرى في أخرى‏ «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ».

إذ تأتى تلوها دون فصل آية و الأمان لأهل الايمان: «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» (3: 115).

أجل إنهم ليسوا سواء لأنهم يهود أم أهل كتاب غير مسلمين لكي يغضب عليهم أجمعين، فانما الغضب مربوط برباط التخلف عن شرعة اللّه.

و لأن اليهود هم أكثر الطوائف طغيانا و تكذيبا بآيات اللّه، لذلك ترى آيات الغضب تتلاحق عليهم أكثر من سواهم كأنهم هم المغضوب عليهم لا سواهم.

و أمّا «الضالين» فهم عوان بين المغضوب عليهم و المهديين، ناكبين عن الصراط المستقيم، فهم- على أية حال- من الضالين، قاصرين او مقصرين، عن الصورة الإنسانية و عن التوحيد و الآخرة: «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ» (23: 74) عن صراط العبودية التي هي الصورة الإنسانية الكاملة، التي يجمعها صراط توحيد الإسلام و إسلام التوحيد و الاعتصام باللّه على ضوء قرآن محمد و محمد القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 137

و بصيغة مختصرة محتصرة كل من ضل عن الصراط المستقيم فهو من الضالين: من مستضعف قاصر لا يستطيع حيلة و لا يهتدي سبيلا «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (4:) 99).

و من مستضعف مقصر «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً» (4: 97).

و من مستكبر معاند للحق و هو من رؤوس الضلالة ضالا مضلا ناكبا منكبا عن الصراط و هو من المغضوب عليهم‏ «وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ» (56: 94).

و مختلف دركات الضلال موزّعة بين فرق النصارى لحد لا مثيل لهم في سائر الطوائف، و لذلك يفسّر بهم «الضالين» في الحديث كأضل الضالين.

و «الضالين» يهيمن على المغضوب عليهم حيث تشملهم و سواهم، و قد يشمل سائر السبل الملتوية و إن كانت موصلة إلى اللّه.

و لكن الصراط المستقيم هو أسلم السبل إلى اللّه مهما كان درجات، فكل درجة أدنى ضلال بالنسبة للأعلى حال أنها سبيل إلى اللّه: «وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى‏».

و لكنما الضلال قصورا أو تقصيرا هو المقصود من «الضالين» حيث الضال الذي يتحرّى الصراط، و هو في سبيله إلى الصراط، ضلاله ضلال قدسي كما الشك المقدس و هو في سبيله إلى اليقين، و الإسلام في سبيله إلى الايمان، فانه ليس نفاقا و لا إيمانا، بل هو إسلام إلى إيمان: «قالَتِ الْأَعْرابُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 138

آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14).

و أما الضال الذي يرى نفسه على هدى بقصور أو تقصير، فهو في الحق ضالّ لا يرجى هداه.

فلأن الداعي في صلاته- في الأكثرية الساحقة- ليس على صراط مستقيم، فهو ضال عنه، و لكنه سالك إليه متحرّ عنه، فلا يسمىّ ضالا قسيما للمغضوب عليهم، مهما كان ضالا بقياسه بمن هو على صراط مستقيم.

فالسالكون إذا اربعة: 1- مؤمن ليس على صراط مستقيم و هو في سبيله، 2- من هو على صراط مستقيم. 3- المغضوب عليهم غير المؤمنين و لا المتحرين عن إيمان بل معاندين له و متعنتين عليه. 4- الضالين الذين ضلوا الصراط و السبيل إلى الصراط، فهم عن الصراط لناكبون.

فالأوّلان هما من المصلين المهتدين، و الآخران من الناكبين عالمين او جاهلين.

فالمؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم، هم في سبل السلام آمنون، سالكون إلى الصراط المستقيم: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» (7: 82) مهما اختلج لهم شرك خفي أم ظلم عملي، «ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ».

عود على بدء في السبع المثاني‏

لقد شملت البسملة على ثلاثة من اسماء اللّه هي أهمها كلها، و شملت السبع المثاني- ككل- على خمسة هي أصول أسماء الدالة على المبدء و المعاد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 139

و ما بين المبدء و المعاد، فلو كان للّه اسم أفضل من هذه لذكرها في ام القرآن.

ثم هي على ترتيب الأهمية: «الله- الرحمن- الرحيم- رب العالمين- مالك يوم الدين».

فقارئ الحمد قارئ للقرآن العظيم و كما يروى عن الإمام الرضا (عليه السلام).

فإن قال: فلم أمروا بالقرائة في الصلاة؟ قيل: لئلا يكون القرآن مهجورا مضيّعا مدروسا فلا يضمحل و لا يجهل- فإن قال: فلم بدئ بالحمد في كل قراءة دون سائر السور؟ قيل:

لأنه ليس شي‏ء من القرآن و الكلام جمع فيه من جوامع الخير و الحكمة ما جمع في سورة الحمد.

و ذلك ان قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» إنما هو أداء لما أوجب اللّه تعالى على خلقه من الشكر، و شكر لما وفق عبده للخير- «رَبِّ الْعالَمِينَ» تمجيد له و تحميد و إقرار بأنه هو الخالق المالك لا غيره- «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» إستعطاف و ذكر لآلائه و نعمائه على جميع خلقه- «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» إقرار بالبعث و الحساب و المجازات، و إيجاب له ملك الآخرة كما أوجب اللّه له ملك الدنيا- «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» رغبة و تقرب إلى اللّه عز و جل و إخلاص بالعمل له دون غيره- «وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» استزادة من توفيقه و عبادته و استدامة لما أنعم عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 140

و نصره- «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» استرشاد به و اعتصام بحبله و استزادة في المعرفة بربه و بعظمته و بكبريائه-.

«صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» توكيد في القول و الرغبة، و ذكر لما قد تقدم من نعمة على أولياءه، و رغبة في مثل تلك النعم-.

«غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به و بأمره و نهيه- «وَ لَا الضَّالِّينَ» اعتصام من أن يكون من الضالين الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا- فقد اجتمع فيه من جوامع الخير و الحكمة في الآخرة و الدنيا ما لا يجمعه شي‏ء من الأشياء «1».

ثم إلى‏

حديث سلسلة الذهب القدسي حول تفسير السبع المثاني يرويه الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن أبيه علي بن محمد (عليه السلام) عن محمد بن علي (عليه السلام) عن علي بن موسى (عليه السلام) عن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن جعفر بن محمد (عليه السلام) عن محمد بن علي (عليه السلام) عن علي بن الحسين (عليه السلام) عن الحسين بن علي (عليه السلام) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): قال اللّه عز و جل: قسّمت فاتحة الكتاب بيني و بين عبدي فنصفها لي و نصفها لعبدي و لعبدي ما سأل، إذا قال العبد «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» قال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عيون اخبار الرضا (عليه السلام) و علل الشرايع باسناده عن الفضل بن شاذان عن الرضا (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 141

اللّه جل جلاله: بدء عبدي باسمي و حقّ عليّ أن أتمم له أموره و أبارك له في أحواله- فإذا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» قال اللّه جل جلاله:

حمدني عبدي و علم أن النعم التي له من عندي و أن البلايا التي دفعت عنه فبطولي، أشهدكم أني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة و أدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، فإذا قال: «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» قال اللّه جل جلاله: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم، أشهدكم لأوفّرن من نعمتي حظه و لاجزلنّ من عطائي نصيبه، فإذا قال: «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قال اللّه جل جلاله: أشهدكم كما اعترف أني أنا مالك يوم الدين لأسهلن يوم الحساب حسابه و لأتجاوزن عن سيئاته فإذا قال: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» قال اللّه عز و جل: صدق عبدي، إياي يعبد، أشهدكم لأثيبنّه على عبادته ثوابا يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فإذا قال: «وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» قال اللّه عز و جل: بي استعان عبدي و التجأ إلي أشهدكم لأعيننّه في شدائده و لآخذن بيده يوم نوائبه، فإذا قال: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» ... قال اللّه عز و جل: هذا لعبدي و لعبدي ما سأل، فقد استجبت لعبدي و أعطيته ما أمّل، و آمنته مما منه و جل‏ «1».

إذا فالسبع المثاني صورة مجملة وضّاءة عن سيرة اللّه و سيرة العبد تجاه اللّه، تجمع من جوامع القرآن العظيم محكمات، مما يتوجب على العباد معرفيا و عمليا و جاه رب العالمين، لمّاعة لمّاحة إلى مثلث الأصول الدينية:

المبدء، و المعاد، و ما بين المبدء و المعاد من نبوّات و تشريعات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه شيخ الطائفة الطوسي في اماليه و الشيخ الأجل الصدوق في عيونه عن محمد بن القاسم المفسر الأسترآبادي قال: حدثنا يوسف بن محمد بن زياد و علي بن محمد بن سيار عن أبويهما عن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عن ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 142

و في قران بين ما نقوله نحن المسلمين في صلواتنا و ما يقوله المسيحيون نرى قرانا بين النور و النار، بين أدب بارع و سوء هارع.

ففي إنجيل متّى الفصل 6 الآية 9- 13 فصلوا أنتم هكذا:

و نحن نصلي هكذا:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ- غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ» (7).

أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك (9) ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض (10) خبزنا كفافنا أعطنا اليوم (11) و اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا (12) و لا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير لأنّ لك الملك و القوة و المجد إلى الأبد آمين (13) فهل اللّه تعالى «أباهم»؟ و أصل النص المتواتر في الإنجيل «الآب»:

الخالق حسب اليوناني! ثم أهو فقط «فِي السَّماواتِ» و الأرض خلو منه؟ غلطتان في آية منها واحدة! ثم من الموعود في «لتكن مشيئتك ..»؟ و هل هذه المشيئة حتى الآن ما أتت الأرض، فما ذا يقول المسيح (عليه السلام) إذا في الأرض، أليس ليحقق مشيئة اللّه في شرعته لأهل الأرض؟ ثم من هذا الذي ينزل مشيئة اللّه إلى الأرض!. غلطات تلو بعض، ظلمات بعضها فوق بعض!!!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 143

و الصلاة حسب الإنجيل لا يؤتى بها إلا للّه تعالى (مت 4: 10- مقابل تث 6: 13 و 10: 20) ففي الأول «لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد و إياه وحده تعبد» و هذه من الآيات الإنجيلية النادرة في فرض السجود، و لكن «تث» لا تذكر إلا فرض الصلاة.

و الأوقات المقررة حست الكتاب المقدس للصلاة ثلاثة، ففي «مز 55: 16- 17 و دا 6: 10)» أمّا أنا فإلى اللّه أصرخ و الرب يخلّصني مساء و صباحا و ظهرا أشكو و أنوح، فيسمع صوتي- و في «دا» فلما علم دانيال .. فجثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم و صلى و حمد قدام إلهه كما كان يفعل قبل ذلك.

مسألة فقهية حول الحمد.

و هل تجوز ترجمة الحمد في الصلاة؟ أقوال‏ «1» أقواها عدم الجواز إلّا لمن لا يتمكن من قرائتها عربية و لا الاقتداء بمن يقرءها و لا متابعته في قراءتها، فما لا يدرك كله لا يترك كله، فان ترجمة الحمد غير الحمد و قد أمرنا بقراءة الحمد في الصلاة و

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) صلوا كما رأيتموني أصلي،

و لو جازت الترجمة لقرءها أحيانا تدليلا على الجواز «2».

و هل تجب القراءة على المقتدي؟ الحق عدم وجوبها حيث الإمام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قال الشافعي انها لا تجوز إطلاقا و قال ابو حنيفة تجوز إطلاقا و قال ابو يوسف و محمد بما قلناه.

(2) و هو اجماع تحقق عندنا و مصرح به في كلام جماعة حد الاستفاضة كالناصريات و الخلاف و الذكرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 144

يتحملها عنه حسب متواتر الحديث، مهما جازت في الإخفاتية، و في الجهرية إذا لم يسمع صوت الإمام بل هي أحوط، و إذا سمع حرمت لوجوب الاستماع كما قال اللّه‏ «وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (7: 204) و من أصدق مصاديقه قراءة الحمد و السورة في الصلاة.

و هل تجوز قراءة الحمد و السورة التي بعدها في الصلاة من المصحف؟

الظاهر هو الجواز لا سيما لمن لا يحفظها أو يلحن فيها، و المتعارضتان في الجواز و عدمه متساقطتان لو لا ترجيح رواية الجواز، فالأصل هو الجواز «1».

و هل يجوز التأمين بعد «وَ لَا الضَّالِّينَ» أم لا يجوز، و على الحرمة هل تبطل به الصلاة أم لا تبطل؟ أقوال‏ «2»: أقواها البطلان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

جامع أحاديث الشيعة ج 5 ص 187 باسناده عن الحسن بن زياد الصيقل قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) ما تقول في الرجل يصلي و هو ينظر في المصحف يقرأ فيه يضع السراج قريبا منه فقال لا بأس بذلك،

و تعارضها

رواية قرب الأسناد بإسناده عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر قال‏ سألته عن الرجل و المرأة يضع المصحف أمامه ينظر فيه و يقرأ و يصلي؟ قال: لا يعتد بتلك الصلاة.

(2) في الخلاف 1: 104 قول آمين يقطع الصلاة سواء كان ذلك سرا أو جهرا في آخر الحمد او قبلها للإمام و المأموم و على كل حال- و قال ابو حامد الاسفرايني إن سبق الإمام المأمومين بقراءة الحمد لم يجز ان يقولوا آمين فان قالوا ذلك استأنفوا قراءة الحمد و به قال بعض اصحاب الشافعي، و قال الطبري و غيره من اصحاب الشافعي لا يبطل ذلك قراءة الحمد و يبني على قرائته- فاما قوله عقيب الحمد فقال الشافعي و أصحابه يستحب للإمام إذا فرغ من فاتحة الكتاب ان يقول آمين و يجهر به و اليه ذهب عطاء و به قال احمد و إسحاق و ابو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة و ابو بكر بن المنذر و داود- و قال ابو حنيفة و سفيان: يقول الامام و يخفيه، و عن مالك روايتان إحداهما مثل أبي حنيفة و الثانية لا يقول آمين أصلا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 145

فيما يرويه إخواننا عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) متظافرا الأمر به فرضا او ندبا «1» و فيما يرويه أصحابنا عن عترته الطاهرة (عليهم السلام) النهي عنه‏ «2» إلّا شاذا، و قضية التعارض هنا هي تقديم رواية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و اما المأموم فان الشافعي قال في الجديد يسمع نفسه و قال في القديم يجهر به و اختلف أصحابه فمنهم من قال المسألة على قولين و منهم من قال إذا كانت الصفوف قليلة متقاربة يسمعون قول الامام يستحب الإخفاء و إذا كانت الصفوف كثيرة و يخفى على كثير منهم قول الامام يستحب لهم الجهر ليسمعوا من خلفه و قال احمد و إسحاق و ابو ثور و عطا يستحب لهم الجهر و قال ابو حنيفة و سفيان الثوري لا يستحب لهم الجهر بذلك.

دليلنا اجماع الفرقة فأنهم لا يختلفون في ان ذلك يبطل الصلاة و ايضا فلا خلاف انه إذا لم يقل ذلك ان صلاته صحيحة ماضية و

روى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شي‏ء من كلام الآدميين‏

و قول آمين من كلام الآدميين.

(1).

في الدر المنثور 1: 17- اخرج قراءة آمين عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن جماعة عن: أبي ميسرة و وائل بن حجر الحضرمي و علي (عليه السلام) و أبي موسى الاشعري و أبي هريرة و عائشة و ابن عباس و معاذ بن جبل و انس عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كلمة واحدة قراءة آمين او الأمر بها.

(2)

في جامع أحاديث الشيعة 5: 112 باب عدم جواز التامين عن محمد الحلبي قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) أقول إذا فرغت من فاتحة الكتاب آمين؟

قال: لا و مثله في حسنة جميل عنه (عليه السلام)

و تعارضها صحيحته‏

سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول الناس في الصلاة جماعة حتى تقرأ فاتحة الكتاب آمين؟ قال:

ما أحسنها و أخفض الصوت بها

و

عن معاوية بن وهب قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) أقول آمين إذا قال الامام غير المغضوب عليهم و لا الضالين؟ قال: هم اليهود و النصارى و لم يجب في هذا

، و

الجعفريات باسناده عن علي (عليه السلام) قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لا تزال امتي على شريعة من دينها حسنة جميلة ما لم يتخطوا القبلة باقدامهم و ما لم يصرخوا ينصرفوا قياما كفعل اهل الكتاب و ما لم تكن لهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 146

أهل البيت (عليهم السلام) فإنهم أحد الثقلين فالأقوى- إذا- عدم الجواز و الظاهر البطلان.

و لا عبرة بعديد الرواة عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا كان يخالف نقلها أحد من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فضلا عن إجماعهم، فان عصمة النقل لهم تفوق كل راوية و دراية كما في حديث الثقلين المتواتر.

ثم الروايات المتواترة من طريق الفريقين الآمرة بقراءة الحمد في الركعتين تساند القول ان آمين ليس فيها فانها حسب تواتر القرآن خالية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ضجة؟؟؟ آمين‏

و

رواه الدعائم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) انه قال‏ لا تزال أمتي بخير و على شريعة و ذكر مثله‏

، و

روى الريان عن الرضا (عليه السلام) عن أبي محمد العسكري (عليه السلام) في حديث طويل‏ انه عد الخصال التي خص اللّه تعالى بها الأئمة (عليهم السلام) و شيعتهم ثم ذكر ان العامة خالفهم فيها- إلى ان قال-: و الإخفات في السورتين خلافا علي الجهر. و آمين بعد و لا الضالين عوضا عن القنوت، الخبر

، و

في الدعائم و روينا عنهم (عليهم السلام) انهم قالوا يبتدء بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ في كل ركعة بفاتحة الكتاب ...

و كرهوا (حرموا) ان يقال بعد فراغ فاتحة الكتاب آمين كما تقول العامة، و

قال جعفر بن محمد (عليه السلام) انما كانت النصارى تقولها

، و

في المستدرك ابو القاسم علي بن احمد الكوفي في كتاب الاستغاثة في بدع الثلاثة في سياق مطاعن الثاني، أجمع اهل النقل عن الائمة من اهل البيت (عليهم السلام) انهم بأجمعهم قالوا: من قال آمين فقد أفسد صلاته و عليه الاعادة

لأنها عندهم كلمة سريانية معناها بالعربية افعل كسبيل من يدعو بدعاء فيقول في آخره اللهم افعل ثم استن أنصاره بروايات متخرصة ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان يقول ذلك بأعلى صوته و أنكر اهل البيت هذه الرواية و

في روايات عدة «و على من خلفه ان يقولوا الحمد لله رب العالمين» رواه جميل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) و فضيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 147

عنها، إذا فهي كلام خارج عن فرض الصلاة و ندبها، فتبطل به الصلاة ام- و لأقل تقدير يحرم.

و القول أن دعاء الهداية في قلب السبع المثاني و هي قلب الصلاة، إنها خير دعاء، و التأمين بعد الدعاء من السنة فهو هنا أحرى، و قد أمرنا بالدعاء في الصلاة و هو من الدعاء بعد الدعاء، إذا فهو- لأقل تقدير- جائز ان لم يكن ندبا.

إنه مردود إلى قائلة لكونه اجتهادا ضد النص، و لا نقبل حديثا يروى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حين يكذبه عترته المعصومون (عليهم السلام).

و هذه ضابطة سارية المفعول أن الروايتين المتعارضتين المرويتين عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تعرضان على كتاب اللّه، ثم على سنة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و العترة هم حملة السنة حين تثبت عنهم له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رواية، سواء أسندوها إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أم لم يسندوها، فإنهم- على أية حال- ليسوا إلّا حملة السنة عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لا يزيدون عليها و لا ينقصون عنها، كما الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 149

سورة البقرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 151

سورة البقرة- مدنية- و آياتها مائتان و ست و ثمانون اسماء السور القرآنية التي هي ايضا بتسمية الرسول و حيا، كترتيب السور و الآيات الذي يساور التنزيل في الوحي، مما يؤيد وحي التأليف، فالقرآن المفصل و حيان، وحي التنزيل و وحي التأليف، و لو أن مات الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن قرآن التنزيل مبعثرة الآيات دون تأليف، فكيف إذا هذه التسميات، هل هي تسميات مسبقة عن السور المسميات التي ألفها أناس بعد الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ و ما هي إلّا فوضى جزاف، يستحيل معها انضباط هذه الأسماء دون خلاف و اختلاف على مر العصور! فكما أن وحي التنزيل في محكم القرآن و مفصله من اللّه كذلك وحي الجمع و التأليف كما تدل عليه آية الجمع‏ «1».

و لقد روى تسمية هذه السورة ب «البقرة» جمّ غفير عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «2» مما يؤكد أنها كغيرها ألفها الرسول (صلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هي قوله تعالى: لا تحرك به لسانه لتعجل به. إن علينا جمعه و قرآنه .. راجع ج 29 ص 280 ففيها بحث موضوعي حول جمع القرآن.

(2)

الدر المنثور 1: 18- أخرجه جماعة عن الحفاظ و ارباب السنن عن أبي امامة الباهلي و نواس بن سمعان و بريدة و ابن عباس و ابو ذر الهروي و محمد بن نصر و عبد الواحد بن أعين و ابن مسعود و أبي هريرة و أبي الدرداء و عبد اللّه بن مفضل و أبي مسعود و سهل بن سهل الساعدي و الحسن و معقل بن ياسر و السيد بن حضير و الصلصال بن الدلهمس و عروة و عائشة كل عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أنها سورة البقرة

و

روى انس و ابو سعيد الخدري و ربيعة الحرشي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان لا تقولوا سورة البقرة و آل عمران بل السورة التي يذكر فيها البقرة. و من طريق أئمة اهل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 152

اللّه عليه و آله و سلم) دون المؤلفين الزاعمين تأليف القرآن:

و من لطيف الترتيب تقدّم فاتحة الكتاب كبراعة استهلال للكتاب، ثم سورة البقرة و هي اوّل ما نزلت في المدينة، تلمح لموقع الدولة الاسلامية فيها، كأنها بداية الإسلام، كما و أن تأريخ الإسلام يبتدء باوّل العهد المدني، و كأنما العهد المكي لم يكن من عهود الإسلام، رغم انه جذورها الأوّلية، مهما كان نماؤها في المدينة.

[سورة البقرة (2): الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الم (1) ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولئِكَ عَلى‏ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (7)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

البيت رواها ابو بصير عن الصادق (عليه السلام) و عن علي بن الحسين (عليه السلام) عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و معاني الاخبار الى سفيان الثوري عن الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 153

الم‏ و ترى ماذا تعني أمثال هذه الحروف المقطعة المتصدرة بها البعض من سور القرآن؟

فهل هي اسماء لها؟ و ليست إلّا في (28) سورة، و هي اقل من ربعها فلما ذا لم تسم بها ثلاثة أرباعها؟، ثم للمصدّرة بها أسماء غيرها إلّا قليلا منها «1»؟؟؟ ثم الأسماء لا بد و ان تعرب عن مسمياتها بما تحمل من معاني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي خمس: طه- يس- ص- ق- ن، ثم الباقية ال: 23 لها اسماء غيرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 154

و لا معاني معروفة لهذه الحروف إلّا عند أهلها! 2- ام هي تنبيهات أن آياتها البالغة ذروة معارج الإعجاز هي مركبة عنها؟ إذا فلما ذا لم تتصدر بها اوائلها نزولا كالحمد و العلق و المزمل و المدثر؟ و هي أحرى بالتنبيه لها؟ و لماذا لم تستغرق المكيّة ال (86) إلّا في 25 منها دون ال (61) الأخرى، و نراها في ثلاث من المدنيات ال (28) دون (25) الأخرى منها، فمجموع المصدرة بها بين (114) سورة ليست إلّا (28)! «1».

ثم و هذه لعبة إذ توضح الواضح عند ايّ سامع لها، و هي لا تستحق ان تكون آيات كسائر الآيات ثابتة في صدورها!.

ثم و هذه الحروف لا تستغرق حروف الهجاء ال (28) و إنما هي نصفها «2» و قد تكررت مرات و مرات‏ «3» فليست هي إذا- فقط- لهذه الإشارة المنبهة.

3- أو أنها فصول بين السور؟ و قد تحققت بالبسملات! اللهم إلّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالمكية ال 25 هي: 1- الأعراف- المص- 2- يونس: الر: 3- هود: الر- 4- يوسف: الر- 5- ابراهيم: الر- 6- الحجر: الر- 7- العنكبوت: آلم- 8- مريم: كهيعص- 9- طه- و 10- الشعراء: طسم- 11- القصص: 12- النمل:

طس: 13- الروم: آلم- 14- لقمان: آلم- 15- السجدة: آلم- 16- يس- 17- ص- 18- المؤمن: حم- 19- فصلت: حم- 20- الدخان: حم- 21- الزخرف: حم- 22- الأحقاف: حم 23- الجاثية: حم- 24- ق- 25- ن-.

و المدنية ال: 3 هي: البقرة: آلم- آل عمران: آلم- الرعد: المر فالمجموع 28.

(2) و هي ا- ل- م- ر- ه- ي- ع- ص- ط- س- ح- ق- ن- ك- و لم تذكر 14- الاخرى: ب- ت- ث- ج- خ- د- ذ- ز- ش- ض- ظ- غ- ف- و.

(3) و قد كررت آلم خمس مرات- و الر: 5- و حم: 6- و طسم: 2- ثم في التسع الباقية مرة مرة ك: المر و المص و كهيعص و طه و يس و ص و ق و ن و طس!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 155

البراءة و هي يتيمة عنها، و هي متحققة بأسمائها إلّا قليلا منها! ثم و لا يجوز الفصل بما هو أجنبي عن القرآن!.

4- او أنها للإسكات؟ فلتصدّر المكية و لا سيما أولياتها بها، و كذلك مهامّ.

الآيات و إن في أوساط السور دون اختصاص بأوائلها، و أن الإسكات لا يناسب حروفا لا يفهمونها!.

5- او هي مجمل معاني السور المتصدرة بها؟ فلما ذا حرمت عنها أربعة أخماسها؟ و لماذا كررت في عديد منها و حرمت عنها أكثرها! 6- او هي المعاني النازلة ليلة القدر؟. فكذلك الأمر، و لماذا تحرم عنها سورة الحمد التي هي صورة باهرة عنها.

7- او أنها تعني ما يعنيه حساب الأعداد؟ و لا حجة فيها إلّا خيالات إسرائيليات و كما زيفت بروايات إسلاميات! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في معاني الاخبار للصدوق باسناده الى محمد بن قيس قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يحدث‏ ان حييا و أبا ياسر ابني اخطب و نفرا من يهود اهل نجران أتوا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا: أليس فيما تذكر فيما أنزل اللّه عليك «الم» قال: بلى- قالوا أتاك بها جبرئيل من عند اللّه؟ قال: نعم- قالوا: لقد بعث أنبياء قبلك و ما نعلم نبيا منهم اخبر ما مدة ملكه و ما اجل أمته غيرك! قال: فاقبل حي بن اخطب على أصحابه فقال لهم: الالف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون فهذه احدى و سبعون سنة، فعجب أن يدخل في دين مدة ملكه و اجل أمته احدى و سبعون سنة؟ قال: ثم اقبل على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال له يا محمد! هل مع هذا غيره؟ قال: نعم- قال: فهاته- قال: «المص» قال: هذه أثقل و أطول: الالف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الصاد تسعون فهذه مائة و إحدى و ستون سنة! ثم قال لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): فهل مع هذا غيره؟

قال: نعم- قال: هاته، قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «الر» قال: هذه أثقل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن ج‏1 156 [سورة البقرة(2): الآيات 1 الى 7] ..... ص : 152

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 156

8- أو هي اسم اللّه الأعظم مقطّعة في القرآن؟ و لا أعظم من «اللّه»:

الأعظم الظاهر، و لا من «هو»: الأعظم الباطن! و أن المركب منها سلسلة حروف لا تؤلف اسما عربيّا! ثم و لا حجة تثبتها! 9- أو هي أقسام أقسم اللّه بها؟ فلمن يقسم و هم لا يفهمونها، و لو عني بها خصوص الرسول بما يعرف من هذه الرموز فهو لا يحتاج الى أقسام إذ يصدّق وحي ربه دونما إقسام.

10- ثم و لا يحتمل ألّا تحمل أية معاني او فوائد فإنه لغو و كلام اللّه كله معاني و فوائد! 11- من المؤكد أن لها معاني لم توضع هي لها في أية لغة فلا يعرفها أصحاب اللغات بأسرها، فانما هي رموز خاصة بين اللّه و رسوله‏ «1» اختص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و أطول: الالف واحد و اللام ثلاثون و الراء مائتان! ثم قال لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هاته، قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «المر» قال هذه أثقل و أطول: الالف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الراء مائتان! ثم قال: «هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قالوا: قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ثم قاموا عنه، ثم قال ابو ياسر لحي أخيه: ما يدريك لعل محمدا قد جمع له هذا كله و اكثر منه، قال: فذكر ابو جعفر (عليه السلام) ان هذه الآيات أنزلت فيهم‏ «مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ».

أقول: ما احسن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ترتيبا لذكر هذه الحروف مترتبا متصاعدا حسب الأعداد، و لكي يحتاروا في أمره و يندحروا عما هم يزعمون انها بحساب الأعداد في حساب اجل الامة الاسلامية رجما مضاعفا بالغيب!.

(1). في تفسير الفخر الرازي 2: 3 روي في الخبر: للعلماء سر و للخلفاء سر و للأنبياء سر و للملائكة سر و للّه من بعد ذلك كله سر، فلو اطلع الجهال على سر العلماء لأبادوهم و لو اطلع العلماء على سر الخلفاء لنابذوهم و لو اطلع الخلفاء على سر الأنبياء لخالفوهم و لو اطلع الأنبياء. على سر الملائكة لاتهموهم و لو اطلع الملائكة على سر اللّه تعالى لتاهوا حائرين و بادوا بائرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 157

اللّه بها رسوله بعد عموم سائر القرآن لسائر المكلفين، فهي إذا صفوة القرآن كما

عن الامام علي (عليه السلام): «إن لكل كتاب صفوة و صفوة هذا الكتاب حروف التهجي»

و

«إنها مفاتيح كنوز القرآن»

و إن كانت لها هامشيا بعض الفوائد المذكورة في العشرة السالفة.

فليس لغير صاحب السرّ التنقّب عن معانيها، او التخرّس بالغيب فيها، اللهم إلّا ما ثبت منها عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، او الائمة من آل الرسول (عليهم السلام) او ما يعرف بالتأمل أحيانا في محالّها بقرائنها، كالبعض مما عني منها أن يعرفها تأنقا و تعمقا أهلوها، غير المتطاولين فيها ما لم يعرفوها، و قد تحمل هذه الرموز أنباء غيبية في مثلث الزمان: ماضيا و حالا و استقبالا، مما يهمّ الرسول و الأمة الإسلامية، أو حقائق علمية معرفية مما تختص بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أهليه المعصومين، و قد يبرزون منها ما نستأهلها دون جميعها، فإن منهما ما لا يتحمله غيرهم و هم في ذلك درجات.

و مما يؤكد أنها تعني معاني سرية أن كلّا منها آية فذّة في سورتها «1» او آيتين‏ «2» إلّا قلة قليلة منها هي ضمن آيتها «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: الخلفاء هنا خلفاء الأنبياء المنصوصون، ثم و كما للملائكة سر خاص قد لا يعرفه الأنبياء كذلك لهم سر لا تعرفه الملائكة، و لا سيما محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث لا يعرف أسراره المحمدية الخاصة غير اللّه إذ لا يتحملونها!.

و فيه‏

روي انه (عليه السلام) قال: «ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء باللّه فإذا نطقوا به أنكره اهل الغرّة باللّه».

(1). كما في 24 منها

(2) كما في حم عسق‏

(3) كما في ست منها: يوسف- الحجر- النمل- ص- ق- ن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 158

و كيف تكون آية او بعض آية لا تعني ايّ معنى، إن هي إلّا قولة فارغة هراء و كتاب اللّه تعالى منها براء.

و قد نتنبأ من بعضها أن هذه الحروف التلغرافية الرمزية تعم النبيين أجمع و إن لم تذكر في كتاباتهم السماوية: «حم 1- عسق 2- كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فالمشار اليه ب «كذلك» البعيد البعيد في محتد الوحي ليس إلّا حم عسق: كذلك: الرمز المستسر «يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» و حيا خاصا لا يعدو أصحاب الرسالات إلى المرسل إليهم! و قد يكون بينها و بين السور المتصدرة بها ارتباطات، و إلّا لماذا اختصت هي بها دون سواها، و لماذا لم تجتمع في سورة فذة بحيالها، اللهم إلّا أن تحمل بعض ما مضى من وجوه سلفت من إسكات و تنبيهات أم ماذا؟ مما لا نتأكدها إلّا ان يؤكدها أهلوها «1» و لتطلب في محالها بطيّات سورها.

و مهما يكن من شي‏ء فلا تعني أهمية خاصة للمتصدرة بها إذ خلت عنها مهامّها كالحمد و الإخلاص، اللّهم إلّا أن تكون هذه بآياتها تكفي معونة رموزها، فإن الحمد- مثلا- و هي السبع المثاني: سورة هي صورة محكمة عن القرآن كله.

و قد تعني الأخبار القائلة أنها أسماء اللّه مقطّعة في القرآن‏ «2» العلامات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في بعض أحاديثنا مثل ما

رواه الصدوق باسناده عن الإمام الحسن بن علي العسكري في حديث طويل قال فيه: «الم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ» اي: يا محمد! هذا الكتاب الذي أنزلته إليك هو الحروف المقطعة التي منها الف و لام و ميم و هو بلغتكم و حروف هجاءكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين‏ (البرهان ج 1: 54 ح 9).

(2) الدر المنثور 1: 22 عن ابن مسعود قال: الم حروف اشتقت من حروف هجاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 159

الرمزية الخاصة باللّه التي يختص بها رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فهي تعني ما تعنيه الأخرى أنها رموز بين اللّه و رسوله، أم ماذا.

فمهما يكن من شي‏ء فإنها من أفضل القرآن، و لها معاني‏

«من قرء حرفا منها فله حسنة» «1»

و الحرف لفظيا كلمة جانبية، و معنويا معنى جانبيّ، فانه طرف الكلام، فان قرأت: الف- او- لام- او ميم، قاصدا التي في «آلم» أم ماذا، فقد قرأت حرفا لها حسنتها، كما إذا قصدتها حرفا من غيرها في سائر القرآن كما يروى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «2» مما يدل على أن لمفردات حروف الكلمات في الآيات معاني كما لجملاتها، فهي إذا تنحو منحى رموز القرآن و للبحث عنها مجالات أخرى علنا نأتي عليها.

ثم و هي تعتبر آيات‏ «3»، إذا فحروفها كلمات دالات على ما تعني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اسماء اللّه، و مثله عن ابن عباس و عامر و السدي و قتادة، و لا نجده مسندا عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لا عن أئمة أهل بيته (عليهم السلام) فلا حجة فيه.

(1).

الدر المنثور 1: 22- اخرج البخاري تاريخه و الترمذي و صححه و ابن الضريس و محمد بن نصر و ابن الانباري في المصاحف و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابو ذر الهروي في فضائله و البيهقي في شعب الايمان عن عبد اللّه بن مسعود قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من قرء حرفا من كتاب اللّه فله به حسنة و الحسنة بعشر أمثالها، لا تقول: آلم حرف، و لكن الف حرف و لام حرف و ميم حرف.

(2)

الدر المنثور 1: 22- اخرج محمد بن نصر و البيهقي في شعب الايمان و السنجري عن عوف بن مالك قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من قرء حرفا من القرآن كتب اللّه به حسنة. لا أقول بسم اللّه و لكن باء و سين و ميم، و لا أقول: الم و لكن الالف و اللام و الميم.

(3) و لسوف نعرف على ضوء تاملات اكثر ان لحروف القرآن و كلماتها و آياتها و سورها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 160

كبرقيات رمزية بين اللّه و أهل اللّه الخصوص كالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أهليه (عليهم السلام) و إن كانت حرفا واحدا ك: ن- ق- ص فضلا عن كثراتها. «1»

و ليس لنا أن نتمسك في معانيها إلّا بعرى وثيقة من كتاب اللّه أو سنة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الثابتة اللائحة، دون ما يرويها أرباب السنن في روايات آحاد لا تغني في تفسير آيات مفصلات فضلا عن تلكم المحكمات و هي مفاتيح كنوز القرآن و صفوة القرآن! و كون هذه رموزا كسائر التأويل في القرآن لا يناحر الأوامر المؤكدة للتدبر في القرآن، حيث التدبر خاص بالممكن تفهمه، دون سواه الخاص بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كبعض التأويل لآيات مفصلات، و كعامة التأويل لسائر الحروف المقطعة التي لا دلالة فيها وضعيا حتى تتحمل التدبر و التأويل، فمن القرآن ما له تأويل و تنزيل، مما يتحمل تأويلا على ضوء التنزيل، كسائر القرآن، و منه ما له تأويل و لا تنزيل كالحروف المقطعة، و الآيات الآمرة بالتدبر تعني الميسرة: «وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» (54: 16) و العربية: اللائحة: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (12: 2) «وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» (46: 12) و لا عربية دلالة و لا إنذارا بهذه الحروف فانها ليست عربية و لا أعجمية و لا أية لغة موضوعة، إنما هي حروف كأسرها، مفردة او مجموعة تتألف منها كافة اللغات، مهما اختلفت في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و اسماءها- بترتيباتها و تركيباتها و محالّها الخاصة، لكل ذلك إشارات كامنة يمكن استنباطها و استبطانها لحدّ ما.

(1). كما نرى في كتب القرآن و تؤيده روايات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 161

شكلياتها، فانها متشابهة في مخارجها الصوتية على سواء.

فمهما كان التدبر في سائر القرآن راجحا او واجبا، فهو في هذه الحروف غير ممكنة إذ لا مجال فيها، اللّهم إلّا ما ثبت في تأويلها عن أهليها، ام تخرسا بالغيب او تخرصا: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ» (51: 10): «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (6: 116)! ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (2) و ترى لماذا «ذلك» إشارة البعيد، و هذا الكتاب بين أيدينا قريب قريب؟ ثم و ما هو «الكتاب»؟ و كيف‏ «لا رَيْبَ فِيهِ» و فيه مرتابون كثير؟ و كيف هو فقط «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ»؟ فما بال غير المتقين يعذبون و ليس القرآن لهم هدى؟!.

ذلك لأن «ذلك» إشارة تلميحة إلى علوّ المحتد، و بعد المنزلة لربانية الكتاب ككلّ: معنويا و لفظيا، على كونه قريبا منّا كتابة و سماعا و تلفظا، ثم و قريبا إن تدبرنا فيه معنويا حسب الإمكانيات و القابليات، فهو إذا غريب عنا، قريب منا، جماع الغربة القربة، التي تستحق «ذلك» مرة أخرى.

و «الكتاب» علّه أم الكتاب لدى اللّه: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (43: 4) فهذا الذي تفصيله بين يديك‏ «لا رَيْبَ فِيهِ».

أو و الذي أنزل على الرسول ليلة القدر: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» نزولا محكما: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (41: 3) و هذا تفصيله‏ «لا رَيْبَ فِيهِ»:

أو الذي أجمل في أم الكتاب «سورة الحمد» هو ذلك الكتاب لا ريب فيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 162

او الذي بشر به النبيون من قبل كما نجد في كتاباتهم، ف «ذلك» هو «الكتاب» المعهود ذكره عنهم من ذي قبل‏ «لا رَيْبَ فِيهِ».

أم هو كل «الكتاب» ففيه كل ما أنزل من كتاب و زيادة، فهو هو كل ما كتبه اللّه و أوحاه إلى أنبياءه طوال الزمان الرسالي‏ «لا رَيْبَ فِيهِ» ... ف «الكتاب» خبر ل «ذلك» في هذه الخمس، و «لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً ..» خبران بعد خبر «1».

او «ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ»: الكتاب الخماسي المعنى لا ريب فيه! «ذلِكَ الْكِتابُ» مشارا و مشارا إليه مبتدء: و «لا رَيْبَ فِيهِ» خبره، أو وصفه و «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» خبره‏ «2».

فالمعنى على الترتيب: «ذلك» أمّ الكتاب- 2- المنزل ليلة القدر- 3- النازل جملا في سورة الحمد 4- الذي بشر به من قبل- 5- كل الكتاب: «لا ريب في شي‏ء من ذلك» «لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» يهديهم دون ريب كما أنه لا ريب فيه.

6- «ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ»- 7- «ذلِكَ الْكِتابُ» دون ريب‏ «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ»! ..

فسباعية الوجوه تعني سباعية المعنى دون تناحر و اختلاف، و القرآن حمّال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، و هذه كلها حسنة يساعدها أدب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه الوجوه تشترك في كون «ذلك» مبتدأ و «الكتاب» خبره ثم‏ «لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» خبر ان بعد خبر أم وصفان.

(2) هذا على كون‏ «ذلِكَ الْكِتابُ» مبتدأ كله. «لا رَيْبَ فِيهِ» إما خبر، و «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» وصفه او خبره الثاني، أم حال و «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» خبره، و كل هذه صحيحة تتحملها ألفاظ الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 163

اللفظ و يراعة المعنى.

و ترى لماذا لم يفتتح الكتاب ب «ذلِكَ الْكِتابُ» و إنما بفاتحة الكتاب، فهل إنه خارج عن الكتاب؟.

الجواب: أنها السبع المثاني عدلا للكتاب، فهي هي كتاب، و القرآن العظيم كتاب، و أين كتاب من كتاب؟ من إحكام في فاتحة الكتاب، و تفصيل في سائر الكتاب، و لتكن الحمد مشارا إليها في‏ «ذلِكَ الْكِتابُ» ضمن كل مشار إليه ب «ذلك».

ثم ترى‏ «ذلِكَ الْكِتابُ» كيف يشير إلى كل الكتاب و لمّا يكمل تفصيله مهما كمل محكمه، و ليس محكمه- فقط- النازل على الرسول ليلة القدر- ليس هو هدى للمتقين، إنما للرسول و الرسول فقط، ثم و تفصيله هدى؟

أقول: «ذلك» نزلت حين نزلت، تعني الكتاب المفصل ما نزل منه وقتها و ما لم ينزل، فانه كله في علم اللّه، و هو كله هدى للمتقين بطبعه، في دوره و وقته، ثم تعني الكتاب الحاضر كله بعد تنزيله كله و تأليفه كما هو الآن، كما تعنيه «ذلك» و «القرآن» و سواهما من أسماء تعني القرآن كلّه، في القرآن كلّه.

أو أنها تعني بالفعل ما نزل قبلها من المكيات، عناية الواقع الماضي و الحاضر، و من ثم تعني ما سوف ينزل إلى آخر العهد المدني عناية المستقبل الأكيد الذي هو بمنزلة الحاضر.

و كما القرآن و الكتاب كله قرآن و كتاب، كذلك بعضه، و حتى سورة قصيرة منه كالكوثر، المتحدى بها الناكرون، فلا غرو أن يكون «ذلك» إضافة إلى ذلك- تعني البعض الحاضر منه، فانه نور و هدى بأبعاضه كما يهدي بمجموعة!، كما و أن من «ذلك» سورة الحمد النازلة قبلها بأعوام،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 164

و النازلة قبل القرآن المفصل كله.

و للقرآن اسماء تعني مواصفاته بكيانه المتين- فانه: كتاب- قرآن- فرقان- مبين- بيان- تبيان- برهان- عظيم- عزيز- كريم- صراط مستقيم- حكم- ذكر- موعظة- نور- روح- مبارك- نعمة- بصائر- رحمة- حق- فصل- هاد- شفاء- مهيمن- تنزيل- هدى- قيم- بشير- نذير- حديث- فصل- نجوم- حبل- مثاني.

فالقرآن كله يحمل هذه المواصفات و سواها كلها جملة و تفصيلا «1».

لا رَيْبَ فِيهِ‏ لا في كونه تفصيل ام الكتاب و ما أنزل ليلة القدر، فانه: «تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ» (10: 37):

و لا في كونه كل كتاب فانه‏ «تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (12: 111) ..

و لا في أنه الحمد تفصيلا كما أن الحمد هو الكتاب اجمالا.

و لا في أنه المبشر من قبل حيث التصادق واقع بينه و ما بين يديه من كتاب: «وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ» (12: 111) و مثالا عليه ما في كتاب اشعياء النبي (عليه السلام).

و لا في أنه كله وحي السماء حيث يشهد بآياته و بيناته: «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82) «تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (32: 2) كذلك و يشهد به من أوتوا الكتاب: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه الأسماء و سواها تجدها في آياتها حسب مناسباتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 165

(12: 121) «إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» (2: 144):

و لا في كونه‏ «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» كما هو لامح في النابهين غير المتعصبين.

فلم يقل: لا شك فيه، حيث الشاكون فيه كثير، و إنما «لا رَيْبَ فِيهِ» حيث الريب هو شك مسنود إلى حجة: أن تتوهم بالشي‏ء أمرا فيكشف عما نتوهمه‏ «1» فالشك منه مريب و منه غير مريب: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ‏ ... وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» (11: 110) «قالُوا يا صالِحُ‏ ... وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» (11: 62) مهما كانوا كاذبين في ريبتهم: «قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي‏ ...

فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ» (63).

فقد تكون الريبة في الدعوة أو في كتاب الدعوة، و لا ريبة في كتب اللّه و دعاته، و قد تكون في المدعوين المرسل إليهم و هم الذين: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» (2:) 10).

و القرآن لا ينفي الريبة عن قلوبهم: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» «وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ» (9: 45) «لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ» (9: 11) «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ» (40: 34) و إنما ينفي الريبة عن نفسه متحديا كل مفتر مرتاب‏ «لا رَيْبَ فِيهِ» «تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (32: 2) «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ..» (2: 23).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفردات القرآن للراغب الاصبهاني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 166

فليأت من يرتاب فيه بسلطان مبين. و لا نراه منذ بزوغه حجة إلّا داحضة تبوء بالفشل و الفضيحة على المفترين، فمن اين يكون فيه ريب و دلالة الصدق و اليقين كامنة في مطلعه، ظاهرة في عجزهم عن الإتيان بمثله‏ «وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»! «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» (2).

القرآن هدى للناس أجمعين دلالة و بيانا: «هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى‏ وَ الْفُرْقانِ» و هدى للمتقين موعظة و تبيانا: «هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (3: 133): «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» (19: 97) «وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (69: 48).

و كما التقوى- و هي قبول الوقاية إذا وقي- درجات، كذلك الهدى التي هي على ضوءها درجات، فمن لا يتقي، فيعاند الهدى تعنتا و رفضا لا تحصل له أية هدى بالقرآن، بل و لا يزيده إلّا خسارا، و من يتقي فهو يقيه كما يتقي، درجات بدرجات، و كما تزيد هداه تقوى فهما تتعاملان:

«وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17).

فمن تقوى هي تقوى فطرية و فكرية، إذا وقي صاحبها عما يناحرهما و يزيدهما وضاءة و قوة يقبلها، و القرآن يحمل ببيناته هذه الوقاية فهو إذا هدى للمتقين، فان الهدى حقيقته و طبيعته، كيانه و ماهيته، و لكن لمن؟

«للمتقين» الذين يفتحون مغاليق قلوبهم و يواجهونه بفطرتهم التي فطرهم اللّه عليها، متحذّرين استهواء الأهواء و الضلالات، و متحرّين الهدى، فعندئذ يتفتّح القرآن عن هداه، يسكبها في قلب ترك هواه إلى هداه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 167

فإذا اهتدى المتقي هكذا هداه الأولى، ثم اتبع رضوان اللّه على ضوء القرآن، يهديه ثانية سبل السلام: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (5: 116).

و استقبال أفعال المتقين: «يؤمنون .. يقيمون .. ينفقون. يوقنون» يلوّح إلى عامة مراتب التقوى، ابتداء من تقوى الفطرة قبل الإيمان بالقرآن و صالح الأعمال، و انتهاء إلى الهدى الفعلية إيمانا بالقرآن و عملا صالحا للإيمان، ثم هناك مزيد للتقوى بعد هذا الإيمان و بينهما متوسطات.

فلو مضت هنا أفعال التقوى ك «آمنوا .. أقاموا .. أنفقوا .. أيقنوا» لكانت مواصفات للتقوى الحاصلة بعد الإيمان، فليست التقوى صفة لقوم خصوص آمنوا ثم اتقوا، و إن صدقت لهم أكثر ممن سواهم.

فيا لاستمرارية أفعال التقوى من دلالة تعم درجات التقوى قبل الإيمان جاهزا له، و بعد الإيمان متدرجا الى درجاته: «يؤمنون .. يقيمون ..»

أن حالتهم قبول الإيمان و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و لمّا يؤمنوا و يقيموا، إذ لم يحن حينه حيث لم تأت داعيته.

إذا فالقرآن‏ «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» و لمّا يتقّوا عقائديا و عمليا، لما اتقوا فطريا و فكريا، و من ثم هدى للمتقين بكافة درجاتهم حتى القمة الرسالية لخاتم المرسلين.

كما الهداية المستدعاة في قلب الصلاة تعم هذه الدرجات.

ثم التقوى- كما تلوح من آياتها- هي على درجاتها تعم التقوى الفردية في صلة العبد باللّه، و التقوى الجماعية في صلاته بعباد اللّه، في كافة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 168

حقولها: العلمية- الفكرية- العقائدية- العملية- السياسية- الاقتصادية- الحربية ام ماذا من مجالاتها و جلواتها، و هي على شتاتها ترتبط بحبل واحد هو تقوى اللّه، فان دين اللّه يضم كافة الحقول الحيوية تنظّرا و تنضّرا، سبكا لها بسبائكه المكينة المتينة، ما لا قبل لها لأي نظام بشري أم ماذا؟

فالقائد السياسي في دولة الإسلام بحاجة إلى تقوى سياسية بعد ما سواها و أكثر منها، كما قائد الجيش يجب أن يكون الأتقى في الدفاع عن بيضة الإسلام، و وزير الثقافة أتقى ثقافيا، أم من ذا من المتقين في النظام الإسلامي السامي، حيث لا تختص التقوى بصلات العبادات الخاصة كالصوم و الصّلاة، بل و كافة الصلات و الحركات و السكنات للمسلم تشملها حقيقة التقوى، التي هي الوقاية و قبولها عما لا يحمد أولاه أو عقباه في أية مجالة من مجالات أو حالة من حالات- كما تعم وقاية الغيب و الشهادة، وقاية كل حق و عن كل باطل، معنويا و ماديا، فرديّا و جماعيا ام ماذا.

فالمتقي من شرط الحق يدافع و يذود عنه ما لا يحق قدر المستطاع، فان استطاعها و طبّقها دون تقصير او قصور فهي التقوى المطلقة و لا تحصل إلّا في دولة الحق خارجا عن صراعات الباطل و قليل ما هي.

و ان استطاعها على قصور في مختلف الصراعات، تاركا للأدنى لتطبيق الأفضل الأعلى، حيث لا يسطع الجمع بينهما في مصطدمات الحياة، فهي- إذا- التقية، فليست التقية هي الخوف و الترك، و إنما هي تقوى جانبيّة حفظا للأهم في ترك المهم، مما يجعل قيام الحسين (عليه السلام) تقية كما قعود الحسن تقية، و يجعل قيامات الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في العهد المدني، و قيامات علي (عليه السلام) في خلافته تقية، كما قعود الرسول في العهد المكي و قعود الامام زمن الخلفاء تقية، حيث يترك المهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 169

وقاية و إقامة للأهم في دين اللّه، قياما كان أو قعودا.

فالمؤمن باللّه من شرط اللّه مهما اختلفت الظروف و الإمكانيات، فاختلفت صور التقوى في مختلف الميادين.

و التقوى بصيغة مجملة نابعة من الغيب، غيب الفطرة و العقل و القلب، نابغة إلى غيب الحقائق: غيب اللّه- غيب الآخرة- غيب الوحي، فالصلاة الناتجة عن الايمان بهذه الغيوب، ثم الإنفاق في سبيل اللّه، و هي الخمس المذكورة هنا من صفات المتقين، ثلاث هي الغيب، و اثنان هما الشهادة الناتجة عن مثلث الغيب.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) فالغيب الاوّل هو مطلق الغيب الذي يجب الإيمان به، و هو يشمل غيب الألوهية الذي لزامه غيب الآخرة، اللذان لزامهما غيب الوحي: ما أنزل إلى الرسول و ما أنزل من قبله، و مثلث الغيب هذا لزامه عبادة اللّه:

الصلاة، و رعاية عيال اللّه: الإنفاق! ثم الإيمان بالملائكة من فروع الإيمان بغيب الوحي، و الوفاء بالعهد و الصبر في البأساء و الضراء و حين البأس، و الإتيان بالصدق و التصديق به هي كلها من نتائج الإيمان بمثلث الغيب، كما الإيمان بضلعي الوحي و الآخرة مربوط بقاعدة الإيمان بغيب الألوهية! و هذه جماع أوصاف المتقين هنا و في سائر القرآن، التي تجمعها الخمس هنا، كما يجمع الخمس ايضا مطلق الغيب.

فالإيمان بالغيب كلما كان أعمق و أعرق يضرب إلى إيمان الشهود أوفق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 170

و أليق، لحدّ يجعل حياة المؤمن حياة التقوى إذ يصبح من شرط الحق الذائدين عنه، المضحّين في سبيله بالنفس و النفيس.

و لأن الإيمان بغيب الألوهية و اليوم الآخر هما الأصل لسائر الغيوب، حتى و غيب الوحي، تراهما كحجرى الأساس للتقوى، فهنا يتوسطها سائر الغيب و الشهادة، و قد تترك الأوساط: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» (21: 49).

و لأن إقام الصلاة أقوم عماد في الشهادة للإيمان بغيب الألوهية تراه يقرن به ظرفا لتأثير الإنذار، و كأنه فقط من نتائجه: «.. إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (35: 18).

و لأن اتبّاع الذكر الذي يحمله وحي الرسالات و الكتب هو من أهم لزامات الإيمان بغيب الألوهية، تراه قرينا له لتأثير الإنذار: «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ..» (36: 11).

و لأن الأصل الأهم في الغيب هو غيب الألوهية لمن جاء بقلب منيب نراه مفردا دون قرين: «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» (50:) 33).

إذا فالتقوى تنبع من الإيمان بغيب الألوهية، ثم غيب الآخرة، ثم غيب الوحي، ثم تضرب بها إلى مظاهر الشهود، في الصلاة كأهم الرباطات بالخالق، و كالزكاة كأهمها بالخلق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 171

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ‏:

و الإيمان هو أن تجعل نفسك في أمن و طمأنينة، و لأن الحياة الدنيا و زخارفها متغيرة فانية، فالإيمان بها زيادة في تزعزع و اضطراب، و أمّا غيب الألوهية و اليوم الآخر و الوحي، فالإيمان بها يؤمن الإنسان و يطمئنه عن الهزائز: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»! .. يؤمنون بالغيب:

«بما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها كالبعث و الحساب و الجنة و النار و توحيد اللّه و سائر ما لا يعرف بالمشاهدة و إنما يعرف بدلائل قد نصبها اللّه تعالى دلائل عليها.» «1».

و الايمان بما غاب عن الإحساس الحيواني هو من ميّزات الإنسان عن سائر الحيوان، فإنه ممتاز بالعقل بعد الحس، ما به يعقل ما يقصر عنه الحس.

إن العقل و الحس يتعاملان في تصديق الغائب عن الإحساس كما يتعاملان في العلوم التجريبية ايضا، فلا مجرد الإحساس يكفي، و حتى للعلم بالمحسوس، و لا مجرد العقل يكفي و حتى لتصديق الغائب عن الإحساس إلّا قليلا.

فحصر الإدراكات بوسائل الحس فقط تفريط، كما أن حصرها بالعقل فقط إفراط، و لذلك نرى الآيات تجمع بين العقل و الحس في تعامل دائب في الإيمان بالغيب، مستدلة بالآيات الآفاقية الحسية، و الأنفسية غير الحسية:

«سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (41: 53).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البرهان 1: 56 عن تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 172

إن السوفسطائيين الناكرين لوجود العلم- سواء عن طريق العقل او الحس- ينكرون و حتى أنفسهم، و ترى أليس إنكارهم أنفسهم علما فكيف أنكروه؟ أو أنه جهل- إذا- فخلافه و هو إدراكهم أنفسهم علم!.

كذلك الحسيون أنكروا أيّ سناد إلى العقل، ثم و هم يسندون في نكرانهم إلى دليل العقل! ثم العقليون يعتمدون فقط إلى العقليات، و من المستحيل إلّا قليلا أن تنتج العقليات الصرفة- دون أيّ سناد إلى الحس- ما يصدّقه الإنسان! و لكنما الإلهيون المعتدلون هم الأمة الوسطى، إذ يجمعون بين العقل و الحس، مهما كان العقل إمام الحس و الحس أمامه، و كما يقول الإمام الصادق: «العقول أئمة القلوب و القلوب أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء»! فالإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتخطّى رتبة الحيوانية الحسية إلى درجة الإنسانية العائشة العقل مع الحس، نقلة بعيدة التأثير في تصور الإنسان لحقيقة الوجود، و تصديقه للوجود الحق، كما هي بعيدة في حياته الأرضية، إذ يرى نفسه في رباط دائم بالوجود اللّانهائي وراء هذا الكون: المكوّن لهذا الكون، فينظّم حياته صالحة كما يرضاه خالق الكون.

ثم النص‏ «يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» لا «يدركون الغيب» او «يحيطون علما بالغيب» حيث الغيب منه ما لا يدرك نهائيا كغيب الذات الإلهيّة و صفاته الذاتية و أفعاله، و كغيب الوحي، اللّهم بآيات محسوسات أو معقولات تدل عليه، او الوحي لأصحابه الخصوص.

و منه ما يدرك في اليوم الآخر كاليوم الآخر و الملائكة أم ماذا، و لكنه لا يدرك يوم الدنيا، فلا سبيل إليها إلّا إيمانا و تصديقا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 173

و هناك جهال غابت عقولهم و غربت، يحاولون إدراك ذات اللّه بما يدركون الكون المحسوس، و هم عاجزون عن إدراك حقيقة المحسوس.

و آخرون يحاولون الحيطة العقلية او العلمية بذاته تعالى‏ «وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» (20: 110).

فإنما الممكن في هذا المجال التأكّد من وجود الغيب فالإيمان به كما هو، لا كما نعرفه أو نحيط به، كما الكثير من الطاقات المادية، كالذرة و القوة الجاذبية العامة، نصدق بها بأدلتها دون أن نحسها أو ندركها، فغيب الذات الألوهية أحق بعدم الحيطة و أحرى.

ثم الغيب هنا ثلاث مذكورة كأصوله، و هناك غيوب غير مذكورة كفروع لها، من غيب البرزخ و هو من فروع غيب الآخرة، و من غيب القائم المهدي (عليه السلام) «1» و هو من فروع أصل الوحي و النبوة، و من غيب الرجعة في دولة المهدي (عجل اللّه تعالى فرجه) و هو فرع من فروع الحياة البرزخية و الآخرة و إلى سائر الغيب‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 1: 54- ابن بابويه باسناده عن جابر بن عبد اللّه الانصاري في حديث يذكر فيه الأئمة الاثني عشر و فيهم القائم قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) طوبى للصابرين في غيبته. طوبى للمقيمين على محبتهم أولئك من وصفهم اللّه في كتابه فقال:

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» أولئك حزب اللّه ألا ان حزب اللّه هم الغالبون‏

، و

البرهان 1: 53- ابن بابويه بسنده عن داود بن كثير الرقي عن أبي عبد اللّه في الآية قال: من آمن بقيام القائم انه حق،

و

عن يحيى بن أبي القاسم قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الآية قال: و الغيب فهو الحجة الغائب (عليه السلام) و شاهد ذلك قوله تعالى: و يقولون لو لا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب للّه فانتظروا اني معكم من المنتظرين.

(2)

الدر المنثور 1: 26 عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ليتني قد لقيت إخواني فقال له رجل من أصحابه أ و لسنا إخوانك؟ قال: بلى أنتم اصحابي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 174

ثم الايمان بهذا الغيب يدفع المؤمن إلى مظاهر الايمان و عمودها الصلاة، لا القيام إليها فقط، أو إتيانها فقط، و إنما إقامتها:

وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ:

فإقامة الصلاة هي تقوى العبادة، دون إتيانها او القيام إليها فانه طغواها التي يؤتى بها رئاء الناس كسالى، و إنها من شيم المنافقين: «وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى‏ يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (4: 142) «وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى‏» (9: 54).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و إخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي و لم يروني ثم قرأ «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ».

أقول و اخرج ما في معناه البزاز و ابو يعلي و المرهبي في فضل العلم و الحاكم و صححه عن عمر بن الخطاب عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج الحسن بن عروة في حزبه المشهور و البيهقي في الدلائل و الاصبهاني في الترغيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج الطبراني عن ابن عباس عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج الاسماعيلي في معجمه عن أبي هريرة عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج احمد و الدارمي و البارودي و ابن قانع معا في معجم الصحابة و البخاري في تاريخه و الطبراني و الحاكم عن أبي جمعة الأنصاري عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج ابن أبي شيبة و ابن أبي عمر و احمد و الحاكم عن أبي عبد الرحمن الجنهي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج احمد و ابن حبان عن أبي سعيد الخدري- أقول: و كل هذه الأحاديث على اختلافات سطحية لفظية تتفق في تفضيل المؤمنين الذين لم يروا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على أصحابه الذين رأوه.

و

اخرج جماعة عن تويلة بنت اسلم قالت: صليت الظهر او العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين ثم جاء نأمن يخبرنا ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قد استقبل البيت الحرام فتحول الرجال مكان النساء و النساء مكان الرجال فصلينا السجدتين الباقيتين و نحن مستقبلو البيت الحرام فبلغ رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ذلك فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 175

فإقام الصلاة ليست هي القيام فيها إذ ليس كلها قيام، و لا أنه إقامة لها كلها! إنما هي جعلها قوامة الحياة و أصالتها التي يتفرع عليها سائر الحياة، اتجاها الى اللّه وحده لا شريك له، و ارتفاعا عن عبادة العباد، دائما عليها مواظبا لها مراعيا حرماتها و واجباتها، شرائطها و أجزاءها، أوقاتها و كلّ ما يتوجب فيها، من معنوياتها و هي أحرى فإنها أصلها، و من مظاهرها ما يجعل المصلى كلّه صلاة للّه، و صلات باللّه، و خدمات في سبيل اللّه!.

ثم و من إقامتها استحضار معاني ألفاظها، و ملامح أفعالها، ثم الارتقاء الى معانيها تغافلا- لا غفلة- عن ألفاظها، ثم تغافلا عن نفسه لحدّ لا يرى إلّا ربه بنور اليقين، دون حجاب إلّا حجاب ذات الألوهية و هذه صلاة تخص صاحب المعراج (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثم ذويه المعصومين (عليهم السلام)، و على ضوءها و في هامشها المصلون الحقيقيون.

و من ثم و بعد إقامة الصلاة للّه، يقوم في صلات بخلق اللّه أن ينفق مما رزقه في سبيل اللّه:

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ‏ من رزق المال، و الحال، من ثروة علمية او عقلية، او ثقافة إيمانية «1» ام ماذا؟ فان كله من رزق اللّه ..

ثم و من أموال و من ايّ الطاقات الموهوبات التي يمكن إنفاقها أو الإنفاق منها فإنها كلها رزق اللّه!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 1: 53- ابن بابويه بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث في الآية قال: مما علمناهم ينبئون و ما علمناهم من القرآن يتلون.

أقول و هذا من باب التفسير بالمصداق الخفي من الرزق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 176

فإن الخلق مستخلفون فيما رزقهم اللّه: «وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» (57: 7) دون استثناء، و حتى إنفاق المال هنا و في أضرابها من آيات الإنفاق لا يخص خصوص الزكاة، ف «إن في المال حقا سوى الزكاة».

و هذا من التضامن بين عيال اللّه مع الصّلة الصّلاة للّه، أن تصبح الحياة مجال أخوّة و تعاون، لا معترك تناحر و تطاحن، عائشين جو المحبة و الحنان، لا جبهات القتال بين أظفار و أنياب و مخالب بني الإنسان.

ثم و لا يكفي الايمان بغيب اللّه و إقام الصلاة و الإنفاق، حتى يربطها و سواها بما أنزل اللّه:

وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ‏ إيمانا شاملا خطّ الرسالات الإلهية أولا و أخيرا، دون تفريق بينها، و إنما تصديق بها كلّها، مهما يجب تطبيق الأخيرة منها لا سواها.

ثم و لا يتم كل ذلك إلّا بإيقان بالآخرة:

وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ‏ و «هم» هنا يختصهم بإيقان الآخرة، فإنه ناتج عن الأربعة الأولى، فمن يؤمن بغيب اللّه و وحي اللّه، و يصلي للّه، و ينفق في سبيل اللّه، لا بد و أن يوقن بيوم اللّه.

فهنا إيمان باليوم الآخر يدفع الإنسان إلى أعمال الإيمان من صلاة و إنفاق و ايمان بوحي السماء.

ثم إيقان باليوم الآخر يدفع الإنسان إلى أعمال الإيمان من صلاة و إنفاق و ايمان بوحي السماء.

ثم إيقان باليوم الآخر هو نتيجة أعمال الإيمان، فالإيمان باليوم الآخر كإيمان بالوحي مطوي في الإيمان بالغيب، و إنما يبرز هنا أخيرا إيقانا بعد إيمان نتيجة عمل الإيمان، فثمّ إذا أيقن بالآخرة يزداد في الإيمان و عمل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 177

الإيمان، و هكذا يستمر دور الإيمان و الصالحات تعاملا وطيدا حتى يبلغ بصاحبه الذروة دون حدّ و لا نهاية.

و هنا نجد تساوقا و تناسقا بين هذه الخمس من مواصفات المتقين على درجاتها، ما نجد التقوى سارية في كافة جنبات الحياة في الغيب و الشهادة، فرادى و جماعات و في كل المجالات.

من تقوى في محراب العبادة: الصلاة «وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ» إلى تقوى في محراب الحرب و القتال: «وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (2: 177) «بَلى‏ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» (3: 125).

و تقوى في الإقتصاد: «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ»- «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (5: 93) «وَ لْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ... فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» (2: 283) «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا ..» (2: 278).

و تقوى سياسية: «وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ..» (2: 206) «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ» (33: 1).

و على الجملة تقوى فردية و تقوى جماعية: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً ..» (6: 6):

و تقوى في الصبر و المصابرة و المرابطة: الروابط السياسية و سواها بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 178

المؤمنين: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ» (3:) 200) «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ» (8: 1).

و هكذا نرى التقوى بطيّات آياتها تشمل كافة مجالات الحياة من عقائدية و إيمانية و علمية- عبادية و سياسية و اقتصادية و حربية- و فردية و جماعية أما هيه؟

و من أفضل التقوى:

«أن تدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس» «1»

و «أن تحب الله بقلبك كله و تعمل بكدحك و قوتك ما استطعت و ترحم ابن جنسك: ولد آدم كلهم، و ما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد فأنت تقي لله حقا» «2».

أُولئِكَ عَلى‏ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5):

أولئك المتقون على هدى من ربهم، «إلى هدى» فإنهم مسيطرون على الهدى، مجتازون طرق الردى‏ «وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»: إذ أفلحوا بمحراث التقوى كل شائكة في حرث الدنيا، فأصبحت الأولى هي الأخرى‏ «وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏».

فالإفلاح هو الشقّ، و المتقون يشقون أمواج البحور المتلاطمة الهائجة المائجة بسفن التقوى، و في سائر القرآن مواصفات أخرى للمفلحين توازي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 24- اخرج جماعة عن عطية السعدي قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا يبلغ العبد المؤمن ان يكون من المتقين حتى يدع ...

(2) المصدر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: بلغنا أن رجلا جاء الى عيسى (عليه السلام) فقال: يا معلم الخير كيف أكون تقيا للّه كما ينبغي له؟ قال: بيسير من الأمر: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 179

صفات المتقين‏ «1».

هذا شطر من صفات المتقين يفتتح به القرآن كأفضل ما به يتصفون ثم تقابلهم صفات الكافرين الذين لا يؤمنون بما ينذرون:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (6).

الكفر هو ستر الشي‏ء، و يوصف الليل بالكافرة لسترها الأشياء بظلامها، و الزارع بالكافر لستره البذر بالتراب، و يوصف غير المؤمنين و المتقين بالكفار إذ رانت قلوبهم عن مشاهدة الحق، و سدّت نوافذها و أغلقت عن الايمان بغيب الحق و شهادته، و قطعت وشائجها عن تصديقه.

و ترى إن الذين كفروا هنا هل هم الكافرون أجمعون؟ و هم أضراب، و ليس الإنذار و عدمه سواء عليهم كلهم!.

كلّا إنها لا تعني مطلق الكفر حيث الكثير منهم يؤمنون، من مشرك او كتابي ام ماذا؟ و إنما الكفر المطلق المازج عقولهم، الضائقة به صدورهم، المقلوبة قلوبهم، المنحرفة أفكارهم، و الخاطئة حواسهم، فهم في غيّهم يترددون، و في عيّهم يعمهون:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (7: 8) و هي موازين التقوى‏ «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَ‏ ... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (7: 157) «وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (59: 9) «لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (9: 88) «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (3: 104).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 180

«بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (2: 81): كفر محيط بهم حيث لا يبقي لهم نوافذ بها يبصرون‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ».

ليس النص «الكافرون» حتى يشملهم أجمعين، بل‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» كفر حدث و جاه الرسالة الإسلامية، بعد كفر سبق: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً»: الذين جحدوا بعد البينة، و أنكروا بعد المعرفة!.

و لا انه كلما حدث من كفر بعد كفر، فالبعض‏ «مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» يتردون ردحا من الزمن ثم يؤمنون، أم يتوبون عما كفروا فيهتدون.

و انما يعني أخسّ دركات الكفر و الطغيان ممن‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14) «وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ» (31: 32) فريق خصوص من الكافرين الذين بلغوا في كفرهم و جحودهم ما لا يؤمل فيه إيمان، مهما بقيت في قلوبهم نوافذ لرؤية الحق، و لكنهم يجحدون، فيجازيهم اللّه إذ يسدّ هذه البقيّة: «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ».

فهؤلاء الأوغاد المناكيد من صناديد قريش و أضرابهم، الكفار الألداء جمعوا بين دركات الكفر: الخمس- في خماسية قاعدتها كفر الجحود على علم- «... وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» ثم كفر النعم: «فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ» (16:) 112) و كفر العمل: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» (30: 44) و لحدّ الايمان بالكفر لا الكفر فقط: «ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا» (40: 12) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 1: 57- الكليني باسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 181

و لأن بنود الإيمان التقوى سبقت في مواصفات المتقين كإيمان مطلق للتقوى فليكن الكفر هنا وجاهة كفرا مطلقا، في قلوب خاوية عن أية تقوى و أي إيمان، هاوية كل دركات الطغوى دون ايمان، ناكرة لمثلث الغيب، عامدة، تاركة لأعمال الايمان، كافرة بأنعم اللّه، مؤمنة بالكفر و كأنه الايمان! و ترى هؤلاء الكافرون أ بإمكانهم أن يؤمنوا؟ فبإمكانهم إذا إبطال علم اللّه: أنهم «لا يؤمنون»! أم لا يتمكنون؟ فلا موقع للتنديد بهم أنهم لا يؤمنون! و لا يصح تكليفهم بالإيمان إذ لا يتمكنون! الجواب أن النص «لا يؤمنون» لا «لن يؤمنوا» حيث يخبر عن واقع اللّاإيمان، لا استحالة الإيمان، و حتى لو استحال منهم الإيمان فانما هي استحالة بالاختيار فلاتنا في الإختيار.

و هنا الإخبار عن واقع اللّاإيمان لأنهم لا يؤمنون باختيارهم، فلو كانوا يختارون الإيمان لكان الإخبار عن الايمان، فليس علم اللّه إلّا كاشفا عن واقع المستقبل، دون أن يسبّبه، حيث العلم بوقوع حادث أم لا وقوعه، لا يسبب وقوعه أم لا وقوعه، و إنما يكشف، إذا فالواقع هو السبب لهذا الكشف لا أن الكشف يسببه! و قد يخطأ الكاشف إذ لا يحيط علما بما يحصل، فيبطل العلم به إذا حصل، و حاشا اللّه أن يخطأ فإنه بكل شي‏ء محيط، فلا يمكن إبطال علمه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

السلام) قال‏ قلت له اخبرني عن وجوه الكفر في كتاب اللّه عز و جل؟ قال الكفر في كتاب اللّه على خمسة أوجه، فمنها كفر الجحود و الجحود على وجهين (عن معرفة و عن جهالة) و الكفر تبرك ما امر اللّه و كفر البرائة و كفر النعم ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 182

و عدم الإمكانية هذه ليست لاستحالة الفعل و اللّافعل المخبر عنه ذاتيا، حتى يسقط التكليف و يبطل التأنيب: «لماذا لا يؤمنون»؟ و إنما لاستحالته بالاختيار، أنهم رغم اختيارهم في الكفر و الايمان سوف لا يختارون الإيمان.

و هذه من الملاحم الغيبية القرآنية ان ينبئ اللّه بما في قلوبهم و عن مستقبل أحوالهم، فرغم حرصهم بابطال القرآن و إبطال علم اللّه، لم يقدموا حتى على ظاهر الايمان، فثبت علم اللّه، و صدق كتاب اللّه، و خسر هنالك المبطلون‏ «1».

و ثم إذا ختم اللّه على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة فلا يتمكنون أن يؤمنوا، هنا يسلب عنهم اختيار الايمان بما قدمت أيديهم و ان اللّه ليس بظلام للعبيد، و طالما لا يصح تكليفهم بالايمان و لكنهم معذبون باللّاايمان حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، و التنديد هنا بالامتناع الإختيار، كما العذاب، و لا يمكنهم إبطال علم اللّه و إن حاولوا! إذا فأين ابطال علم اللّه أو إمكانيته، و اين استحالة الايمان التي تبطل التكليف و تبطل التنديد بترك الايمان؟!.

ثم النص‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ» لا «سواء عليك» فالرسول ليس له‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 29- اخرج ابن أبي حاتم عن عبد اللّه ابن عمر قال: قيل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، انا نقرأ من القرآن فنرجو و نقرأ فنكاد نيأس فقال ألا أخبركم عن اهل الجنة و اهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، قال: «الم، ذلِكَ الْكِتابُ‏- الى- الْمُفْلِحُونَ» هؤلاء اهل الجنة، قالوا: انا نرجو ان نكون هؤلاء ثم قال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا- الى- عَظِيمٌ» هؤلاء اهل النار قلنا لسناهم يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! قال: اجل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 183

السكون عن واجب الإنذار، سواء أ كان عليهم سواء فلا يؤمنون، ام لا سواء فهم يؤمنون، فلينذر على أية حال كما المرسلون: «عُذْراً أَوْ نُذْراً» ففيما هو سواء يكون الإنذار حجة و عذرا، و في سواه برهانا و نذرا.

فقد يكون المنذر قاصرا عن الإنذار دون المنذرين فلا حجة عليهم، او ان المنذرين قاصرون فكذلك الأمر، أو أنهم مقصرون رغم كمال الإنذار فلا يؤمنون فهنا الحجة البالغة عذرا، أو أنهم يؤمنون نتيجة الإنذار فهنا الحجة نذرا، و هكذا يكون دور الرسالات الإلهية في كمال الإنذار بين مثلث المنذرين و إن كانوا: «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»! فالإنذار هو الجناح الأعم من جناحي الرسالات حيث التبشير خاص بالمتقين: «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ‏ ... وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ» (36: 11) فواجب الإنذار على النبي يعم و إن بالنسبة لمن هو سواء عليهم، و تأثيره خاص بمن اتبع الذكر .. كأنه الإنذار لا سواه، حيث هو المؤثر لا سواه.

خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (7).

هنا الغشاوة على أبصارهم و الختم على قلوبهم، فما ذا إذا على سمعهم؟ أهو ختم عطفا على قلوبهم، أم غشاوة معطوفا لأبصارهم فالواو هناك عطف و هنا استئناف؟

بما أن غشاوة خصوص السمع غير مألوفة في سائر القرآن، و غير معروفة كذلك في غير القرآن، ثم نرى السمع مقرونة بالقلوب ختما،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 184

و الأبصار تنفرد بالغشاوة: لمكان «على» المكررة هنا ثم و في غيره‏ «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى‏ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى‏ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى‏ بَصَرِهِ غِشاوَةً» (45: 23) و أن ظاهر الواو العطف إلّا بقرينة تعطفها على غيره كاستئناف، إذا يرجح اختصاص الغشاوة بالأبصار، مهما يجمع الطبع أحيانا بين الثلاث: «أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ» (16: 108) فطبع الأبصار لا يستتبع غشاوة السمع!، مهما شملت الغشاوة عامة الإنسان: «فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» (36: 9): كما قد تفرد القلوب بالختم أخذا بالسمع و الأبصار: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى‏ قُلُوبِكُمْ» (6: 46).

أو ان السمع هنا مغشوة كما الأبصار تلميحا من تكرار «على» فلولا غشوة السمع هنا كالأبصار لم تكن «على» كما في‏ «طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ» (16: 8).

او أنهما معا معنيان: أن ختم اللّه على سمعهم و على سمعهم غشاوة، فلانهم غشوا سمعهم و أبصارهم ختم اللّه على قلوبهم مما يزيد ختم السمع و الأبصار: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» (26: 12) «الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً» (18: 101) لذلك‏ «وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» (7: 100)، كما و ان قلوبهم مختومة مرانة بما كانوا يعملون: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» (83: 14).

و لماذا تفرد «السمع» دوما مع جمع القلوب او الأبصار، دون الأسماع؟ علّه لأنّ السمع في أصله مصدر لا يجمع و له معنى الجمع في جمعه و المفرد في مفرده، أو إذا لم يكن مصدرا فهو قوة في الأذن و ليس هو الأذن حتى يجمع كالآذان، فلكل منا سمع في أذنين و ليس بصر في عينين- حيث البصر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 185

هو العين بعينها، ام ماذا «1».

هنا الغشاوة على أبصارهم: أبصار القلوب و العقول و الأفكار و أبصار العيون ايضا- رغم انها- علّها- أبصر من غيرها، إذ لم ينتفعوا بالنظر و لم يعتبروا بالعبر، فهم كالخوابط الغواشي في مشيتهم، يخطئون الصراط المستقيم! و إنها كلها من فعلهم أنفسهم إذ جحدوا بالحق و آياته بعد ما عرفوها، فلم تنسب الى اللّه، و بذلك استحقوا ان يختم اللّه على قلوبهم و على سمعهم، فحتى لو شاءوا ان يبصروا لم يتمكنوا، فنسب الختم عليها إلى نفسه، و في الحق إنهم هم الذين ختموا على قلوبهم و على سمعهم إذ غشوا على ابصارهم، فمنه فعل لهم و منه جزاء: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» و علّ الواو في‏ «وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ» حالية تعني: أن اللّه ختم حال الغشاوة من فعلهم على أبصارهم، فظرف هذا الختم إنما هو غشاوة الأبصار، سابقا على ختم السمع و القلوب.

كما علّها في‏ «عَلى‏ سَمْعِهِمْ» ايضا حالية تعني ما تعنيه في «أبصارهم» أن‏ «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ» حال أنهم‏ «عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ» من فعلهم- و إنما الأصل هو القلب يقلبه اللّه كما يتقلب صاحبه ان خيرا فخير و إن شرا فشر، فلانهم عموا عن أصل السبيل و صمّوا عن دعاء الدليل «ختم اللّه ..» جزاء وفاقا.

فليس الطبع و الختم على قلوب او سمع- بداية و دون سبب- من اللّه، «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ» (4: 155)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 29 ص 49 تفسير الآية «وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 186

«كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ» (10: 74) «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (40: 35).

فلانهم كفروا بنعمة القلوب و السمع الإنساني، تناسيا عما يتوجب عليهم فيها، و تعمدا و تعنّدا لضلالها، جازاهم اللّه في الأولى بطبعها و لهم في الآخرة عذاب عظيم.

و هكذا يفعل اللّه بمن يبدل نعمة اللّه كفرا أن يذهب بها و يجعلها نقمة، و يقلّبها عليهم دمارا و بوارا: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى‏ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» (13: 11).

ثم القلوب هنا و في سائر القرآن هي قلوب الأرواح لا الأبدان كما السمع و الأبصار حيثما تقرنان بالقلوب هما كذلك للأرواح- فكثير من هؤلاء الكفار المختوم على قلوبهم، المغشوّة سمعهم و أبصارهم، لهم قلوب و سمع و أبصار لأبدانهم قوية، و أقوى من المؤمنين و إنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور و قد نأتي على قول فصل حول القلوب و الأفئدة و السمع و الأبصار و الصدور و الأرواح و العقول و الأفكار بطيّات آياتها الأنسب و هي ثمان كأبواب الجنة الثمان، ألا فاعتبروا يا اولي الأبصار.

فأولئك الكفار، لاستهتارهم بالمنذرين و الإنذار، لحد تساوى عليهم الإنذار و اللّاإنذار، مطبوع على قلوبهم هنا، و موعودون في الأخرى عذاب النار، عذابا على عذاب‏ «وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ»!.

[سورة البقرة (2): الآيات 8 الى 20]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12)

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (13) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17)

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (20)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 188

هنا- بعد هذه الآيات و قبل تفسيرها- نقدم تفسيرا للنفاق‏

عن الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام) «النفاق على اربع دعائم: على الهوى و الهوينا «1» و الحفيظة و الطمع، فالهوى على أربع شعب: على البغي و العدوان و الشهوة و الطغيان، فمن بغى كثرت غوائله و علّاته‏ «2»، و من اعتدى لم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الهوينا تصغير الهونى مؤنث الأهوان، اي التهاون في امر الدين.

(2) علات جمع العلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 189

تؤمن بوائقه و لم يسلم قلبه، و من لم يعزل نفسه عن الشهوات خاض في الخبيثات، و من طغى ضل على غير يقين و لا حجة له- و شعب الهوينا: الهيبة و الغرّة و المماطلة و الأمل، و ذلك لأن الهيبة ترد على دين الحق، و تفرط المماطلة في العمل حتى يقدم الأجل، و لو لا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه، و لو علم حسب ما هو فيه مات من الهول و الوجل- و شعب الحفيظة: الكبر و الفخر و الحميّة و العصبية، فمن استكبر أدبر، و من فخر فجر، و من حمى أصرّ، و من أخذته العصبية جار، فبئس الأمر أمر بين الاستكبار و الإدبار، و فجور و جور- و شعب الطمع اربع: الفرح و المرح و اللجاجة و التكاثر، فالفرح مكروه عند اللّه عز و جل، و المرح خيلاء، و اللجاجة بلاء لمن اضطرته الى حبائل الآثام، و التكاثر لهو و شغل، و استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فذلك النفاق و دعائمه و شعبه» «1».

.. و في الحق إن دور المنافقين هو أخطر الأدوار ضد الرسالات الإلهية و لا سيما الرسالة الإسلامية، و أخطر من الكافرين ايضا، ترى عرض حالهم في سورة تخصهم «المنافقون» و في عامة القرآن نلمس خاص الاهتمام بعرض قضاياهم و رزاياهم كثيرا و كما هنا، فبعد آيات اربع تستعرض حال المتقين، و آيتين تخصان الكافرين، نجد ثلاثة عشر تخص المنافقين، و كما تتحدث عنهم ثلاثة عشر سورة في مآت الآيات مصرحة بهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 34 عن كتاب الخصال للصدوق عن الأصبغ بن نباتة عنه (عليه السلام) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 190

أحيانا «1» و ملمّحة، أخرى تفضحهم في عرض حالهم و مآلهم، و ثالثة تدخلهم في الدرك الأسفل من النار: (4: 145).

تخطّينا شفافية الصورة الأولى إلى عتامة الظلامة الثانية، فإذا الثالثة ليست كالأولى و لا كالثانية، فإنها صورة صلتة ملتوية خادعة خائنة لا تقف لحد لكي نعرفها، ألا و هي الصورة المنافقة، لا ذات شجاعة و انطلاقة في الضمير لتواجه الحق بصريح الإيمان و خالصه، و لا ذات جرأة لتواجهه بالنكران، ثعلبة تماكر بغية البقاء على كيانها، عميلة في عملياتها للكلاب و الذئاب، مظهرة إخلاصها للأسد في الغاب، جاسوسة لهذه عن تلك، لا صورة لها ثابتة تعرف اللّهم إلّا مما كرات و مخادعات، و ادعاءات- مع ذلك- أنهم أذكياء دهاة، عقلاء مصلحون، مترفعون على البسطاء أم ماذا! و لكن اللّه يواصفهم بواقعهم المكر الخداع، الخلاء الخواء عن كل حقيقة إلّا ادعاء! و هم يعيشون بنفاقهم ثالوث: 1- مشاركة المؤمنين فيما يمن اللّه عليهم دنيا، 2- اتقاء ما يحكم به على الكافر كذلك 3- التجسس عن أحوالهم الى شياطينهم، إلّا ان ثالوثهم هالك مفضوح بما يفضحهم اللّه و ينبه الرسول و المؤمنين! و هنا استعراض لأبواب سبعة من جحيم المنافقين يغلقها اللّه على المؤمنين:

(1) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8).

باب اوّل: ناس في الحق هم نسناس‏ «يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» (48: 11) «يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ»: و هو حالة تصديق في القلب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في سبعة و ثلاثين آية، راجع تفسير سورة المنافقين ج 28: 355 ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 191

«وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»: حال أن قلوبهم خاوية عن الإيمان، كافرة بمبادئ الإيمان، فقد يوافق القلب اللسان في دعوى الإيمان فهو إيمان، و قد ينافقه فهو الكفر النفاق، و آخر لا ينافقه إذ لا يعانده و لا يوافقه إذ لم يعرفه فلمّا لم يدخل الإيمان فيه و هو يتروّيه، فهذا إسلام بلا ايمان: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49:) 14) فهي عائشة حالة الانتظار حتى تؤمن كما النص فيه «و لمّا» دون استهتار المنافق و لعبته حيث فيه‏ «وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»: ليسوا ممن يؤمن و لا يتروّى الايمان، فأولاء هم المندّد بهم دون هؤلاء، إلّا تجهيلا تخطئة في التعبير «آمنا» بل‏ «قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا ..»!

و هذه حالات أربع حاضرة في مواجهات الإيمان: كفرا و نفاقا أو إسلاما مترويّا أو إيمانا، و مهما سمي المنافق مسلما فإن إسلامه استسلام لا إسلام‏ «1».

(2) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (9).

باب ثان و هي الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه، و المخادعة خداع بين طرفين، ابتداء من طرف و انتهاء الى آخر، كفاحا ضد الخداع: «إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ» (4:) 142) و اين خداع من خداع، خداع اوّل كلّه عجز و مكر و كذب و نفاق كما المخادعين اللّه، و خداع ثان لا تحمل إلّا اسمه فإنها عن قدرة و صدق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ان للسان و القلب و الأركان احوال:

فقد يقر اللسان بالحق و قد ينكر او يسكت، ثم قد يوافقه القلب في الإقرار او ينافقه او يتردد مترويا الحجة للكفر او الايمان، ثم قد يوافقها العمل او ينافقهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 192

جزاء الوفاق، كما اللّه: حيث يأمر بجري أحكام الإسلام عليهم هنا، و في الآخرة لهم عذاب اليم، و يكشف أسرارهم للنبي و المؤمنين حيث يخادعون ثم يوم القيامة يريهم جناته كأنهم واردوها ثم ينأون عنها مهانين كما

«يفتح لهم باب جهنم فيظنون أنهم يخرجون منها فيزدحمون للخروج فإذا انتهوا إلى الباب ردتهم الملائكة حتى يرجعوا» «1»

: «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها» (22: 22).

فجزاء الخداع خداع مثله فإنه حق، إلّا في باطله، و في عجزه فإنه قدرة، و في كذبه فإنه صدق، و إنما التموية و الإخفاء في الخداع الجزاء إيلام كما آلموا المؤمنين جزاء وفاقا «2».

إنهم كما يزعمون‏ «يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ» آمنوا و في الحق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 30- اخرج احمد بن منيع عن رجل من الصحابة أن قائلا من المسلمين قال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! ما النجاة غدا؟ قال: لا تخادع اللّه- قال: و كيف نخادع اللّه؟ قال: ان تعمل بما أمرك اللّه به تريد به غيره، فاتقوا الرياء فانه الشرك باللّه فان المرائي ينادي به يوم القيامة على رؤس الخلائق باربعة اسماء: يا كافر! يا فاجر! يا خاسر! يا غادر! ضل عملك و بطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند اللّه فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع و قرأ آيات من القرآن: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً» الآية و «إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ» الآية، و في تفسير البرهان عن ابن بابويه باسناده عن جعفر بن محمد (عليه السلام) عن أبيه مثله.

(2)

نور الثقلين 1: 35 عن العيون عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) في حديث: ان اللّه تعالى لا يسخر و لا يستهزأ و لا يمكر و لا يخادع و لكنه يجازيهم جزاء السخرية و جزاء الاستهزاء و جزاء المكر و الخديعة تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

و

في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): و اعلم انك لا تقدر على إخفاء شي‏ء من باطنك عليه تعالى فتصير مخدوعا بنفسك- قال اللّه تعالى: يخادعون اللّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 193

«ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» إذ لن تؤثر خداعهم في اللّه، و لا تؤثر في المؤمنين باللّه، اللّهم إلّا قليلا يرجع بضرر كثير عليهم أنفسهم، فهم بخداعهم مفضوحون يوم الدنيا بما يفضحهم اللّه، و يفضحون أنفسهم حيث يعرفون في لحن القول: «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» (47: 30)- فما أضمر احد أمرا إلّا و قد يظهر في صفحات وجهه و فلتأت لسانه- ثم «هم يوم القيامة من المفضوحين».

«و» لكنهم‏ «ما يَشْعُرُونَ» أن خداعهم راجعة إليهم فلو شعروا ما خادعوا.

ثم النفاق و خداعه دركات صاعدة الى الكفر النفاق و نازلة الى السمعة و الرئاء، كما جزاءه دركات حسب الدركات طبقا عن طبق.

و لماذا «وَ ما يَخْدَعُونَ» دون «و ما يخادعون» نفيا لما حاولوا طبقا عن طبق؟

علّه لان الواقع من فعلهم لم يكن مخادعة، حيث اللّه لا يخادع، و المؤمنون لا يخدعون بما يفضح اللّه المخادعين، فلا تبقى في ميدان الخداع إلّا أنفسهم‏ «وَ ما يَشْعُرُونَ» و الخادع لا يخادع نفسه لوحدته، و إنما يخدعها، و يا ويلاه إذا كانت مخادعتهم تبوء بالخدعة لأنفسهم و «ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ»!.

و ترى إذا «ما يَشْعُرُونَ» فكيف التنديد بهم و العذاب، و الشعور مدار التكليف فالثواب و العقاب؟

الجواب: أن النص لا ينفي عنهم الشعور، و إنما إعماله و أعماله بسوء الإختيار، و حتى إذا فقدوا الشعور لأنهم أبطلوه إذ لم يستعملوه، و بقي التنديد و العذاب على مبدء اللّاشعور المختار، فالامتناع بالاختيار لا ينافي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 194

الإختيار! فأولئك الحماقى الأغفال يظنونهم رابحين بهذا النفاق الإغفال‏ «وَ ما يَشْعُرُونَ» أنهم خاسرون، لا في العقبى فحسب، ففي الدنيا ايضا حيث يوردون أنفسهم بالكفر المضمر موارد التهلكة بما يفضحهم اللّه و يفضحون أنفسهم، إذ تظهر مظاهر من كفرهم من صفحات الوجوه و فلتات الألسن.

و من مخادعتهم للّه قولهم «آمنا بالله و ما هم بمؤمنين» و من مخادعتهم للمؤمنين: «إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ».

(3) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (10):

باب ثالث من أبواب جحيم المنافقين: «مرض القلوب»: قلوب الأرواح لا الأجساد، فالقلب بيده ازمة العقول و الأفكار و الصدور و الحواسّ و الأعضاء، الزعامة العليا في مملكة الكون الإنساني، فإذا مرض مرض الإنسان في كيانه الإنساني ككلّ، فالمرض في القلوب حقيقة، و في الجسد مجاز أم حقيقة ثانوية.

و لان المرض- الذي لا يحاول شفاءه يزداد دوما، إن في الجسم او في الروح سواء، سنة دائبة في الكائنات كلها، أن تنفرج زاويته في كل خطوة فتزداد من حيث لا يشعرون او يشعرون.

فمرض الجسم يشعر فيدرك فيتدارك مغبّة الحفاظ عليه، و مرض الروح قد لا يدرك و كثير ما هو، فلا يتدارك فيزداد، ثم القلب و مكاسب السوء يتعاملان في زيادته: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 195

فهناك مرضان اثنان كلاهما في القلوب: 1- «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»- 2- «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً-» و من ثم‏ «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»:

و طالما المرض الأول أجمل عن فاعله، ففاعل الثاني «اللّه» فهل‏ «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» بالمرض الاول، ام و بالثاني ايضا، او «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» هنا و هناك حصيلة المرض، و نفاقا في دعوى الإيمان؟

المرض الأوّل هو مرض الكفر و العناد للحق بما كانوا يكسبون، و الثاني هو ازدياد الاوّل منذ بزوغ الرسالة الإسلامية تداوما فيه و نتاجا عنه كما توحيه الفاء: فزادهم .. فرغم انهم كانوا يأملون لهم زعامات في الجزيرة، و يعملون لإزالة عقباتها و تعبيد طريقها، إذ فاجأتهم الدعوة الإسلامية، فأخرجت شطأها فآزرها فاستوت على سوقها يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار، منذ العهد المدني بعد ما أصيبت بجوارف الإصابات في العهد المكي.

إن ذلك الازدهار و التقدم في الدعوة زاد في مرضهم، فهذه الزيادة هي منهم إذ انفرجت زاويته لمّا انفجرت الدعوة، حسدا من عند أنفسهم.

و هي من عند اللّه إذ بعث صاحب هذه الدعوة، و لم يكن من اللّه إلّا كلّ خير و رحمة، و لكنهم لمرضهم بدّلوه الى كل شر و نقمة: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» مرضا الى مرض و رجسا الى رجس: «وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ» (9:) 125) فان دعاء الكافر المعاند لا يزيد إلّا فرارا: «إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 196

وَ نَهاراً، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً» و هكذا تكون دعوات الرسالات الإلهية قد تزيد في ايمان لمن يؤمن، و كثيرا ما تزيد طغيانا و كفرا لمن لا يؤمن: «وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً» (5:) 64):

ف: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أوّل عاشوه قبل الدعوة «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» عند الدعوة حيث كذّبوها «وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» كما «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»- «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»- «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً»- «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» «1»:

فثالوث المرض الاوّل و ما زادهم اللّه و عذاب اليم- كل ذلك: «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»: بالدعوة و الداعية، و في دعوى الإيمان.

و لماذا «مرضا» دون «المرض» طالما الثاني استمرار بزيادة في الاوّل؟ .. علّه لان الثاني مزدوج: من نوع الاوّل، زيادة في الكفر، و من سواه: حسدا منهم في مواجهة الدعوة، و طبعا على قلوبهم لمّا كذبوا الداعية-: «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» على مرض‏ «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ».

و عذابهم الأليم يعم يوم الدنيا و يوم الدين، فهنا أن زادهم اللّه مرضا و فضحهم بنفاقهم، ثم يوم القيامة هم من المفضوحين.

(4) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12):

باب رابع من أبواب جحيم المنافقين: دعوى الإصلاح في إفسادهم!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «بما كانوا يكذبون يعلل ثالوث المرضين و العذاب الأليم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 197

«وَ إِذا قِيلَ»: قيل إلهي بلسان النبي او المؤمنين المصلحين الذين يحق لهم نهي المفسدين- قيل لهؤلاء المنافقين: «لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» و قولة فارغة جوفاء منهم: «إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ» ثم فضيحة لهم عالمية في إذاعة قرآنية: «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ»! و هكذا يكون دوما دور المنافقين في كلّ عصر و مصر أنهم يحسبون أنفسهم من المصلحين، و غيرهم مفسدين، حيث الموازين مختلة عندهم، فإنها تتأرجح مع أهوائهم الذاتية، بعيدة عن الواقع و الميزان الرباني، او الإنساني.

إنهم يحسبون المكر و الخداع شطارة و لباقة، سياسة يتذرعونها الى ما يهوون، فان الغاية عندهم تبرّر الوسيلة، و لأن الأصل من الحياة عندهم حيوانيتها و شهواتها، و الوصول الى بغيتهم و مصالحهم الشخصية، او الجماعية التي تبوء إليها، يحسبونها إصلاحها و فلاحها، لذلك يعدّون فسادهم صلاحا و إفسادهم إصلاحا: «إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ»: لا شغل لنا إلّا الإصلاح، و هم صادقون في إصلاح حيونة الحياة لهم، و كاذبون في إنسانيتها و قيمها و قوامها.

إنهم يتبجهون بثرواتهم و نزواتهم، طنطناتهم و عربداتهم، زهواتهم و زهزاتهم، و هم يحسبون انهم يحسنون صنعا «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ» فقط- كأن لا مفسد سواهم، إذ ينافقون دوما و لا يوافقون، «وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ» أنهم هم المفسدون، حيث رأوا الصلاح فسادا، و الفساد صلاحا: «و لكنه أخلد إلى الأرض هواه و كان امره فرطا».

إنهم لا شغل لهم إلّا الإفساد: في الحرث و النسل، في الثقافة و العقيدة، في الإقتصاد و السياسة، و في كافة الحقول الحيوية، محتلّين ساحاتها، طاردين أصحابها، متدخلين في كل رطب و يابس و هم يحسبون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 198

أنهم يحسنون صنعا: أنهم هم المصلحون و من سواهم مفسدون!: و حتى النبيين: «وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى‏ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ» (7: 127) رغم أنهم هم: «.. الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ» (26: 152) و قد يوجهون نفاقهم العارم بمسايرة الكافرين حفاظا على المؤمنين: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى‏ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً، فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً» (4: 62).

فهم يعتبرون صدّهم عن رسول اللّه إحسانا إليه و توفيقا بينه و بين الكافرين، اقتساما للبلد نصفين، و جعلا للحكم شطرين، رعاية للقبيلين!:

«وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ» و ليسوا بتلك البلادة حتى يفقدوا مطلق الشعور و إنما يشعرون من الحياة حيوانيتها فيحتالون و يمكرون بكل شطارة و شعور لبغيتها و هم أنفسهم لا يشعرون عمق الحياة و قيمها و واقعيتها، و مهما لم يشعروا فيما يجب على الإنسان شعوره فكأنهم لا يشعرون! إذ لا يستعملون الشعور حقه الإنساني و إنما إدراكه الحيواني! ثم الإفساد منه شخصي كالمعاصي التي لا تتجاوز العاصي، و منه جماعي كالتي تتعداها الى غير العاصي، و منها حكومي تشمل من يعيش في ظل الحكم، ثم منها مادي تشمل الناحية الاقتصادية، و منها عقيدي تفسد العقائد و منها .. و أفسدها كلها ما يشمل الإفسادين بقوة الحكم: «قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ» (27: 34) «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى‏ ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ. وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 199

لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ. وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ» (2: 206).

هنا نهوا عن منكر الفساد، و من ثم يؤمرون بمعروف الإيمان: حيث النهي عن المنكر يتقدم على الأمر بالمعروف، إذ ما دام الناكر مكبا على المنكر لا يتأتى منه المعروف، فإذا ترك المنكر او نهي فهنالك المجال لفعل المعروف و الأمر به، حيث التزكية تتقدم التحلية في كافة المجالات، مادية و معنوية!:

5 وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ، وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (13).

باب خامس من أبواب جحيم المنافقين «تسفيه المؤمنين» و أنهم هم العقلاء النابهون من دون المؤمنين! «وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ» لا كما استسلم النسناس- و القائل هو الرسول و من معه- «قالوا» في جفوة و غرور و استعجاب و هزء و زور: «أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ» فإن هذا الإيمان خاص بفقراء الناس و أراذلهم دون الأغنياء العليّة ذوي المقام- فجاء الجواب الحاسم: «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ».

و السفه هو خفة العقل و بلادته، حيث السفيه يفسد و يحسبه مصلحا، و يضيع و يراه حافظا، لجهله بموارد الإصلاح و موازينه، و خفة عقله، مهما كان مثقفا في مختلف العلوم الزمنية- ف «رب عالم قتله جهله»! فهم يعتبرون الإيمان الصادق سفها، و النفاق عقلا، إذ يمكّن العشرة مع المؤمن و الكافر فيربح الجوّين، و يؤمن الخطرين، و هذه هي الحياة العاقلة عند هؤلاء المجاهيل، و حياة الايمان عندهم سفيهة! تخص المجاهيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 200

و هكذا يكون دوما دور غير المؤمنين: منافقين و كافرين، أن الايمان سفه و رجعية سوداء و تأخر عن الحياة في زعمهم، و الكفر و النفاق سياسة حيوية و شطارة، و أن موافقة السر و العلن. تفسد الحياة، و منافقتهما تصلحها، حيث اختلف لديهم موازين الحياة الصالحة، إذا أخلدوا إلى الأرض و اتبعوا أهوائهم فكان أمرهم فرطا!:

و لماذا هنا «الناس» لا «المؤمنون» و هم ناس خصوص دون سائر الناس، و قد ذكر «الناس» في القرآن اكثر بكثير من المؤمنين و المتقين- و حتى المسلمين: الذين هم أعم من المؤمنين- فانه (241) مرة و هي كلها خطابات عامة؟

علّه لأن المطلوب منهم فعلا أقل درجات الإيمان التي تخرجهم- لأقل تقدير- عن كفر النفاق، و أن هذا الإيمان لا يكلّفهم إلّا أن يكونوا من سواد الناس، و لهم ما لسائر الناس من عقل و إدراك، فإذا لم يؤمنوا كما الناس فهم أولاء إذا نسناس، فاقدين ما للناس من عقل، «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ» علم الناس، حيث الإيمان هكذا لا يتطلب براعة في العلم و العقل، و إنما يكفيه كونك على مشارف العقل دون أشرافه! و ترى أن الإيمان الصادق القرين بكافة البراهين سفه، ثم الكفر و النفاق اللذان ترفضهما البراهين عقل؟ ما هذه إلّا دعاية غوغائية ضد المؤمنين، لكي لا يرغب في الايمان من يحبون العقل المتين! و لماذا هنا «لا يَعْلَمُونَ» و هناك و هنالك‏ «لا يَشْعُرُونَ»؟

علّه لأن الوقوف على حق المؤمنين و عقلهم، و باطل المنافقين و سفههم بحاجة إلى علم زيادة على شعورهم فاقدوه، و لكن التمييز بين الصلاح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 201

و الفساد، و بين ربح الخداع و ضرره يكفيه الشعور، فهم هناك و هنالك‏ «لا يَشْعُرُونَ» و هم هنا «لا يَعْلَمُونَ» مدعين كل علم و شعور! ناسبين إلى هداة العقول أنهم سفهاء: «قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ ... قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (7:) 67) فلأنه يحمل رسالة اللّه، و هم حاملون رسالة الشيطان، يرونهم عقلاء، ثم العقلاء هم سفهاء! كلمات فقدت معانيها، كما هم فقدوا عقولهم الى أحلامهم، و مشاعرهم الى أهوائهم! «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ» فلا سفيه مقصرا إلّا إياهم، و لا عاقل حقيقا إلا هو مؤمن، فان الايمان من حصائل العقل، حيث «هم» هنا دليل الحصر، أن السفاهة المقصرة محصورة فيهم.

فمتى علم السفيه أنه سفيه، و هو بحاجة الى عقل راجح و علم رامح؟

و لكنه مقصّر دون سفهه إذ قصر في عقله فلم يستعمله لما يحقّ حتى خفّ عقله، و اللّه‏ «يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

(6) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15).

باب سادس من أبواب جحيم المنافقين: «آمَنَّا ... إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ».

فهؤلاء الأوغاد المناكيد ليسوا ليقفوا عند حد الكذب و الخداع و السفاهة بالادعاء الجوفاء، بل و يتترّسون بالتآمر في الظلام خفية، خيفة من المؤمنين، و مغبّة جلب الكافرين، ثعالب مكارين لا أسد يسفرون عن وجوههم في الميادين، و هكذا يكون دوما دور الساسة الشياطين!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 202

إنهم في لقاءاتهم ذووا وجوه، ففي لقاءهم المؤمنين‏ «قالُوا آمَنَّا» ليخدعوهم، و ليس إلّا لقاء عابرا دون خلوة و اطمئنان‏ «وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا» معتذرين إليهم‏ «إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ» ليست لقاءنا المؤمنين إلّا استهزاء و تجسسا دون تحسّس لهم، إلّا عليهم و لكم.

فشياطينهم: رؤوس الضلالة، هم الأصلاء ضد المؤمنين، و هؤلاء الجواسيس وسائطهم، فهم يخلون بهم دوما- إلا في لقاءات عابرة مع المؤمنين- فيشاورونهم كيف يلاقون المؤمنين، و كيف يضللونهم و كيف؟.

و هؤلاء الشياطين- على الأكثر- كانوا و لا يزالون هم اليهود، الذين يجدون في المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي و تفتيته، و توهين العقيدة الإسلامية و تبكيتها، طالما أصول المنافقين كذلك منهم ف «شياطينهم» يعم كبراءهم المنافقين و رؤوس الكفر و الضلالة مشركين و كتابيين: شياطين أصول، و شياطين أذناب عملاء يصدرون عنهم و يردون إليهم.

و «خلوا إلى» دون «خلوا بهم» تلمح أنهم مراجعهم و ملاجئهم، حيث الخلّو به لقاء منفرد، و الخلو إليه اطمئنان و التجاء، فإنهم يشمئزون و حتى من مجرد لقاء المؤمنين و ان كان استهزاء، فيخلون إلى الشياطين، حاملين معهم أسرار المؤمنين.

ثم و قولهم في خلوّهم إليهم: «إنا معكم» تثبيت لكفرهم السابق، ردا للمحة اللقاء إلى الإيمان و «إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ» نفي صريح لإيمانهم، أن ليس إلّا استهزاء بالمؤمنين، تأكيدا لهذه المعية الكافرة، و توطيدا لعلاقة العمالة المنافقة.

و الاستهزاء البادي هو من الجهل: «قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» (2: 67) حيث العالم يرشد ما أثّر، و يترك ما لم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 203

يؤثّر، و أما أن يستهزأ فهذا جهل و سوء خلق.

و أما جزاء الاستهزاء باستهزاء فهو جزاء وفاق، يوافق العلم و العدل، لذلك‏ «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» يوم الدنيا و يوم الدين، فهنا يجري عليهم أحكام الإسلام و هناك هم في الدرك الأسفل من النار، و ما إلى ذلك من تمويه يستحقونه بما كانوا يموّهون‏ «وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» (42: 40) و هكذا يكون دوما دور الناكرين للرسالات الإلهية، المعاندين، أن يجابوها باستهزاء و استخفاف دونما حجة يواجهون بها حج الرسالات:

«وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا» (25:) 41).

و «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» هنا بما يهزء و يسخر منهم عذاب الاولى:

«فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (6: 10)، و أخرى في الأخرى: «وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (39: 48) و كما سخرت أمواج الطوفان بقوم نوح الذين كانوا منه يسخرون: «وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ‏ ... حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ ..» (11: 40).

و القول: ان‏ «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» دعاء من اللّه على المنافقين، هراء جارف خارف، فمن ذا الذي يدعوه اللّه عليهم، و يرجو منه أن يستهزأ بهم؟

فإنما اللّه يدعى و لا يدعو، إذ لا إله يدعى إلّا هو! .. فإنما هو إخبار من اللّه انه يستهزأ بهم في الأولى و الأخرى.

و من استهزاءه بهم في الأولى: «وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ»: مدا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 204

في حياتهم و زهواتهم، زعاماتهم و ثرواتهم، فيحسبونهم أنهم كرماء يستحقون هذه التكريمات، فيمدون بها في طغيانهم يعمهون، كما «وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202): «أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ. نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ» (23: 56) و هكذا يستدرجهم من حيث لا يعلمون: «وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183).

فهم أولاء في طغيانهم يعمهون بين مدّين: إلهي حيث يمهلهم و يمدّهم بأموال و بنين، و شيطاني حيث إخوانهم في كفرهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، و هذان المدّان من مخلّفات إصرارهم على الكفر باللّه و هزءهم برسالات اللّه! «و ما الله يريد ظلما بالعباد»! ثم و فرق بين المدّ و الإمداد، أنّ المدّ زيادة في الشي‏ء من نفسه و الإمداد زيادته من غيره، و اللّه يمدهم: يزيدهم في طغيانهم بما طغوا و بغوا، أن يتركهم دون إمداد للخير حيث عاندوا الحق و أصروا على الباطل‏ «يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» بمعنى: «وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (7: 186) فمجرد تركهم في طغيانهم و مدّهم بأموال و بنين يزيدهم طغيانا و عمها.

إنه يمد لهم كأنه يخلّيهم و الامتداد في عمههم و الجماح في غيّهم، إيجابا للحجة، و انتظارا للمراجعة بعد وضوح المحجة، تشبيها بمن أرخى الطول للفرس، ليتنفس خناقها، و يتسع مجالها.

و ترى و ماذا «يعمهون»؟ إنه عذاب فوق العذاب، و تباب في الحياة أيّ تباب؟ فهو التردد و التحيّر في الضلالة دون أن يعرف الحجة، و لا أين يتوجه في مهجّة، و العمه في البصيرة كالعمى في البصر، فمن عمهت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 205

بصيرته عميت سيرته، و شملته حيرته، يعيش محتارا، يتخبط في مشيته و يمشي مكبّا على وجهه.

و ما أورع استهزاء اللّه و أروعه بهؤلاء الهزالى التائهين، حيث يدعهم يتخبطون على غير هدى، في طريق ضلت غايته، و في النهاية تتلقفهم اليد الجبارة، أخذ عزيز مقتدر، حيث تواثبوا في فخّهم بذات أيديهم كالفئران الغافلة عن المقبض المكين! 7- أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (16).

باب سابع من أبواب جحيم المنافقين هو الدرك الأسفل حيث تتشعب عنه الأبواب الستة السابقة «اشتراء الضلالة بالهدى»! و ترى متى كانوا على «الهدى» حتى يشتروا «الضلالة» بها، و التجارة بحاجة الى رأس مال هو هنا الهدى و هم فاقدوها؟! أقول: إن رءوس أموالهم هنا في معترك تجارة الضلالة و الهدى، هي العقول و الفطر، حيث الفطرة كما فطرها اللّه منطلقة الى الهدى، إلى الدين حنيفا: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30).

كما و العقول من شؤونها الأولية ان تعقل أحكام الفطر، المنبثقة من أعماقها بما فطر اللّه، و لكن «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى»! ثم الهدايات الإلهية التي تترى لهم و تتوارد، مؤيدة مكملة للفطر و العقول، هي الزاوية الثالثة من مثلث الهدى التي يملكونها، و لكن هم رغم الهداية المثلثة باعوها و اشتروا الضلالة «فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ»: كيف يتاجرون إذ استبدلوا الأركس الأدنى بما أمكنهم من الغالية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 206

الأعلى! «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ» (2: 86) و قد كانوا يملكون الحياة الآخرة بما ملّكوا من أسبابها- «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» (2: 175) و «إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (3: 177)! ف «أولئك» المنافقون هم‏ «الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ»: الدنيا و العذاب بشهواتها و لهواتها «بالهدى»: هدى العقول و الفطر و هدى الأنبياء، فالمغفرة و الأخرى‏ «فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ» فقد خسرت، حيث التجارة بين ربح و خسران، و هم خسروا عقولهم و فطرهم و خسروا أنبياءهم ف: «خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 12) حيث خفت موازينهم في إنسانيتهم:

«وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ» (23: 103) «أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ» (58: 19)! «وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ»: ما هي التجارة الرابحة، فلم يكونوا ليهتدوا منذ كانوا حيث انحرفوا عنها مبصرين، و انجرفوا في ضلالهم عمهين! و لكنهم استبدلوا الغي بالرشاد، و الكفر بالايمان فخسرت صفقتهم و لم تربح تجارتهم.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18):

هذا و المثل الذي يتلوه لا بد و أن يمثّل حالات المنافقين المسرودة من ذي قبل، جامعة لأصل النفاق.

فكما الذي يستوقد نارا ليستفيد من نورها و يضر بنارها، ترى لو ذهب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 207

نورها و بقيت نارها بحرّها، فلا يبصر و قد يحرق هو بما أوقد:

كذلك المنافقون، فنفاقهم نار موقدة ليستضيئوا بنور الإسلام و يحرقوا المؤمنين بنار النفاق‏ «فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ» حيث استفادوا قليلا، فعمر الدنيا قليل بجنب الآخرة و لو عمّروها كلها، كيف و هم لا يعمّرون منها إلّا قليلا «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ» حيث يفضحهم هنا فلا نور به يستضيئون كما يذهب به يوم يقوم الأشهاد، إذ لم يبق من نور إسلامهم و لا ظاهر مدعى‏ «وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ» فلم يبق هنا و هناك إلّا نار مظلمة بلا نور، فنار الجحيم لا نور فيها، و كذلك نار الفضيحة هنا! و يا له من مثل يمثّل حقيقة حالهم هنا و مآلهم هناك، إن النفاق نار مظلمة تحرقهم في ظلماتها يوم الدنيا و يوم الدين، و هم ليسوا ليستفيدوا من نورها إلّا ظاهرا ضئيلا مؤقتا يوم الدنيا، ثم لا يطول إلا قليلا و قد «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ»:

«صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ»: «صمّ» و هم يسمعون إذ عطلوا آذانهم الإنسانية عن سماع الحق «بكم» و هم ينطقون إذ عطلوا ألسنتهم عن كلام الحق «عمّى» و هم يبصرون إذ غطوا أعينهم عن مشاهدة الحق‏ «فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ» إلى الحق: «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179).

و من لطيف الأمر في تمثيلات القرآن أنها كلها حقائق بعيدة عن التخيلات و الأوهام، لحدّ نراها تقحم في ممثلاتها كما هنا:

يبتدء المثل ب «الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً ..» و هو فرد، ثم ينتهي عند الاستنتاج إلى الممثل نفسه و هو جمع: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 208

ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ» و ليس المثل بالذي يقرب الممثل عن بعده إلّا إذا كان واقعا ملموسا كما هنا، دون الأمثال البعيدة عن الواقع التي تبعّد ممثّلاتها اكثر و اكثر!.

هذا المثل الاول يمثل جماع حال المنافقين أنفسهم و اما الثاني:

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (20).

ف «او» هنا للتقسيم حيث هذا القسم يختلف عن الاوّل تمثيلا، فانه مثلهم أنفسهم فيما يفعلون، و هذا مثلهم و جاه صيّب الدعوة السماوية الإسلامية، مثل يبدأ بهذه الدعوة الصارمة: «او كصيب ..» و ينتهي إلى:

كيف يعاملونها و يتأثرون بها! و يتطلعون إليها! و «كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ» هو غزير المطر حيث يصبّ من السماء في ثورة الأمطار، طوفانية المصدر، بحرية المورد، حاوية- رغم حياتها المائية- مثلث الإرهاب: «ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ»: ظلمات السحاب و الغيوم المتراكبة التي تحول دون ضوء الشمس نهارا، و دون أنوار نجوم السماء و قمرها ليلا، و يواكبها «رَعْدٌ وَ بَرْقٌ» رعد هو صوت قوي تحدث عن اصطكاك السحاب، و برق: هو نور يذهب بالأبصار نتيجة الاصطكاك، و الصواعق هي نوازل الرعد و البرق: قصف رعد ينقض منها شعلة من نار لطيفة لا تمر بشي‏ء إلّا أتت عليه و هي مع قوتها سريعة الخمود! و هكذا تمثل الرسالة القرآنية أنها «صيب من السماء» مطر غزير تسقي أراضي القلوب لتحييها، نازلة من سماء الوحي الأخير، ساترة على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 209

كافة الأنوار، فانها نور الأنوار، و شمس مضيئة لا قبل لها، و هذه من ظلماتها، و أخرى أنها تظلم على القلوب الخاوية الظالمة الخاسرة: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» و منها القلوب المقلوبة المنافقة! و ثالثة أنها تصاحبها ظلمات العرقلات ممن يقفون لها بالمرصاد، و رابعة أنها هطلت و نزلت في أجواء مظلمة من أضغاث أحلام و خرافات أوهام! و من ثم رعدها هو صوتها الجلي العالي، الواصل إلى آذان من لهم آذان، الصارخ فيها صرخة الحق النافذة في الأنفس: «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63) فهذه آذان الناس، و أما النسناس: ف «يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ»: حيث‏ «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ»: فيجعلون أصابعهم في آذانهم من صيحة الحق و صرخته حذر الموت، و هي التي تحييهم، و هذه الحيطة الإلهية حيطة عذاب بعلم محيط و قدرة محيطة، فرغم نفاقهم العارم، ليس اللّه بغافل عما يعملون: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ» (85: 20) فهنا اللّه يحيط بهم حيطة عذاب عن علم و قدرة، و للمؤمنين حيطة رحمة عن علم و قدرة: «أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ» (41: 54) مهما اختلفت الحيطة نقمة و رحمة، فإنها من مصدر علم و قدرة! و من ثمّ برقها: نورها الشامل كالشمس في رايعة النهار، النافذ إلى الأعماق، حيث نور البرق تختلف عن سائر النور، و لأن أبصارهم كليلة و أنفسهم عليلة «يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ» هذا البرق المنير، الهادي لكل بصير في الظلمات، يكاد يخطف أبصارهم: يأخذها بسرعة حسدا منهم و خوفا «كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ»: إضاءة في ظل إسلامهم الظاهر، و إفادة من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 210

ميّزاته في حال او مال او منال «مشوا فيه» منتفعين كأنهم من المسلمين‏ «وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ» ببلايا او رزايا للمسلمين، في حروب دامية فنقص من الأموال و الأنفس و الثمرات- «قاموا»: وقفوا عن كل حراك، و تنحّوا عن العراك فرارا دون قرار، زحفا عن معتركات الحروب.

فالإسلام مطر غزير دائم، إلّا ان فيه ظلمات العقبات في حروب و معاركات سجال: غالبين أحيانا فبرق، و مغلوبين أخرى، فظلمات كما فيه نور الخيرات و كلها خيرات! هؤلاء المنافقون هكذا يعاملون مطر الإسلام الغزير بظلماته و رعده و برقه، فبرقه لهم خاطف الأبصار. و رعد الصاعقة منه صامة الأسماع، أ ترى هذه أبصار و أسماع الإنسان! و إذ لا ينتفعون بها «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» «1» و لكنه يبقيها لدوامة الحجة عليهم.

و إنه مشهد عجيب رهيب، حافل بالحركة الثورة، مشيج باضطراب، فيه أضواء و أصداء، و فيه ظلمات و عماء.

فهناك ظلمات طامة عامة كانت شاملة للعالم أجمع قبل بزوغ الإسلام، و في هذه الظلمات المتراكمة هطلت غزيرة أمطار وحي القرآن‏ «كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ» لتسقي أراضي القلوب الواعية، فمن خلال هذه الظلمات أرعد القرآن و أبرق، فتجاوبا في صاعقة نورانية روحانية، و تتفتح الآذان الصاغية، و تتصدع بها القلوب الواعية و تتصدى لها، و هي القلوب المؤمنة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الجزء: 29 ص 5- 10 كلام في القدرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 211

و لكنما المنافقين‏ «يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ‏ ... يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ» إذ لا يريدون إبصاره و لا يحبون قراره‏ «كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ» إضاءة خاصة للمتاجرين بالدين، المتظاهرين بالإسلام مغبّة الانتفاع‏ «مَشَوْا فِيهِ» مستفيدين، كما في حالات الصلح او الحرب الإسلامية الغالبة، و في سائر الميّزات الإسلامية- «و» أما «إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ» في حرب مغلوبة، او فضيحة لهم بما يعرّفهم اللّه «قاموا» وقفة عن كل حراك اللّهم إلّا ضد الدعوة! فهذا الصيّب البرق الصاعقة للمؤمنين به ضوء دائب، و نور واصب، في الصلح و الحرب، غالبين و مغلوبين، في الأفراح و الأتراح، و لكنه بالنسبة للمنافقين ضوء أحياني و ظلمة أخرى، حسب مختلف الحالات‏ «كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ‏ ... وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ»! حيث الإضاءة، و الإظلام هي فقط بالنسبة لهم، فانه للمؤمنين إضاءة على طول الخط و في كافة الأحوال.

مشهد حسي واقعي يمثّل حالة نفسيه عن المنافقين كأنها محسوسة، تجسيما لأحوال هذه النفوس البئيسة في كافة حالاتها و تصرفاتها و مواجهاتها للصيّب الهاطل القرآني، الراعد البارق الصاعق!: «يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ»: من قوة إيماضه و شدة التماعه: «يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ».

هنا يتم استعراض الصور الثلاث: المتقين- الكافرين- المنافقين- و من ثمّ خطاب عام للناس أجمعين لكي يصبحوا من المتقين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 212

[سورة البقرة (2): الآيات 21 الى 29]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (24) وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَ لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (25)

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (27) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (29)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 213

تبتدء هذه الآيات بدعوة الناس لعبودية اللّه، مبرهنة لها بمثلث الأصول الدينية: التوحيد- النبوة- المعاد، فلولا الاعتناق بها فلا مجال لعبادة اللّه، إلّا تقليديا دون برهان كما في بداية الإسلام و الاستسلام، و لكنما اللّه يريد منا هنا الإيمان المكين مزودا ببراهين:

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21):

«يا أَيُّهَا النَّاسُ» و لماذا «الناس» و هي أعم شمولا من‏ «مَنْ يَقُولُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 214

آمَنَّا ... وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» و «كَما آمَنَ النَّاسُ» و الى‏ «النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ» حيث تشمل مثلث المؤمنين و المنافقين و الكافرين؟:

أقول: لان دعوة القرآن شاملة للناس أجمعين إلّا القصّر و المجانين مهما اختص واقع التأثير بالمتقين كما مضى في آية المتقين، فان رسل اللّه يبلغون رسالات اللّه‏ «عُذْراً أَوْ نُذْراً».

فالناس في القرآن (241) مرة و هي اكثر بكثير من المسلمين و المؤمنين و المتقين و حتى من بني آدم، حيث الأخير أعم من الناس إذ يشمل القصّر و المجانين، و الأول تختص بمن يتقبّل الدعوة و إن كان إقرارا باللسان.

و «يا ايها» نداء تنبيه، استجاشة للضمير الإنساني إلفاتا إلى ما يصلح الناس حيطة على كونهم ناسا خارجين عن نسناس.

ثم و نداء البعيد هنا «يا» لبعدهم عن حضرة الربوبية قبل أن يعبدوه! «الناس» هنا و في سواها لا يخص الموجودين زمن الخطاب، فان دعوة القرآن لا تختصهم، حيث القرآن دعوة خالدة فلتشمل كل من يصح دعوته، فما استجدّ من قرون مستقبلة و الى يوم الدين مشمولة لهذه الدعوة، مهما لم تشملهم زمن النزول حيث لم يكونوا، كما لم تشمل القصّر و المجانين إذ لم يؤهلوا لها.

فخطابات القرآن هي حقيقية، فما وجدت لها مخاطبين شملتهم، و ليست فعلية زمنية، بل على نحو القضايا الحقيقية الشاملة مواردها في أوقاتها.

و هل الكفار مأمورون بالعبادة و هم ملحدون في اللّه او مشركون، و عبادة اللّه فرع الاعتراف باللّه و توحيده؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 215

أقول: نعم- إذ لهم أن يصدقوا به فيعبدوه، إذا فهم يؤخذون بالفروع كما الأصول: «وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ» (41: 7) حيث الويل لهم يشمل فرع الزكاة بين أصلي التوحيد و المعاد، لا سيما و هنا الأمر بالعبادة قرين التوجيه الى مثلث الأصول. (1) «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً ... (2) وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا .. (3) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ..» «اللهم إلا القصر المستضعفين الذين لا يجدون حيلة و لا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ...»

خارجين عن الويل المحتوم الى رجاء العفو.

«اعْبُدُوا رَبَّكُمُ»: اعبدوه لأنه ربكم- لا فحسب بل و لأنه‏ «الَّذِي خَلَقَكُمْ»: الرب الخالق لكم- لا فحسب أنتم بل‏ «وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فهو خالق كل شي‏ء و رب كل شي‏ء- فاعبدوه‏ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» كما «خَلَقَكُمْ‏ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «1».

«اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ‏ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» حيث العبادة و التقوى غاية الخلق: «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» فلانه رب خالق فاعبدوه: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ فَاعْبُدُوهُ» و اتقوه: «وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ»، و لكنما التقوى لا تحصل إلّا بعبادته كما امر: «اعْبُدُوا رَبَّكُمُ‏ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» كما «خَلَقَكُمْ‏ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «2»: فقد خلقكم و رباكم أنتم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» لا تخص الترجي بحصول التقوى من العبادة، بل و من الخلق، اعبدوا ... لعلكم تتقون- خلقكم لعلكم تتقون، و اللفظ يحتملها فهما معا مقصودان و كمال تدل عليه الآيات المسرودة في المتن.

(2)

تفسير البرهان 1: 66- القمي قال علي بن الحسين (عليه السلام) في قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّاسُ ...» يعني سائر المكلفين من ولد آدم- اعبدوا ربكم- أطيعوا ربكم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 216

و الذين من قبلكم لتعبدوه فتتقوه! حيث تختلفان سببا و مسببا! كما «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ‏ «1».

و لان مطلق العبادة لا تنتج التقوى و إنما العبادة المطلقة الخالصة هي التي تنتجها، فلا تترتب التقوى على مطلق العبادة، لذلك: «اعْبُدُوا رَبَّكُمُ‏ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» فرجاء اتقاء المحاظير في حظيرة العبودية واقعة على أية حال، و واقع الاتقاء في حق العبودية لحضرة الربوبية لا محالة كائن.

فلأن العبادة المعنيّة هنا من الناس ليست هي المطلقة الخاصة بالمتقين، لذلك لا مجال لها إلّا رجاء التقوى، و حتى بالنسبة لحق العبادة المنتجة لحق التقوى، هنا كذلك مجال لتقوى أعلى، فقد تكون الرجاء لأصل التقوى كما للبدائيين في عبادة اللّه، و أخرى هي لدرجاتها صاعدة الى أعلى فأعلى كما للمتوسطين و الرعيل الأعلى.

فكما العبادة درجات كذلك التقوى الناتجة عنها درجات: طبقا عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حيث أمركم ان تعتقدوا أن لا اله الا اللّه وحده لا شريك له و لا شبيه له و لا مثل له، عدل لا يجور، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل، حكيم لا يعجل، و ان محمدا عبده و رسوله ...

ثم قال: اعبدوا الذي خلقكم من نطفة من ماء مهين، فجعله في قرار مكين الى قدر معلوم ... و الذين من قبلكم من سائر اصناف الناس «لعلكم تتقون- قال (عليه السلام): لها وجهان:

أحدهما: و خلق الذين من قبلكم لعلكم كلكم تتقون- اي لتتقوا كما قال اللّه: و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون- و الوجه الآخر: اعبدوا الذي خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون- اي: اعبدوا لعلكم تتقون النار، و لعل من اللّه واجب لأنه أكرم من ان يعني عبده الى منفعة و يطمعه في فضله ثم يخيبه» أقول: يعني رجاءه في موقعه بلا خيبة لا ان التقوى حاصلة بالعبادة على اية حال.

(1). نجد التقوى في كثير من الآيات جعلت نتيجة التقوى رجاء ام واقعا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 217

طبق في مختلف الإطارات، كلما ازدادت العبادة زادت التقوى، و كلما زادت التقوى ازدادت العبادة.

و أساس التقوى هو الوقاية عن نسيان ذكر اللّه، الذي هو اسّ البلايا كلّها:

«فإن قال قائل فلم يعبدونه»؟- و هو ليس بحاجة أن يعبدوه- «قيل: لئلا يكونوا ناسين لذكره و لا تاركين لأدبه، و لا لاهين عن أمره و نهيه، إذا كان فيه صلاحهم و قوامهم، فلو تركوا بغير تعبد لطال عليهم الأمد فقست قلوبهم» «1» و «ليست العبادة كثرة الصلاة و الصوم، إنما العبادة التفكر في أمر اللّه عز و جل» «2» و «إدمان التفكر في اللّه و قدرته» «3» ف «لا عبادة إلا بتفقّه» «4».

لذلك نرى الآية تبرهن لزوم العبادة بسناد الخلق مبدئيا و التقوى نهائيا، و من ثم الآيات الآفاقية بعد الأنفسية:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22).

واجهة الخطاب هنا المشركون، المقرّون باللّه، المشركون في عبادة اللّه، يذكّرهم بما يفرض عليهم توحيد العبادة للّه إذ «جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ ..» فهل من شركاءكم من يفعل من ذلكم من شي‏ء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 39 عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) فيما ذكره الفضل بن شاذان من العلل عن الرضا (عليه السلام).

(2) نور الثقلين 1: 40 عن اصول الكافي عن الإمام الرضا (عليه السلام).

(3) المصدر عن الإمام الصادق (عليه السلام).

(4) المصدر عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 218

«فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً» في العبادة «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أن لا أنداد له في الألوهية، كما و تناظرها آياتها الأخرى: «أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ. أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ، أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (27: 64).

فالأرض الفراش في امتهادها، و السماء البناء بارتفاعها، النازل منها الماء، المخرج من الأرض ثمرات، هذه و تلك التي هي من نعم اللّه وحده تفرض أن تكون العبادة ايضا للّه وحده دون أنداد: أمثال و نظراء في العبادة، فإنه ضلال مبين: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ».

و «.. جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً»: «وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ» (51: 48) تلمحان إلى أنها ما كانت فراشا حين خلقت، و إنما فرشت مهدا و مهادا لساكنيها، راحة الحياة دون تصعّب و شماس، فكما الأنعام فراش: «وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً» (6: 142) كذلك الأرض على حركاتها جعلها اللّه ذلّا بعد شماس، و حمولة فرش بعد ارتكاس، «ملائمة لطباعكم، موافقة لأجسامكم» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 41 عن عيون الاخبار، ابن بابويه بسنده عن الحسن بن علي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 219

كما و ان «لكم» تصريحة: أن فراش الأرض هو لصالح حياتكم عليها، و ترى أن «كم» هم نحن الأنسال من آدم الأخير، المخلوق أخيرا بعد ملايين السنين من فراش الأرض، أم و الأنسال السابقة من أناسيّ سابقين، الذين خلقوا منذ فراش الأرض، كما تدل عليه آيات الخلافة و أقوات الأرض؟ «1».

علّه الاوّل، لا اختصاصا بنا، و إنما تكريما لنا على من سبقنا، أم هو الثاني جمعا بين المكلفين، و ان كانوا حال الخطاب منقرضين، و لكنما الماضين متى يشملهم مستقبل الخطاب؟ اللهم إلّا إذا خوطبوا من قبل كما هنا و أنّى لنا بإثباته! و يا لفراش الأرض من نعمة عظيمة لا ندركها لأننا ساكنوها منذ كنّا، حيث يتطلّب موافقات عدّة بين عناصر عدة تعدّ الأرض بها فراشا لها، فلو فقد او قلّ او زاد عنصر واحد من هذه العناصر في ترابها او ماءها او هوائها لاستحالت او صعبت الحياة عليها، سبحان الخلاق العظيم! ..

كذلك السماء حيث جعلها اللّه بناء و لم تكن بناء، فنور الأرض و أمطارها و كثيرة اخرى من بركاتها هي من بناء السماء: «وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً. وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً. وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العسكري (عليه السلام) مسلسلا عن آباءه الكرام عن علي بن الحسين (عليه السلام) في الآية: ... و لم يجعلها شديدة الحمّا و الحرارة فتحرقكم و لا شديدة البرد فتجمدكم و لا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم و لا شديدة النتن فتعطبكم، و لا شديدة اللين كالماء فتغرقكم و لا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم و أبنيتكم و قبور موتاكم و لكنه عز و جل جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به لدوركم و قبوركم و كثير من منافعكم فلذلك جعل الأرض فراشا لكم ....

(1). يأتي البحث عن آيات الخلافة هنا و آيات الأموات في فصلت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 220

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً. وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً» (78: 16) «أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها. رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها. وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها. أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها .. وَ الْجِبالَ أَرْساها. مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ» (79: 31) «1» .. ثم و من آثار بناء السماء:

«وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً» ف «أنزل» هنا دون «ينزل» توحي بالنزول الدفعي الاوّل، حيث الأرض كانت كرة عطشانة محترقة، لا ماء فيها و لا كلاء، فأنزل اللّه عليها من ماء السماء «فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ»: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً» (78: 16).

فأرضنا الشموس العطشى كانت تتطلّب لمهادها لنا ماء: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» (23:) 18) و لو أن مياه الأرض أو بعضها كانت من نفسها لم يكن هنا موقع للتهديد بذهاب مياه السماء، فإنما حياة الأرض منوطة بمياه السماء: «وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» (2:) 164) «2»

فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، و أجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهادا، و بسطها لهم فراشا فوق بحر لجّي راكد لا يجري، و قائم لا يسري، تكر كره الرياح العواصف، و تمخضه الغمام الذوارف، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الجزء الثلاثين الى تفسير هذه الآيات في بناء السماء ص 25- 28 و ص 86- 88 و كما نبحث عنها مفصلا في الآيات من «فصلت» عن خلق الدخان السماوي و جعلها سبعا.

(2) راجع العنوان ص 29- 32 حول مياه المعصرات.

(3) نهج البلاغة عن الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 221

«فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أن هذه النعم هي من إله واحد دون أنداد!: أمثال و نظائر أو أضداد.

و كما التوحيد له درجات، كذلك اتخاذ الشركاء الأنداد دركات: فالند قد يعبد من دون اللّه، أو يعبد مع اللّه، ام لا هذا و لا ذاك و إنما يخضع له كما يخضع للّه، ركوعا ام سجودا أم ماذا؟ و استغاثة و استعانة به من دون اللّه، او مع اللّه، او بعد اللّه ام ماذا؟ او اعتقاد تأثير له من دون اللّه او مع اللّه او بعد اللّه ام ماذا؟ فحتى الرئاء شرك باللّه، فجعل الأنداد للّه محرم او كفر او شرك او إلحاد باللّه، صاعدة إلى اتخاذها آلهة من دون اللّه، و نازلة الى الرئاء و بينهما متوسطات!: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» حيث الشرك كدبيب النمل! ففي الحديث أن رجلا قال لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما شاء اللّه و شئت قال: أ جعلتني للّه ندا؟! و قد قالت اليهود له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) دينك خير دين لو لا أن أمتك مشركون! قال: و كيف؟ قالوا: حيث يقولون: لو شاء و شاء محمد، فغضب فقال لهم: لا تقولوا هكذا، قولوا: لو شاء اللّه فشاء محمد تفريعا لمشيئته (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على مشيئة اللّه، لا قرنا لها إياها! وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (24).

.. تحدّ بالقرآن- أنه وحي السماء- الناس أجمعين في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، جزما بعدم إمكان الإتيان بمثل القرآن و لا بسورة من مثله: القرآن: «وَ لَنْ تَفْعَلُوا»!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 222

و تحدّ بمن أنزل عليه «من مثله»: عبدنا، تحديان يتمازجان، فيضربان في أعماق تاريخ الرسالات و كتابات الأرض و السماء: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»: مثل القرآن من كتب الوحي في أنها وحي مهما اختلفت مراتبها- و كذلك فيمن أنزل عليه: رجالات الوحي‏ «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»: مثل عبدنا الذي لم يدرس فأصبح مدرسا للعالمين، او و حتى مثله في البشرية و ان كان عالما نحريرا! فقرآن محمد و محمد القرآن معجزتان متلازمتان فائقتان سائر المعجزات لسائر رجالات الوحي، خالدتان ما طلعت الشمس و غربت!.

التحدي بالقرآن:

نجد آيات التحدي بالقرآن في مثلث التحديات:

1- بالقرآن كله: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى‏ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (17: 88) و هذا أشمل التحديات حيث يشمل الجنّة و الناس أجمعين متظاهرين متظافرين أيّا كانوا و أيّان، و القرآن كما هو صادق على كله كذلك على آية منه و بينهما عوان!.

2- بعشر سور مثله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (11: 14).

3- بسورة من مثله- كما هنا- و هو أقوى التحديات من حيث القرآن و من أنزل عليه، فالقرآن: «بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»، و إن كانت كالكوثر- لا فقط بعشر او به كله- و من أنزل عليه و إن كان من كان إذا كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 223

مثله: «1» أمّيا لم تسبق له أية دراسة أو كتابة او قراءة: «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48) «قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (10: 16) و ان تقولوا: «إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الضمير الغائب في «مثله» يرجع الى «عبدنا» كما هو راجع الى «ما نزلنا» و هما معا مقصودان حيث تتحملها الآية لفظا و مغزى.

و كما

في تفسير البرهان نقلا عن تفسير الإمام العسكري عن الإمام الباقر (عليه السلام): في الآية قوله: «فأتوا»: يا معشر قريش و اليهود! يا معشر النواصب المنتحلين بالإسلام الذين هم منه برآء! و يا معشر العرب الفصحاء البلغاء ذوي الألسن‏ «بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» من مثل محمد مثل رجل منكم لا يقرأ و لا يكتب و لم يدرس كتابا و لا اختلف الى عالم و لا تعلم من احد و أنتم تعرفونه في أسفاره و حضوره- بقي كذلك أربعين سنة ثم اوتي جوامع العلم حتى علم الأولين و الآخرين- فان كنتم في ريب في هذه الآيات فاتوا من مثل هذا الرجل بمثل هذا الكلام ليتبين انه كاذب كما تزعمون، لأن كل ما كان من عند غير اللّه فسيوجد له نظير في سائر خلق اللّه، و ان كنتم معاشر قراء الكتب من اليهود و النصارى في شك مما جاءكم به محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من شرائعه .. فاتوا بسورة من مثله- يعني: من مثل القرآن من التوراة و الإنجيل و الزبور و صحف ابراهيم .. فانكم لا تجدون في سائر كتب اللّه تعالى سورة كسورة من هذا القرآن.

و فيه عن الإمام علي بن الحسين مثله و زيادة هي: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»

من مثل محمد- اي: لم يختلف الى أصحاب كتب قط و لا تلمذ لأحد و لا تعلم منه و هو من قد عرفتموه في حضره و سفره و لا يفارقكم قط إلى بلد، ليس معه جماعة منكم يراعون أحواله، و يعرفون اخباره، جاءكم بهذا الكتاب المشتمل على هذه العجائب، فان كان متقوّلا كما تزعمون و أنتم الفصحاء و البلغاء و الشعراء و الأدباء الذين لا نظير لكم في سائر الأديان و من سائر الأمم، فان كان كاذبا فاللغة لغتكم و جنسه جنسكم و طبعه طبعكم و سيتفق لجماعتكم او لبعضكم معارضه كلامه هذا بأفضل منه و مثله، لأن ما كان من قبل البشر لا عن اللّه فلا يجوز ألا يكون في البشر من يمكن من مثله فأتوا بذلك لتعرفوه و سائر النظار إليكم في أحوالكم انه مبطل كاذب على اللّه تعالى ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 224

«وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (16: 103) فحيث لم يجدوا عربيا يفترون أنه علّمه، قالوا:

علّمه سلمان الفارسي، خبلا في فريتهم و خبطا عشوائيا في مريتهم، فجاء الجواب الحاسم: «لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»! فإذ لم يأت به عربي و لم يعلمه فكيف بأعجمي جاءه في العهد المدني، و قد نزل من القرآن شطر عظيم في العهد المكي!.

4- ثم و حتى بآية فإنها قرآن و يشمله التحدي الاول و ان لم ترد في خصوصها آية، حيث الآية في القرآن تعني الآية الإلهية: الدالة على كونها إلهية المصدر و الصياغة، بنفسها، و كما الآيات تعبير عن المعجزات فالقرآن آية إلهية بمجموعه- بعشر سور- بسورة- بكل آية آية: «تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» (2: 252).

و مهما كانت هذه الآيات درجات بالنسبة للمستدلين بها.

و لكنها كلها مصبوغة بصبغة واحدة، مساغة بصيغة واحدة فصاحة و بلاغة و حتى في موسيقى التعبير فضلا عن محتوياتها.

فالقرآن آية إلهية جملة و تفصيلا- بآية او سورة او عشر سور أم كله، مهما اختلفت القابليات في الحصول على هذه او تلك بمختلف العقول في مختلف الحقول!.

و من ثم فحتى لو درس محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في المدارس كلها، و اكتسب العلوم كلها لا يقدر ان ياتي بمثل هذا القرآن و لو بسورة من مثله او آية! كيف و لم تسبق له سابقة دراسة او تلاوة ثم أتى بالقرآن العظيم الذي يعجز دون سورة منه العالمون، و لقد كان المجال أمامهم مفتوحا، و اهتمامهم الشديد بمعارضة القرآن و إبطال حجته مفسوحا، و حتى الآن لم يأتوا و لن يأتوا و لا بسورة من مثله، أ فلا يدل كل ذلك على تحليق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 225

القرآن على أجواء الفصاحة و البلاغة تعبيرا، و على اجواء العقول في كافة الحقول، و على اجواء مختلف العلوم معبرا عنه، طوال اربعة عشر قرنا، وحيدا في ميادين السباق، بل لا سباق إذ لا رفاق! أ فلا يدل كل ذلك انه نازل بعلم اللّه؟ «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» (11: 14).

مِنْ مِثْلِهِ‏ في دراسة موسعة:

«من» فيما يعنى من الضمير «عبدنا» ابتدائية نشوية: فاتوا بسورة من مثل عبدنا الأمي ثم قايسوا بها سورة من القرآن، لتعرفوا البون الشاسع بينهما، فليكن نازلا بعلم اللّه، و حتى إذا استويا، إذ لا مساواة و لا مسامات بين وحي الأرض و وحي السماء!.

او «من مثل عبدنا» في كونه عبدا و ان كان من عباقرة العلم- و هو أمي!- فأتوا بسورة من أي جن او انسان او نبيّ او ايّا كان، ثم قايسوا بها سورة من القرآن الذي جاء به هذا الأمي، لتعرفوا- كذلك- البون بيّنا «1» فليكن نازلا بعلم اللّه.

و فيما يعني من ضميره‏ «ما أَنْزَلْنا عَلى‏ عَبْدِنا» ف «من» تتحمل الجنسية كما تتحمل النشوية الابتدائية: فأتوا بسورة من مثل القرآن: من كتابات الوحي ايّا كان، سورة مأخوذة منها و هي مثل القرآن في الوحي، او سورة هي جنس القرآن كذلك: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى‏ مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (28: 49): أهدى من التوراة و القرآن اللذين تنكرونهما، فإذ لم يأتوا بكتاب الهي هو أهدى من هذين-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا يجمع بين المماثلة في الامية، و المماثلة في كونه عبدا، و حتى نبيا حيث تحملهما الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 226

كأنهما غير إلهيين-! دل ذلك بيقين أنهما من وحي اللّه، فوحي الأرض أيا كان هو أدنى من وحي السماء دنوّ الأرض من السماء و أدنى: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ ..» (50).

فهل أتى احد من أهل الكتاب بسورة من أي كتاب يقايسها بسورة من القرآن، و المجال فاسح؟ كلّا حيث الحاصل من هذا القياس- على أبعد تقدير- مماثلتها سورة من القرآن، او رجاحة القرآن كما هو حق التقدير، و كيف بالإمكان مماثلة كلام العبد كلام اللّه او رجحانه عليه؟ فليكن نازلا بعلم اللّه.

ترى و من الذي يشهد هكذا؟ إنه كلام اللّه نفسه! بل و كافة الشهداء من دون اللّه: «وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»: أنه ليس من كلام اللّه! ليشهدوا في كافة مجالات القياس بقرآن محمد او محمد القرآن، أنهما نازلان من عند اللّه: شاهدا هو كتاب اللّه، و مشهودا له هو رسول اللّه، إذا فهما معا معجزة بارعة إلهية ما لها من فواق!.

فهنا يصل التحدي الى الغاية ان يطلب من ناكري وحي القرآن أن يدعوا شهداءهم- كلهم- من دون اللّه، ان يأتوا بسورة من مثل القرآن، او بسورة من مثل محمد كسورة من القرآن، ان يأتوا و يشهدوا لكم، و لكن‏ «لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا» لا تأتون بمثله و محال ان تأتوا، و لئن أتيتم فإنكم و شهداءكم سوف تشهدون أن القرآن نازل بعلم اللّه، إذ لا مماثلة بين ما أتاه و تأتون به!.

فكما «اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ..» (4: 166) كذلك الشهداء من دون اللّه عليهم أن يشهدوا عند القياس، او- و لأقل تقدير- أن يسكتوا عن الشهادة ضد وحي القرآن، إذ ليس لهم ايّ برهان إلّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 227

عجزهم عن الإتيان بمثله!.

«فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا» كما لم يفعلوا «وَ لَنْ تَفْعَلُوا» كما يستحيل أن يفعلوا في مثلث الزمان، و من اي فاعل او محاول كان‏ «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ»: الناس النسناس الذين هم كذلك حجارة، إذ غربت عقولهم و تخبطت أحلامهم فصمدوا على نكران القرآن، و حجته باهرة كالشمس في رايعة النهار! فكيف بالإمكان أن يدّعي محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو أعقل العقلاء حقا و عندهم- أن‏ «لَنْ تَفْعَلُوا» و هو ليس على يقين من وحي القرآن؟ أ ليفضح نفسه و يهدم أساس دعوته لأحيان عاجله ام آجلة لو أتوا بمثله او فوقه! و لكنه يعلن في هذه الإذاعة القرآنية «وَ لَنْ تَفْعَلُوا»:

محال ان تفعلوا- لا فقط سوف لا تفعلون- حيث «لن» لمحة او صراحة لاستحالة مدخولها عقليا ام واقعيا، و من اللائح أن الإتيان بمثل القرآن محال فيهما حتى و إن كان من سائر كتابات السماء!.

و عند العجز «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» فحيث تجعلون أنفسكم هنا وقودا لنار الجحود و النكران لتحرقوا به وحي القرآن، فهناك سوف تصبحون مع الحجارة وقودا للنار التي اضرمتموها من ذي قبل‏ «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98) فكل من له دراية و ذوق بأساليب الكلام، و تصورات البشر عن الكون، و كل ما للبشر من مناهج و نظريات، لا يخالجه شك ان ما جاء به القرآن في هذه المجالات يختلف تماما عما للإنسان و نظراءه، كما يختلف اللّه عن مخلوقاته، فكلام اللّه إله الكلام كما علمه إله العلم فإنه نازل بعلم اللّه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 228

فالقرآن بذاته‏ «لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» و لكن: إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب و الصبح مسفر! «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ»: شك كأنه مسنود الى دليل، و لا يملك أي دليل، بل الأدلة الذاتية من القرآن نفسه تؤكد أنه نازل بعلم اللّه ..

«فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ..» و لكي تثبتوا أنه اختلاق خلقي و ليس من الخالق في شي‏ء «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا» إذ لا مثيل له و حتى لسورة منه من كتابات السماء، و لا مثيل لمن انزل إليه أن يأتي بمثله، «فَاتَّقُوا النَّارَ ..»!

و «مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا» تلمح ان العبودية هي الظرف الصالح لنزول الوحي، لا سواها من طرق بشرية، و ما أجمله تعبيرا «عبدنا» في مثلث المعنى من «عبد»- «نا» و حروفه الثلاثة عند اهل المعرفة

«فالعين علمه باللّه تعالى و الباء بونه عما سوى اللّه، و الدال دنوه من اللّه بلا كيف و لا حجاب» «1».

«فاتوا» إن كنتم كتابيين فمن كتب السماء، و ان كنتم مشركين ناكرين لها «فَأْتُوا بِسُورَةٍ» كسورة منه «من مثل عبدنا» في أميته ام و في بشريته، او كونه خلقا أيا كان‏ «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»: في ريبكم: فإنه شك مسنود إلى دليل و ليس لكم أيّ دليل! هنا يتحدى‏ «بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» و اخرى‏ «بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (10: 38) و مماثلة سورة من غير القرآن لسورة من القرآن مماثلة للقرآن كله، و التحدي قائم في مثلث: سورة- عشر سور- القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 229

كله، أدناه سورة او آية، و أعلاه كلّه، و بينهما متوسطات ذكر منها عشر سور.

و ترى ما هي «سورة» ليقف التحدي عندها، أم ماذا؟

أقول: انها لغويا فعلة من «سور»: سور المدينة و حائطها، الذي يفصلها عن غيرها، فالسورة من القرآن آيات محدودة مفصولة عن محدودات أخرى، و بماذا؟ طبعا بالبسملات في بداياتها كآية منها- إلّا البرائة- و في نهاياتها كآية مما يليها كالسور كلها، و انما تعرف البراءة سورة في نهايتها كسائر السور، و في بدايتها بما تواتر ان‏ «بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ ..» اولى آياتها، فالبسملة بصورة عامة- إلّا التي في النمل- سور بدء ختم للسّور كلها، إضافة الى المعروف المتواتر القاطع من بداياتها و نهاياتها.

و قد تدل «سورة» و «عشر سور» و اضرابها «1» ان القرآن كما هو الآن رتب سورا زمن الوحي، مهما نزل في قسم منه سورا و في آخر آيات، فلو لم يكن مرتبا حينذاك سورا لم يشمل التحدي القرآن كله.

او أنه يلمح الى ترتيب سابق للعهد المكي، و ترتيب يلحقه في العهد المدني، فيما لم تنزل سورا، و مهما يكن من شي‏ء فلا ريب ان جمع القرآن و ترتيبه لم يكن إلّا بالوحي كما ان تنزيله بالوحي: «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ» (75:) 17) «2» دون تدخّل لأحد في تأليفه سورا و آيات إلّا كما امر الرسول و أئتمر فألّفه كما أمر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجموع ما ذكر فيه «سورة» في القرآن تسعة مواضع: هنا و 9: 64 و 86 و 124 و 127- 10: 38- 24: 1- 47: 20- 11: 13- و عامة الدلالة فيها أن القرآن أنزل سورا، الا طوائف من آياته.

(2) راجع الى تفسير الآية في سورة القيامة ج 29: 280- 284.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 230

فسورة من القرآن و إن كانت أقله كالكوثر، تتحدى الجن و الإنس في الدهر كله، لا ردحا من الزمن و جماعة خاصة، فالتحدي يعم الزمن و أهله: «وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» أن يأتوا بمثله بشريّا ام إلهيّا، فان اللّه لم يكلّم أنبياءه في سائر كتابات الوحي كما كلّم محمدا في القرآن، رمزا لخلوده، و هيمنة له على وحي الأرض و السماء كله، و سبقة له في كافة ميادين السباق، بل و لا سباق معه فيها إذ لا رفاق!.

فإنه ليس عبارات يحاولون محاكاتها، بل هو كسائر ما يبدعه اللّه من آيات معجزات- و أعلى منها كلها- يعجز المخلوق من صياغته و صنعه، فهو امر من اللّه كما الروح من أمره، لا يدرك الخلق سره مهما أدركوا من معناه.

انه آية إلهية يدل بنفسه على نفسه دون شهود آخرين: «لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 166) فلا تعني شهادة اللّه بما أنزل إلّا شهادة كلام اللّه أنه منه دون سواه حيث: «أنزله بعلمه»: فمعالم علم اللّه فيه باهرة: علما في كافة الحقول أدناها صياغة الألفاظ فصاحة و بلاغة، و أعلاها العلوم الإلهية التي لن تدرك إلّا بالوحي و بينهما متوسطات.

فالبشر الذي يعرف كلام البشر بوسمته و وصمته، يعرف الوسمة الإلهية دون أية وصمة في القرآن، لحد لا يستطيع وحيدها في الكلام ان يعبر عنه إلّا انه «يؤثر»: يبقى مدى الدهر دون معارضة، و ان افترى عليه: «أنه سحر» تناقضا فاضحا واضحا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية ج 29 ص 246- 250.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 231

القرآن يتحدى في كافة الحقول:

1- فصاحة العبارة و بلاغة التعبير و هي ابسط تحدياته و أسهل معجزاته مع القمة العليا في صياغته و نظامه و تركيبه و انسجامه، أما لو صرفت الأنظار من مبانيه الى أسراره و معانيه، فهنالك تنقطع الإشارات و تحيا العبر و تموت العبارات، حيث تحار دونها العقول و النفوس، و تخضع الرقاب و تطأطأ الرؤوس، فانها هبّة الملكوت، و هيبة الجبروت، هناك الفزّة و الهزّة، و العظمة و العزة، و النفائس و البزّة-.

لقد كانت بلدة القرآن أملك البلاد لأساطين الفصحاء البلغاء، و زمنه أبهج الأزمنة بمهرة الكلام، و قد شق عليهم ظهور القمة المتفوقة في الفصاحة و البلاغة غاية الشقوة حتى تخاوصوا بحماليق الحنق إليه، و اعترفوا بعجزهم في أولى خطوة و أقصرها اعجازا و هي قشرها فضلا عن لبها، فعاد لبيدهم بنكرانه بليدا، و بليدهم بإيمانه لبيدا، و شيبتهم وليدا، و قائمهم حصيدا، و عالمهم أبا جهل، و سهيلهم على السهل، و عتبتهم أعتاهم، و بو لهبهم أخمدهم و أخزاهم، و عبد شمسهم آفل، و نابغتهم خامل، و حيّ أخطبهم ميّتا، و هشامهم مخزوما، و مخزومهم مهشوما، و سراتهم أسارى، و كبّارهم من الصغار صغارا، قد وسموا جباههم بنار العار و العيار و رسموا على محاسنهم وسم السوء بالذل و الصغار، و جعلت كلماته في أعناقهم أغلالا فظلوا لها خاضعين، و طاشت ألبابهم فقالوا: ان هذا الا سحر مبين‏ «1».

تحداهم القرآن فيما يعرفون من جانب اللفظ دون جناب المعنى، به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قسم من هذه العبارات ملتقطات من كتاب الدين و الإسلام للإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 232

كله فعجزوا، ثم بعشر سور فعجزوا، ثم بسورة فكذلك الأمر، فضلا عما تحداهم في سائر الحقول، و لكنهم التجأوا الى مفاوضة الحقوف عن معارضة الحروف، و عقلوا الألسنة و العقول، و رضوا بكلم الجراح عن الكلم الفصاح» «1».

فمعجزة القرآن في سائر الحقول يفوقها تفوّق المعنى على اللفظ، و العقول على الأجسام، فما اللفظ إلّا أداة للتعبير، و هو فيها ايضا بالغ قمة الاعجاز فضلا عما سواها.

كما و أنّ معجزة الفصاحة و البلاغة قد تخص أهليها، و في خصوص العربية، و القرآن يتحدى العالمين دون خصوص العرب العرباء الفصحاء البلغاء، فالتحدي شامل كافة الحقول المتسابقة ألفاظا و معاني و حقائق.

فرغم ما تجد في كلام غير اللّه- أيا كان-: القمم و السّفوح- التوافق و التعثّر- القوة و الضعف- التحليق و الهبوط- الرفرفة و الثقلة- الإشراق و الانطفاء، و أمثالها من سمات الاختلاف و التغير و النقصان و الملل و الكلل، لا تجد شيئا من ذلك في القرآن، و فيه من صريح الحق، و البعد عن الكذب و الخيال، ما يناحر مظاهر الفصاحة و البلاغة المرسومة! فالفصاحة ركنها في وصف خيالات بعيدة عن الواقع تجاوب الآمال الشاسعة، و القرآن كله حق و بيان الواقع! و مع ذلك فانه في أعلى قمم الفصاحة! و من عواملها الكذب، فاي شاعر تركه الى الصدق نزل شعره كما نزل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) .... نفس المصدر السابق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 233

شعر لبيد بن ربيعة و حسان بن ثابت لما أسلما، و القرآن كله صدق! و فصاحة الكلام- و لا سيما الطويل المتجول في مختلف الحقول- لا تتفق إلّا في بعض دون بعض، و القرآن كله في قمة الفصاحة! و من طبيعة الكلام مهما كان فصيحا أنه يبلى على التكرار و الترداد، و القرآن لا يبلى على ترداده، بل يزهر و يبهر اكثر و اكثر.

و منها و حتى في الأشعار مختصة ببعض المجالات دون اخرى، و القرآن زاهر في كافة المجالات! و من نضارة الكلام و طراوته أن ينحو منحى الزهوات و الشهوات و الوعود الفارغة، و القرآن مقتصر على إيجاب عبادات، و تحريم حرمات و الحث على ترك مشتهيات، و أسر أهواء، و سلب حريات، و هو مع ذلك في أرفع قمم الفصاحة و النضارة.

فالتعبير القرآني من ناحية الأداء و طرائقه الفنية و حتى في موسيقاه، إنه طريق عاقم غير مسلوك، حتى و لأنبياء اللّه، فكيف بسائر الناس مهما بلغوا مبالغ الأدب في التعبير، فهي طريقة خاصة بالقرآن نفسه، لا تضاهيها و حتى سائر كتابات السماء، فان اللّه ما أراد في سائر كلامه ما اراده في القرآن من صيغة معجزة خالدة، و لكي تتم حجته فيه، و يطمّ ربوبية العبارة و التعبير على مرّ الدهور.

فمن ذا الذي يجرأ على محاولة او خيالها و احتيالها لمعارضة القرآن، و حتى في هذه الناحية التعبيرية، اللهم إلّا من سامح عن عقله، و غره غروره و فضح نفسه، كمسيلمة الكذاب حيث عارض سورة الفيل: بتقوّله الخواء الخيلاء: «الفيل ما الفيل و ما ادراك ما الفيل له ذنب و بيل و خرطوم طويل» كما و يخاطب سجاح النبية: «فنولجه فيكن ايلاجا و نخرجه منكن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 234

إخراجا» و ثالثهما طائش من حزب الثالوث معارضا سورة الحمد: «الحمد للرحمن. رب الأكوان. الملك الديان. لك العبادة و بك المستعان. اهدنا صراط الايمان» و أمثالها من تقولات وقفت لحدها دون تكرار، حيث لم تجلب إلّا الفضاحة و الاختجاج! بديل الفصاحة او الاختلاج.

و إن لاسلوب القرآن ميزته الإلهية الخاصة تمتاز آياته عن غيرها في اي كلام، و حتى افصح من نطق بالضاد النبي محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و صنوه علي (عليه السلام) حيث يظهر و يزهو كالشمس في رايعة النهار.

و ما تصدى لمعارضته لفظيا- منذ نزوله حتى الآن- الا مأفون الرأي مايق العقل، و إن تعجب فعجب من خطيب مصقع و فارس لا يقمع، لما تصدى للقرآن أفحم و تبلد، و أبكم و تلدّد.

فهذا مسيلمة و سجاح و اضرابهم من الأولين و المتنبي و المعري و أمثالهم من الآخرين، كل بزعمه أتى بآيات تضحك منها الثكلاء و تبكي حروف الهجاء.

فيا من فجرّوا اليوم من العربية جداول و أنهارا، و جلوا من خرائدها ثيبات و أبكارا، و اجروا المحيط بأقرب الموارد من قاموس لغاتها، و جاءوا بالوسيط و البسيط في مجمع البحرين من حريري مقاماتها، تعالوا تعالوا بمن يساندكم متسابقين فاتوا بسورة من مثله و ادعوا من استطعتم من دون اللّه ان كنتم صادقين.

القرآن في اقل تحدياته يتحدى بسورة و آية تشملها فيما تشمل‏ «أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ» و لكنهم قد يتحّدون بآية: «وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 235

بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» و ليست هي عديمة النظائر او قليلتها، حيث الآيات كلها آيات تعني انها دلالات ربانية في ألفاظها و معانيها، فضع نظراك أنّى شئت من بيناته، و سرّح فكرك في أية آية من محكماته، تجدها شقيقة لتلك‏ «كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ»! يا من يخلد بخلده معارضة القرآن مهما كدحت و سعيت و أتعبت نفسك و أعييت فقد تقحّمت يا خراشة على منيع سور، و تهجمت يا فراشة على بركان نور، فما أجرأك يا هذه على أن تخترق! و ما أحراك إذا أن تحترق، و أنى لك التسنّم او التنسّم لس؟؟؟ نّي صعود تلك المزالق! «1» آية من القرآن ان كانت في رسالة كانت عينها، ام في خطبة كانت وجهها و زينها، ام في قصيدة فقلادة جيدها، مهما كانت حافتها كلام النبي، او حافتها كلام نبيّ! و جملة من جمله إن أفردتها بهرت، و ان ضممتها في عقدها أعجزت و قهرت، فهي على كمال إلفها بأخواتها، و ارتباطها بلداتها، تامة بنفسها، قائمة بذاتها، فهاك نصف الآية «.. قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى‏ نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» (6: 91).

فهي برمتها كبعض اية جملة مستقلة، ثم قل- يلعبون- مستقلة، و بلا «يلعبون» و دون «في خوضهم» و دون «ثم ذرهم» كلها مستقلة، استقلالات خمس في آية! ان ضممتها الى أخواتها سطعت و ان أفردتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مما صنفناه و ملقطات من الإمام كاشف الغطاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 236

لذاتها برعت و شعّت! متجلية ببهجة القدرة، متحلية بخالص العزة، تجمع السلاسة الى الرصانة، و السلامة الى المتانة، و لا تحسبنها آية او آيات عدة، فانها كلها او جلّها لو فتحت النظر و أجليت البصر، ففيها من خمس و ما زاد، الى عشر و يزيد، فخذ عشرا من «حم. تنزيل الكتاب- 1- من الله- 2- العزيز- 3- الحكيم- 4- غافر الذنب- 5- و قابل التوب- 6- شديد العقاب- 7- ذي الطول- 8- لا إله إلا هو- 9- اليه المصير- 10-»! تصلح كل واحدة عنوانا لخطبة، و مدارا للبحث كراسا ذا الطّول بقصر ام طول! ثم ترى القرآن في أعلى قمم الفصاحة و البلاغة لا في حقل واحد، رغم احوال البلغاء المختلفة غير المؤتلفة، فامرؤ القيس بليغ إذا ركب، و النابغة إذا رهب، و الأعشى إذا طرب، و زهيرا إذا رغب! و القرآن بليغ حيثما كان!.

أيها المدعي معارضة الفصاحة القرآنية او بلاغته، الذين عارضوا القرآن و هم يعيشون وحيه كانوا اسعد منك في البلاغة، و اروى في العربية زندا و اكثر مراسا و أقوى أمراسا فإنهم أصلها الأصيل، ثم هم أشد على القرآن عداوة و اعمق نكاية، إذ حادهم و تحداهم، عاب آلتهم و سفّه أحلامهم، و نكس اعلامهم، و كسر أصنامهم، و فعل بهم الأفاعيل و جاءهم بالاهاويل، و هم على ما هم لما سمعوه طاشت ألبابهم و تقطعت أسبابهم و مزقوا معلقاتهم، و افتضح من عارضه لحد أنكرها و حمّلها على غيره.

2- عدم الاختلاف فيه:

«أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 237

كَثِيراً» (4: 82).

فالتدبر في مجموعة هو جعل بعضه دبر بعض بغية إنتاج معاني جمعية و جامعة اضافة الى مفردات، فالتدبر في القرآن حقه باستنطاق بعضه ببعض و تدليل بعضه على بعض يسفر عن كمال التلاؤم و الوئام بين آياته البينات دون أيّ اختلاف، لا في آياته مع بعض، و لا فيه مع الواقع، و لا متطلبات الفطرة و الحياة، و لا في ألفاظه فصاحة و بلاغة و وزنا، فأبواب الاختلاف السبعة الجهنمية مغلقة على القرآن! حيث التعبير فيه منقطع النظير لا يتفاوت فصاحة و بلاغة و وزنا و لا معنى، رغم تفاوت الحالات في نزوله نجوما سورا و آيات، في العهد المكي المغلوب المضايق، و العهد المدني الغالب المضايق، في الحرب و في الصلح، و في متضادة الحالات، نرى آياته البينات في تناسق مطلق شامل كامل، في كافة المجالات التي جالت فيها، و كافة الحقول التي قالت كلمتها فيها.

فظاهرة عدم الاختلاف، و الثبات، هي الطابع الإلهية لكلامه المجيد، الذي لا يوجد في اي كلام من اي متكلم، حيث الخلق ايّا كان متحول متكامل دون أي ثبات أو وقفة، نازلا و صاعدا أم ماذا، فحالة التغير باستمرار، لزام الكائنات غير الإلهية مهما كانت في قمم الكمال كأنبياء اللّه! فالاختلاف المستمر الدائم من حال الى حال، من باطل الى صحيح و الى أصح، من مستوى الى مستوى، و لا سيما في ردح طائل من الزمن، هذا الاختلاف هو لزام الكائن غير الإلهي أيا كان، حيث لا يحيطون بكل شي‏ء علما، و هو بكل شي‏ء محيط، فترى من عباقرة الفكر في مختلف الحقول العلمية من يؤلفون كتبا علمية طوال زمن، فيها اختلافات حسب الحالات و البيآت التي يعيشونها، و التجربيات و التفكيرات المتواصلة التي يعملونها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 238

ثم و أخيرا و بعد كافة التدقيقات تجدها و فيها اختلافات او اختلاقات! و لكنما القرآن النازل طوال ثلاث و عشرين سنة في تضاد الحالات و تناقضاتها لا تجد فيه ايّ اختلاف‏ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» لا قليلا، حيث القلة القليلة من العلم ينتج الاختلاف الكثير، و ليس في القرآن اي اختلاف، من كثير و لا قليل.

لا اختلافا في فصاحة العبارة و بلاغة التعبير، فان آيه منسقة على نسق واحد لا اختلاف فيه و لا اختلال، و لا فيما يحمله من معاني في مختلف الحقول، مما تراه واضحا عند ما تتدبر اعمال اديب او مفكر او فنان او سياسي او اقتصادي او اخلاقي او اجتماعي او عسكري او ايّا كان.

و لكنما القرآن مع ما يحمل من منهج التنظيم للنشاط الإنساني فرادى و مجتمعات، بشتى الملابسات التي تطرأ في الحياة، و منهج التقويم للإدراك البشري، و منهج التنسيق بين الإنسان جملة و تفصيلا في جميع أجياله و مستوياته و أحواله، و بين هذا الكون الذي يعيش فيه، ثم بين دنياه و أخراه و ثم و ثم ... تجد فيها كلها تلائما و وئاما تاما دون ايّ اختلاف.

فما من مذهب بشري او نظرية إلّا و هو يحمل الطابع المتفاوت، جزئية النظرية و الرؤية، و التأثر الوقتي بالمشاكل الوقتية، و عدم الحيطة بالتناقضات التي تؤدي الى الاصطدام بين مكوناتها، و الى مئات المئات من التضادات الناشئة من طبيعة الكائن المحدود غير الإلهي‏ «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

إن القرآن منهج حياة، متوفرة فيه نواميس البشرية في كافة أحوالها و أطوارها، يعالج النفس المفردة، و الأفراد المتشابكة، و المجتمعات الشائكة المتعاركة، كل ذلك بالقوانين الملائمة للفطرة، و الواقع، و متطلبات الحياة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 239

الراقية، يعالجها كلها علاجا عاجلا و آجلا، متناسق الخطوات في كافة الجهات، في الوقت الواحد، فلا يغيب عن حسابه احتمالة من الاحتمالات، و لا حالة من الحالات الكثيرة المتشابكة، لأن مشرّع هذه القوانين هو خالق الفطر و الكائنات.

و أما النظم غير الإلهية فهي على قصورها الذاتي، متأثرة بملابسات الحياة، و قاصرة عن الحيطة بجميع الاحتمالات، فقد تعالج مشكلة فردية و تخترق مشكلة اجتماعية أم فردية أخرى.

و مهما ادعى المدعون ان في القرآن تناقضات و اختلافات فهي تظهر بعد التدبر في آياته انها ملائمات متوافقات، و لحد الآن ما ثبت اي اختلاف او غلطة لفظية فضلا عما سواها، رغم ما يوجد في العهدين آلاف الاغلاط و المناقضات، مما تؤكد ان التوراة و الإنجيل الحاليين تأثرا بكثير من الخرافات و الأساطير «1».

فمن المستحيل عقليا و واقعيا كون القرآن من عند غير اللّه، و طابع الربانية ظاهر في مظاهر عدم الاختلاف فيه: آياته مع بعض لفظيا و معنويا، و مع الواقع الكوني و التطلّب الفطري و العقلي و الفكري، و مع الحاجيات الحيوية التي يعيشها الإنسان ايّا كان! لذلك ترى جملاته تسمّت بآيات‏ «تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» (2: 252)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول المسيحي الفاضل «يا ركز» ان في الكتب المقدسة ثلاثون الف غلط، و القسيس «ميل» و «كريستاج» ينهيانه الى نيف و مائة الف غلط، و «شولز» ان اغلاطها لا تحصى، و في دائرة المعارف البريطانية و الفرنسية انها زهاء مليون غلط و كما يعترف بهذه الاغلاط و الاختلافات في الكتب المقدسة كثيرون مثل: اكهارن- كيسر- هيس- ديوت- ويز- فرش (راجع كتابنا: المقارنات العلمية و الكتابية بين الكتب السماوية).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 240

تدليلا أنها كلها تحمل سمات إلهية، و بصمات ربوبية، مكتوبة بقلم الوحي الأعلى، خارجة عن وصمات غير اللّه: «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

3- بعلم الغيب و مطلق العلم:

نجد بطيّات كثير من آياته البينات تحديات بعلم الغيب، و مطلق العلم، الذين لا يحصلان بالوسائل غير الإلهية، اللهم إلّا بالوحي.

إنه يتحدى بالعلم جملة: «وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» (6: 59) «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» (16: 89) «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ».

و كما يتحدى بالعلم تفصيلا، و نموذجا واحدا من تحدي التفصيل:

«وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (42: 29) حيث تذكرنا بملاحم علمية غيبية ثلاث:

1- إن في السماوات دوابا كما في الأرض: «وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ» و لم يصل العلم- الغازي للفضاء- حتى الآن الى التأكد من وجود جوّ للحياة او نباتات في بعض الكرات، فضلا عن دواب هناك كما في الأرض!.

2- «وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ» مما تبرهن ب «هم» و هي لذوي العقول، ان من دواب السماوات ذوي العقول كما للأرض، مهما لم نعرف اسمائهم و سماتهم، كيف و نحن نجهل وجود أيّة حياة في الكرات.

3- ان عقلاء الأرض و السماوات- و علّ سائر دوابهما ايضا- سوف يجتمعان، حيث الجمع هنا: «وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» لا يعني يوم الجمع و ان شمله، فانه الجمع بعد البث، فكما اللّه بثهما فيهما بعد خلقهما، كذلك هو جامعهما «إذا يشاء»: في مستقبل نجهله!-.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 241

و هل المواكب العلمية الغازية للفضاء وصلت حتى الآن الى زاوية من هذا المثلث الغيب البارع الذي تحمله آية واحدة من القرآن؟!.

و سوف تمر عليك المئات المئات من هذه الآيات العلمية، وقتية او زمنية ام ماذا، بطيات آياتها، التي تحمل فيما تحمل: وحيها- و نبوة نبيها- و صدق أنباءها واقعيا، كما و سائر الآيات تحمل الأوليين دوما، كما و تحمل الثالثة لمن أمعن.

و انا كطالب صغير من طلاب علوم القرآن أتحدى جميع العالمين بما يتحداهم القرآن ان يأتوا بحديث مثله، و إن في سورة او آية كاملة الدلالة، او ان يأتوا منه ما يعارض العقل و الفطرة او قانونا علميا ثابتا او أيا من الثابتات آفاقية او أنفسية .. ارضية او سماوية ..

و أنا على يقين أنهم «لن يفعلوا» كما «لَمْ يَفْعَلُوا» «وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» تظاهرا في اي حقل من حقوله لفظية و معنوية، و لو كان لبان ممن يجدّون السير في معارضته، و يتواكبون في مخالفته.

لذلك تجد القرآن يعتبر نفسه المعجزة الوحيدة الخالدة الكافية، محلقا على كافة صنوف المعجزات في كافة النبوات، فانها كانت كلها وقتية عابرة، و القرآن زمنية شاملة تبقى ما بقي الدهر، زاهرة مشرقة في رحاب تقدم العقل و العلم اكثر و اكثر، و على حدّ تعبير تلميذ الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام) ابن عباس: «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»! و يا لها من معجزة تمشي مع الزمن إماما أمام العقل و العلم يقودهما الى اعماق الغيب ليهدي أتباعه للتي هي أقوم! فطالما طالبوا هذا النبي ان يأتي بما أوتي رسل اللّه، رغم ذلك تجده دوما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 242

يوجههم بالقرآن لأنه أدل و أفضل مما أوتوا، و فيه الكفاية حجة للعقل و العلم دون الحس و البصر فقط، كما في الآيات المحسوسة من ذي قبل، التي تعودوا بها طوال الرسالات، ثم فوجئوا بآية وحيدة منقطعة النظير هي القرآن: «وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (29: 52): فشهادة اللّه في كتابه النازل و يتلى عليهم كافية، و أكفى من شهادته في الآيات الحسية العابرة التي تحدّ بحدود رسالاتها، و لكن هذه الرسالة الاخيرة لا حدّ لها حتى يكتفى فيها بآيات محدودة.

ترى لو ان محمدا اوتي ما اوتي رسل اللّه من آيات وقتية مع رسالته الخالدة، فكيف كان بالإمكان أن يؤمن به العالمون بعد موته و انقضاء معجزاته، و كما لا يمكن عقليا الإيمان بالرسالات الماضية، لا على ضوء كتاباتها إذ معجزة فيها، و لا معجزاتها التي ماتت بموت أنبياءها، و غبرت بما قبروا، اللّهم إلّا بما يشهد القرآن المعجز بذاته، بآياته و بيناته!.

فعلى المرسل إليهم أن يطالبوا رسولهم بآية تدل، لا كما يهوون‏ «لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ» و لكنما المبطلون كانوا و لا يزالون يطالبون صاحب هذه الرسالة بمثل ما أوتى رسل اللّه من قبل:

«وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ..» (6: 124) «فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ، قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 243

أَهْدى‏ مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (28: 49).

فالآيات الدالة على النبوات، منها آيات قد تكذّب بتهمة السحر لأنها بصرية، و لكنما القرآن آية بصيرة: «هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ» «وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً» (17: 59) «1» آيات تخويفية وقتية قد يكذّب بها، لذلك بدلناها بآية عقلية علمية زمنية لا تقبل التكذيب إلّا ممن سامح عن عقله او علمه.

فهل بالإمكان تكذيب آية القرآن و معجزته و هي تعيش الطول التأريخي و العرض الجغرافي دون فناء و بلاء، فانما تزداد على تقدم العلم نورا و بهورا! لذلك لا ترى لصاحب هذه الرسالة آيات معجزات كمثل التي لرسل اللّه، اللهم إلّا هامشية عابرة لم تؤصّل، و لذلك لم تسجّل في آية القرآن إلّا؟؟؟ شذر كشق القمر و المعراج، و لهما ما لهما من ميزّات على سائر الآيات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يذكر من الأسباب في عدم نزول آيات تخويفية عينية في الآيات التالية: السورة 6:

4- 25- 35- 37- 109- 124 و 7: 132- 146- 203 و 10: 20- 97- 101 و 13: 7- 27- 38 و 16: 101 و 20: 133 و 21: 5 و 26: 154 و 29: 50 و 30: 58 و 36: 46 و 37: 14 و 40: 78 و 43: 48 و 54: 2.

و منها ما تذكر سببا آخر في عدم نزول هذه الآيات و هو فوضى اتباع الناس فيما يهوونه من آيات ثم يكذبونها.

ثم و آيات تثبت نزول آيات النبوة على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هي 30: 58 و 6: 124 و 36: 46 و 37: 14 و 54: 2.

و حاصل جمع الآيات حول آيات النبوة المحمدية انها تركز على آية القرآن الخالدة كأصل ثم تذكر بصورة عامة او خاصة آيات هامشية لهذه الرسالة، و تنفي أصالة الآيات الحسية الوقتية لها و لا سيما التي كذب بها الأولون، و التي يهوونها و لا يصدقون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 244

البصرية كما نفصلها في طيات آياتها.

و إذا كانت سائر الآيات تدل على نبوات أصحابها و ما يدعون من وحي السماء، شهادات منفصلة عن تلكم النبوات، فآية القرآن شهادة ذاتية على وحيها و نبوة نبيّها دون انفصال، إذا فهي ادلّ و أقوى من سائر الآيات، دلالة ذاتية و خلودا ضاربا في اعماق الزمن.

فلم يكن المرسل إليهم في سائر النبوات يطالبون أصحابها بتلكم الآيات إلّا تدليلا لاثبات نبواتهم، دلالة النظير على نظيره، حيث الوحي آية غير ملموسة، فلتدل عليه آية نظيرة لها في كونها فعل اللّه مهما كانت- و لا بد- ملموسة.

و لكنما القرآن آية هذه النبوة، و هي نفس الوحي النبوة، آية تقرء و تسمع و تفهم، تدل بنفسها على آية الوحي النبوة، و على صدق مدعيها، كما تتوسط بين النبوة و الرسالة حجة تثبتهما: «يس. وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» حيث يستدل بحكمة القرآن في صيغة القسم- التي كلها في القرآن برهان- يستدل بها لإثبات دعوى سابقة: «يس»: يا سامعا للوحي! و هو النبوة- و أخرى لاحقة: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ»: الرسالة التي هي بعد النبوة النبوئة «1».

إذا فالقول: إن المعجزات انما هي للعوام الذين عقولهم في عيونهم، دون الخواص المميزين الحق عن الباطل، إنه هراء- حيث المعجزات انما تثبت النبوات، لا الأحكام الرسالية التي ياتي بها رسل اللّه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث النبوءة و هي خبر الوحي تتقدم على الرسالة، و لكنما النبوة و هي رفعة الرسالة هي بعد الرسالة كما نبحث عنها في آياتها، و نبحث عن الوحي و النبوة و الرسالة مفصلة في مناسباتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 245

إذ لا صلة بينها و بين تلكم الأحكام، و انما هي آيات النبوات: «وَ رَسُولًا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 49).

فتراها تعتبر هذه الآيات المعجزات آية واحدة لوحدة الدلالة و الاتجاه، و أخيرا إن هذه الآية هي آية الرسالة، و ليست أصيلة كالقرآن، و انما هي وسيلة لاثبات نبوة المسيح، فما يقول- إذا- عن اللّه حق لا مرية فيه، دون أن تثبت أحكاما مسيحية، إذ لا صلة بينهما.

ثم آية القرآن القاطعة الخالدة، الذاتية، لا تكتفي بنفسها في اثبات ما يحملها من أحكام عقلية ام ماذا- اللّهم إلّا كونها و حيا- فتراها إذ تستعرض مواضيع أحكامية أم سواها، هي بحاجة الى براهين، تراها مصحوبة ببراهين تترى كما تناسبها و تثبتها بما لا فواق لها، و كما تراها في طيات آياتها هنا في «الفرقان»! فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ‏ انه ليس الكافرون كلهم وقود النار و ان كانوا كلّهم بها يضرمون و فيها يتّقدون، حيث الوقود الصّلاء هو الذي تتقد به النار: «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ» (66:) 6) و هؤلاء الناس كفار خصوص كالمكذبين باللّه و رسالاته لا كل من يستحقون النار: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا ..» (3: 11) كما و تشهد آيات صلي الجحيم: «فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (92: 15) إذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 246

فصليها مخصوص بالأشقى، طالما الشقي يدخلها، و لو كان صليها- فقط- دخولها لعمّ الشقي و الأشقى دون اختصاص بالأشقى! فالصّلي هو الإيقاد كما الاصطلاء استيقاد: «أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (27: 7) و كما الصّلاء هي الوقود.

و ترى ما هي الحجارة القرينة للناس الوقود الصّلاء؟ علّها الأصنام الأحجار التي كانوا يعبدونها: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» و لكنما الأصنام لا تختص بالمصنوعة من الأحجار، فعلّها هي و حجارة أخرى تصلح للصّلاء كأقوى الوقود و أبقاها مثل‏

«حجرة الكبريت» «1» و ترى إذا كان الناس من وقود النار و هم بعد لم يدخلوها، فكيف إذا «أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ»؟ علّ الوقود الحجارة- غير أصنامها- يكفي الآن لإعداد النار، ام إن الإعداد حالة ترقّب لا فعلية له، فانما يضرم النار بمختلف وقودها يوم يدخلونها.

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَ لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 69 عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن جده علي بن الحسين (عليه السلام) في حديث طويل حول تفسير هذه الآيات‏ «وقودها و حطبها الناس و الحجارة حجارة الكبريت أشد الأشياء حرا ...».

و

في الدر المنثور 1: 36- اخرج ابن أبي شيبة و الترمذي و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أوقدت النار الف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها الف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها الف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة، و فيه ايضا عن انس عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مثله باضافة «لا يطفأ لهبها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 247

(25).

بشارة للذين آمنوا و عملوا الصالحات، و ترى أليس عمل الصالحات من الإيمان او لزامه فكيف يقابله؟ علّه لان الايمان في الأكثر ينحو منحى القلب و لا يستحق دخول الجنات إلا من أضاف عمل الايمان الى عقيدة الايمان.

ثم الجنات هي البساتين الملتفة الأشجار كسقف أخضر «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» لا تحت الأرض، و إنما تحت جنات الأشجار التي تجنّ ما تحتها من أرض‏ «1»، فالجنات هي مظلّات شجرية، توحي بجمعيتها أنها مقسّمة بين أهليها، لكلّ جنة فللكلّ جنات.

و ترى ما «هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ»؟ هل هي الأرزاق الدنيوية التي رزقوها قبل الجنة ففيها يؤتون أشباهها؟ و لا فضل لما في الدنيا حتى تكون أشباهها في الجنة فضلا لهم فيها! و «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» لم يرزقوا من الدنيا إلّا قليلا، إذ اغتصبها أكثرها أهل الدنيا، فهل يرزقون في الجنة- فقط- أشباه هذه القلة القليلة! ام هي من التي رزقوها في الجنة قبل هذا الرزق؟ و «كلّما» تشمل مع سائر المرات المرة الاولى و ليس قبلها جنة او رزقها!.

علّ «من قبل» هي الأرزاق التي رزقوها في جنة البرزخ، ام هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 36- اخرج جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): انهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك.

و

فيه عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لعلكم تظنون أن انهار الجنة أخدود في الأرض لا و اللّه انها لسائحة على وجه الأرض حافتاه خيام اللؤلؤ و طينها المسك الأذفر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 248

الأعمال التي رزقوها يوم الدنيا فيؤتون في الأخرى ثمراتها «وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً» «وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً» تشابه الأعمال و ثمراتها، و فيها مزيد بفضل اللّه.

أم إنها ما رزقوا من قبل في الدنيا مهما حرموا عنها فيها، فالحارمون هنا محرومون هناك، و المؤمنون المحرومون مرزوقون هناك: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (7: 32) بعد ما كانت خالطة يوم الدنيا، و هم في الأكثر كانوا محرومين عنها، فلما وجدوا هناك من كل الثمرات فرحوا قائلين: «هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ» و حرمناه هناك.

و هم من هذا المثلث من الرزق السابق، يجدون له متشابها: للذي رزقوه من قبل من حيث الشاكلة لرزق الدنيا، و في مرتبة أعلى عن جنة البرزخ، جزاء وفاقا لما عملوها من صالحات و هناك مزيد.

فرزق الجنة و الدنيا لا يتشابهان إلّا في الاسم و في أصل المنظر، و اما في نضرته و طعومته‏

«لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر»

و علّ‏

«في طعام العرس مثقال من ريح الجنة» «1».

و الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يصف الجنة ببعض شروطها و أشراطها:

«من خالف أدلج و من أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة اللّه غالية، ألا ان سلعة اللّه الجنة، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» «2».

هذا، كما و يجدون متشابها مع بعض، فثمار الجنة متشابهة اللذة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: 1: 38- أخرجه الديلمي عن عمر قال سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ...

(2)

الدر منثور 1: 37 أخرجه الترمذي و حسنه و الحاكم و صحيحه عن أبي هريرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 249

و الطراوة و النضارة، مهما اختلفت ألوانا و طعوما، فهذا الاختلاف و ذلك التشابه مرغوبان، حيث اختلاف الأكل دوما و التشابه أحيانا و عدمه أخرى في الألوان و الأشكال، كلّ ذلك رحمة و نعمّا هي و كما هنا: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ ..» (6: 141).

إن في هذا التشابه الظاهري و التنوع الواقعي بين اثمار الجنة و الدنيا مفاجأة لطيفة من ناحية، و استئناس بالمألوف من أخرى، كدعابة دائبة تكشف في كل مرة عن جديد و جديد، رزقوا أشباهها في أشباحها يوم الدنيا و هم كانوا- على الأكثر- محرومين عنها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): .. و فيه و اخرج جماعة عن اسامة بن زيد قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ألا هل مشمر للجنة فان الجنة لا خطر لها هي و رب الكعبة نور يتلألأ و ريحانة تزهر و قصر مشيد و نهر مطرد و ثمرة نضيجة و زوجة حسناء جميلة و حلل كثيرة و مقام في أبد في فاكهة دار سليمة و فاكهة خضرة و خيرة و نعمه في محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم! قال قولوا: إنشاء اللّه قال القوم: إن شاء اللّه.

و

فيه عن أبي هريرة قال‏ قلنا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! حدثنا عن الجنة ما بناؤها، قال: لبنة من ذهب و لبنة من فضة و حصاءها اللؤلؤ و الياقوت و ملاطها المسك و ترابها الزعفران من يدخلها ينعم لا ييأس و يخلد لا يموت لا تبلى ثيابه و لا يفنى شبابه.

و

فيه عن أبي سعيد الخدري عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لشبر في الجنة خير من الدنيا و ما فيها.

و

فيه عن سعد بن أبي وقاص عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لو ان رجلا من اهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم.

(1).

تفسير البرهان 1: 69- الامام الحسن العسكري عن جده علي بن الحسين (عليه السلام) في حديث طويل حول هذه الآيات: «بشرهم ان لهم جنات»: بساتين-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 250

و كما يجدون فيما يرزقون تشابها لما رزقوا من صالحات هي ثمرات الايمان يوم الدنيا، فاليوم يرزقونها جزاء وفاقا، مما تزيدهم رضى سابغة أنها مما قدمت أيديهم جزاء و مزيدا من فضل اللّه تعالى.

و حيث إلّا لأهل الجنة من كل الثمرات: «وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ» (47: 15) و لأن‏ «فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» «أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً» لا يعني ما تحدّه الحياة الدنيا من ثمرات، بل هم في مثلث الثمرات غير المحدودات و لا المحدّدات، بمختلف الألوان و الشهيّات و الطعومات.

«وَ لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ» لإسباغ غريزة الجنس بكل نزاهة و طهارة، بجنب ما لهم من ثمرات في جنات، و ترى أن هناك للرجال أزواجا و ليس للنساء؟ أقول. «هم» في «لهم» هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات رجالا و نساء، فلكلّ ازواج دون اختصاص بالرجال، مهما لا تجد آية تصارح بما للنساء من أزواج كما للرجال هناك ازواج من الحور العين و من أزواجهم المؤمنات: «وَ يَنْقَلِبُ إِلى‏ أَهْلِهِ مَسْرُوراً» (84: 9) فإن ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

تجري من تحتها الأنهار: من تحت أشجارها و مساكنها «كُلَّما رُزِقُوا مِنْها» من تلك الجنان «من ثمرة» من ثمارها «رزقا»: طعاما يؤتون به‏ «قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ» في الدنيا فأسماءه كأسماء ما في الدنيا من تفاح و سفرجل و رمان و كذا و كذا و ان كان ما هناك مخالفا لما في الدنيا فانه في غاية الطيب، و انه لا يستحيل الى ما يستحيل اليه ثمار الدنيا من عذرة و ساير المكروهات و من صفراء و سوداء و دم، بل ما يتولد من مأكولهم إلّا العرق الذي يجري من اعراضهم أطيب من رائحة المسك و أتوا بذلك الرزق من الثمار من تلك البساتين متشابها بعضه بعضا بأنها خيار لا رذل فيها و بان كل صنف منها في غاية الطيب و اللذة، ليس كثمار الدنيا التي بعضها في و بعضها متجاوز لحد النضج و الإدراك لحد الفساد من حموضة و مرارة و سائر ضروب المكاره، و متشابها ايضا متفقات الألوان مختلفات الطعوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 251

لا يعني حرمانهن لا سيما إذا متن باكرات و انما استحياء عن ذكرى شهوة النساء و إحياء لعفافهن، و كما لا تجد لهن ذكرا باسمائهن في القرآن، اللهم إلّا مريم (عليها السلام) ذودا عنها ما مسّوا من كرامتها.

و لأن‏ «فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» نتأكد أنّ هناك للنساء المؤمنات ما للرجال المؤمنين من مشتهيات، و شهوة الجنس تحتل القمة فلتكن لهن كما لهم سواء.

إنهن سوف يتزوجن هناك برجال كما يشتهين، برجالهن ان كانوا من اهل الجنة، او بسواهم إن متن باكرات، و هن أجمل و أطرى من الحور العين، فلهن منازل عند أزواجهن فوقهن‏ «1» و ان كن اقل عددا «2».

و حتى إذا يعنى من «لهم» الرجال فقط «أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ» تشمل النساء المؤمنات أبكارا و ثيبات كما تشمل الحور العين.

و «مطهرة» تعني الطهارة بكل زواياها النسائية: مطهرات من الزنا و من النظر الى غير رجالهن: «فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في من يحضره الفقيه قال الصادق (عليه السلام): الخيرات الحسان من نساء اهل الدنيا و هن أجمل من الحور العين،

و

في روضة الكافي عنه (عليه السلام) قال: هن صوالح المؤمنات العارفات،

أقول راجع آيات قاصرات الطرف و الخيرات الحسان و مقصورات في الخيام من سورة «الرحمن» ج 27 ص 51 ...

(2)

الدر المنثور 1: 39- اخرج ابن السكن و ابن عساكر عن حاطب بن أبي بلتعة سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: يزوج المؤمن في الجنة ثنتين و سبعين زوجة من نساء الآخرة و ثنتين من نساء الدنيا.

و

فيه عن أبي هريرة قيل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): هل نصل الى نسائنا في الجنة فقال: ان الرجل ليصل في اليوم الى مائة عذراء.

أقول هذا الاختلاف حسب اختلاف الدرجات و الشهيات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 252

(55: 56) و من أيّة مكروهة مرغوبة عنه فيهن مثل مختلف الدماء، حيضا ام سواه‏ «1» كذلك و نكاحهن‏

«دحاما دحاما لا مني و لا منية» «2»

فلا يصحب أية قذارة او صعوبة او خلافات او حسادات:

«مطهرات من انواع الأقذار و المكاره، مطهرات من الحيض و النفاس، لا ولّاجات و لا خراجات و لا دخّالات و لا ختّالات و لا متغايرات و لا لأزواجهن فركات و لا صخابات و لا غيّابات و لا فحّاشات و من كل العيوب و المكاره بريات» «3».

«وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ»: في هذه الجنات و الثمرات و الأزواج المطهرة و في كل ما يشتهون: «وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ» (21:) 102) «4».

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ (26).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 38- اخرج الحاكم و ابن مردويه و صححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: من الحيض و الغائط و النخامة و البزاق-

أقول هذا هو من باب الجري و التطبيق تفسيرا ببعض المصاديق.

(2)

الدر المنثور 1: 40 عن أبي امامة الباهلي‏ ان رجلا سأل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): هل تتناكح اهل الجنة؟ فقال: دحاما ...

و فيه ايضا انه سأله (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفس السئوال فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): نعم بفرج لا يمل و ذكر لا ينثني و شهوة لا تنقطع دحما دحما.

(3) تفسير البرهان 1: 69 عن الامام علي بن الحسين (عليه السلام).

(4) بحثنا عن موقع الخلود في الجنة و النار و حدوده في الجزء الثلاثين عند البعض من آياته ك «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» ص 40- 50 فراجع و كذلك في الأسرى و غيرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 253

قد توحي الآية نفسها أن اللّه تعالى ضرب مثلا قبلها ببعوضة او ما فوقها فقال الذين كفروا ما قالوه، كما علم الذين آمنوا ما علموه، فكيف لم يذكر المثل قبلها و إنما جاء الجواب؟.

أقول: هذه الآية مع ما تحمل من مثل البعوضة، فيها الإجابة عما ربما قيل عن الأمثال السالفة «1» او يقال، بان ضرب المثل بصغير او كبير انما هو لإثبات حق‏ «وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» (33: 53) و الكون بصغيره و كبيره للّه و من خلق اللّه، و له أن يمثل بما يشاء، حيث العبرة في المثل ليست في الحجم و الكمّ، و إنما في الكيف و التدليل كأدوات للتنوير.

و البعوضة حشرة مضرة من فصيلة البعوضيات و رتبة ذوات الجناحين، تعيش صغارها في المستنقعات، و تنقل بلدغتها شتى الجرثومات، فإذا اللّه يضرب بها مثلا لمعجزة الحياة فلا استحياء في مثلها، حيث الحياة في الفيلة بأعضائها كالحياة في البعوضة فما فوقها في الصغر، بل و للبعوضة ما للفيلة و زيادة عضوين آخرين‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث سبق المثل هنا بالذي استوقد نارا او كصيب من السماء، كما سبق في العهد المكي ادنى منه كالعنكبوت و الذباب، فاتخذ جماعة من المشركين و اهل الكتاب و المنافقين من هذه الأمثال منفذا للتشكيك في صدق الوحي بحجة ان فيها سخرية منهم لا تصدر عن اللّه، فهنا الاجابة عن كل ذلك بصيغة مختصرة: «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي ..».

(2)

البرهان 1: 72 نقلا عن أبي علي الطبرسي قال و روى عن الصادق (عليه السلام) انه قال: انما ضرب اللّه المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر حجمها خلق اللّه فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره و زيادة عضوين آخرين فأراد اللّه ان ينبه بذلك المؤمنين على لطف خلقه و عجيب صنعته ..

أقول: و من عجائب البعوضة انه يضرب بخرطومه على الفيل و الجاموس كما يضرب الرجل إصبعه في الخبيص من فورة السم الذي عبئ على رأس خرطومه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 254

ثم ضرب المثل بالصغار ينبه كبار المتعنّتين أنهم صغار صغار بجنب اللّه حتى في خلق بعوضة، حتى و آلهتهم التي ألهتهم: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ» (22: 73).

و هكذا تكون دوما حال الأمثال التي يضر بها اللّه، مواتية لما يهدفه من أهداف: «وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (14:) 25) ...

ثم الحالة المؤمنة و جاه هذه الأمثال، فيما إذا كانت مريبة كبعوضة فما فوقها في الصغر- هي: العلم أنه الحق من ربهم فإيمانهم باللّه يدفعهم في مزال الأقدام ان يتلقوا كل ما يصدر من اللّه بكل قبول و تصديق، فمهما جهلوا حكمته و مغزاه، فاللّه حكيم عليم. طالما المقالة الكافرة سؤال استكبار و استنكار، سؤال المقطوع الصلة عن اللّه المحجوب عن نور اللّه و من لا يرجو للّه وقارا: «ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا» كأنه باطل من ربهم‏ «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً»: مثلا يضلّل فكيف يضربها اللّه: اعتراضا على كلام اللّه، غافلين او متجاهلين أنه‏ «وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ»! «1» و قد تكون‏ «وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً» من أوسط الفاسقين، بعد «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً» و لا تكون من كبرائهم الافسقين إذ لا يرون في هذا المثل وجهة حقّ و هدى.

فجواب الآخرين- فقط-: «وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ» و للأولين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا الوجهان مقبولان حيث تتحملها الآية لفظا و معنى ان يهدي به كثيرا اما من كلامهم تتمة الاعتراض او من كلام اللّه نقضا للاعتراض، و كما «ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ» حلّ نهائي لسؤالهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 255

زيادة «وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً» .. و الفسق هو الخروج عما يحق من كنّ و وقاية- كما يقال: فسقت التمرة: إذا خرجت عن قشرها، فالفاسقون هم- الخارجون عن قشر العبودية.

و ترى الفاسقون كل الفاسقين هم المضلّلون بأمثال هذه الأمثال و كثير هم مؤمنون فاسقون .. و قليل هم الذين لا يفسقون؟

أقول: انهم فاسقون خصوص كما عرفهم اللّه بفسق مطلق لا مطلق الفسق، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ‏. (27)

و في أخرى بالكفر و مرض القلب الشامل للمشركين و اهل الكتاب و المنافقين: «وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ ..» (74: 31) و هو مثال الزبانية التسعة عشر.

إن ثالوث الفساد هذا هو المجال لذلك الضلال: نقضا لعهد اللّه- قطعا لوصل اللّه، و إفسادا في أرض اللّه، و يا له من ثالوث منحوس! يجعل من كل هدى ضلالة، و من كل نور ظلمة.

و مثلث الفساد هذا يقطع بزواياها كل صلة باللّه و بعباد اللّه: نقضا لعهد اللّه بعد ميثاقه، من عهد توحيد العبودية فطريا و عقليّا، و من ثم رساليّا و رسوليّا، و ثم عمليّا، التي تجمعها صيغة واحدة: «عبادة الشيطان»: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ»: عهد ثنائي سلبا و إيجابا هو اصل العهود! انهم ينقضون عهد اللّه- ايّ عهد- من بعد ميثاقه بوثاق العقل و الفطرة و وثاق النبوات، فالفاسقون: الخارجون عن حدود العبودية هم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 256

حياتهم نقض لمواثيق اللّه- بكل زواياها الثلاث و حواياها، و نقض عهد اللّه من أعظم الفسق: «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» (7: 102). فإنهم لا لبّ لهم إنسانيا و «إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ..» (13: 21).

وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ‏ فقد امر اللّه بصلات كثيرة:

عقيدية و عملية، فردية و جماعية اماهيه، فإذا قطعت هذه الصلات و نقض عهد اللّه عمّت فوضى الفساد في الأرض، فإن إصلاحها على ضوء الحفاظ على عهد اللّه، و إيصال ما امر اللّه في جناحي الرباطين: بينك و بين اللّه و بين عباد اللّه، .. و نرى آية النقض و القطع تربط بينهما هنا و في أخرى (13: 21) مما يدل ان كل نقض لعهد من عهود اللّه يسبب قطعا لما وصل اللّه و أمر به ان يوصل، فشريعة اللّه شريعة وصل المفاصلات التي تفصل الانسانية عن صالح الحياة، ابتداء بوصل الحياة البيتية، الى وصل الأرحام، الى المجتمع الإسلامي الكبير و الى كافة المجتمعات، وصلا عقيديا- أخلاقيا- ماديا- سياسيا- اقتصاديا و عسكريا أم ماذا، و كما تامر به آية المرابطة: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ ..» (3: 200).

ثم و قطع عهد اللّه، و فصل وصل اللّه يسبب كل فساد في ارض اللّه:

وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ‏ إذ خسروا رأس مال الاهتداء في متاجر الضلالة و الهدى، فالمثل الإلهي الذي من شأنه شفاء و رحمة لا يزيدهم إلّا خسارا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 257

و لان الفسوق دركات فالضلالة الناتجة عنه ايضا دركات طبقا عن طبق، فالفسوق المروق عن مطلق الطاعة ضلال مطلق مطبق، و الفسوق عن الطاعة المطلقة و هو مطلق الضلال غير مطبق، فالحياد عن منهج اللّه و محادّة حكم اللّه و الحداد عن حدود اللّه هو الفساد الشامل للنفوس و الأحوال، التي تردي في الأوحال، و من ثم فحق لهم أن يضلهم اللّه بما يطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ».

ثم و «مثلا ما» «1» يشمل كافة الأمثال القرآنية، و مثلا منها:

«البعوضة» و هي أضعف ما يعرف عاميا من خلق اللّه‏ «فَما فَوْقَها» في الضعف و الخساسة، الذي يعرفه البعض بعيون مجردة او مسلحة «2» و لكن اللّه إذ يواجه الناس أجمعين يضرب أمثالا يعرف الناس أجمعون: نملا بعوضة- ذبابا- عنكبوتا- نحلا: و هي على صغرها و خستها حجما، عظيمة في خصّتها خلقة و خاصّتها مثالا: فلما ذا اللّه يستحيي أن يضرب مثلا مّا:

بعوضة فما فوقها؟ و ما الأمثال في القرآن إلّا مظاهر نعيشها، تدليلا على حقائق نجهلها.

و يا لمثل البعوضة فما فوقها من ملابسات هامة فيزيولوجيا و حيويا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «ما» هنا ليست زائدة. و انما تعني الإجمال الشامل لكل مثل، كما يقال: شيئا مّا- امرا مّا- رجلا مّا- شخصا مّا، ف «ما» تؤكد التنكير الإجمال فيما قبله و تعمّه ..

ف «بعوضة» منصوب على البدلية من‏ «مَثَلًا ما» دون حاجة الى تكلفات اخرى تأبى عنها كلام اللّه!.

(2) لان المقام هنا الاجابة عما يسئل عن صغر المثال‏ «فَما فَوْقَها» هنا تعني: ما فوقها في الصغر و الخسّة، حيث الفوقية تختلف مواردها و كما يقال: فلان فوق فلان في الفقر- في اللؤم- في الفسق او في الصغر، حيث الفوقية فيها هو الشدة في كل منها ...

و مع ذلك كله‏ «فَما فَوْقَها» في الآية تتحمل الفوقين: ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها في الصغر كالنملة و ما فوقها، او في الكبر كالنحلة و ما فوقها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 258

و دلالة على ما يرام منها هدى و رحمة للمؤمنين و تذكرة للكافرين‏ «وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ»! فلا ضلال في المثال، و لا من اللّه الذي يضربه لتقريب الحق، و إنما في «الفاسقين» حيث يبدلون نعمة اللّه كفرا، فليس من اللّه دفع إلى ضلال، اللهم إلّا تركا لمن يهرع الى ضلال، ثم ختما على قلبه فيزيد ضلالا على ضلال: «مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ» إن في تركه فلا موفّق إلّا اللّه، او في ختمه فلا رادّ لأمر اللّه.

كلام حول الضلال و الهدى:

نرى عشرات من آيات اللّه البينات تنسب الإضلال الى اللّه كما تنسب إليه الهدى: «فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» (35:) 8) و لكنما المشية الإلهية، الحكيمة العادلة، لا تتعلق بإضلال المهتدين، و لا الحائرين المتحرّين عن الهدى، فلا نجد آية تحمل من إضلال اللّه من شي‏ء إلّا بالنسبة للزائغين: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» الظالمين:

«وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ» (14: 27) و الفاسقين: «وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ» و الكافرين: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ» (40: 74) او كل مسرف مرتاب: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ» (40:) 34): إضلال بما زلّوا و ضلوا من قبل، لا بمعنى الدفع الى الضلال قبل بيان الهدى، و انما تركا لهم يفعلون ما يريدون بعد الإياس من هداهم:

«فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (10: 111) تعبيرا عن تركه لهم بإضلالهم إذ لم يحملهم على الهدى تسييرا: «مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (7: 186) «وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ» (9: 45).

ثم و بما يمدّهم في أعمار و أموال و بنين: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 259

طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (2: 15) «وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183).

ثم و أخيرا أن يطبع على قلوبهم جزاء في الاولى بما كانوا يعملون:

«بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (4: 155) «كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ» (10: 74) «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ» (7: 101) «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (40: 35).

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ» (63: 3) «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى‏ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى‏ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ» (45: 23).

و هكذا نرى أنّ الإضلال من اللّه لا يعني الدفع الى الضلال، و لا سيما للمهتدين و الحائرين، و انما ترك و إهمال و امهال للضالين فيزدادوا ضلالا على ضلال‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

ثم الإفعال كما تاتي لنقل الفعل من لازم الى متعد، كذلك تاتي لمجرد الوجدان‏ «1» «أَضَلَّ اللَّهُ» قد تعني: وجده اللّه ضالا، ثم و لم يهده فاستمر على ضلاله! كما و نسب الإضلال الى نفسه بما هدى فلم يهتدوا و زادوا ضلالا:

«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» فدعاء الحق تزيد المبطل ضلالا بما يدفعه لتكذيبه و حرابه: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يقال: سألناكم فما ابخلناكم: فما وجدناكم بخلاء- أتيت ارض فلان فأعمرتها: وجدتها عامرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 260

فلا نجد في القرآن بأسره إضلالا ظالما إلهيّا مسيّرا للضلال! فالناس في مجال الهداية الإلهية على ضروب:

1- منهم من يقبل الهدى إذ يعرفها فيصدقها، فيزيده اللّه هدى على هدى: «وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً» (19: 76).

2- و منهم المستضعف الحائر الذي لا يجد حيلة و لا يهتدي سبيلا، فأولئك قد يهديهم اللّه او قد يعاملهم في الآخرة بالحسنى إذ كانوا قاصرين: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (4: 99).

3- و منهم من يعرف الحق و يعانده فهل على اللّه أن يجبره على الهدى؟: «وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ» (16: 9) «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها» (32: 13) كلّا! إنه الإختيار في كلّ من الضلالة و الهدى، ثم لكلّ زيادة جزاء وفاقا.

فآيات الإختيار في قبول الضلالة و الهدى هي رأس الزاوية في مثلث الهدى، تثبت التخيير و تنفي التسيير، و تكملة البحث تترى في طيّات آيات الضلالة و الهدى.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28).

سؤال استنكار و تقبيح بمن يكفرون باللّه، و هذه التنقلات المقصودة من موت الى حياة ثم موت و ثم حياة تدل على فاعل عليم حكيم، فكل تطوّر بحاجة الى مطوّر، فإذا كان مقصودا حكيما فليكن المطوّر قاصدا حكيما، و هكذا تطورات الموت و الحياة منذ البدء حتى الختام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 261

فمهما أنكر الكفار الحياة بعد الموت، لم يهد لهم نكران الموت الأوّل ثم الإحياء عنه ثم الإماتة، مما يكفي دليلا على وجود قدرة عليمة خلاقة حكيمة واحدة، و ان له الإحياء مرة اخرى كما أحيى في الاولى، فحجة الاستنكار هنا تشمل كافة المكلفين: ماديين و مشركين، و كتابين و موحدين:

الناكرين منهم ليوم الدين! و لأن الخطاب هنا موجّه الى الناس الأحياء، فليكن الموت فيه قبل الإحياء، لا موتا عما هم فيه من الحياة الإنسانية و لا أيّة حياة، فقد كنا أمواتا إذ كنا أجنّة في بطون أمهاتنا، و قبل خلق الروح الإنسانية فينا مهما كنا أحياء بالروح النباتية، و بعض من الحيوانية، حتى أتى دور الحياة الإنسانية بما أنشأ اللّه فينا خلقا آخر: «فأحياكم» للحياة الدنيا دون فصل، بعد ما تهيأ الجنين لتقبّل الروح الإنساني و كما توحيه «ف» حيث تلمح بعدم الفصل.

«ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» بعد فصل فيه تعمرون، يميتكم عن الحياة الدنيا- و ثم ماذا؟، «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» فهل للحياة البرزخية، حيث بعدها: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»؟ فإن الرجوع الى اللّه هو الحياة الأخرى! علّه نعم-:

لمكان الرجوع هنا، و للآية الأخرى: «قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى‏ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» (40: 11) حيث الإحياء الاوّل هو- فقط- عن الموت الاوّل كما هنا، فالإحياء الثاني هو عن الموت الثاني نتيجة الإماتة الاولى، ثم لا معنى للإماتة الثانية إلّا انها عن حياة ثانية تتوسط الحياتين: الأولى و الأخرى، و هي الحياة البرزخية، فكما الإماتة الأولى إفناء للحياة الاولى فلتكن الثانية ايضا إفناء عن حياة مّا ثم الإحياء الثاني هو للحياة الأخرى.

و هذا اعتراف من جماعة أهل النار بإماتتين و إحيائين و هم في النار،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 262

بعد إذ كانوا لكلّ منها ناكرين: «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» (44: 35) إذ حصروا الموت بما عن الحياة الدنيا كما حصروا الحياة بها، فلا حياة بعدها و كما لا موت بعد الموتة الاولى! و اعتراف اهل النار و هم في النار، بما أنكروه يوم الدنيا، دونما ردّ عليهم، إنه مصدّق كواقع، حيث المتناقضان لا يجتمعان و القرآن بيان دون إجمال او تقرير لضلال! و الترتيب الواقعي بين الإماتتين و الإحيائين، احياء عن الموت الأوّل، ثم إماتة عنها، ثم إماتة عن حياة تعيش هذه الإماتة، فإحياء الى الحياة الأخرى، فلولا الحياة البرزخية لم تكن هناك إماتة ثانية.

محالة الحياة البرزخية هي موت عن الحياة الدنيا- و ليست موتا مطلقا- بل هي حياة مّا- تقبل الإماتة ثم الإحياء للحياة الأخرى.

ثم و علّه لا! حيث الحياة البرزخية لا تحتاج الى إحياء، فانها حاصلة في الحياة الدنيا و في الموت عنها، و هي بقاء الروح في البدن المثالي البرزخي، فلا تعني الإماتة عن الحياة الدنيا إلّا انفصال الروح ببدنه المثالي عن هذا البدن نهائيا، فتبقى ما تبقى من اصل الحياة برزخيا دونما حاجة الى إحياء.

لذلك لا تجد مصارحة قرآنية بإحياء برزخي، و إنما الحياة و الحياة فقط دونما إحياء! ثم إنّ الرجوع الى اللّه بعد الإحياء الثاني لا يخص الحياة الاخرى بعد الموت، حتى يخص هذا الإحياء بما بين الاولى و الأخرى، بل هو يعمها و ما بعدها من رجوع الحساب فالثواب و العقاب: كما «اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (30: 11) «وَ الْمَوْتى‏ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 263

(6: 36) فهل الإعادة و البعث هما في البرزخ؟! و ليس فيه إلّا استمرار الحياة الدنيا. مهما نجد آيات اخرى هنا تعني من الرجوع الى اللّه الحياة الأخرى، و لكنه بعد هاتين ليس إلّا ما يعم الحياة الأخرى و الانتقال الى حياة الحساب، و لا حجة في آيتنا: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ‏ ... ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أنه الإحياء للأخرى، و استعمال العام و قصد الخاص دون دليل، خارج عن مذهب الفصاحة فضلا عن القرآن البالغ أعلى القمم فيها.

و من ثم ف «ثم» قبل: يحييكم- الدالة على تراخي الإحياء عن الإماتة تدلنا دلالة رابعة أنها الحياة الاخروية النائية عن الموت كثيرا، لا الحياة البرزخية التي لا تنفصل عن الموت.

فعلى ضوء هذه الدلالة المربعة، ننتقل من: علّه نعم او لا، الى التأكدّ من عدم دلالة الآية على حياة برزخية، فهل إذا تدل على نفيها؟

لمكان: «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» و لا إحياء إلّا عن الموت، فليس هناك قبل الحياة إلّا الموت؟

في الحق إنه لا دلالة على نفيها كما لا تدل على إثباتها، حيث الحياة البرزخية موت بالنسبة للحياة الأخرى- كما الحياة الدنيا موت بالنسبة لها- فكما يصح الإحياء عن الموت المطلق الذي لا حياة فيه- و هنا نفي للبرزخ- كذلك يصح عن الموت النسبي:- البرزخي- و هو أحيى من الحياة الدنيا- و هنا إثبات للبرزخ-:

فعلى ضوء الآية الأخرى: «أَمَتَّنَا ... وَ أَحْيَيْتَنَا» حيث تثبت الحياة البرزخية، نفسر آيتنا هكذا: «وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً» أجنّة في بطون أمهاتكم قبل إنشاء الخلق الآخر «فأحياكم» بالحياة الدنيا «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» عن الحياة الدنيا فصلا للروح ببدنه المثالي عن هذا البدن‏ «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 264

لحياة أخرى هي أرقى، إحياء عن الحياة البرزخية التي هي موت و جاه الأخرى، او إحياء بعد الإماتة عن الحياة البرزخية- و هو أحق و أحرى- و كما تدل الآية الأخرى: «أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ» حيث الإماتة الأولى إماتة عن الحياة الدنيا، فلتكن الثانية اماتة عن حياة أخرى الى الحياة الأخرى، فلو لا أنّ هناك حياة وسطى: بين الدنيا و الاخرى، لم يكن للإماتة عنها معنى!.

فالفرق بين الآيتين أنّ آيتنا لا تحمل إلّا إماتة واحدة، و موتا قبل الحياة الدنيا، و في الاخرى إماتتان، و حاصل جمعهما انّ كلّا من الموت و الحياة ثلاث: موت قبل الحياة الاولى دون إماتة و هو الموت المطلق، و موت بالإماتة عن الحياة الاولى، و موت بالإماتة عن الحياة البرزخية.

ثم: حياة بعد الموت الاوّل، و حياة بعد الإماتة عنها، و حياة بعد الإماتة عن الثانية: الحياة الاولى ثم الوسطى ثم الأخرى، و آيتنا هنا لا تتكفل إلّا بيان الحياة الاخرى، إذ تواجه الناكرين لها، لا البرزخية التي هي على هامشها، تثبت بعد ما تثبت هي الاخرى.

فقيلة الناكرين للحياة البرزخية أن آيتنا تنكرها كما الآية الأخرى- و هي مثلها- لا تثبتها، حيث تشملان الموتين و الحياتين، إنها قولة فارغة هراء، حيث البون بيّن بينهما، و أنها موت و إماتة دون الأخرى:

إماتتين، دلالة قاطعة هنا عليها، و سكوت هناك عنها! فالقرآن يثبت الحياة البرزخية في قرابة عشرين آية نبحث عنها في طياتها، دون تصريح او تلويح بإحياء فيها فانها استمرارية للحياة الاولى بعد انفصال البدن عنها، طالما يصرح في مئات الآيات بالإحيائين دنيا و اخرى، و تصرح آية وحيدة بإماتتين: تلويحة كتصريحه أن في البرزخ حياة، و إلّا فالإماتة الثانية عماذا؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 265

هذا و لأن الإماتة الثانية لا تزعج الصالحين لا يأتون في الاخرى بذكرها إلّا تلميحا: «أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» (37: 59) استثناء منقطع يعني أن لا موت في الآخرة، اللّهم إلّا الموتة الاولى في الاولى، فلولا الموتة الثانية لم تكن لصيغة الاولى من معنى.

و اما الكفار فتهمّهم الموتة الثانية و أكثر من الأولى، فانها تنقلهم الى دار البوار، جهنم يصلونها فبئس القرار، و لذلك يصرحون بها دون المؤمنين، و في تصريحة يوم الدين حجة عليهم، و حجة للمؤمنين يوم الدنيا تدليلا على حياة برزخية بين الحياتين.

ثم هذا الخطاب العام: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ» يعني الحالة العامة السائرة لسائر الناس، لا الذين لهم حياة ثانية و إماتة اخرى في الحياة الدنيا:

«كَالَّذِي مَرَّ عَلى‏ قَرْيَةٍ ... فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ» و «الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ» «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ» «فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏» إحياءات و إماتات أخرى لبعض الناس، تدليلا حسيّا على أن وعد اللّه حق! و ترى كيف تحتج آيتنا على منكري المبدء و الوحي بنكران المعاد؟ لأنها تحمل دليل التطور بعد ما ثبت المبدء و الوحي بما مضى، قرن الدليل الحسي الى العقلي، إذا «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ»؟!.

ثم الموت هنا «وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً» من باب العدم و الملكة لا عدم الملكة، فكما يصدق على من مات عن حياة، كذلك الموت البدائي الذي تلحقه حياة، فلا يقال لما لا يقبل الحياة ميّت، و إنما لما يقبلها كما هنا، او ما يستقبلها كما في الموت بعد الحياة، و «أمواتا» هنا تعني الموت الثاني حيث الاول تخصّ لفظة الإماتة دون‏ «كُنْتُمْ أَمْواتاً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 266

ثم الرجوع الى اللّه له درجات يتدرجها الراجعون، ابتداء من الموت في حياة برزخية فيها ثواب و عقاب مؤقت نظرة الاخرى، ثم الحياة الأخرى، ثم الى موقف الحساب الختامي فالجزاء، فنحن إذا في مثلث الرجوع الى اللّه، و كما آياته تشملها أحيانا: «هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (10: 56) و بعض منها بعضا كما آيتنا و: «اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (30: 11) «وَ الْمَوْتى‏ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (6: 36) حيث تدل على قاعدة مثلث الرجوع: موقف الحساب، و من ثم لا نجد تصريحة في الرجوع الثاني فحسب اللّهم إلّا لمحات: «قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا» (24: 64) حيث الإنباء بما عملوا بعد الرجوع الى اللّه هو رجوع الحساب بعد رجوع الحياة «أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» (50:) 3) و علّها صريحة في الثاني.

و ترى ان الرجوع الثالث بعيد عن الثاني و لذلك يعطف عليه بتفريع البعيد «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»؟.

أقول: نعم: «ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (6:) 60) و طبعا هو بعد زمني بالنسبة لنا، و اما اللّه فلا: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (5: 105) فلا مناحرة بين «ف و ثم» لاختلاف المقامين، ثم لا نجد «ثم» إلا في ثنتين بين إحدى عشر آية «1» مما يؤكد القرب إلهيّا، مهما كان بعيدا عندنا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). العشرة الاخرى هي: 3: 55- 5: 48- 5: 105- 6: 164- 10:

23- 29: 8- 31: 15- 39: 7- 6: 108- 31: 23.

ثم الثانية المذكورة فيها «ثم» «مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ» (10: 70).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 267

و هكذا نرى في آية قصيرة واحدة تفتح سجلّة الحياة كلها ثم تزوى و تطوى، معروضة في ومضة لقبضة الباري جلّ و علا، ينشرها من همدة الموت قبل أيّة حياة، ثم يقبضها بهدمة الموت بعد حياة، ثم يحييها مرة أخرى في الاخرى، ثم إليه ترجعون .. في استعراض سريع يرسم أدوار الموت و الحياة، مذكّرة للمغفلين الناكرين لقاعدة الحياة! ثم ينتقل بنا الى جوّ أوسع من هذه الحياة، في نعم وامضة رغم عامضة الحياة:

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (29).

هنا يرتفع بنا ربّنا من حمأة هذه الأرض و حياتها المغمورة المحصورة في معمورتها، إلى السماء و السماوات، و ليرفعنا عن هذه المحدودة فنجنح بأفكارنا و محاولاتنا و تصرفاتنا الى عليّات الكون، و لنعرف أنه تعالى و تقدس خلقنا لأمر عظيم، أعظم من خدمة الأرض المتعة و سماواتها، فانها كلها مخلوقة لنا، مستعبدا لها لصالحنا دون أن نعبد الآلة و نعشوا عن ذكر خالق الآلة و غايتها، رغم دعايات أنصار المادة، المنغمسين في نزواتها المنطمسين عن غاياتها، المحقّرين دور الإنسان فيها، فكرامة الإنسان و سيادته و استعلاءه على الكون لغاية معرفة اللّه، و الحياة مع اللّه، و طاعة اللّه، هي القيم القمة من وراء هذه الآيات.

«هُوَ الَّذِي خَلَقَ» و هل من خالق إلّا اللّه «خلق لكم»: الناس كل الناس- «لكم» كأصل و لسائر الخلق و حتى الجان كفرع.

و تراه «لكم»- فقط- تعنى هذا النسل الأخير؟ كما «وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً» (27: 6) «وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ» (55: 10) «الَّذِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 268

جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً» (2: 22) «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» (6: 97) «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً» (10: 67) «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا» (20: 53) «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ» (40: 79) «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا» (67: 15) «جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً» (71: 19).

فهل إن خلق الأرض و ما فيها، و جعلها مهدا و فراشا و مهادا و ذلولا و بساطا، و جعل النجوم و إنزال ماء السماء، و جعل الليل و النهار و ما إليها من حياة ارضية و مستفيدة من السماء، هي هي كلها فقط «للناس»؟ هذا النسل الأخير؟

فكيف إذا يهمل سائر من يستفيدون من الأرض و يفيدون، و منذ أن تهيأت الأرض للسكنى؟ أ فبناء و أثاث للناس هذا الناس، يخلق قبل خلقه بملايين السنين؟

لا يمنع الخطاب أن يستغرق كلّ الناس طوال الحياة الأرضية الصالحة لحياة الناس، إيحاء بان «الناس» ليس فقط هذا النسل الحاضر البادئ من آدم و زوجه، مهما اختلفت أنساله منذ صلوح الأرض لسكنى الناس، في عقلياتها و سائر درجاتها كما يلوح لنا من آية الاستخلاف.

و بما أن «الناس» بين مختلف الخليقة الأرضية هم الأساس القمة في الخلق، لذاك يختص بهم الخطاب تشريفا، و على هامشه الجن و سائر الخلق المستفيدين من الحياة الأرضية.

و كما قد يختص بنا الخطاب تشريفا لنا على سائر الناس، حيث يواكبنا نحن، إذ نزل القرآن في دورنا، و بينهما الخطاب لهذا النسل الأخير منذ آدم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 269

حتى القيامة الكبرى.

«خلق لكم»: كل أنسال الناس- النسل الأخير- الناس زمن الخطاب حتى القيامة- فان هذا الخطاب- و كثير مثله- يوّجه على غرار القضايا الحقيقية، الشاملة للناس ايّا كانوا و أيّان.

«خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً»: خلق لكم جميعا- ما في الأرض جميعا، فهو في ازدواجية الجمع، فكما الأرض بما فيها جميعا خلق لكم، كذلك هي لكم جميعا.

و ها هما قاعدتان فقهيتان من أعمها و أهمها في التشريع الإسلامي:

أصالة الإباحة في جميع الأشياء، و أصالة الاشتراك فيها.

«ما فِي الْأَرْضِ» يشملها و ما في ظهرها و بطنها و ما في جوّها، جمعا لما في الأرض الى الأرض، حيث «في» تعني الظرف، فظرف الأرض بمظروفها: بكل حواياها و زواياها، بكل أبعادها- ما صدق الأرض و ما فيها- إنها جميعا خلقت لنا جميعا.

و بما ان «لكم» تفيد الانتفاع، فهنا الغاية من خلق الأرض و ما فيها أن ننتفع بها كما نشاء بما نشاء و حيث نشاء و أنّى، حتى يأتينا من اللّه حظر في: كيف ننتفع و متى و أنّى و ممّا؟ و هي أصالة الإباحة في كافة التصرفات و الانتفاعات، و لكنها تلميحة كتصريحه أن هذه التصرفات محددة بحدود الحفاظ على المنافع الفردية و الجماعية، الفردية التي لا تضر بالمجتمع، و الجماعية التي تحافظ على منافع الأفراد: أصالة الفرد و المجتمع، و لكنما المجتمع هو الاوّل و الأولى إذا تناحرا، لمكان «لكم»! فحرية التصرف فيما في الأرض هي مباحة مسموحة ما لم تناحر حرية الآخرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 270

ثم و أصالة الاشتراك: «لكم جميعا» فخلق اللّه ليس لناس خصوص او اشخاص خصوص، و انما «لكم جميعا» أن تنتفعوا مما في الأرض جميعا.

فكما اللّه إله الناس جميعا دون اختصاص بناس دون ناس كذلك، رزقه هو لهم جميعا دون اختصاص، إلّا ان يختصوا بما يقدّمون من أفكار و أعمال، فلهم ما لهم بما قدموا دونما اشتراك، و لهم ما للجميع ما لم يقدموا دونما اختصاص.

إذا فالأرض بمائها و هواءها و كلاءها و معادنها و غاباتها، بما فيها و ما عليها و ما إليها، هي جميعا للناس جميعا، لا يحق لأحد ان يختص بنفسه منها شيئا إلّا ما عمل و كدح: «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ».

و الإقتصاد الإسلامي اختصاصي في وجهات الأعمال بحصائلها، و اشتراكي في خلق اللّه كخلق اللّه، رفضا ليمينية الإختصاص الظالم في كلّ شي‏ء، و يسارية الاشتراك الغاشم في كل شي‏ء، و إنما: اختصاص عادل و اشتراك عادل، دون الكلمات و العبارات و الدعايات البراقة، الجوفاء الخواء من الحقيقة، و إنما هو الحق كلّه و الحقيقة كلّها.

و لأن جميع ما في الأرض مخلوق لنا فلنا أن ننتفع منها باستخدام العلم و العمل، كدحا في سبيل الانتفاع مما هبانا اللّه، و لنعبد اللّه على منّه و إحسانه، و لماذا يسبقنا من لا يعرفون اللّه أو يكذبونه، ثم نحن المسلمين نعيش على هوامشهم و نحسب أننا نحسن صنعا! ..

و في الحقل الفقهي لا نفهم من «لكم» هنا كما في غيرها إلّا حلية الانتفاع مما في الأرض، دون ملكية لعين الأرض و الأرضيات، فإنها ليست من سعي الإنسان و لا يملك الإنسان- أيا كان- إلا ما سعى: «وَ أَنْ لَيْسَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 271

لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏ ..» ضابطة عامة تعم النشآت الثلاث: الاولى و الوسطى و الاخرى‏ «1».

و لأن الأرض «لكم جميعا» تستفاد ضابطة اخرى ان استثمارها ليس فوضى تستغله أكلة الأرض حيث يحرم الآخرون و هم شركائهم فيها! و إنما كلّ حسب حاجته و سعيه، و نصوص التحجير و الإحياء و التعمير «2» لا تعني- و ليست وجاه نصوص الآيات لتعني- أنها من اسباب ملكية رقبة الأرض، و فيها دلالات تناحرها تدليلا على ما تدل عليه آياتها،

«من أحاط حائطا على أرض فهي له» «3»

و

«من أحيا مواتا فهي له» «4»

و

«أيما قوم أحيوا شيئا من الأرض- او عمّروها- و عمروها فهم أحق بها و هي لهم» «5»

هذه لا تدل على أكثر مما تدل عليه آيتنا «خَلَقَ لَكُمْ» مع الاولوية الحاصلة بالإحياء و التعمير دون ملكية رقبتها، فانها ليست من سعي عمّارها حتى يملكوها، فانما يملكون ما سعوا لها

«و له ما أكل منها فان تركها أو أخربها فأخذها رجل من المسلمين من بعده فعمرها و أحياها فهو أحق بها من الذي تركها ..» «6».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» تشمل الكل و منها الاولى- و «أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏» تخص البرزخ، و «ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» تخص الاخرى.

(2، 3) هو النبوي العامي: كما في (ج 5 مفتاح الكرامة ص 24).

(4) صحيحه عبد الرحمن بن أبي عبد اللّه عن الصادق (عليه السلام) (وسائل الشيعة.

(5) صحيحة محمد بن مسلم عن الباقر (عليه السلام) ففيها (او) و في أخر (و)

(6)

صحيحة أبي خالد الكابلي عن الباقر (عليه السلام): وجدنا في كتاب على ان الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين، انا و اهل بيتي الذين أورثنا الأرض و نحن المتقون و الأرض كلها لنا فمن أحيى أرضا من المسلمين فليعمرها و ليؤد خراجها الى الامام من اهل بيتي و له ... فليؤد خراجها الى الامام من اهل بيتي و له ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 272

فاشتراكية الأرض لها مرحلتان، اولى و هي قبل ان يسعى لها تحجيرا او احياء و تعميرا، فليست إذا اولى لأحد، و ثانية هي بعد هذه الثلاثة او واحدة منها، حيث الاولوية تخرجها عن اشتراكية الانتفاع، فانه لمن استثمرها على حده، و لا تخرجها عن اشتراكية العين.

فان تركها مستثمرها دون عذر او حاجة كان لمن يحتاجها باستثمارها دون مشاكسة فيها، كما لو استثمر اكثر مما يحق لم يحق له إلّا قدره، و هو في الزائد عامل في الأرض ليس له إلّا اجرة المثل.

فحذار حذار على اكلة الأرض، فليس كما يزعمون أنهم يملكون مدّ أعينهم من ارض اللّه كما تمدهم أموالهم و أعوانهم، و انما لكلّ نصيبه حسب المكانة و المكان و الحاجة المراعاة فيها حاجات الآخرين، بالتحجير و الإحياء و التعمير، فلو حجّر دون إحياء، او أحيا دون تعمير مغبة استغلالها في غلائها زالت عنه هذه الأولوية المسموحة، و انتقلت الى من يستغلها لحاجته او حاجيات الآخرين.

و هاتان الضابطتان تسمحان لكل انسان ان يستفيد من ارض اللّه التي خلق لهم جميعا، كل كما سعى و قدر الحاجة، دون إجحاف بحقوق الآخرين، فلا تبقى أرض صالحة معطلة، و لا عاطل عن استثمارها و لا عامل- فقط- لمن يستمثرها، قضية العدل و النصفة و إعطاء كل ذي حق حقه، حيث تقتسم الاولويات بين الساعين قدر الحاجيات، ثم هم في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أكل منها حتى يظهر القائم ...

و هنا أحاديث اخرى تدلنا على انتقال الاولوية الى من يعمرها بعد الذي يهملها

كصحيحة معاوية بن وهب عن الصادق (عليه السلام): «أيما رجل أتى خربة بائرة فاستخرجها و كرى أنهارها و عمرها فان عليه فيها الصدقة فان كانت ارض لرجل قبله فغاب عنها و تركها فأخربها ثم جاء بعد يطلبها فان الأرض لله و لمن عمرها».

أ فلا يدل خروجها بخرابها عن ملكه على انه لم يملكها حين أحياها؟!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 273

الزائد كعمال لأنفسهم و سواهم على سواء.

و من حصائل هذا البحث أن الأرض- أيّة أرض- لا تملك و انما تملك منافعها المحللة لمن أحياها، دون رقبتها إذ ليست مما سعاه محييها، و القاعدة الحاصرة القرآنية: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» تحصر الملك فيما يحصل بالسعي، و تحسره عما سواه، و ليست الأرض سعيا لأحد إلّا اللّه، اللّهم إلّا منافعها لمن يحييها.

فان قلت: الأموال الموروثة او المهداة و التي تنفق في حلها هذه ايضا ليست مما سعى لها من يرثونها او يهدى و ينفق لهم.

قلنا: اجل، و لكن كونها لسعاتها يسمح لهم ان يورثوها و ينفقوها لمن يشاءون فيملكها غير سعاتها بما مّلكوها إياهم، قضية الملكية المطلقة لهم، فالمال- اي مال- إنما يملك بالسعي او التمليك، و ليست الأرض من سعي محييها، و لا يملكها أحد- حتى يملكها من يشاء- إلّا اللّه و لم يملّكها لناس خصوص و إنما «لكم جميعا».

«خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ ..»

و ترى أنّ خلق هذه الأرض بما فيها مقدم على خلق السماء؟ أقول:

نعم و أقول: لا! نعم: إنها خلقت قبل تسبيع السماء، فقبل نجومها و مصابيحها و منها الشمس! و لا: فانها خلقت مع دخان السماء او بعده ام قبله: لا ندري، حيث انفجرت المادة الأمّ «الماء» فأزبدت زبدا خلقت منه الأرض و زملاؤها:

الست الاخرى، و ثار منها دخان هو المادة السماوية الأولى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 274

فهنا الإشارة: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ» كتصريحه أن خلق الأرض بما فيها هو قبل تسبيع السماء، و كانت السماء وقتئذ سماء، أ مع الأرض ام قبلها؟ هنا لا ندري، و تجد التفصيل الأصيل في «فصلت» كما فصلناه على ضوء الآيات الثلاث‏ «1».

«ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» هنا هي رواسيها و بركاتها و أقواتها ثم من بعد ذلك سوّى السماء سبعا و هي دخان لم تسوّ بعد سماء و لا سماوات فللسماء مراحل ثلاث: 1- الدخان- 2- السماء مبنية واحدة 3- السماوات السبع.

و اللائح من آية البقرة و الآيات من فصلت أن الأرض خلقت برواسيها و أقواتها قبل خلق السماء سبعا، و إذ كانت دخانا: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ‏ ... فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ».

و آيات النازعات تؤخر إخراج ماء الأرض و مرعاها و إرساء جبالها- بدحرها- تؤخرها عن بناء السماء، و لأن خلق الأرض ببركاتها و أقواتها كان قبل تسبيع السماء، فلا يعني بناء السماء في النازعات- قطعا- تسبيعها، فانما تطوير غازها الى سماء واحدة هو أقل تقدير لبناءها: «أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها. رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها. وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها. أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها. وَ الْجِبالَ أَرْساها. مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ» (79: 33).

بناها من أصلها الثاني «الدخان» المنبثق من المادة الأمّ «ماء» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ ...».

(2) ياتي تفصيل البحث عن «ماء» المادة الام في آيتها في سورة هود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 275

و ترى أن هذا البناء الاوّل للسماء هو قبل تكملة الأرض أم بعدها؟

آيات «فصّلت» تقدّمها على هذا البناء، و آيات النازعات تؤخرها عنها، فهل هنا تنازع بين فريقي الآيات؟

أقول: هنا تكملة للأرض في أدوارها الأربعة بخلق رواسيها و بركاتها و تقدير أقواتها هي كلها قبل بناء السماء سماء إذ هي دخان كما في آيات «فصلت».

و هناك تكملة أخرى- بإرساء جبالها و إخراج ماءها و مرعاها- هي بعد بناء السماء كما في النازعات، إذا فلا تناحر بين الآيات.

و حاصل الترتيب التكويني، 1- خلق الأرض ببركاتها و أقواتها كامنة فيها و الجبال غير راسية في متونها 2- بناء السماء برفع سمكها فإغطاش ليلها و إخراج ضحاها- 3- دحو الأرض فإخراج ماءها المكنون و مرعاها، و إرساء جبالها المجعولة عليها فيها 4- تسوية السماء سبعا بعد هذا البناء و ذلك الخلق، و قد توحي بفصل بناء السماء بين تكملتي الأرض: «فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» أن تأتي الأرض للتكملة الثانية و السماء لبناءها، ثم تسبيع السماء بعد هذا البناء و تلكما التكملتين.

او قد تكون بناء السماء هي هي دخان السماء، فقبلها او معها خلق الأرض ببركاتها و أقواتها و الجبال من فوقها، و بعدها دحو الأرض بليلها و ضحاها بإخراج ماءها و مرعاها و الجبال- من فوقها- أرساها في متنها.

إذا فإتيان السماء لتسبيعها و إتيان الأرض للتكملة الثانية اما هيه؟ «1» و ترى ماذا تعني‏ «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ»؟ أقول: معاني الاستواء تختلف حسب اختلاف مواردها، متعدية باداة و سواها، فمنها الاعتدال و التمام:

«وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً» (28: 14) و الاستقامة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيل البحث الى الآيات في فصلت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 276

«فَاسْتَوى‏ عَلى‏ سُوقِهِ» (48: 29) و الإحاطة: «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏» (20: 5) و الاستقرار: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ» (23:) 28) «لِتَسْتَوُوا عَلى‏ ظُهُورِهِ» (43: 13) و التماثل: «هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» (26: 76) و إتمام التدبير على سواء فيما عديت بإلى كما هنا: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ»: أتمّ تدبيره الى تسوية السماء سبعا دونما تكلف رغم أنها سماء.

و معنى المساواة مضّمنة فيها في كافة أحوالها، فالاستواء الى السماء هو إتمام تدبيره الى السماء، على سواء في ذلك بين الأرض و السماء فانما هما وجاه خلقه و تدبيره سواسية سواء، دون عييّ و لا لغوب.

و لماذا «فسواهن»؟ و السماء واحدة لا يرجع إليها ضمير جمع! و جمع السماء و هي السبع لا تسوّى سبعا، اللهم الا تحصيلا للحاصل!.

أقول: السماء واحدة قبل تسبيعها، و لكنها لمشارفتها الى سبعها اعتبرت كأنها سبع «فسواهن» السماء المشارفة لسبعها «سَبْعَ سَماواتٍ» «وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» و لذلك فهو على كل شي‏ء محيط و بكل شي‏ء قدير.

و طالما تنادى آيات من الذكر الحكيم- المستعرضة لخلق الكون- أن السماوات سبع، فقولة القائلين أنها بليارات حسب عديد الكرات، او أنها الأجواء السبعة للمنظومة الشمسية، إنها قولة خاوية هراء، فان سماوات المفرطين هناك و المفرّطين هنا كلّها مطويات كنقاط في السماء الاولى من السبع حسب القرآن و قد فصلت في «فصلت» «1» كما و ان توجيه خلق ما في الأرض بتقديره دون إيجاده رغم المصارحة من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نفصل البحث حول السماوات في الآيات من فصلت و سائر اياتها، كل حسب دلالاتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 277

متظافر الآيات، و زعم أن إيجاده مؤخر عن السبع السماوات، في اتفاق مزعوم، إن ذلك مما يضرب به عرض الجدار «1» فالقرآن بنفسه وجيه لا يقبل التوجيه، و إنما علينا توجيه أفكارنا الى مغازي آي الذكر الحكيم!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الآلوسي نقل الامام الواحدي عن مقاتل و اختار المحققون و لم يختلفوا ان جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع بل اتفقوا عليه، إذا يجعل الخلق في الآية بمعنى التقدير لا الإيجاد، او بمعناه و يقدر الارادة يعني أراد خلق ما في الأرض جميعا، و كذلك الخلق و الجعل في آيات فصلت!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 278

[سورة البقرة (2): الآيات 30 الى 33]

وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (30) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (31) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 279

آيات اربع تبين موقف هذا الإنسان- السامي- بعد سائر أنساله في الأرض، أن جعله اللّه خليفة في الأرض، بعد ما خلق له ما في الأرض كأنه هو فقط إنسان الأرض، و بعد أن أعطاه المعرفة التي يعالج بها خلافة الأرض، لئلا يخلد إلى الأرض و يتبع هواه و يفرط عن هداه، بل يتابع صراطه الإنساني الى اللّه، فيحقق في نفسه خلافة اللّه، فلنعش ردحا مع هذه الخلافة السامية، بعين البصيرة و انشراح الصدر، في ومضات الاستشراف، مطّلعين على ساحته الأعلى، متطلعين إلى المشية العليا، حيث الجعل رباني فليكن الخليفة ربانيا، مثلا أعلى للرب آية لربوبيته، لا مثلا ينوبه سبحانه سبحانه! وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (30)

آية يتيمة منقطعة النظير في تصريح الخلافة الأرضية لهذا الإنسان، مهما تلمح لها و تلمع آيات أخرى في إشارات .. يحق لنا أن نجدّ السير بهذه اليتيمة بكل إمعان و إتقان، في كلّ لفظة أو لمحة، و لكي نحصل منها على معرفة منقطعة النظير.

«و إذ» ترى ما هو المعطوف عليه هنا؟ لا نجد هنا معطوفا عليه مذكورا يناسبه، فليكن سرا بين اللّه و رسوله غير مذكور لنا، حيث الخطاب هنا له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ذاتيا لا لنا .. «فاذكر ..»

«و اذكر» إذ قال ربك ..

«إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ» و لماذا «ربك» لا «رَبِّ الْعالَمِينَ»؟ علّه لأن له الحظ الأعظم من هذه الخلافة، فهو الخليفة الأعظم و الإمام الأقدم، ابن لآدم الاوّل صورة و أبوه سيرة و سريرة!:

و إني و إن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي، كما و أعظم الأسماء التي علمها اللّه آدم هو الحقيقة المحمدية كما تأتي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 280

«... قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»: و «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» (38: 71) «... مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ: مَسْنُونٍ» (15: 28) ف «بشرا من طين من صلصال من حما مسنون»، هو الخليفة في الأرض مهما اختلف هذا الخلق عن ذلك الجعل حيث خلق بشرا من طين ثم جعل إنسانا خليفة.

ثم ترى و ماذا تعني الخليفة عامة و ماذا هنا؟ إنها من الخلف: أن ياتي كائن خلف آخر ينوبه في كونه أو كيانه أو صفاته و أفعاله، و كأنه هو بعده، مهما اختلفا في درجات، فلا بد إذا من مشاركة بينهما تهمّه الخلافة، و تاء الخليفة للمبالغة، أنه يتابع ما للمستخلف عنه بجد بالغ و عزم فارغ، او يزيد عنه كما هنا، او ينقص او يساوي كما في غيرها، على اشتراك ذلك المثلث من الخلفاء في المجانسة مع المستخلف عنه كونا و كيانا قضية الخلافة في حقها و حاقّها.

فهل إن هذا الإنسان- إذا- خليفة اللّه؟ أن يخلف اللّه في ألوهيته في أرضه، كأنه غائب عن الأرض، فالإنسان له خليفة و نائب في الأرض؟

«وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ» فلما ذا الخلافة في الأرض؟

و له الحكم في الأرض كما في السماء، و ليس الرسل إلّا مبلغين عن اللّه، لا خلفاء أو وكلاء أو نواب عن اللّه! فلما ذا الخلافة في الأرض؟

و لو أنها الخلافة الإلهية في الأرض لكانت الملائكة المخاطبون هنا أحرى أن ينهموها، فلما ذا السؤال او الاعتراض: «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ»؟ فهل إن خليفة اللّه في فهم ملائكة اللّه يفسدون و يسفكون؟! و هم أنوار عارفون، لا يتهمون الرب فيما يخفى، فكيف فيما يجلو!

«ما علم الملائكة بقولهم أ تجعل فيها .. لو لا أنهم قد كانوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 281

رأوا من يفسد فيها و يسفك الدماء» «1»

فالخليفة هنا إنسان يخلف إنسانا مضى ام من ذا، لا أنه يخلف اللّه و سبحانه اللّه ان يخلفه انسان ام من ذا.

لا نجد تصريحة و لا إشارة قرآنية على خلافة اللّه هذه، اللّهم إلّا ان يجعل اللّه إنسانا خليفة عن سالفه، فقد يسمّى خليفة اللّه و لا تعني أنه يخلف اللّه و معاذ اللّه، و انما الذي نصبه اللّه نائبا يخلف مثيله في منصبه، نبوة أو إمامة أم ماذا: «يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ» (38: 26) «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» (6: 26) «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» (27: 62) فهنا خلافة خاصة كما لداود و أضرابه، و هناك عامة كما للناس أجمعين عن ناس قبلهم، او بعضهم عن بعض.

فمن المستحيل خلافة اللّه نفسه لايّ من العالمين و حتى الحقيقة المحمدية «ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ» و «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» فهو هو لا يخلف اللّه في ايّ من شؤون الالوهية و الربوبية حتى و لا في بلاغ الأحكام، و انما هو رسول، لا خليفة و لا نائب و لا وكيل، «وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا» (17: 54) «وَ كَفى‏ بِرَبِّكَ وَكِيلًا» (4: 171) «أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» (25: 43) فإذا لا يكون أفضل المرسلين و اوّل العابدين وكيلا لرب العالمين فهل هو بعد خليفة عنه، و هي أسمى المنازل و قمة المراحل؟ أو هل يكون آدم بذريته كلهم خلفاء اللّه؟ و ليس أصفياءهم وكلاءه! أم إنه خليفة الملائكة حتى يستجيش مشاعرهم و ضمائرهم لحد الاستفهام كأنه اعتراض: «أ تجعل ..»؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 74- العياشي عن هشام بن سالم قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 282

و هم عارفون أنفسهم انهم معصومون‏ «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (16: 50) فلا يستخلف عنهم ربهم إلّا كأمثالهم أو أطوع منهم و أرقى! فلما ذا يسألون «أ تجعل ..» او قد كان يكفيهم‏ «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ..» دون تقصير، فلما ذا الاستخلاف!.

كما و أن الملائكة لم يكونوا و لن- من سكنة الأرض حتى يخلفهم خليفة في الأرض: «قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا» (17: 95) «وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ، وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها» (43: 61) فجعل الملائكة في الأرض مستحيل حتى تقوم الساعة، فكيف يخلفهم إنسان الأرض و فيم يخلفهم؟ أ فيما هم يؤمرون في السماء، عزلا لهم عن مقاماتهم فهم عزّل؟ أم فيما يرسلون به إلى الأرض؟ ام ماذا؟! سبحانك اللّهم هذا بهتان عظيم! او هم خليفة الجن، المفسدين في الأرض و مسفكين؟ و هم قد خلقوا قبلهم!: «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ» (15: 27)؟.

و لكنهم بعد لم ينقرضوا، او لم يبعدوا عن الأرض حتى يخلفهم فيها إنسان الأرض، ثم و لا نعرف خلافة للإنسان عنهم فيما لهم من حياة الأرض، فكيف يكون الإنسان إذا خليفة عنهم في الأرض؟! أو هم بنو الإنسان، حيث يخلف بعضهم البعض: «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ» (6: 165) «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ» (7: 69) «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ» (17: 74) و آية الخلافة: «إني جاعل ..» تعني خلافة آدم الاوّل و من ثمّ بنيه، فليكن هو الخليفة الأصل ثم فروعه الفروع، و ان «خليفة» تعني- على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 283

اكثر تقدير- هذا النسل أجمع: بأصله و فرعه، و على أقل تقدير: آدم و زوجه، فلا بد هناك على أية حال من مستخلف عنه قبل هذا النسل.

أم هم خليفة من سلفهم و انقرض من نسل او أنسال ترابية عاقلة مكلفة أفسدت في الأرض و سفكت الدماء، فأهلكهم اللّه بأن قامت قيامتها و انقرضوا، فأبدلهم اللّه بهذا الإنسان و جعله خليفة عنهم؟ ..

و هكذا يبدو من آيتها هذه و سائر آياتها و رواياتها ..

ما علم الملائكة بقولهم: «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ» لو لا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها و يسفك الدماء «1».

فهذه السابقة السيئة التي رأوها ممن سلف من الخليقة الأرضية هي التي استجاشتهم حتى سألوا، معترضين على الخليفة الأرضية: أ تجعل ..

تكرارا لما سلف من إفساد و سفك، و ما هي الحكمة إلّا مزيد الصلاح و العبادة «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» و هم لا يسبحون و لا يقدسونك! فلم يكن يقنعهم‏ «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» لو أنهم خليفة اللّه، إذ كانوا هم كذلك يعلمون أنه لا يعصى اللّه فلم يكونوا ليسألوا حائرين.

و لا- لو أنهم خليفتهم أنفسهم، إذ هم يعلمون من أنفسهم ما يعلمون من نزاهة و طهارة، فكيف كانوا إذا يسألون؟.

فانما يقنعهم‏ «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» ما ينبههم من غيب هذه الخليفة، خلاف ظهوره الذي مضى مثله، من إفساد و سفك، فلم يقل «إنهم لا يفسدون و لا يسفكون» حيث هما معروفان متداولان في تاريخ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 74- العياشي عن هشام بن سالم قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 284

الإنسان، و إنما «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»: من ميّزات هذه الخليفة في البعض من مصاديقها و أفرادها، من مثل عليا لا تصل أيدي و لا أفهام الملائكة إليها، وقيها جبر كامل لمن يفسدون فيها و يسفكون الدماء من أفرادها.

و كما «عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ...» و لكي يروا النموذج الاول من هذه الخليفة انه يعلّمهم و هم تلاميذه، فضلا عن الأسماء التي علّم آدم و هم أشباح من الحقيقة المحمدية و سائر الخمسة! فلأنهم خفيت عنهم حكمة المشيئة العليا في استخلاف هذه الخليفة، بما عرفوا ممن سبقها من إفساد و سفك و فتك، سألوا سؤالهم، فأجابهم اللّه بما يعلم من خير أكثري مع هذا الشر الجزئي! هذه الجيوش من البراهين القرآنية نستجيشها لإثبات هذه الملحمة الغيبية التي تتفرد بها آيتنا اليتيمة هذه: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» أنها خلافته لمن سبق من أنسال أمثاله، مع ما تساندها من روايات متظافرات مهما عارضتها أخرى مختلفات و مختلقات، فالأصل هو كتاب اللّه موردا و مآلا، جملة و تفصيلا: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» (7: 170).

فقد عاش قبل هذا الإنسان نسل أو أنسال ترابية عاقلة مكلفة «1» لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد تكون بعض الأجساد المكتشفة الضاربة الى عشرات الآلاف السنين قبل هذا النسل، قد تكون من الأنسال السابقة، دون ان تكذّب تاريخ هذا النسل.

ثم و هؤلاء الذين عاشوا قبل هذا النسل قد يسمون بالنسناس و هم ناس أشرار كما

في تفسير نور الثقلين 1: 58 عن علل الشرايع عن امير المؤمنين علي (عليه السلام) في حديث الخلافة: ثم قال للملائكة انظروا الى اهل الأرض من خلقي من الجن و النسناس فلما رأوا ما يعملون فيها من المعاصي و سفك الدماء و الفساد في الأرض بغير الحق عظم ذلك عليهم- الى ان قال-: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فقالت الملائكة»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 285

نعرفها، عرفتها الملائكة من ذي قبل فضاقت بها ذرعا ففرحت بانقراضها، فرحة العبد لمولاه إذ يجده يعبد و لا يعصى، ثم تضايقت من جعل خليفة لها، دون ان تحسب حسابا لخلفيات سؤالها فجهّلهم اللّه: «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» أن قد تكون هذه الخليفة أعلى منكم في عبادة ربها، مهما كان فيها ببعض أنسالها فساد و سفك للدماء.

و ترى أن سؤالها هذا يتنافى و عصمتهم، أن اعترضوا على اللّه لماذا الخليفة؟ و اغتروا بما عرضوا من تسبيحهم و تقديسهم؟ و قد كذبوا كما قال اللّه: «أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» و هم كما يعرفنا اللّه: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (21: 26) فكيف سبقوه بقولة السؤال دون نظرة الإيضاح من اللّه و «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (16: 50) فكيف لم يخافوه إذ سألوه، و كيف فعلوا ما فعلوه و لم يؤمروا؟.

إن السؤال ليس نصا و لا ظاهرا في الاعتراض، فإنما سألوا استيضاحا إذ جهلوا كيف‏ «جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»؟ ثم و ذكر النعمة و الرحمة ليس اغترارا بل و التحديث بها مكرمة «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» و كان ذكرها تتمة السؤال: إن كان جعل الخليفة للعبادة فنحن لها، و ان كان غير ذلك فبين لنا.

ثم‏ «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» و ان كان تلميحا بالكذب، و لكنه كذب جاهل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«سبحانك ا تجعل فيها ...».

و

فيه (59) عن كتاب التوحيد للصدوق عن أبي جعفر (عليه السلام) حديث طويل يقول في آخره: لعلك ترى أن اللّه انما خلق هذا العالم الواحد؟ او ترى ان اللّه لم يخلق بشرا غيركم؟ بلى و اللّه لقد خلق الف الف عالم و الف الف آدم أنت في آخر تلك العوالم و أولئك الآدميين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 286

لا كذب متعمد، فإنهم سألوا جاهلين كأن فيهم الكفائة فلما ذا هذه الخليفة؟ فقد كذبوا قاصرين لا مقصرين، و هكذا كذب يشمل العالمين أجمعين: ان يجهلوا كثيرا مما يعلمه رب العالمين، فمنهم من يبرزه بسؤال و سواه كهولاء الملائكة، و منهم من لا يسأل كالرعيل الأعلى من النبيين.

ثم و من نقد الملائكة الخليفة الأرضية: «يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ» و مقابلتهم لهذا النقد بما لهم: «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» نعرف أن الشر كله يختصر في الإفساد و السفك، و الخير كله في التسبيح بالحمد و التقديس للّه، فليكن صحيحا مصدّقا عند اللّه إلّا في الآخرين، أن المعرفة هي القمة في الخير، التي تنتج تسبيحا بالحمد و تقديسا أعلى و أحرى.

فالإفساد في الأرض يشمل كل فساد فردي يفسد فاعله، و جماعيّ يفسد مجتمعه، نفسيا أم ماديا، و من أظهره جمعا بينها سفك الدماء فانه جماع الإفساد.

و لماذا تسبيح بالحمد و ليس التسبيح و ليس الحمد و التسبيح و الحمد؟

أقول: لأن تسبيحه فقط دون حمد نفي بلا إثبات، و النفي ذريعة الإثبات، و الحمد دون تسبيح إثبات ناقص لأنه إثبات بحدود المعرفيات و وصف له تعالى محدود «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» و كذلك التسبيح و الحمد دون رباط، حيث التسبيح ينفي و الحمد لا يثبت ما يليق بساحته.

فأما التسبيح بحمده، فأن نحمده مسبحين منزهين لساحة قدسه عن إثباتياتنا المحدودة، و إنما: عالم- ليس يجهل. قادر- ليس يعجز.

موجود- ليس بمعدوم .. و هكذا في كافة صفاته الثبوتية، ألّا نصفه في حدود أفكارنا بما نعرفه و نأنسه من صفات و إثباتات، و إنما نسبحه بحمده:

ننزهه في حمدنا إياه عما هو لزام حمدنا من حدود و تخيلات، فانما إثباتاتنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 287

تنحو منحى نفي كل ما عندنا و في عالمنا و حدود تصوراتنا و إدراكاتنا عن ساحة قدسه، فالصفات الثبوتية تؤوّل الى السلبية من نوع آخر، فهو إذا «خارج عن الحدين حد الإبطال و حد التشبيه» لا منفيّ إطلاقا، و لا مثبت له شبيه، فما أجمله و أحلاه: «التسبيح بالحمد»! ثم‏ «وَ نُقَدِّسُ لَكَ» تعني ما تعنيه و «نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ» و زيادة: أننا نعيش تقديسا لذاتك و صفاتك و تصرفاتك، و في أنفسنا تعبدا لك و خشوعا، و في أفعالنا اتباعا لك و بخوعا.

و لكن ترى هل تكفي حياة التسبيح بحمد اللّه و التقديس للّه لحدّ ثابت و مقام معلوم: «وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ» لسان قال لهم يكشف عن حالهم الثابت إذ تدوم دونما تقدّم.

ثم و هل تكفي هذه دون معرفة لائقة بجناب قدسه؟ و في هذه الخليفة الأرضية من هم فوقهم في هذه و تلك رغم أنهم سماويون؟

إذا فالجواب: «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» هو على إجماله كلّ الجواب، عن سؤال الإفساد و السفك، و رعونة التسبيح بالحمد و التقديس، بما علم آدم الأسماء كلها، و بما أنبأهم آدم الأسماء كلها:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (31) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33).

و ها نحن مع الملائكة ننظر بعين البصيرة، و نسمع بأذن صاغية، و نعي بقلوب واعية في و مضات الاستشراف، ما هذا السرّ الإلهي الذي اختصه اللّه بهذه الخليفة الأرضية، التي تخضع لديها رسل السماء الملائكية، و هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 288

بذلك يسلّمها مقاليد الخلافة الأخيرة السامية، و كرسي التعليم للملائكة؟! إنه كله في‏ «وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ ...» فانظر ماذا ترى! فهل الأسماء هنا هي- فقط.- أسماء الأشخاص و الأشياء؟ و «هم» و «هؤلاء» لا تعنيان إلّا ذوات عقلاء! «ثُمَّ عَرَضَهُمْ‏ ... بِأَسْماءِ هؤُلاءِ»! و من ثمّ و ما قيمة علم هذه الأسماء و كثيرون يعلمون كثيرا من الأسماء و ليسوا بأفضل ممن لا يعلمونها، و لو أن الملائكة علّمتها كما علّم آدم لكانت مثل آدم كما آدم أنبأهم بها بما أمر اللّه.

فليس علم هذه الأسماء مما يتفاضل فيه، و لا أنه جناح من جناحي العلم باللّه و تقوى اللّه، و هذه الأسماء إنما يحتاج إليها في تفاهم مسمياتها، و الملائكة يتلقونها دون وسائط، و لا يحتاجونها كما يحتاجها الإنسان في الحاجيات الجماعية الأرضية! أو انها المسميات، حيث الاسم من الوسم‏ «1»: العلامة- الدلالة، و دلالات الأسماء اللفظية على المدلولات هي من أضعف الدلالات، فأعلى منها دلالات الذوات و الأفعال و الصفات على مدلولاتها فيما بينها، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا احد وجهى الاسم أصلا و قيل أصله سمو من السموّ: العلوّ، لان تصغيره سمي، فلو كان من وسم: العلامة، لكان تصغيره و سيم، و العلامة انسب له معنى، و العلوّ لفظا، و علّهما معنيّان أحيانا و أحدهما أحرى، او يقال ان الاسم السمو يناسبه معنويا كما اللفظي فانه يعرف به ذات الشي‏ء، فبه يرفع المسمى عن حضيض المجهول، و لكل وجه، و الأوجه ان السماء من السمو: العلو و الرفعة، و الاسم من وسم:

العلامة، او و من السمو ايضا.

ثم الاسم قد يكون مأخوذا من «شما» آرامية و عبرية، و هي تستقل عن مادة السماء:

الرفعة، و ذكرها في مادة السمو غفلة عن تحقيق اصل الكلمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 289

دلالات الكائنات كل الكائنات على مكوّنها بدرجاتها، ثم دلالات الرعيل الأعلى من رجالات اللّه: بذواتهم و صفاتهم و تصرفاتهم و إرشاداتهم على اللّه ثم الذروة العليا منهم و هي الحقيقة المحمدية العظمى فإنها الآية الكبرى و أعظم أسمائه الحسنى بين الممكنات، بجنب ما للّه من سائر الأسماء الحسنى، «أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» (17: 110) «وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها» (7: 17).

فأحرى بهم هؤلاء أن تعنيهم الأسماء التي علّمها آدم كلها: أنهم أنبياء اللّه و رسله.

و لكنما التعلّم لا يناسب الذوات، و إنما هو التعريف، ثم و يبقى السؤال كيف يفضّل آدم على الملائكة لأن اللّه علّمه دونهم، ثم كلّفه أن ينبئهم بها؟

في الحق إن الأسماء هنا مجمع الاسمين ألفاظا و ذوات، و لأن بداية المعرفة كانت بالنسبة للألفاظ صح التعليم، مهما انتهت الى معرفة الذوات، و قد تبين هنا لهذه الخليفة فضيلتان اثنتان:

الأولى لآدم حيث علّم الأسماء ألفاظا و ذوات ثم لم ينبئ الملائكة بالذوات و إنما «بِأَسْماءِ هؤُلاءِ» و إن كانت تكشف أشباحا من هؤلاء الذوات، و لكنه قليل بجنب ما عرّفه آدم من الذوات، تدليلا على أن الملائكة ليست بالتي تتمكن أن تعرف او تعرّف حقائق هذه الذوات، بيانا لكيانهم بما خلق اللّه: أنه محدود بما حدّد اللّه، دون هذه الخليفة التي منها آدم، فليس علمه محدودا لحدّ، فهم: «ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ» و الخليفة: «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» و الثانية أن هؤلاء الذوات هي الأصيلة في هذه الخلافة، مهما كانت لأشباههم في الصورة الإنسانية تخلّفات و ترذّلات من إفساد و سفك دماء، فان هؤلاء الأشباح لا تشبه أشباهها في المعنى مهما شابهتها في الصور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 290

لذلك‏ «وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها»: أسماء هؤلاء الخلفاء كلها، و ذواتهم بأشباحهم كلهم، تجنيدا و عرضا لآدم أوّلا لكي يعرف موقعه أنه يحمل في صلبه هذه الأمانات الغالية، و للملائكة لكي يعلموا: «إِنِّي أَعْلَمُ» من هذه الخليفة «ما لا تَعْلَمُونَ» فهناك البون الشاسع بينكم و بينه لحدّ لا تعرّفون حقائقهم إذ لا تتمكنون، حيث هم في الذروة العليا، و ما أنتم بها حتى تحيطوها معرفة و علما، فانما أنبئتم بأسمائهم لكي تتعرفوا حسب المستطاع إلى ذواتهم. قدر ما تعلمون: «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»! فالأسماء الذوات هي المعروضة هنا على ملائكة السماوات،: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ» دون «عرضها» حيث العرض للذوات، و دون «عرفهم الملائكة» حيث العرض لمنظر من الأشباح، لا حقائقها كلها- لان هؤلاء من غيب السماوات و الأرض: «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و هم- او معظمهم- رجالات اللّه: النبيين و المرسلين: حقائق عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب: غيب السماوات و الأرض، كشف اللّه لآدم منها أسماء و ذوات، و أنبأ الملائكة بأسمائها بآدم، و لكن ترى: إنباء الأسماء فقط دون اي كشف عن حقائقها؟ إذا فكيف عرفت الملائكة فضلهم، و عرفت فضل آدم بما علّمهم دونهم!.

فليكن في عرض هؤلاء الذوات على الملائكة، و إنبائهم بأسمائهم- ليكن في هذا الإنباء و ذلك العرض تعريف مّا بالذوات، يكفي لهم إقناعا: أنهم هم الأفضلون في الفضائل كلها، لحد لا يحيطون- و حتى- معرفة بجنابهم و علما بذواتهم كما يحق.

فهنا تعليم و عرض و إنباء خص آدم بتعليم الأسماء و الذوات، و هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 291

فوق العرض و الإنباء، حيث خصّ بهما الملائكة، فقد أنبأت بأسمائها بعد ما عرضت عليهم ذواتها، إلّا أن هذا الأنبياء و العرض ما علّمها الملائكة قدر ما علّم آدم بالتعليم! فعرضها أن عرّفهم شبحا من أشباحهم يستشرفونها من بعد و لمّا، و قد كان العرض بحيث تستعرض منه أسماء المعروضين لمن يؤهل، و إلّا لم يكن معنى ل: «أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» لو لا أن العرض ينبئهم!.

ثم و إنباء أسماءها زادتهم معرفة، و لحد الإقناع‏ «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»: إنهم أعلى منكم محتدا و في التسبيح و التقديس، دون إحاطة على هذه الحقائق النورانية التي تخطف الأبصار، فلا تبصر منها إلّا بحدود الإبصار، فلكلّ من العرض فالإنباء بالأسماء دوره في تعريف ذواتهم قدر إمكانية الملائكة، و كما أن تعليم الأسماء عرّف آدم الذوات و الأسماء قدر إمكانيته فوقهم، لحدّ أصبح ينبئهم بأسمائهم!.

ذلك! و لم يكن آدم وقتذاك نبيا حيث‏ «عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ‏- بعد ذلك- فَغَوى‏ ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 122) و هذا الاجتباء ثم الهدى هما النبوة بعد إذ تاب عما عصى.

«إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» في بداية الجواب، كان له دور الإقناع دون شهود، و لكنما العرض و الإنباء لهما دور الإقناع بشهود، حتى أتى موقع التنديد التذكير: «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»! فقد عجزت الملائكة من استنباء أسماء هؤلاء بعد عرضهم عليهم، و كان العرض بحيث ينبئ، و عجزت أن تعرف حقائق هؤلاء الذوات المقدسة: الخلفاء، و كان الإنباء بعد العرض مما يعرّف، و قد خص آدم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 292

(عليه السلام) بتعليم الأسماء بالذوات دفعة واحدة، مما يدل على رجاحة ميزانيته عليهم‏ «1»، و على أفضلية هؤلاء الخلفاء كذلك.

و بطبيعة الحال حصلت لهم أشباح من المعرفة بهذه الذوات حسب الدرجات، و لكنما الحقيقة المحمدية لم تكن تظهر لهم و لا لآدم كما يحق، فقد بهروا و تحيروا منها، و استدلوا بما عرفوا مما دونها على تلكم القمة العليا «2» و تعبدت لهم الطريق لكي يسجدوا لآدم كما أمروا! ... «فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في دعواكم‏ «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» و أنكم الأفضلون من هذه الخليفة- و «صادقين» في سؤالكم‏ «أَ تَجْعَلُ فِيها»؟

فها أنتم لم تعرفوا أسماءهم بعد ما عرضوا لكم بأشباحهم فكيف تدّعون؟ .. ثم و بعد أن تعرفوا أسماءهم فتزدادون بهم معرفة بعد ما أنبأكم آدم، فتعرفون من هم، فأين هم و أين أنتم؟! «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ‏ ... وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ» مما تقولون‏ «وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»: و قد كتمه اللّه عنا إلّا ما بينه عن إبليس.

فقد

«عجزت الملائكة على قربهم من كرسي كرامته و طول ولههم إليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في معاني الأخبار و كمال الدين و تمام النعمة و عن الصادق (عليه السلام): ان اللّه عز و جل علم آدم اسماء حججه كلها ثم عرضهم و هم أرواح على الملائكة فقال: أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» بأنكم أحق بالخلافة في الأرض‏

(2)

تفسير البرهان 1: 73 عن تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) في آية الأسماء قال: اسماء أنبياء اللّه و اسماء محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و الطيبين من آلهما- ثم عرضهم-: عرض محمدا و عليا و الائمة على الملائكة، اي عرض أشباحهم و هم أنوار في الأظلّة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 293

و تعظيم جلال عزه و قربهم من غيب ملكوته أن يعلموا من أمره إلّا ما أعلمهم و هم من ملكوت القدس بحيث هم، و من معرفته على ما فطرهم عليه أن قالوا: «سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا» «1».

فيا لهذا النسل الأخير الإنساني من مكرمات جعلته خير الأنسال الترابية- لا فحسب! فقد فضّلته على ملائكة السماء، فلا أفضل منه في تاريخ التكوين: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» (95: 4) فليس في الخلق أقوم منه، اللهم إلّا أن يماثله من لا نعرفه: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (17: 70) فمن هذا القليل الذي يزامله في هذه القوامه الحسنى؟ لا ندري!.

ثم اللهم إلّا أن لا يعرفوا كيانهم فيردون إلى أسفل سافلين، بعد ما خلقهم اللّه في أحسن تقويم، في ذلك التعليم و الإنباء و العرض عرض لكيان هذه الخليفة في معرض القياس على الملائكة، و لكي يعلموا أن هذه الخليفة الترابية البشر، المخلوقة من تراب من حمإ مسنون، هي أعلى من ملائكة السماوات! و لكي يعلم الإنسان من هو، فليجدّ بالسير الى مثله العليا.

نكات مستدركات حول هذه الآيات:

1- «إني جاعل» دون «خالق» توحي أنه جعل خليفة بعد خلقه لا بخلقه، و علّ بداية خلافته حين نبّئ بعد ما «عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏ ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» و إن كان تعليمه الأسماء و إسجاد الملائكة له قبل ذلك، فقد كفى إثباتا لخلافته بذريته الأنبياء تعليمه الأسماء- ذاتيا- و إنبائهم و عرضهم الأسماء حملا لهؤلاء الخلفاء ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 55 عن التوحيد للصدوق خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 294

2- «أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»: في‏ «مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ» فانه مهما حصل فهو أقل ممن مضى، و ليس معذلك ممن يعنى من «خليفة» فانها هم الأسماء التي سوف تعرض عليكم و تنّبئون بأسمائها.

او «صادقين» في‏ «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» كأنكم أنتم الأعلون في هذا المسرح.

او «صادقين» في معرفة هذه الخليفة، أن تدفعكم للحكم عليها و لأنفسكم، أم ماذا 3- «قالُوا سُبْحانَكَ»: ننزهك عن أن نقول بغير علم، أو أن تجعل فيها من يفسد فيها .. أو أن نعلم قبل أن نعلّم-:

4- «لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا» توحي أن علوم الملائكة أنما هي بالتعليم الإلهي و حيا دونما محاولة منهم او تحصيل، كدحا في تعلّم او تفكير، إلّا وحيا، و من ميّزات الإنسان عدم انحصار علومه بهكذا وحي، فله استخدام مختلف الوسائل للحصول على علوم مهما قلت او كثرت، و مهما اخطأ فيها لو سلك غير سبلها.

فعلم الوحي في الملائكة و الناس على سواء في عدم تكلف التحصيل، ثم للإنسان علم زائد يحصل له بتحصيل، و هو ليس للملائكة دون وحي إلّا جهلا، و لكنه للإنسان علم بعد علم الوحي، مهما تورّط في مجاهيل.

«لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا» اعتراف ثان بقصورهم وجاه هذه الخليفة: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ» دون سواك، تعلم ما تفعل و تفعل ما تعلم: «الحكيم» في أفعالك كلّها كما هنا و إنّما نحن الخاطئون! هنا يحسن بنا عرض نظير القصة من الأصل السرياني لكتاب إدريس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 295

النبي (عليه السلام) في تعيين أفضل المخلوقين نقلا عن آدم (عليه السلام) أنني رأيت خمسة أشباح نورانية مكتوبة أسمائهم على العرش في غاية العظمة و الجلال و الجمال و الكمال و الحسن و الضياء و البهاء، حيث أغرقتني أنوارهم في الحيرة ..

قلت: يا رب! من هؤلاء، فإذ أنا ناظر الى العرش أرى هذه الأسماء: يا پارقليطا- محمّد. إيليا- علي. طيطه- فاطمة. شبّر- حسن. شبّير- حسين.

إني لهويوه أنا لبرين و ارخ لا الشماى و لا أل ارعا و لا البردس و لا الكهين و لا الشمس و لا السعر:.

«لولاهم لما خلقتك يا آدم و لا السماء و لا الأرض و لا الجنة و لا النار و لا الشمس و لا القمر».

هليلوه لت شوق منّي محمّد انوّي دأله:

«هللوني فانه لا إله إلا أنا و محمد رسولي» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه البشارة ينقلها جديد الإسلام في كتاب أنيس الاعلام ج 2 عن النسخة السريانية من كتاب إدريس (عليه السلام) في مكتبة الآثار في لندن المطبوعة 1895 ص 514- 515 بالتفصيل الآتي.

فيما كان إدريس النبي ببابل في معبده، ينقل هذه القصة بين جمهور من أصحابه:

اختلف ولد أبيكم آدم (عليه السلام) يوما في: من هو أفضل الخليقة؟- فقال بعضهم: انه أبونا آدم إذ خلقه اللّه بيد قدرته و نفخ فيه من روحه و أمر ملائكته بتعظيمه و تكريمه و جعله معلمهم و خليفة في الأرض.

و قال آخرون: الملائكة أفضل من أبينا فإنهم لم يعصوا اللّه و لن يعصوه، و أبونا آدم عصاه فأخرجه اللّه و زوجه من الجنة، مهما تاب عليه و هداه و وعد المؤمنين من ذريته الجنة.

و قال ثالثة إن اشرف الخلق هو الملك العظيم جبرئيل أمين رب العالمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 296

[سورة البقرة (2): الآيات 34 الى 39]

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (34) وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39)

.. معركة مصيرية دائبة تنبثق بين خليفة الخير: آدم، و بين خليقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

زادت خلافاتهم فقال آدم: اسمعوا حتى أخبركم بمن هو أفضل خلق اللّه:

لما خلقني اللّه و نفخ فيّ من روحه جلست فرأيت: ...

و هكذا نرى في إنجيل برنابا 39: 14- 28 و لكنه لم يأت إلّا بذكر الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) (راجع كتابنا: رسول الإسلام في الكتب السماوية).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 297

الشر: إبليس، عند ما يؤمر الملائكة بالسجود لآدم، ندرس هذه المعركة بأجواءها و أرجاءها و مخلّفاتها و معداتها من خلال الآيات التي تستعرضها تصريحا او تلميحا و قد صرح بها في مواضيع سبعة «1» هذه منها:

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ‏ 34 «و إذ» قد تكون عطفا على‏ «وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ» ثم و على المحذوف في‏ «وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» إذ .. «وَ إِذْ قُلْنا» بيانا لأهم ما كانوا يكتمون من الاستكبار عن السجود لآدم، كما حصل لإبليس‏ «وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» ظهور العصيان إذ كان يكتم كفره.

و ترى متى قال للملائكة اسجدوا لآدم؟ و كيف أمروا أن يسجدوا لآدم؟ و إذ لم يكن إبليس من الملائكة: و «كانَ مِنَ الْجِنِّ» (18: 50) فلا يشمله أمر الملائكة، فكيف أبى و استكبر، فهل عما لم يؤمر؟! إنهم أمروا أن يسجدوا لآدم قبل خلقه: «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ» (38: 72) فموقع الأمر قبل خلقه، و موقع السجدة بعد خلقه، و قد تكون بعد ما علّم آدم الأسماء كلها لتكون السجدة أمكن و أمتن، او تكون قبله لتكون المحنة أتم، و لكن فلنسكت عما سكت اللّه عنه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المواضيع الستة الاخرى هي: «وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» (7: 11) «وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» (17: 61) «وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏» (20: 116) «وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18: 50) «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ» (15: 29) و 38: 72).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 298

و أما السجود لآدم؟ فهل المسجود هنا آدم عبادة؟ و «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (12: 40) فلا يمكن أن يأمر بعبادة غير اللّه، فانها تسوية ضالة ظالمة بين اللّه و سواه: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98) ثم و لا طائل تحت هذه العبادة اللّهم إلّا دفعا لعبادة غير اللّه، اتباعا لملائكة اللّه! او أنها تكريم لخليفة اللّه، ان يسجد لآدم إكراما له و احتراما؟ فهكذا الأمر! فهل يأمر اللّه بهكذا تكريم لسواه، و فيه إهانة لساحته، و تشريك له معه في كرامته، و تسوية له في حرمته، و نيل من محتده، فلم يكن اللّه ليسمح أو يأمر باحترام لآدم أو من فوقه، و فيه اخترام لساحة قدسه و الاحترام درجات قمتها احترام العبادة فلا يحق إلّا للمعبود! كما و آيات السجود تختصه- عبادة و احتراما- باللّه، و ما «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» من والدي يوسف له، إلّا كما سجد الملائكة لآدم، إذ تعنيان معنى سواء، دون أن تفسر إحداهما الأخرى!.

فعدم جواز التسوية بين العالي و الداني، فضلا عن اللّه و خلقه، إنه من المستقلات العقلية، و السجود هو الغاية القمة من مراحل العبادة عبادة، و من الحرمة احتراما او شكرا، اللهم إلّا إذا كان بقصد الاستهزاء فليس إذا سجودا، و مسرح البحث هنا هو سجود العبادة و الاحترام دون اللعبة و الاخترام، و هو- لا شك- منحصر في اللّه، منحسر عمن سوى اللّه مهما كان عظيما، فلا عظيم بجنب اللّه! أ ترى ان اللّه يأمر بما هو ضلال و ظلم في نفسه، و لكي يرّغب الى عبادة غيره او احترامه كمثله سواء.

و القرآن في عشرات الآيات يصرح باختصاص السجود باللّه أيّا كان:

«إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 299

(7: 206) أ ترى انه تعالى يمدح الملائكة في اختصاص السجود به ثم يأمرهم ان يسجدوا لآدم، فانما الخالق هو الذي يحق أن يسجد له دون سواه، فلا تعني‏ «اسْجُدُوا لِآدَمَ» إلّا ما تعنيه‏ «وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» بفارق ان هذه مطلق السجود للّه، و تلك هي سجود الشكر حيث «لآدم» و «لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» (41: 37): فتوحيد العبادة للّه لزامه توحيد السجدة للّه، و لأنه الخالق دون سواه و «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً» (72: 18) «1».

ثم و لم يسبق لأحد من أنبياء اللّه، و لا لنبي الأنبياء محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان يسمح بالسجود او الركوع له، و مناط السماح- لو جاز لآدم- هو فيه أقوى بما لا يحصى! و لقد كذّب كونه تحية الأنبياء «2» إذ

«ما ينبغي لبشر أن يسجد لبشر» «3»

و

لا «لأحد أن يسجد لأحد من دون اللّه يخضع له خضوعه للّه و يعظم به السجود كتعظيمه للّه» «4»

لا و حتى أن يقبّل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع لتفسير الآية الى ج 29: 193- 194 تجد بحثا فصلا عن السجود

(2)

روى احمد بن حنبل في مسنده 4: 381- ان معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: يا معاذ! ما هذا؟ قال: ان اليهود تسجد لعظمائها و علمائها و رأيت النصارى تسجد لقسسها و بطارقتها، قلت ما هذا؟ قالوا:

تحية الأنبياء فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): كذبوا على أنبيائهم.

(3)

الجصاص 1: 35 عن عائشة و جابر بن عبد اللّه و انس ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ما ينبغي لبشر ان يسجد لبشر و لو صلح لبشر ان يسجد لبشر لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها «و رواه ابن ماجه و احمد بن حنبل في مسنده 4: 381 و 6: 76 و 5: 228 و روى ما في معناه ابو داود في سننه- نكاح: 40.

(4)

تفسير البرهان 1: 81 عن تفسير الامام الحسن العسكري قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ... و لم يكن سجودهم لآدم انما كان آدم قبلة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 300

رجل ولي من أولياء اللّه، فهل‏

«بقي شي‏ء- بقي شي‏ء» «1»

للّه، لو سوينا بينه و بين عباده احتراما فضلا عن عبادة! كما

هوى رجل على قدميه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): تنح! دع عنك أفاعيل الأعاجم‏ «2»

و ما إلى ذلك من مواقف مشرفة للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من آل الرسول، مستنكرين الركوع او السجود- مهما كان احتراما دون عبادة لغير اللّه-، و لهم! و هم من نعرفهم بفضلهم على آدم و من فوقه، فكيف يختص آدم بسجود الملائكة، ثم يحرم من هم أدنا منهم ان يسجدوا لمن فوقه، ان هي إلّا قيلة فارغة هراء، و اللّه منها براء! أم كان آدم قبلة لهم في سجودهم للّه؟ و القبلة لا يسجد له، و إنما يسجد إليه، و هنا السجود لآدم لا الى آدم! ثم لا تفضيل له عليهم بالسجود إليه كقبلة، كما الرسول يسجد إلى القبلة التي هي دونه! و السجدة لآدم تحمل تكريما له على الملائكة و فيهم إبليس القائل:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لهم يسجدون نحوه للّه عز و جل و كان بذلك معظما مبجلا و لا ينبغي لأحد ... و لو أمرت أحدا ان يسجد هكذا لغير اللّه لأمرت ضعفاء شيعتنا و سائر المكلفين من شيعتنا ان يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(1).

في الوافي باب المعانقة و التقبيل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قيل له اعطني يدك اقبلها فأعطاها ثم وجهك فأعطاه، ثم قال: و رجلك قال: هل بقي شي‏ء ثم قال: لا يقبل وجه احد و لا يده إلّا رسول اللّه او من أريد به رسول اللّه- و في حديث آخر: إلّا رسول اللّه او وصي رسول اللّه.

(2)

في حديث لا اذكر مسنده‏ ان أعجميا أراد ان يهوى على قدمي رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): تنحّ! دع عنك أفاعيل الأعاجم.

و

في تفسير الرازي 2: 212 عن الثوري عن سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد ان يسجد له فقال علي (عليه السلام): اسجد للّه و لا تسجد لي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 301

«أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ..» (17: 62)! و ان كانت سجدة الشكر لنعمة لا تجعلها أفضل من الشاكر، اللهم الا إذا كان نعمة روحية من تعليم او نبوة! أم كان السجود للّه شكرا على ما أنعم عليهم بمعلم كآدم، كما تقول:

سجدت لولدي- لرزقي- لصحتي .. و المسجود هو اللّه لما أعطاك و حباك! فاللّام إذا للغاية «اسجدوا» للّه «لآدم» حيث خلقه اللّه لكم معلما داعيا إليه و سراجا منيرا كما «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» (12:) 100): خروا سجدا للّه ليوسف حيث وجدوه حيّا عزيزا، فليس يعني السجود هنا و هناك لآدم او يوسف أنه المسجود له، و انما مسجود لأجله المعبر عنه ب «له» «لآدم»! فاللام الأولى للمسجود له و الثانية للمسجود لأجله‏ «1» تحذف الاولى حين تحذف اعتمادا على الضرورة العقلية و القرآنية و سائر كتابات السماء أن لا سجود إلّا للّه، عبودية أو احتراما أم شكرا.

و قد يجوز أنهم سجدوا إليه كقبلة، سجودا للّه: «اسْجُدُوا لِآدَمَ»:

للّه شكرا لما خلق آدم، متوجهين إليه كقبلة، حيث كونه وسيطا بينهم و بين اللّه في سجودهم و سائر عباداتهم للّه.

«انما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه للّه و كان بذلك معظما مبجّلا» «2»

ام انهم سجدوا عليه كتربة يسجد عليها؟ و لكنما الملائكة ليست لتسجد على شي‏ء فانها ماكنة السماء لا ساكنة الأرض! و ليس هنا السجدة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لسان العرب 3: 204- و لأهل العربية وجه آخر و هو ان يجعل اللام في قوله:

و خروا له سجدا- و قوله: رايتهم لي ساجدين- لام من اجل: فالمعنى: و خروا من اجله سجدا للّه شكرا.

(2) تفسير البرهان 1: 81 عن تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 302

«على» بل السجدة ل! «1» و لكن «ل» في السجود، دون «الى» او «على» ينحّي هذا السجود عن هاتين، اللّهم إلّا معنيّا ضمنيا ما صلح معنويا كالقبلة، دون كونه كتربة يسجد عليه! او أن لامه للانتفاع «اسجدوا لينتفع آدم»: اخضعوا لأمر اللّه في تحقيق مصالح آدم لحاجياته الحيوية نفسية و مادية، و كما نراهم هكذا يعملون، من ملائكة الوحي و المدبرات أمرا أم ماذا.

أو أنه يحمل مثلث المعنى: أن آدم كان قبلة و المسجود هو اللّه سجدة شكر للّه، و خضوع في صالح آدم لأمر اللّه، و الآية تتحملها كلها، ما دام المسجود هو اللّه، دون آدم، و لان «سجد» لازم فليتعد بشي‏ء، فلام «للّه» هي للتعدية .. «اسْجُدُوا لِلَّهِ» و اللام في غير اللّه لغيرها كما في سجدة الشكر «لآدم و ليوسف» إذ تعنيان: اسجدوا للّه لآدم او ليوسف! و مهما يكن من شي‏ء ففي هذا السجود لآدم مكرمة له و شكر للّه أن يسجد له للّه لما أنعم، لمّا أنعم، فله الشكر بما أنعم و ألهم.

و هل يا ترى أن الملائكة كيف سجدوا؟ لا شك انهم تطامنوا في غاية التذلل و الخنوع، و اما كيف فلا ندري، فلكل كائن هيئة خاصة لسجوده‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من اغرب ما نراه في هذا المسرح اختلاف الشيخين الأعظمين المفيد و الطوسي في ماهيته الشيطان؟ اختلاف التناقض- قال في البيان: كان إبليس من الملائكة بدلالة استثناءه من جملتهم و هو المروي عن أبي عبد اللّه و الظاهر في تفسيرنا و اخبارنا.

و قال الشيخ المفيد إبليس كان من الجن و لم يكن من الملائكة و قد جاءت الأخبار بذلك متواترة عن أئمة الهدى و هو من مذهب الامامية.

أقول: ليتهما استندا فيما ذهبا اليه الى كتاب اللّه، دون ان يقعوا في فخ دعوى التناقض بين متواتر الأخبار!- هامش الصفحة 303.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 303

كما يناسبه، ام دون هيئة و انما حقيقة السجود كما «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ» (13: 15) «وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ» (55: 6) و لا شك ليس يسجد كل الكائنات كما نسجد بوضع الجباه على الأرض، و لا سيما في السجود التكويني كرها ان ذواتها خاضعة لارادة اللّه، مسيّرة في قبضة اللّه دونما تمنّع، لا فحسب، فحتى الإنسان حيث يؤمر بغاية الخضوع أحيانا دون هيئته الخاصة كما الخضوع للقرآن- التام-: «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ» (84: 21) حيث تفرض السجود عند قرائة القرآن ككلّ، و هو لا شك غير سجدة التلاوة في آياتها الخاصة، حيث الموضوع هنا القرآن كلّه، فلتكن غاية الخضوع استماعا و إنصاتا و تفهما و تصديقا و تطبيقا، و هي هنا السجدة كما قد تكون السجدة حالة المشي‏ء، فلا يمكن ان تكون الهيئة الخاصة في الصلاة كما امر بنو إسرائيل حين دخول القدس:

«وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً» (2: 58) فغاية الخضوع حالة المشي‏ء الدخول، هي التطامن الى الأرض كما يستطاع، و هو أركع من الركوع، و أرفع من السجود!.

فالسجود بكافة صنوفه في هيئات خاصة او دونها، له معنى واحد:

«غاية الخضوع»: طوعا او كرها بأرجائه و أجوائه، مهما اختلفت شاكلته و حالاته و غاياته، اللهم إلّا هتكا و هزأ! إذا فلا تهمنا و تعنينا أن الملائكة كيف سجدوا و يسجدون، و بعد ما سكت اللّه عنها، و انما أنهم خضعوا للغاية و تذللوا للنهاية بما لا يحق إلّا للّه، فسبحان اللّه عما يصفون!.

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ...

لا شك أن إبليس لم يكن من الملائكة كونا في أصله و هيئته مهما كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 304

منهم في كيانه و ظاهر عبادته، فقد «كان من الجن ففسق عن امر به» و لو كان من الملائكة لم يفسق عن أمر ربه: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ».

كما و أن الملائكة أيضا تعترف أن الجن لا تسانخهم و لا تجانس:

«وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ- قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ» (34: 41) و من ثم فإبليس له ذرية: «أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي» (18: 50) و لا ذرية إلّا بين ذكر و أنثى، و الجن منهم نساء و منهم رجال: «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ» و الملائكة لا ذكور فيهم و لا إناث: «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ» و إذ لا إناث فيهم فلا رجال، أم- على أقل تقدير- ليست لهم ذرية فإنها بين رجال و إناث!.

فترى إذ لم يكن إبليس من قبيل الملائكة فكيف يشمله أمر السجود الخاص بالملائكة: «وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ»؟ و كيف يعتبر عاصيا إذ لم يسجد، أ فعصيانا دون ذنب؟! إنه أمر و لعله مرتين، إحداهما: «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» (7: 12) كما و هو معترف بالأمر: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» (17: 61) و إلّا كان يعتذر و يعترض بعدم الأمر! فلقد شمله أمر الملائكة- كما و علّه اختصه امر ثان- شمله حيث كان في العبادة بكيان الملائكة، و حتى في مكان الملائكة، فعدّ منهم من حيث الملائكية الروحانية، مهما اختلف عنهم في غيرها، عبد اللّه معهم كما كانوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 305

يعبدون، ردحا بعيدا من الزمن نفاقا عارما كافرا، حتى أظهر مكنونه إذا أمر «1» «أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» (39: 74): كان إذ كان مع الملائكة من الكافرين المنافقين.

و هنا الاستثناء متصل، و على انفصالها فالوجه انه لم يكن منهم لا كونا و لا كيانا، و لكنه إذ أمر شخصيا بالسجود: «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» اعتبر هنا في ردف المأمورين و ليس منهم في غيره، و علّ الفائدة هنا أتم، إذ الاستثناء المنقطع تفيد الاستغراق: لم يبق منهم احد إلّا سجد، فلم يعص منهم احد، اللّهم‏ «إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18: 50): و أما هم: «فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ» (15: 30) مما يؤكد استغراق الأمر بالسجود.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين (1: 55) عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سئل عما ندب اللّه الخلق اليه أدخل فيه الضلال، قال: نعم و الكافرون دخلوا فيه لأن اللّه تبارك و تعالى امر الملائكة بالسجود لآدم فدخل في امره الملائكة و إبليس، كان مع الملائكة في السماء يعبد اللّه و كانت الملائكة تظن انه منهم و لم يكن منهم، فلما امر اللّه الملائكة بالسجود لآدم اخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد فعلمت الملائكة عند ذلك ان إبليس لم يكن منهم فقيل له (ع) فكيف وقع الأمر على إبليس و انما امر اللّه الملائكة بالسجود لآدم فقال: كان إبليس منهم بالولاء و لم يكن من جنس الملائكة و ذلك ان اللّه خلق خلقا قبل آدم و كان إبليس منهم حاكما في الأرض فعتوا و أفسدوا و سفكوا الدماء فبعث اللّه الملائكة فقتلوهم و أسروا إبليس و رفعوه الى السماء فكان مع الملائكة يعبد اللّه الى أن خلق اللّه تبارك و تعالى آدم.

أقول: لعل الجمع بين معرفتهم لإبليس و عدمها ان الذين قاتلوه هم عرفوه دون سواهم.

ثم أقول: و في معناه ان إبليس لم يكن منهم، رواه في اصول الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبي عبد اللّه (ع) ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 306

«فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ»: و هناك تفاصيل و تعاليل من قياس إبليس لمّا ترك السجود لآدم، أجمل عنها هنا و فصّلت في سائر آياتها الست الأخرى، ندرسها في طياتها، و هي في صيغة واحدة: رد على اللّه و ردّة عن شرعة اللّه بقياس فيه إبلاس: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (7: 12) «قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (15: 33) «أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» (17: 61) «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏» (21: 16) «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18: 50) و هنا نجمل كما أجمل اللّه و ما أجمله شمولا «أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ»:

أبى ان يسجد كما أمر اللّه، و استكبر على آدم و على اللّه، على آدم حيث عدّه أدنى منه لان جنسه- كما زعم- أعلى من جنسه، و على اللّه حيث رد حكمه بقياس، تجهيلا للّه و ترفّعا عليه كأنه أعلم منه في مناطات الأحكام، فليس إذا كفره لأنه ما سجد، حيث التاركون من المسلمين للسجود كثير و ما هم بكافرين، إذ يأبون دون استكبار، و إنما لاستكباره.

لرده حكم اللّه و محادّته للّه، و ما أكفره من يحاجّ اللّه، فانه ليس فقط تكذيبا للّه، بل و ترفعا و طغيانا على اللّه، فهو أنحس من ايّ شرك او كفر او إلحاد، و لذلك فهو زعيم الضالين أجمعين إن «إبليس» كلما يذكر فهو زعيم الشياطين، طالما الشيطان يعمه و سائر الشياطين، و إن أخطر مواقفه و أكفرها هو رده على رب العالمين، فاختص في موارده ب «إبليس»: إحدى عشر موضعا من الذكر الحكيم، طالما الشيطان يذكر في (68) و الشياطين في «17» زائدا على جنوده الشياطين باسميه في (62) موضعا: ثنوي الاسم و ثالوثي الموقف:

إبليس- شيطان- شياطين: بشخصه و حزبه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 307

و الإبلاس حزن معترض من شدة البأس، و قطع، و انقطاع حجة، و حيرة، و قنوط، و قطع رجاء، و انكسار، و حزن، و إيقاع في البلس:

الالتباس.

و إبليس يجمع في نفسه جميع هذه المعاني لاسمه: حزنا على ما كرّم عليه آدم و طرد، و قطعا للجنة و الناس من الوصول الى مأمولهم، مع انقطاع حجته أمام اللّه و أمام الخلق، و حيرة فيما تورّط فيه و وقع من هوّات، و قطع رجاء لنفسه عن رحمة اللّه و لغيره أيضا عن مغفرة اللّه، و انكسار في كافة الحقول الدعائية أمام عباد اللّه، و حزن مما يجاهدون في سبيل اللّه، و إبلاس لهم فيما يعتنقون من شريعة اللّه، و كل ذلك تجمعها «أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» إن إبليس يبلس كما المجرمون مبلسون يوم الدنيا و يوم الدين: «حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ» (44: 6) «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ» (30: 12) و لكنما إبليس زعيمهم هو الأصل في الإبلاس كما إفعيل مبالغة في مادته، و الإبلاس هنا هو الإياس، فانه آيس عن رحمة اللّه و يؤيس عن رحمة اللّه ليجلب اكثر عدد ممكن إلى حزبه، ألا فتيقظوا يا أولي الأبصار! وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (36) قصة الجنة هذه تذكر هنا و في أخرى: «وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 308

رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ، فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ، قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ، قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ، قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ» (7: 25) و ثالثة في طه: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏. فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏، فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏. قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏» (20: 123).

مواضع ثلاثة تذكر فيها قصة جنه آدم، كما و ذكرت قصة المعركة المصيرية بين إبليس و آدم في سبعة هذه منها، معركة تفتح للغاوين السبعة أبواب الجحيم كما ذكرت في سبعة، ندرس الثلاثة هنا و نترك السبعة الى محالها، و في الهامش عرض الاعتراضات السبع الابليسية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الفخر الرازي: 2/ 236: حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول كتابه المسمى بالملل و النحل عن ماري شارح الأنا جيل الأربعة، و هي مذكورة في التوراة على شكل مناظرة بينه و بين الملائكة بعد الأمر بالسجود، قال إبليس للملائكة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 309

و في هذه القصة مسارح للبحث و التساءل ندرسها على ضوء المثلث من آياتها، تاركين الأقاويل و الروايات المتناقضة التي لا تلائمها، كما هو دأبنا في تفسيرنا «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إني اسلم ان لي إلها هو خالقي و موجدي و هو خالق الخلق لكن لي على حكمة اللّه تعالى اسئلة سبعة:

الأولى: ما الحكمة في الخلق لا سيما إن كان عالما بان الكافر يستوجب عند خلقه الآلام؟.

الثاني: ثم ما الفائدة في التكليف مع انه لا يعود منه ضرر و لا نفع و كل ما يعود الى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟.

الثالث: هب انه كلفني بمعرفته و طاعته فلما ذا كلفني بالسجود لآدم.

الرابع: ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلم لعنني و أوجب عقابي مع انه لا فائدة له و لا لغيره فيه و لي فيه أعظم الضرر؟.

الخامس: ثم لما فعل ذلك فلم مكنّني من الدخول الى الجنة و وسوست لآدم؟.

السادس: ثم لما فعلت ذلك فلم سلطني على أولاده و مكنني من إغوائهم و إضلالهم؟.

السابع: ثم لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني؟ و معلوم ان العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا! ..

هكذا زين لإبليس سوء تفكيره و الجواب كلمة واحدة:

«لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» حيث المسئول تنديدا ليس إلا لجاهل او العامد الخاطئ و الظالم المفتاق، و أما الغني الحميد و العالم الذي علمه لا يبد فلا يسأل إلا تفهما! ثم الحكمة في الخلق هو اظهار لطفه و رحمته و إبراز عطفه و نعمته، فما لمن بدّل نعمه اللّه نقمة ان يعترض على ما أتاه اللّه من نعمة.

ثم التكليف ليس لفائدة الى اللّه من دفع ضر أو جلب نفع، و انما العائدة الى المكلفين و استكمالا للهدف من خلقهم‏ «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ» و تحصيل الكمال لنا دون سعي بطالة و عطالة و هي خلاف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 310

(7: 17) فعلّنا نكون ممن يصلح و لا يفسد في آي الذكر الحكيم.

فما هي جنة آدم؟ و لماذا أدخل فيها إذا كانت سماوية و هو خليفة أرضية؟ و ما هي الشجرة المنهية؟ و كيف النهي؟ و كيف يجوز العصيان من الخليفة المفضّلة على الملائكة و هو نبي؟ و كيف استطاع إبليس أن يزلّهما و هو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله؟ و من هم المأمورون بالهبوط:

«اهبطوا»؟ و ما هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه؟ أم ماذا من أسئلة حول هاه القصة المهمة التي تستعرض بداية ظهور الإنسان و حياته.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحكمة.

ثم التكليف بالمعرفة و الطاعة لزامه الابتلاء بالأمر و النهي، و منه السجود لآدم إظهارا لفضله، رغم أنه أضله، فليرغم بذلك جزاء عما أضل.

و ليس العذاب و اللعنة إلا من خلفيات العصيان أيا كان دونما ابتغاء فائدة للّه ام لغيره و إنما جزاء وفاقا هو العصيان بنفسه في ظهور حقيقته، و لكيلا يسوّي بين المحسن و المسي، و ليتحذر كل سيّئ.

و في تمكينه لدخول الجنة تمكين بلا تسيير لاقتراف المعصية، فلو لم يمكّن العاصي في عصيانه لم يفرّق بين المطيع و العاصي و هذا ظلم و تسليطه على ولد آدم ليس تسليط التسيير، و انما تخيير دون الزام، لا في إغواء و لا إهداء، و حجج اللّه البالغة كافية لولد آدم تركا لطاعة إبليس، و في ذلك التسليط ابتلاء يجعل من المدعين الايمان مخلصين و غير مخلصين، و لتمييز الصالح عن غيره، فعند الامتحان يكرم المرء او يهان.

و في إمهاله إملال و إدلال، و ليظهر مكنون كفره كما هو، و يظهر مدخول النيات و الطويات لمن يدعون الايمان.

فلقد أغلقت أبواب جحيم إبليس السبعة بكلمة واحدة «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 311

1- جنة آدم؟

ترى إنها جنة الخلد؟ و كما يفهم من إطلاقها دون قرينة تصرفها عن وجهها؟

1- و جنة الخلد هي خلد دونما شرط الأكل من شجرة خاصة منها، فكيف عصى آدم ربه فغوى طمعا فيها: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏. فَأَكَلا مِنْها،» (20: 121) و آدم أعرف بها منا إذ دخلها، فلو كانت هي الخلد لم يزلّ للحصول عليه بالأكل من شجرة الخلد و ملك لا يبلى! 2- و أن‏ «فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» دونما استثناء، و قد نهي آدم فيها عما اشتهت نفسه! 3- و أن الداخل فيها ليس بخارج عنها: «لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ» (15: 48) و قد مسّه نصب و أهبط عنها، و هم‏ «خالِدِينَ فِيها أَبَداً» (5: 119) «لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ» (9: 21):

4- و ان الكافر محروم عنها و نادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم اللّه قالوا إن اللّه حرمهما على الكافرين (7: 50) و إبليس كان من الكافرين! 5- و ان الخلد هي جنة الآخرة، لا يدخلها احد قبل الآخرة، فكيف دخلها آدم و زوجه في الأولى و قبل أن تقوم القيامة!.

6- و أنها ليست دار شريعة و تكليف و قد كلّف آدم فيها! 7- و أنه لا يدخلها إلّا من آمن و عمل الصالحات و جاهد و صابر: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» (3: 142) و لا يعرف لآدم عمل يستحق به الجنة قبل دخولها و لا موقف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 312

للمصابرة قبل معركة الشيطان!.

8- و انها لا تزلف لأهله إلّا عند القيامة: «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» فكيف يدخلها آدم قبل إزلافها و قبل ابتلاء التقوى!:

فلدخول جنة الخلد التي لها ثمانية أبواب، ثمانية أبواب شرحناها، و لم يدق آدم حينذاك و لا بابا واحدة فكيف دخلها؟! ام كانت هي الجنة البرزخية؟ 1- و لا دخول فيها قبل الموت عن الحياة الدنيا و كما تشهد لها آياتها: «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ»:

2- و لا يخرج الداخل فيها ما دامت السماوات و الأرض: «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (11: 108).

3- و لا يدخلها الداخلون إلّا بأبدان تناسبها هي البرزخ بين الآخرة و الأولى، دون الأبدان الأولى! إذا فلتكن هي من جنان الدنيا، و ترى أنها من جنان الدنيا الأرضية؟ أم السماوية؟

و الأرضية منها ترفضها آياتها: «وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» و لا هبوط إلّا من أعلى الى ادني، ثم و لا تدل‏ «اهْبِطُوا مِصْراً» على أنها المعني منها، حيث القرينة الأرضية هنا حاكمة دونها، و تفسير آية بأخرى ليس أن تفسرها بما فسرت الثانية مع فارق قرينة فيها دونها، فانه من ضرب الآيات بعضها ببعض، و هنا قرينة قاطعة أن الهبوط كان من جنة في السماء:

«قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ. قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ» حيث الأرض المستقر فيها هي كلّ الأرض بجنانها وجاه السماء، و فيها حياة و موت و خروج منها، دون الجنة التي كان آدم فيها، و أن في الأرض الشقاء أيا كانت دون هذه الجنة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 313

«فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏، وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏» و في الأرض بجناتها جوع و عرى و ظمأ وضحى! إذا فلتكن هي من جنان السماء، المتوفرة فيها مواصفاتها التي ليست في جنان الأرض أبدا.

و هل خلق آدم و زوجه فيها و من ترابها ثم أسكنا فيها استمرارا لكونهما؟ كما قد توحي له: «وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ»؟

و السكون لا يخص الاستمرار فيما كان، و قد يلمح للدخول، فلا يقال للمكوّن في مكان: اسكن فيه، فانه لا محالة ساكن فيه ما لم ينقل عنه، و إنما يقال: ابق فيها، فالسكون فيها هو الدخول، و كما توحي له خلافته الأرضية منذ خلق: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها».

إذا فهو مخلوق في الأرض ثم منقول منها الى جنة في السماء، علّها جنة المسيح (عليه السلام) التي رفعه اللّه إليها، مما يدل أن الحياة الارضية تختلف عن حياة الجنة الدنيوية في السماء، «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏، وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏» و بصيغة واحدة انك فيها لا تشقى: «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏».

فلتكن فيها حياة بلا شقاء، بلا جوع و لا عرى و لا ظمأ و لا ضحى، فلتكن فيها أحياء و سعداء لا يعصون اللّه ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون.

و ترى كيف صعد إليها آدم و حواء ثم كيف هبطا؟ القرآن ساكت عنها، فلنسكت عما سكت اللّه عنه.

2- خليفة الأرض كيف يسكن جنة السماء و لماذا؟

إن آدم- دون شك- خلق لهذه الأرض بحياتها الشقية البلاء منذ اللحظة الاولى، و لكنه لا بد له من تجربة و استعداد، إيقاظا لقواه المكنونة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 314

و إبرازا لسوئاته المواراة، و معرفة لشيطانه الغاوي، تدريبا له على تلقي الغواية، و تذوّق النهاية، و تجرّع الندامة، و اللجوء المكين إلى ملاذ أمين.

فنسيان العهد، و وسوسة الشيطان في الشجرة المنهية، و الصحوة بعد السكرة، و الندامة بعد المعصية، التي بدأت لآدم و زوجه في الجنة، إنها مثال التجربة البشرية المتكررة في الحياة الأرضية، فليستعد آدم و زوجه لمعركة الشيطان المصيرية الدائبة على هذه الأرض و ليعرف أن الشيطان لا يكاد يتخلى عنه في الجنة فكيف له في الأرض، فليعدّ عدته و عدّته لمعترك هذه الساحة بسلاح اليقظة حتى لا يقع في فخّه، ثم التوبة لو اعترضته اللمم، تلقيا من اللّه عهده فلا ينساه، و معرفة عدوه فلا يهواه! و تعرّفا إلى كلماته ليتوب عليه‏ «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

إن تجربة الجنة توحي بأن حياة الخليفة الأرضية هي حياة الجنة لو لا الخطيئة، و سوف تنتهي إلى الجنة إذا تداركها بالتوبة، كما و تتدارك حياته الأرضية ايضا بالتوبة، و أن الطريق إلى التوبة مفتوحة في يسر و بساطة، و حتى إذا كانت توبة وقتية فضلا عن التوبة النصوح.

و توحي ايضا أن ما حلت في حياته من الطيبات اكثر بكثير مما حرمت من الخبيثات‏ «1» فان له أن يستعيض الطيبات بخبيثات يهواها على ضوء الشريعة السهلة السمحاء، فلا عليه إذ يهدف تبنّي حياة الجنة في الأولى و الآخرة إلّا أنها تنغّص الحياة المريحة، و تهدم صرح الإنسانية.

ففي معترك الحياة الأرضية تكفيك معرفة عدوك بما عرفه اللّه، و الالتزام بعهد اللّه، ثم التوبة إلى اللّه إذا اعترضتك لمم، مثلث الحياة للخليفة الأرضية، التي تجعلها راجعة الى ربها راضية مرضية! ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نستوحيه من‏ «وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 315

3- ما هي الشجرة المنهية؟

لا نجد لها اسما في آياتها الثلاث، اللّهم إلّا سمات و آثارا، و هي هي المقصودة في كتاب الهداية دون الأسماء، إذ لا جدوى فيها إلّا تعريف المسميات، و علّ القصد من الشجرة المنهية ليس شجرة واحدة مما نعرفها، و إنما جنس ما يتشجر تحريضا للشهوات و التشاجرات، فليس لها- اذن- اسم خاص و لا مسمى خاص، و انما كلما يؤثر ذوقه و تناوله هذه الآثار:

الخروج من حياة الجنة الى حياة الشقاء و العناء، حياة الجوع و العرى و الظمأ، و الضحى و ظهور السوءات، و هي في صيغة اخرى: نسيان عهد اللّه و الإعراض عن ذكر اللّه: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ... وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» كما في الآيات من طه، فضنك المعيشة و شقائها، و الهبوط من حياة الجنة الى ارض التجربة و البلاء، كل ذلك من مخلفات ذوق هذه الشجرة، التي تشجّر الحياة فتعملها فوضى، و تتشجر عنها الحياة الظالمة المظلمة فتخلّف عيشة ضنكا!.

هذه هي الشجرة المنهية بسماتها دون أن نعرف اسمها او أسمائها حيث لا جدوى فيها إلّا سماتها، مهما تشجرت الآراء في اسمها، بين هابطة خابطة كالتي تسربت في توراة موسى: شجرة المعرفة! و بين ما لا طائل تحتها او لا صلة بها و آثارها، او لا دليل لها من علم او أثارة من علم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). انها بين ستة عشر قولا: شجرة الكرم، النخلة، التين، الحنطة، السنبلة، الكافور، الأترج، الحنظل، المحبة، الطبيعة، الهوى. العلم بالخير و الشر، الخلد،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 316

و ترى كيف ينهى عن تناول شجرة المعرفة بين الحسن و القبح، و هي الشجرة الطيبة التي خلق الإنسان لها، و امره اللّه ان يعيشها متزودا بها حياته و حياتها، مندّدا بمن لا يستظل في ظلها، و لا يتناول من ثمراتها؟ فكيف ينهى عنها؟

أم كيف يعصى بتناولها قبل أن يعرف الحسن و القبح؟ و من القبيح عصيان اللّه! فليعرف فيتعرف إليها بذوقها حتى لا يعصى ربه بعدها! فلما ذا عدّ من العصاة؟: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» فلو كانت هي شجرة المعرفة كان تناولها من أفضل الطاعة! ثم و لا عصيان قبل المعرفة! حيث هي مهبط التكاليف الإلهية، و اما المجانين او البله المستضعفين الذين لا يجدون حيلة و لا يهتدون سبيلا، فليسوا هؤلاء عصاة!.

ثم آدم الذي علّم الأسماء كلها و أنبأ الملائكة بأسمائها، هلّا كان هو من العرفاء، و لحد يعرف الحسن عن القبيح حتى يعصى ربه في ذوق شجرة المعرفة! إنها لقولة فارغة هراء، خاوية عراء، و اللّه منها براء! و أما شجرة الكرم و النخلة و التين و الحنطة و الكافور و الأترج و السنبلة فليست هي بالتي تؤثر هذا الأثر الرذيل، رغم أن التين مبارك في القرآن و السنبلة مباركة في حديث الرسول، و النخلة ام للآكلة، و الحنطة إدام لدوام الحياة، و الكافور ممدوح في القرآن، و الأترج في السنة، فما هي الصلة الطبيعية بينها و بين هذه العرقلات للحياة مادية و روحية، اللّهم إلّا كونه نهي امتحان دون أن تحمل شجرته هذه و تلك من العرقلات، و لكنما التوبة- إذا- لا بد و ان ترجع بصاحبها الى ما كان من حياة الجنة لو لا أن طبيعة الشجرة المنهية تحمل عناء الحياة و شقائها، و كما أن ذوقها عصيانا للّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحسد، شجرة علم محمد و آله، و المؤيدة ببعض الروايات منها هي: 1- 4- 5- 6- 15- 16.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 317

نسيان لعهد اللّه و إعراض عن ذكر اللّه.

فنفسية الشقاء هي من مخلفات العصيان، و مادّيتها من آثار هذه الشجرة، خلاف ما وصفها الشيطان: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏»! و مهما يكن من شي‏ء فلنسكت عما سكت اللّه، و نفصح مستصفحا عما ذكر اللّه، و ما هو في مثلث الآيات إلّا التي عرفناها: شجرة الإعراض عن ذكر اللّه، تتبع نسيان عهد اللّه، فتخلّف معيشة ضنكا: انحرافا و انهرافا عن معنوية الحياة، و شقاء و جوعا و عرى و ظمأ وضحى، التي تجمعها: «الهبوط عن الحياة العليا»: أسفل سافلين: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ».

ثم الآيات تنهى آدم و زوجه ان يقربا هذه الشجرة، مما يوحي بشدة النهي كما في سائر مواردها: «وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى‏» «وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ» ...

و لكنما المنهي عنه هو الأكل منها أو ذوقها: «فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ» و «فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» و ترى انه ذوقها هي ام ثمرتها؟ إن الشجرة لا تؤكل او تذاق بسوقها و أوراقها! و إنما أثمارها، فهي هي التي نهي عنها، و النهي عن قربها تأكيد للنهي عن ثمرتها، «فالمعاصي حمى الله فمن حام حول الحمى او شك ان يدخلها».

و هنا الأكل منها يعني ذوق ثمرتها، دون شبع للبطن منها، و لا أكل دون ذلك، و إنما ذوق الأكل و أكل الذوق: أقل ما يسمّى أكلا، «فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» ما أن بدئا يأكلان، و لذلك عبر عنه بالذوق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 318

و هذا الأكل الذوق خلّف دون فصل او اختيار ظهور السوءات، و من ثم حياة العناء الهابطة الخابطة.

4- و كيف النهي؟

لقد نهى اللّه تعالى آدم و زوجه عن أكل الشجرة و ذوقها نهيا مؤكدا منذرا: «وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ»- «أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ»- «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏».

فهنا يهدد في اقتراف المحظور بالخروج عن الجنة و الشقاء و أنه ظلم، ثم ينادي في آيات أخرى انه زل عن طاعة اللّه بوسوسة الشيطان:

«فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ» «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ» «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏»! فهناك فيما فعله آدم و زوجه: زلة و غواية و ظلم و عصيان و شقاء، و كلّ منها كاف في التدليل على أنهما ارتكبا الحرام، كما و «لا تَقْرَبا» تؤكده و تشدده! فالزلة هنا هي الزوال عن الحق او زوال الطاعة: «إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا» (3: 155) و الغواية جهل عن اعتقاد فاسد:

«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» (2: 256) «وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202).

و الظلم انتقاص إما بحق النفس و الغير و هو أفحشه، او بحق الغير و هو أوسطه، او بحق النفس و هو أدناه، و ليس بحق اللّه إذ لا ينتقص في شي‏ء: «وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (2: 57)، و قد ظلم آدم نفسه فانتقص حاله و مستقبله!: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ». ثم قد يكون الظلم بالنفس دون اقتراف منهي عنه كما في يونس: «سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 319

(21: 87) و في موسى: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» حيث لم يسبق ليونس نهي عن ذهابه عن قومه مغاضبا مستاء أن عصوا اللّه، و انما انتقص في دعوته الرسالي إذ ذهب عن قومه و لم يصابر! ..

و اظهر منه ظلم موسى نفسه فانه قتل القبطي المشرك المقاتل للاسرائيلي الموحّد، و ليس هذا محرما حتى و لو لم يقاتل المشرك فان دمه هدر، فكيف إذا قاتل الموحد فان مطاردته تصبح واجبة، فهذا ذنب العصيان عند المشركين: «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (26: 14) و طاعة خاطئة عند الموحدين: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» فلم يقل غيري و هو قد قتل، و انما «نفسي» حيث أخر دعوته الرسالية نتيجة قتله القبطي، إذ كان الأحرى أن يدفعه و لا يقتله حتى لا تتأخر دعوته، و لكنه‏ «فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» (28:) 15) فوكزه عمل الرحمان و قد كان مقصودا للدفاع عن الموحد، و قتله من عمل الشيطان و لم يكن مقصودا حيث يؤخر الدعوة، و طلب الغفر عن هذا الذنب الظلم لا يعني إلّا ان يستر اللّه على البغضاء الفرعونية حتى يواصل موسى في دعوته.

و مهما يكن هنا و هناك من شي‏ء فليس الظلم من يونس و موسى مسبوقا بنهي، و ان كان مرجوحا وجاه الدعوة الرسالية، لكن ظلم آدم كان مسبوقا بأشد النهي، موصوفا بالزلة و الغواية و العصيان، إذا فهو الظلم الحرام مهما كان من أدناه، و قد هدّد الظالمون العصاة بعدم الفلاح‏ «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (6: 21) و الهلاك: «هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ» (6:) 47) و اللعنة: «أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (11: 18) و بضلال مبين:

«بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (31: 11) مهما اختلفت مراتب الهلاك و الضلال و اللعنة حسب اختلاف الظلامات.

فهل لك بعد ذلك كله ان توجّه ظلم آدم و عصيانه و زلته و غوايته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 320

بظلم غير محرم كما في يونس و موسى، و بينهما مثلث البون:

1- انهما لم يسبق لهما نهي، و قد سبق لآدم أشده بتهديدات! 2- انهما اعترفا بظلم توجّهه قرينته أنه- فقط- انتقاص في الدعوة دون قصد، و لكن آدم و زوجه‏ «فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ»: سائر الظالمين العصاة لا «فتكونا ظالمين» حتى يتحمل ما تحمّله في يونس و موسى!.

3- إنّ ظلم آدم مقرون بقرائن قاطعة أنه ظلم الزلة و الغواية و العصيان، دونهما حيث القرائن تنفي عنهما ظلم العصيان.

و ترى هل يتحمل هكذا نهي أنه تنزيهي إرشادي، فان ذوق الشجرة أتبع الهبوط عن الجنة فعناء الحياة الأرضية و شقاءها، فقد نهيا عنها إرشادا إلى التحرز عن هذه الشقاء، و لو لا انه- فقط- ارشادي: لا مولوي- لأنتجت توبتهما رجوعهما إلى ما كانا فيها و لم يرجعا بعدها؟! إلّا أن المتصور من النهي و الأمر: المولوية- الإرشاد- مجموع الأمرين.

فإذ ينهى المولى مولويا و للإرشاد الى ما يحمله من فساد، كان العصيان ثنائيا فالظلم اثنان، كما في أكثرية النواهي التشريعية.

و إذ ينهى مولويا دون إرشاد الى محظور الفساد، فهذا نهي ابتلائي فعصيان واحد لا اثنان، كما في القليل من موارده.

و إذ ينهى إرشاديا لا مولويّا، فقد يتحمل توجيه خلاف الأولى! و قد لا يتحمله.

و الأغلبية الساحقة من أوامر اللّه و نواهيه هي من القبيل الأول فان اللّه يأمر و ينهي كرب العالمين و مولى الخلق أجمعين، بما يحمل توجيهات- عرفناها ام لا- إلى مصالح فيما يأمر و مفاسد فيما ينهى، فليس ذكرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 321

التبعات في المنهيات مما يزحزحها عن المولويات. كما ليس ذكر المثوبات في المأمورات يجعلها- فقط- ارشاديات، فكثير هذه الأوامر و النواهي القرينة بذكر المصالح و المفاسد، دنيوية او أخروية، ترغيبا الى الطاعات و ترهيبا عن المحظورات.

و هنا اللّه تعالى ينهى آدم و زوجه عما ينهى مهدّدا لهما أنه ظلم يتبع شقاء كما في الكثير الكثير مما ينهى سائر الجنّة و الناس، فهل هي كلها إرشادات تحمل على ترك الأولى، و قليل هذه الأوامر و النواهي التي لا تحمل إرشادات؟

بل الأصل فيها كلها ان تكون ارشادية من المولى سبحانه، إلّا ما بثت أنه مولوي دون إرشاد، كما امر ابراهيم ان يذبح إسماعيل (عليه السلام) ثم لا نجد امرا إرشاديا او نهيا في صيغة الغواية و الظلم و العصيان أن لو ترك، اللّهم إلّا في مستحبات و مكروهات تحمل ارشادات غير ملزمة و هي بحاجة الى قرائن قاطعة.

ثم التوبة عن الذنب ليس لزامها رجوع التائب الى كل ما كان قبل الذنب، و انما الرجوع الى اللّه فرجوع اللّه اليه ألّا يأخذه بنكاله، و قد يكون- ايضا- رجوعا الى سائر ما كان.

أ ترى ان الآكل للسمّ، الذي تاثر في جسمه لحد الموت، هل هو يرجع الى صحته الاولى ان لو تاب؟ او ان القاتل لابنه هل يرجع هو غير قاتل، و ابنه حيا بعد ما تاب؟.

كذلك آدم و زوجه إذ عصيا بما هددهما اللّه‏ «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏» إرشادا الى تبعة هذا العصيان التي هي لزامها، مهما تاب او تابع.

في العصيان، و لكنما التوبة ترجعه إلى ما كان من نزاهة و طهارة الطاعة، دون هذه التبعة الدنيوية للعصيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 322

فالأصل في التوبة ازالة التبعات الأخروية، و قليلة هذه التوبات التي تزيل تبعات من الدنيوية كذلك.

و أما القول أن نهيه كان في الجنة قبل تشريع أية شريعة، حيث شرّعت بعد هبوطه الى الأرض: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏» (20: 123) إذ توحي بمستقبل الهدى بعد ما «اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏».

إذا فلا يعني نهيه في الجنة نهي تشريع و حكم حتى يحرم عصيانه؟

فهذا غريب في نوعه! فإذا لا شريعة في هذه الجنة- و حتى بقدر نهي واحد- فكيف ينهى اللّه فيها، و أقل النهي أن يحمل تنزيها و هو من الشريعة، و إذا صحّ نهي تنزيه صح نهي تحريم على سواء فإنهما في كونهما من الشريعة شرع سواء.

ثم النص‏ «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» و قد هداه هنالك وجاه الشجرة سلبا و إيجابا: «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏» سلبا لاتّباع الشيطان‏ «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏» و ترغيبا لا تباع الرحمن، أ فليست هذه الهدى تكفي آدم في الانتهاء بنهي اللّه، مهما عبّرت عنه بشرعة او غير شرعة، و ليست الشرعة إلا طريقة الهداية الى طاعة اللّه قلّت او كثرت، و قد انحصرت شريعته في الجنة في السماح من أكل ثمار الجنة كلها إلّا هذه الشجرة، ثم توسعت في الحياة الأرضية، كل حسب مقتضياتها و متطلباتها، و كما تختلف الشرائع الأرضية هكذا: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ..». و من الغريب الإصرار على هذه التأويلات المخالفة للآيات، و اجابة الامام الرضا؟ عليه السلام عن مشكلة عصيان آدم مع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 323

نبوته مشهورة، أنه كان قبل النبوة «1» ثم لا نجد تأويلا يجعل عصيانه خلافا للأولى!

5- كيف يجوز العصيان من الخليفة المفضلة على الملائكة و هو نبي؟!

في الحق ان آدم (عليه السلام) لم يكن نبيا حين عصى: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» فاجتبائه بما تاب عليه و هدى كان بعد ما عصى و غوى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (3: 33)

«فلما اجتباه اللّه تعالى و جعله نبيا كان معصوما لا يذنب صغيره و لا كبيرة» «2»

و خطابه بوحيه قبل نبوته لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

نور الثقلين: 1/ 59 عن عيون اخبار الرضا (ع) باسناده الى علي بن محمد الجهم قال‏ حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (ع) فقال له المأمون يا ابن رسول اللّه (ص) أ ليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول اللّه عز و جل: و عصى آدم ربه فغوى- الى ان قال بعد عرض قصة الجنة و الشجرة: و كان ذلك من آدم قبل النبوة و لم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار و انما كان من الصغاير الموهوبة التي تجوز على الأنبياء و قيل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه اللّه تعالى و جعله نبيا معصوما لا يذنب صغيرة و لا كبيرة قال اللّه تبارك و تعالى: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏ ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» و قال عز و جل: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ».

و

في الدر المنثور: 1/ 54 عن أبي بن كعب عن النبي (ص) في حديث قال‏، قال اللّه تعالى يا آدم اخرج من جواري فبعزتي لا اساكن من عصاني و لو خلقت مل‏ء الأرض مثلك خلقا ثم عصوني لأسكنهم دار العاصين قال: أ رأيت إن انا تبت و رجعت أ تتوب علي؟ قال: نعم يا آدم!

و اما ما في الدر المنثور انه كان نبيا حين دخل الجنة فلا يناسب الآية كما

أخرجه الطبراني و ابو الشيخ في العظمة و ابن مردويه عن أبي ذر قال‏ قلت يا رسول اللّه (ص)! أ رأيت آدم أنبياء كان؟ قال: نعم كان نبيا رسولا كلمة اللّه قبلا، قال له: «يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 324

يجعله نبيا حيث خاطب اللّه مريم و ام موسى دون نبوة، و خاطب إبليس الكافر كما خاطب آدم الخليفة، فليس الخطاب إذا دليلا على النبوة حينه.

و ترى كيف شمله عهد اللّه: النبوة، و هو ظالم ناقض لعهد اللّه:

الطاعة-: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (2: 124) أ فليس العصيان الغواية ظلما و نقضا لعهد توحيد الطاعة، و عهد اللّه: الإمامة النبوة، لا ينال الظالمين و إن ظلموا لمرة و قبل النبوة؟.

أجل إنه ظلم، و لكن عهد اللّه في آية الإمامة هو عهد الإمامة في النبيين، لا عهد مطلق النبوة، و انما النبوة المطلقة التي تقود نبوات جزئية، حيث الرسالة و النبوة درجات: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ» فالرسالة المفضلة لحد الإمامة، و علّها ولاية العزم الخاصة بالخمسة الذين دارت عليهم رحى الرسالات، هذه الرسالة القمة هي المقصودة بعهد اللّه في آية الإمامة حيث لا تنال الظالمين، لا مثل آدم الذي هو في أدنى درجات النبوة! و ترى ان آدم حين المعصية نسي الشيطان أنه عدو له؟ و قد عرّفه ربه إياه و أراه شخصه!: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏» كما و حوار الشيطان إياه حين أزلّه تذكّره أنه من هو؟:

«وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ ...»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- أقول: مجرد تعليم اللّه لا يدل على نبوة و الا كانت ام موسى و ام عيسى من النبيين إذ كلهما اللّه و كذلك الشيطان حيث خاطبه اللّه فهذا الحديث و أمثاله مردود مزور على رسول اللّه (ص) لأنه مخالف لكتاب اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 325

ام هل نسى الرحمن أنه ربه؟ و إنه أحط دركات الغفلة عن اللّه فكيف يناسب آدم الخليفة! ..

او نسي نهيه؟ و قد ذكره الشيطان بنهيه: «ما نَهاكُما»! و من قبل ما استكبر إبليس عن السجود له فلا ينسى موقفه منه.

إذا فما هذا العهد الذي نسيه فدفعه الى ارتكاب الخطيئة؟

قد يكون هو العهد العام المأخوذ على بني آدم: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

و لكنه يعم بني آدم دون آدم، و آدم لم يعبد الشيطان و إنما اغتر بما غره، و ملامح العهد أنه فوق ما عهده اللّه الى بني آدم: «عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ» لا بني آدم او الإنسان.

أو أنه العهد المأخوذ في الذر على توحيد الربوبية: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏» (7: 172)؟ و هذا العهد و ان كان أعلى من الاوّل، فقد يعم و يناسب آدم، و لكنه ايضا من بني آدم! أو أنه الميثاق المأخوذ على النبيين، في درجة أعلى من توحيد الربوبية: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (33: 8).

او انه عهد خاص إليه كما إليهم خاصة العهود حسب درجاتهم؟

و لكنه لآدم كان قبل نبوته: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ ..» و علّه بمناسبة المحنة الإبليسية عهد يضم توحيد الربوبية و ترك طاعة الشيطان‏ «فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»: إذ لم يثبت و يعزم على عهده، فلم يكن النسيان مما يرفع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 326

عنده التكليف، و إنما التناسي الغفلة الغفوة الذي يتنافى و ذكر الربوبية الموحّدة، فكل تخلف و عصيان هو من خلفيات نسيان حضرة الربوبية و لحد الإعراض عن ذكر اللّه: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏».

و ترى انه كان عصيانا كبيرا؟ إذ كان النهي مؤكدا: «وَ لا تَقْرَبا» حيث النهي عن القرب الى شي‏ء يوحي بان محظورة عظيم: «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ» إيحاء ثان الى تأكد النهي بنونه الثقيلة.

ثم في اتباعه لإبليس و هو يعرفه بعينه و قد سبق التحذير عنه، و كأنه صدّقه ناصحا: «وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ» ما يوحي كأن اللّه غشه بزعمه- في نهيه: «ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما»!.

أقول: لم يكن آدم (ع) في هذا المسرح ليتّهم ربه بالعس و الخداع و معاذ اللّه! و لو كان متّهمه هكذا لكان أنكى من أكل الشجرة و أردى، فلما ذا لم يخصه التنديد او يعمهما، و إنما خصه بأكل الشجرة ليس إلّا، مما يبرهن ان سبيله في ذنبه لم يكن أعظم من ذنبه: ان يتهم اللّه بالإغواء و الخداع، و يصدق إبليس في النصيحة و لا سمح اللّه!.

و إنما غره أن «قاسمهما» و ما كان يظن ان خلقا خلقه اللّه يحلف كاذبا باللّه و كما

يروى عنه في حوار له مع جبريل (عليه السلام) «1»: «فاغتره‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 61 عن تفسير علي بن ابراهيم في القصة، فنزل عليه جبرئيل فقال: يا آدم! الم يخلقك اللّه بيده و نفخ فيك من روحه و اسجد لك ملائكته؟ قال:

بلى- قال: و أمرك ان لا تأكل من الشجرة فلم عصيته؟! قال: يا جبرئيل! ان إبليس حلف لي باللّه انه لي ناصح و ما ظننت ان خلقا خلقه اللّه يحلف باللّه كاذبا!.

و

في تفسير البرهان 1: 83 عن ابن بابويه القمي في حديث مجلس الرضا (عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 327

عدوه نفاسة عليه بدار المقام و مرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكّه، و العزيمة بوهنه، و استبدل بالجزل (الفرح) و جلا، و بالاغترار مذما، ثم بسط اللّه سبحانه له في توبته و لقّاه كلمة رحمته، و وعده المردّ الى جنته فأهبطه الى دار البلية و تناسل الذرية» «1».

فقد حل بين غرورين و وقع بين محظورين: غرور بما قاسمهما و هو لا يظن ان أحدا يقسم باللّه كاذبا، و غرور بما وعده دار المقام في جنة اللّه بمرافقة الأبرار، و من ثم محظور سابق من نهي اللّه، و آخر في غروريه: لعل اللّه نسخ ما نهى و فسخ ما عهد «فباع اليقين» بنهي اللّه «بشكّه» في نهي اللّه «و العزيمة على الثبات على عهد اللّه» بوهنه- «فنسي» عهد اللّه‏ «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» يعصمه من معصية اللّه «فأهبطه اللّه الى دار البلية و تناسل الذرية» ثم و لم ينتجبه كولي عزم من أنبيائه، الذين حافظوا على عهد اللّه و اعتزموا عصاما دائبا و سياجا على حرمات اللّه قبل اصطفائهم برسالات اللّه و بعدها، و هم سادة المرسلين الذين دارت عليهم الرحى، و آدم في درجة من درجات الرسالات بعد ما عصى و أهبط!.

هكذا ياتي الشيطان غرورا كلّ إنسان او جان بغراره و مسلكه، فآدم الخليفة، المعلّم الأسماء، ليس ليستضل بالشهوات او مربع السياجات الشيطانية، اللهم إلّا يمنة: «ثم لآتينّهم من بين أيديهم و من خلفهم و عن ايمانهم و عن شمائلهم» فقد جاء آدم (عليه السلام) عن يمينه، عن طريق دينه: ألّا يمكن الحلف كاذبا باللّه، و لا سيما في وعد المقام في دار كرامة اللّه! «فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ» كهذا، بدلو يتعلق هو به! و حب الشي‏ء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- السلام) و المأمون قال فيه: و لم يكن آدم و حوا شاهدا قبل ذلك من يحلف باللّه كاذبا «فدلاهما بغرور فأكلا منها ثقة بيمينه بالله ..».

(1). نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 328

يعمي و يصم، و هذه اوّل تجربة توقعه في فخ العصيان دونما تعمد او طغيان.

و على أكثر تقدير تذرع بعصيان ما الى البقاء في دار القرب و الكرامة لورود الاحتمال أن اللّه نهاه عن أكل الشجرة: و علّها الخلد!- تبعيدا له عن ساحة قربه و لمّا يصل الى أهليته، و قاسمه الشيطان على مقالته، فرجح عصيانا على حدته- و دون تعمد و طغيان- على بعده الدائب لو خرج عن جنته- عن جوار الرحمة و جناب العظمة.

كعبد ينهاه مولاه عن المقام بجواره، فيغترّ بما يغر أن يعصيه هيمانا للمقام بجواره، فليس إذا هو البعيد البعيد في خطئه، مهما كان خاطئا في تصرفه، حيث العبودية اللائقة بجنابه تعالى هي المطلقة الشاملة عزما و عملا صالحا، لا يحول بينه و بين طاعته اي غرور و ان كان في محبته.

و لقد كان ابتلاء آدم و زوجه شديدا بهكذا غرور، لا سيما و كما يروى- ابتعدت حرس الشجرة عنها حيث اقترباها، بعد ما كانت تحرسها قبله، فظنا أن اللّه تعالى رفع حظره فأبعد حرسه! فمستهلّ هذه المعركة المصيرية بين آدم و إبليس يوقظ النابهين أن يحذروا الشيطان الرجيم، حيث يحتال بمختلف الحيل في خطواته المضللة، فليكن الإنسان كله بصرا و بصيرة، كي لا يقع في فخه كما وقع الأبوان الأولان، تجربة مرة مرّت بهما، فحذار حذار لولدهما و كما تتردد في إذاعات قرآنية:

«يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (7: 27).

6- كيف استطاع إبليس أن يزلهما و هو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله؟.

في الحق إن إبليس إذ أزلهما كان في الجنة بين أمرين بهبوطه: أمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 329

يخصه إذ أبى عن السجود لآدم و استكبر: «قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» (7: 13).

و من ثم امر يعمه و أبوينا: «قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (7: 24) «فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» .. «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً» مهما امرا- هما بأمر آخر يخصهما: «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ..» (20: 23).

فامر الهبوط الجماعي هناك دليل أن إبليس كان بعد في الجنة، أن عصى ربه في أمره الاول، و لكنما الثاني كان نافذا لم يقدر و لم يقدرا أن يعصوه، إذا فالأول أمر تشريعي، و الثاني يعمه و التكويني أن اهبطهم من الجنة، مهما كان ذلك للشيطان دحرا دائبا، و لأبوينا هبوطا آئبا الى دار الخلد و الكرامة!.

ثم‏ «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» في جماعيّ الأمر «اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً» تأشير الى العداوة الدائبة بين الشيطان و بين الإنسان، فما هي العداوة بين بعض في ثنائي الأمر: «اهْبِطُوا .. بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ»؟

هل هي العداوة بين قبيلي الأناثى و الذكران من بني الإنسان، ام نسل الإنسان ككل حيث التثنية تخرج الشيطان، و لا مباعضة بين الإنسان و الشيطان حتى تعمهما هنا المباغضة؟.

ام إنها بين الإنسان و الشيطان طالما الشيطان غير مذكور هنا و لكنه مذكور هناك، و لا تعني المباعضة المجانسة، و إنما مباعضة في هذا الجمع العصيان، او الجمع الذي يجوز عليه ككل العصيان، فثنائية الأمر و جماعيته تعنيان العداوة الدائبة بين قبيلي الإنسان و الشيطان.

او انها- و باحرى- تعنيهما جميعا، فآية الجمع تعني عداوة الجمع، بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 330

الشيطان و بينهما، و آية التثنية تعني- فقط- ما بينهما كخليفة الأرض جميعا، فحياة الأرض الضيقة العناء الشقاء، هي حياة العداء بين بني الإنسان، كما بين الإنسان و الشيطان: ازدواجية العداء التي تتوحد في إغرائات الشيطان، فقد يأتيك بنفسه او خيله و رجله من ذوي جنسه، و قد يأتيك بذوي جنسك: «شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ» (6: 112) حيث ينزغون بيننا: «قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ» (15: 53) «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (7: 200).

7- «ما هو لباسهما و سوآتهما المواراة قبل العصيان»؟

طبعا إنه من ملابس الجنة، و لقد و وري عنهما سوآتهما بلباسهما ثم بدت بما ذاقا الشجرة: «يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما».

و قد توحي الآيات في اللباس المواري للسوئات- و قد بدت بما ذاقا الشجرة- أنهما ما بدت لهما سوآتهما منذ خلقا لحد الآن، مما يوحي أنهما ألبسا من لباس الجنة منذ خلقا دون انتخاب او محاولة منهما، حيث اللباس يلبس السوء، فقبل أن تبدو السوءة لا دافع لمواراتها بلباس.

او ان كلّا كان عارفا بسوءته هو، دون الآخر، فلما نزع عنهما لباسهما عرف كل سوءة الآخر فأحسا بشهوة الجنس بما عرفا، فلو لا المعرفة الثانية لما احسّا شهوة الجنس.

إلّا أن «ما وري عنهما من سوآتهما» توحي بلطف ان المواراة كانت عنهما في أنفسهما و كما بالنسبة لبعض، ان اللّه أوراها تحت لباس الجنة، حتى إذا أبرزا سواتهما في أرواحهما بما عصيا، برزت لهما سوآتهما في اجسامهما، ليعلما أنهما بعد عائشان سوآت على سوآت، فلا يليقان حياة الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 331

فلم يكن لهما في هذا المسرح إلّا العصيان و المواراة الثانية للسوئات‏ «وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» و أما لبس لباس الجنة، و أما نزعها، فلا شي‏ء منهما كان منهما، و انما اللبس منذ البداية لموارات السوءة فلا يعرفاها فيسوءاها لكرامة الجنة و لباس الخلافة، ثم النزع في النهاية ليعرفاها فيسوءاها و يعلما أنهما على سوء والى سوء إلّا أن يتبعا الهدى!.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37).

8- و ما هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه و متى تلقاها؟

إن الكلمات هي كلمات التوبة و قد تلقاها آدم بين أمرين جماعيين بالهبوط: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

فقد تلقى آدم كلمات من ربه بعد العصيان و قبل الهبوط، و تاب اللّه عليه كذلك قبل الهبوط، فلم تكن التوبة بالتي تنفعه في البقاء في الجنة، اللّهم إلّا غفرا عن ذنبه فلا يعذب في دار الخلد، و أما الدنيا «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ..» إنها دار عمل دون جزاء، كما الآخرة دار جزاء و لا عمل.

و لأن اجتباءه بما تاب عليه و هدى كان في الجنة و قبل الهبوط «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏. قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ..» فلتكن بداية نبوته في الجنة و ان كانت رسالته باتساع نبوته بعد الهبوط عن الجنة: «قالَ اهْبِطا ... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» فهنالك له هدى و اجتباء قبل الهبوط، علّهما النبؤة دون رسالة، و هنا هدى عامة بعد الهبوط هي الرسالة بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 332

اتساع النبوءة-.

إذا فترتيب القصة: أكل من الشجرة، فتلقي كلمات التوبة، فنبوءة، فهبوط فتوبة فرسالة، و لكنما النبوءة تنافي العصيان و قد عصى! إلّا أنها كانت بعد التوبة.

و ترى انها كانت كلمات الاعتذار التوبة: «قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ. قالَ اهْبِطُوا» فتلقى كلمات التوبة، و هذه الكلمات كان قبل الهبوط و بعد الأمر الأول بالهبوط، أ فلا يدل هدا القرآن أنها هي تلك الكلمات؟.

أقول: إنها كانت قبل الأمر بالهبوط «أَ لَمْ أَنْهَكُما ... قالا رَبَّنا ظَلَمْنا» و تلقي الكلمات هو بعد الأمر الأول و قبل الثاني الذي بعده الهبوط، و الترتيب حسب مختلف الآيات، العصيان- ربنا ظلمنا- الأمر بالهبوط- تلقي الكلمات- الأمر الثاني بالهبوط، كما و تلمح‏ «فَتابَ عَلَيْهِ» بعد «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ» أن آدم تاب إلى اللّه قبلها بقوله: «رَبَّنا ظَلَمْنا» فلم يتب اللّه عليه حتى «تلقى‏ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ» اخرى‏ «فَتابَ عَلَيْهِ.»

كما و توحي‏ «وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا» دون‏ «اغْفِرْ لَنا» انها ما كانت لتكفي في المغفرة، فتلقّى كلمات غيرها بعدها تشفعها «فَتابَ عَلَيْهِ».

ثم و قد لا تحتاج هذه الكلمات «ربنا» الى تلقّ من اللّه، حيث الندامة بعد المعصية و ظهور السوأة هي التي تدفع مثل آدم الخليفة أن يردد هذه الكلمات دون نظرة لتلقّيها من ربه، و قد لا تكفي- كذلك- توبة من اللّه عليه و ان صحت توبة منه إلى اللّه، و النص‏ «فَتابَ عَلَيْهِ» اللّه، دون «تاب إليه»: آدم الى اللّه، إذا فهذه الكلمات مشفوعة بأخرى و هي شفيعه له في قبول التوبة، و علّها هي هي الأسماء التي علّمها، أسماء الخلفاء الذين احتج اللّه بهم على الملائكة في هذه الخلافة، فليكونوا هم الرعيل الأعلى بينهم، لا كأمثال آدم، إذ لا تنفع شفاعة ممن هو مثله في كيانه، إلا من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 333

هو فوقه و فوق العالمين كمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و آله المعصومين (عليهم السلام): «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64) و التلقّي هو التلقن، أخذا للكلام على تفهّم لما يعنيه، إذا فهذا التلقي يحمل تعريفا بأصحاب هذه الكلمات الأسماء، أكثر مما حمله تعليمه بها، و لأن‏ «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» ثم‏ «عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ..» يحمل جوابا مقنعا للملائكة عن قولهم‏ «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها» فليكن الأسماء هم هؤلاء الرعيل الأعلى أنهم هم الخلفاء، او أن فيهم من يكافح العصاة و العصيان، إذا فهم أولاء الأكارم الذين بهم يتوب اللّه على من يتوب، و فيهم الكفاح عمن لا يتوب ام لا يتوب عليه اللّه، و لا نعرف أجدر أو بهذه الجدارة من اهل بيت الرسالة المحمدية (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 58- اخرج الطبراني في المعجم الصغير و الحاكم و ابو نعيم و البيهقي كلاهما في الدلائل و ابن عساكر عن عمر بن الخطاب قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه الى السماء فقال:

اسألك بحق محمد الا غفرت لي فأوحى اليه و من محمد؟ فقال: تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي الى عرشك فإذا فيه مكتوب لا اله إلّا اللّه محمد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فعلمت انه ليس احد أعظم قدرا عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى اليه يا آدم! انه آخر النبيين من ذريتك و لو لا هو ما خلقتك».

و

فيه اخرج ابن البخاري عن ابن عباس قال: سألت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه؟ قال: سأل بحق محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين إلّا تبت علي فتاب عليه‏ و رواه مثله في ملحقات الاحقاق ج 14: 148 العلامة ابن المغازلي الشافعي في المناقب ص 39 نسخة مكتبة صنعاء بيمن- بإسناد متصل عن ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم. و اخرج مثله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 334

و توبة العبد الى اللّه، المقبولة، محفوفة بتوبتين من اللّه عليه: توبة اولى ليتوب: «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» (9: 119) و ثانية هي قبول توبته حيث التوبة هي علم و حال و عمل، و كل ذلك بحاجة الى توفيق من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العلامة النطنزي في الخصائص.

و فيه 3: 76 و ممن أخرجه العلامة البيهقي في دلائل النبوة على ما في اللوامع 1: 125 روى عن عمر بن الخطاب قال آدم اسألك بحق محمد و آله الا غفرت لي- الى قوله-:

و لو لا هو ما خلقتك، و رواه مثله ابن عساكر في مسنديه على ما في اللوامع 1: 215.

و فيه‏

اخرج الديلمي في مسند الفردوس بسند رواه عن علي (عليه السلام) قال: سألت النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن قول اللّه: فتلقى آدم من ربه كلمات؟

فقال- بعد ما ساق القصة- قال: فعليك بهؤلاء الكلمات فان اللّه قابل توبتك و غافر ذنبك قل اللهم اني اسألك بحق محمد و آل محمد سبحانك لا اله الا أنت عملت سوء و ظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت الغفور الرحيم، اللهم اني اسألك بحق محمد و آل محمد سبحانك لا اله الا أنت عملت سوء و ظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم، فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم‏

و

من طريق اهل البيت (عليهم السلام) اخرج الشيخ الطبرسي في الاحتجاج عن معمر بن راشد قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ان آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته ان قال: اللهم بحق محمد و آله محمد لما غفرت لي فغفر اللّه له‏ أقول: و اخرج الصدوق مثله في معاني الاخبار باسناده الى أبي سعيد المدائني يرفعه اليه‏

، و

اخرج في الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: سألته عن قول اللّه تعالى‏ «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ» ما هذه الكلمات؟

قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه و هو انه قال: يا رب اسألك بحق محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين إلا تبت علي فتاب اللّه عليه انه هو التواب الرحيم‏

، و

في ملحقات الاحقاق 3: 78 عن المولى معين الكاشفي في معارج النبوة ركن 3 ص 9 عن الصادق (عليه السلام) في حديث‏ ان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه: يا محمود و يا علي الأعلى و يا فاطم و يا محسن و يا منك الإحسان بحق محمد و على و فاطمة و الحسن و الحسين ان تغفر لي و تقبل توبتي‏ و رواه مثله القندوزي البلخي في ينابيع المودة ص 97.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 335

اللّه، و لا يوفق إلّا من أراده و حاول له، ثم لا يقبلها إلّا إذا أتى بها على وجهها، و تلقي الكلمات هو تعليم له كيف يتوب بتوفيق منه، و تلقّن لها علما و حالا و عملا «فَتابَ عَلَيْهِ».

فهذا التلقي يحمل إلقاء من اللّه تعليما و توفيقا للحال و العمل، و تقبلا من آدم إذ تحولت حاله و عمله‏ «فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»! فالعلم اليقين بالخطاء و بمقام الرب نور، يؤجج نار الندم في القلب، فيبعث اللسان و الأعضاء الى التلافي، و هذا المثلث هو التوبة الصالحة، و أهمه قاعدته المتوسطة بين العلم و العمل و هي الندامة و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «الندم توبة».

و لكي ينجو الإنسان من فخاخ الشيطان فعليه أن يكون دائب التوبة حتى يرجع في هذه المعركة الدائبة بالخسار على الشيطان و

قد سئال رجلّ عليا امير المؤمنين (عليه السلام) عن الرجل يذنب ثم يستغفر ثم يذنب ثم يستغفر فقال امير المؤمنين (عليه السلام) يستغفر أبدا حتى يكون الشيطان هو الخاسر فيقول: لا طاقة لي معه، و قال: كلما قدرت أن تطرحه في ورطة و تتخلص منها فافعل‏ «1».

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (38).

9- ثم و ما هي الهدى التي وعدها هذه الخليفة؟.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ- 38- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39) ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 3: 22 في المسألة الثامنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 336

«قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏. وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124).

هذه الهدي الآتية لخليفة الأرض إلى الأرض لا ريب هي فوق هدى العقل، سواء أ كانت هدى تهدي العقل في أخطاءه او تهديه في تكامله، أم تحمل أحكاما ليس للعقل فيها حكم لا جملة و لا تفصيلا، و هذا المثلث من الهدى تجمع الشرائع كلها، فهي المقصودة للمكلفين منذ آدم الى يوم الدين، إلا أن آدم و من دونه الى نوح لم يبعثوا بشريعة او شرائع من القسم الثالث إطلاقا فانها لأولى العزم من الرسل، حيث العزم لهم يعني فيما يعني استقلال الشريعة الناسخة لما قبلها ان كانت، و الحاكمة على من بعدها إلى ولي عزم آخر، و ليست إلّا لأولى العزم من الرسل، الخمسة الذين دارت عليهم الرّحى‏ «1».

و قد توحي‏ «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» (2: 213)- توحي أن الناس ظلوا في فترة من الزمن ضلّالا عن هكذا شرعة إلهية تحمل كتاب وحي برسالة، فليكن آدم رسولا بلا كتاب بشرعة غيرها، كالتي تهدي العقل فقط عن أخطاءه، أمّا التي لها فروع لا تحكمها العقل لا جملة و تفصيلا فلا، و علّها ليست بالتي تكمّلها ايضا، و إنما الزاوية الأولى من مثلث الوحي الرسالة، و هي أدنى درجات الرسالة.

و لا شك ان اوّل ما أتت من هدي لخليفة الأرض كانت بواسطة آدم صفي اللّه، الذي اصطفاه و اجتباه بعد ما عصى و تاب عليه و هدى‏ «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» و لحد الآن ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 26 ص 73- 78 في آية «اولوا العزم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 337

بعث رسولا، و إنما نبّى و اهتدى ثم‏ «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ..» فابتعث بهذه الهدى‏ «1».

و من ثم ضابطة عامة لمن ضل او اهتدى: «فمن تبع هداي فلا يضل و لا يشقى»- «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ»: عائشا في مربع النور و السرور: لا يضل- و لا يشقى: حتى في الحياة الدنيا، أن تصبح حياته حياة الجنة، فلا يحزن على ما فاته منها و لا يخاف أن يشقى‏ «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏»! و اما «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي»: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ»- «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» في الأولى و في الأخرى‏ «وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» إذا فهو يشقى في الحياة كلها.

فليست توبة آدم بالتي تزيل عنه شقاء الحياة و ضلالها و خوفها و حزنها بل و عليه أن يتبع هدى اللّه في حياته الدنيا حتى لا يخاف و لا يحزن و لا يضل و لا يشقى.

فقد تخطّى هذه الخليفة المعصية إلى التوبة و إلى الهدى، فعصيانه أهبطه إلى الأرض الشقاء و العناء، و توبته أصلحته لحياة راضية خالية عن مربع العناء، و هداه أدخلته الى جنة الحياة و هو في الدنيا، فتألّفت حياته الأرضية بحياة سماوية علينية إذا تعلق بوحي السماء، و هي ارضية سجينية إذا تحلل عن وحي السماء: «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً».

و من ثم ينتقل المهتدون إلى حياة سماوية خالصة أسمى من الأولى و أنمى، و الضالون إلى حياة أرضية أتعس و أنكى!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 51 عن أبي ذر قلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

من أول الأنبياء؟ قال: آدم، قلت: نبي كان؟ قال: نعم مكلّم، قلت ثم من؟

قال: نوح و بينهما عشرة آباء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 338

رجعة ثانية الى مثلث الآيات في القصة باستدراكات و نكات:

1- نتأكد من ترداد الأكل من الشجرة في آياتها أنها ليست شجرة العلم او الحسد او المحبة او المعرفة و أمثالها، من التي لا تؤكل و إنما تتلقى معرفة و علما، مهما حملت هذه الشجرة روح الشقاء و الضلال.

2- إخراجهما من الجنة قد ينسب الى الشيطان كما هنا «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ» و في الأعراف‏ «كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ» و في طه‏ «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏».

ثم ينسب الإهباط و الأمر بالهبوط الى اللّه: «وَ قُلْنَا اهْبِطُوا» كما هنا «قالَ اهْبِطُوا» في الأعراف و «قالَ اهْبِطا» في طه.

و الجمع ان سبب الخروج و الهبوط هو إبليس بما أزلهما دون أن يهبطهما هو بنفسه، ثم اللّه أهبطهما جزاء بما كسبا أن استزلا بما أزلهما.

3- هنا أمران جماعيان بالهبوط يتوسطهما تلقي كلمات التوبة، أ ترى ان آدم عصى الأمر الاوّل حتى تاب، ثم أمر ثانيا بالهبوط؟ فكان عليه- إذا- أن يتوب عن عصيانه الثاني أن خالف الأمر الاوّل؟

هناك عصيان ثم بداية التوبة في الأعراف قبل الأمر بالهبوط: «أَ لَمْ أَنْهَكُما ... قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا ... قالَ اهْبِطُوا» ثم هنا تلق لكلمات التوبة بين الأمرين بالهبوط: «و قلنا اهبطوا .. فتلقى .. قلنا اهبطوا ..»

مما يدل ان الكلمات المتلقاة هي نهاية التوبة لا بدايتها: «رَبَّنا ظَلَمْنا ..».

فقد اشتغل آدم منذ الخطيئة في الجنة بالتوبة قبل الأمر الأوّل و بعده حتى تاب اللّه عليه، و علّ الاول ما كان فوريا دون مهلة و كما في طه:

«وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏ قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ..» مما يوحي أن أمرهما الخاص بالهبوط بعد ما أمر إبليس حين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 339

ازلهما، و بعد ما تاب عليه ربه و هدى، و كمال التوبة كان بتلقي الكلمات بعد الأمر الاوّل الجماعي بالهبوط هنا، و كأنه يقول أنتما بعد قليل و تحقيق التوبة هابطان مع الشيطان، إذا فلا عصيان ثانيا لآدم و زوجه، و إنما إبليس هو الذي عصى ربه لحد الآن مرتين-: مرة إذا استكبر عن السجود لآدم «قال اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها» و اخرى إذا أمر مع آدم و زوجه إذ أزلهما، إذ كان امره غير أمرهما، حيث هما كانت لهما مهلة تحقيق التوبة دونه، أو أن التأكيد لأجل التكرار حيث ظنا أن توبتهما نسخت الأمر بالهبوط فأعاده اللّه تدليلا على ان الهبوط لزام العصيان و لو بعد التوبة، و لأنه خلق خليفة في الأرض لا في السماء!.

و مهما يكن من شي‏ء فالأمر الأخير بجماعية الهبوط يحمل تحقيقه تكوينا، بجانب ما يحمل إيجابه تشريعا، مهما كان آدم و زوجه مطيعان و الشيطان عاصيا!.

«فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ»: من الجنة بما يشقى: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏» و قد خرجا من بعض ما فيه‏ «وَ لا تَعْرى‏» و هما بعد فيها، حيث نزع عنهما لباسهما «وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» و لكن لم يسمح لهما، حيث‏ «طَفِقا يَخْصِفانِ» دون «خصفا» كما و أن الخروج مما فيها يقتضيه، إذ لا يخص بالخروج عنها، و إنما «مِمَّا كانا فِيهِ» و منه لباس الجنة ورقا و سواه، فقد بقيا عريانين حتى أهبطا، و قد تابا عريانين منكسرين، و إنه أحرى بحالة التوبة و أجدى.

5- «فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما» توحي أن لو لا وسوسة الشيطان بذوق الشجرة لم تبدو لهما سوآتهما أبدا، إذ كان لباس الجنة لهما لزاما، كما ألبساه منذ خلقا و أدخلاها، فظهور السوأة كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 340

مقصودا للشيطان نكاية بآدم و زوجه، أنكما تحملان سوآت في أبدانكما، و اخرى في أرواحكما حيث عصيتما ربكما فلست أنا العاصي فقط و أنتما مطيعان! فهذا عصيان بعصيان و أي فرق بين عصيان و عصيان؟ فطالما أنا عصيت ربي أن لم أسجد لك، فأنت عصيت ربك فيما أنعم عليك من الجنة، ام ماذا من أهداف أضاليل.

فالشيطان بخيله و رجله يحاول دوما بخطواته أن يضم الى حزبه من عباد الرحمن لكي لا يبقى وحده مرذولا مدحورا.

و من ثم كان لظهور السوأة هذا أثره في آدم و زوجه، ان يأخذا حذرهما في الحياة الأرضية، و يتاكدا من‏ «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ» فعلى الإنسان أن يلتزم لباس التقوى الذي يستر على العورات و السوآت كلّها: «يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (7: 27).

و ما لم تظهر السوآت لا يندفع أصحابها لسترها أو علاجها، فقد كانت بلية الجنة لأدم و زوجه درسا للأجيال كلها: كيف عليهم أن يعيشوا معركة الحياة الأرضية، و لكي يرجعوا الى الجنة على ضوء الصالحات في معتركات الحياة، حيث الجنة دون كدح و عمل ليست بالتي ترضي الضمير: «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» 6- لماذا «فتشقى» دون «فتشقيا» في‏ «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏»؟ كما و «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ» رغم انهما معا منهيان و قد حذّرا معا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 341

عن غرور الشيطان، و اكلأ معا منها، فهما في هذا المسرح على سواء و لماذا يختص آدم بالحظر عن عقبات هذا العصيان، و هما معا منهيان: «وَ لا تَقْرَبا»، كذلك و ظالمان عند العصيان‏ «فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ» «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا» فهل يا ترى إن الظلم العصيان منهما يخص بخلفياته- فقط- آدم دون زوجه و «لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏».

أقول: هما متشاركان في الظلم و العصيان و الخروج مما كانا فيه و الهبوط عن الجنة: «فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا ..» و لكنما العبّ‏ء في الحياة الأرضية و شقاءها و جوعها و عراها و ظمأها و ضحاها، انها كلها تتوارد على الذكران قبل الأناث و أكثر، حيث هن يعشن على هامش أتعابهم، فعليهم مطاردة هذه الشقاء و حمل هذه الأعباء لا لأنفسهم فحسب، و إنما لأزواجهم و أمهاتهم و بناتهم ايضا كما يتحملون لأنفسهم، بل و قد يفضلونهن عليهم حيث‏ «جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» (30: 21) و «الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ».

ففي الحياة الأرضية للرجال ضعف و أضعاف ما للنساء من أعباء و شقاء.

7- و لماذا «فَتَلَقَّى آدَمُ‏ ... فَتابَ عَلَيْهِ» دون «تلقيا .. فتاب عليهما» و هما معا عاصيان تائبان‏ «قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا»؟

ذلك لأن آدم هو الأصل و هي الفرع، طوي عن ذكرها هنا حيث التلقّي وحي و هي محرومة عنه، و إنما تتلقى منه بعد ما تلقى، ثم هي التائبة على هامشه، و كما أن عب‏ء الحياة الدنيا عليه دونها «فتشقى».!

8- كيف التلاؤم في‏ «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» بين «إن» الشرطية الدالة على الشك و الترديد، و بين «نّ» التأكيد التي تؤكد مدخولها؟

في الحق ان «إن» لا تعني بنفسها ترديدا، و انما شرطا يلائمه كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 342

يلائم التحقيق، و هنا التحقيق مستفاد من نون التأكيد و الشرط يفيد مفاده، ف «إن» يأت مني هدى و هو «ما يأتينكم»- «فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ ..».

9- و ترى كيف‏ «فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏» و شقاء الحياة الدنيا شاملة لعائشيها، بل هي للمؤمن أشقى و أنكى، كما أن خوفه و حزنه فيها واقعان على ما يرى من ظلامات و تخلفات عن شريعة اللّه؟ فمهما «لا يضل» و لكنه يخاف و يحزن و يشقى.

و لكنما الشقاء في الحياة الدنيا، منها مشتركة بين المؤمن و الكافر، لأنها لزام الحياة الدنيا، و لكنها للمؤمن مجبورة بما تستقبله من راحة الحياة الأخرى، ثم و شقاء فيها تخص المتخلفين عن شرعة اللّه: التي تخفف كثيرا من أتعابها، و لو طبقّت تماما لأصبحت الحياة الدنيا الشقاء رحمة كلها كما الجنة سواء، فالمؤمن في هاتين الشقائين برحمة و راحة نسبية في الأولى و حقيقية في الثانية: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏» و أما الكافر:

«وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً. وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» فضنك المعيشة في الحياة الدنيا هو لزام الكافر قدر كفره، و راحتها- رغم انها دنيا- هي لزام المؤمن قدر ايمانه، فليس الايمان بالذي يعمّر- فقط- الحياة الأخرى، بل انه يجمع تعمير الحياة الدنيا إلى الأخرى، كما الكفر هو ضنك فيهما.

و أما «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» فهو مما يستقبلهم في الاخرى فإنهم آمنون فيها، و اما ما يخوفهم أهل الدنيا في نفس او مال ام ماذا، فانها ليست بالتي تخوفهم ما داموا في مسيرهم إلى الجنة المأوى.

ثم‏ «وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» على ما مضى، مما قدموه في سبيل اللّه او فات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 343

عنهم من زخرفات الحياة و زهراتها، فما قدموه يقدمهم الى الحسنى فلما ذا يحزنون؟ و ما فات عنهم يخفف عنهم ثقلهم فلما ذا يحزنون: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ ..»

و اما الكافر فهو يعيش دوما بين حزن لما فاته و خوف عما يستقبله‏ «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً»!.

«بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 112) «فَمَنِ اتَّقى‏ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (7: 35) «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (10: 62) «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (46: 13).

فأتباع هدى اللّه، بإسلام الوجه للّه، و بالإصلاح و تقوى اللّه، ممن قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا من أولياء اللّه، هؤلاء الأكارم: «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ»!

على هامش القصة:

هنا آيات توراتية مختلقة، و روايات أمثالها تسربت و ترسبت في روايات إسلامية تشوّه وجه القصة الى خلاف العقل و العدل، نضربها عرض الحائط حفاظا على كرامة الوحي و ذودا عن ساحة الربوبية و الرسالة، و من التورات:

(تكوين 2: 16- 18) و (3: 1- 26): و اوصى الرب الإله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل و اما شجرة معرفة الخير و الشر فلا تأكل منها شيئا لأنك يوم تأكل منها تموت موتا- فقالت الحية (يعني إبليس) للمرأة (حواء) أ حقا قال اللّه: لا تأكل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 344

من كل شجر الجنة؟ فقال المرأة: نأكل منها إلّا التي في وسط الجنة فقال اللّه: لا تأكلا منه و لا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية: لن تموتا بل اللّه عالم انه حينذاك تنفتح أعينكما و تكونان كاللّه عارفين الخير و الشر. فأكلها آدم مع زوجه فانفتحت أعينهما و علما انهما عريانان. فخاطا أوراق طين و صنعا لأنفسهما مآزر و سمعا صوت الرب الإله ما شيا في الجنة فاختبأ آدم و امرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة فنادى الإله اين أنت؟ فقال آدم:

سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، فقال: كيف علمت أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة؟ فقال: المرأة ابتلتني، فقال: و أنت لماذا؟ فقالت: الحية غرتني ... فقال للحية ... و قال للمرأة: أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا ... و قال الرب الإله له: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير و الشر و الآن يمد يده و يأخذ من شجرة الحياة و يأكل و يحيى الى الأبد فأخرجه من جنة عدن ...!

وا فضيحتاه من هذه الآيات المقحمات في التورات فأكثرها خرافات هراءات، خارجة عن حدّ التصليح إلى مطلق التزييف، حيث تجهّل الرب و تعجّزه و تعدّده و تمثّله بعبيده و تغلّب عليه كيدهم، و كل من له أدنى معرفة بالإلهيات يزيّف هذه العبارات المجنونة المتناقضة، دون حاجة الى إجابات! ثم انظر الى الذكر الحكيم و القرآن العظيم كيف يهيمن على ما بين يديه من كتاب، فيزيف زيف ما أقحم فيها، و يصدّق صدق ما تبقّى و اللّه من وراء القصد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 345

[سورة البقرة (2): الآيات 40 الى 48]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (44)

وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (46) يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (47) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 346

«بَنِي إِسْرائِيلَ» في القرآن هم «بني يسرائل- او يسرائيل» في التورات العبراني، ف: «يسرا»- هو «عبد» و «ئل» أو «ئيل» هو «اللّه»: عبد اللّه، و هو يعقوب بن إسحاق رأس السلسلة الإسرائيلية، و اين إسرائيل القرآن من إسرائيل التوراة، إذ تفسره بمن صارع اللّه فصرعه فأخذ بركة النبوة منه حتى خلّصه! «1».

تذكر إسرائيل (43) مرة في سائر القرآن في 18 سورة: 11 مكيا (23) آية و في 7 مدنيات (20) آية.

فبنوا إسرائيل هم أكثر الأقوام ذكرا و قصصا في العهدين: المكي و المدني- رغم أن القرآن المكي لم يعش وسطا يهوديا في مكة و إنما هو المدني.

لذلك لا نجد خطابا لهم بين المكية ال: 23- إلّا مرة واحدة: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ..» (20: 80) و لكنها ايضا لا تخاطب الموجودين إذ لم يكونوا في مكة، و إنما هي حكاية حال ماضية:

«وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ ... (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ‏ .. (78) يا بَنِي إِسْرائِيلَ ..».

و مما يلاحظ أن طريقة عرضهم في العهد المكي يختلف عن المدني، فلا يعني العرض المتواصل إلّا تثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب من الدعوة و موكب الايمان الواصل منذ أول الخليقة، و توجيه الكتلة المسلّمة بما يناسب ظروفها في مكة، اعتبارا من وسط الأمة الإسرائيلية التي هي أولى الأمتين العظيمتين الحاملتين الشرعة الأصيلة الإلهية المترامية الأطراف: هما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «المقارنات العلمية و العقائدية بين الكتب السماوية».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 347

شريعة التوراة و القرآن، و لتعتبر الأمة المسلمة عما مضت من حوادث و كوارث و عراقيل في سبيل الدعوة و الداعية.

لا نجد في العهد المكي تنديدا ببني إسرائيل إلّا قضاء تحكي عن ماضيهم:

«وَ قَضَيْنا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ...» (17: 4) ايقاظا للمسلمين ليأخذوا عنهم حذرهم في العهد المدني و على طول الخط، ثم و في «22» آية اخرى ليس إلّا عرض ل: كيف أرسل موسى بالبينات، و واجه فرعون و ملأه، و نجى بني إسرائيل الأذلّين و جعلهم أعزة، و أورثهم كتاب الدعوة، و ليثبت المسلمون و يصمدوا و هم قلة أذلة! وجاه المشركين الكثرة الأعزة! و يعلموا أن اللّه هو ناصرهم و: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ»!.

ثم في العهد المدني تأخذ الآيات في تأنيبهم و تأديبهم، مذكرة الجماعة المسلمة بكيدهم و ميدهم، و أنهم أضل الأقوام و حتى من الذين أشركوا:

«وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‏ حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» (2: 96).

فلا نجد أمة قبل الإسلام أكثر نعمة منهم، و أخطر على المسلمين نقمة، فرغم أن اللّه فضلهم على العالمين، و نجاهم من عدوهم فرعون، و ابتعث فيهم نبيين، نراهم ألدّ أعداء الإسلام و المسلمين، و أشدهم ضغائن على رسول الإسلام، رغم ذكراه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) المتكررة في التوراة!.

هنا في نيف و مائة آية- و في سائر القرآن أمثالها- تذكر النعم التي حباهم اللّه إياها، و الكفران و النكران الذي واجهوه وجاهها.

فهنا- و بعد عرض خلافة الإنسان و قصة الشيطان و مصيرهما- يبتدء من هذا المقطع بمواجهة بني إسرائيل، الذين واجهوا الدعوة الإسلامية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 348

بشراسة نكراء، حيث قاوموها و كادوا لها بألوانها منذ بزوغها و حتى الآن، معركة شعواء تشنّها اليهود القوميون العنصريون على الرسالة الاسلامية منذ ذلك التاريخ البعيد، ضاربة الى أعماق التاريخ في كل الأجواء و الأرجاء و حتى اللحظة الحاضرة.

معركة لا تتغير جذورها عبر الأجيال مهما تغيرت شكليا، رغم أنهم في تشردهم عبر القرون ما وجدوا من المسلمين إلّا صدورا حنونة، او قلة أذى مهما هم آذوهم كثيرا، فكان من المترقب أن يسبقوا غيرهم في الايمان بهذه الرسالة الجديدة، و لكن كانوا أوّل كافر به و شروا بآيات اللّه ثمنا قليلا.

هنا- و بعد استنفاد كافة وسائل الدعوة معهم- يذكرهم بما منّ عليهم، و يهددهم بمخلّفات تمرّدهم دنيا و عقبى، و يصارح بمدى جهلهم و تجاهلهم القيم، و تصلّبهم على الفوقية العنصرية.

يبدأ بنداء حنون تذكرهم فيها بما أنعم عليهم، و تأمرهم بالوفاء بعهد اللّه و الرهبة من اللّه، و الايمان بما أنزل اللّه، و تنهاهم عما حرم اللّه علّهم يهتدون.

فليست قصة بني إسرائيل و أضرابهم في قصصهم أحاديث تتكرر طيّات القرآن لغرض قصّ التاريخ، و انما تذكيرا لأصحابها و أضرابها، و تحذيرا أو تبشيرا للوسط الإسلامي في كافة الأجواء و الأرجاء.

و ما أحوج الأمة المسلمة الى درس قصص الأمم الغابرة فانها الامة الأخيرة التي تضرب إلى نهاية الكون، فعليها- إذن- أن تتملّى من هذه التوجيهات دراسات متنوعة بعيون متفتحة لتخوض معتركات الحياة مع اعدائها التقليديين، و كيف ترد على المكائد اللئيمة التي توجّه إليها بأخفى الوسائل و أمكر الطرائق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 349

فهذه جولة جوّالة مع بني إسرائيل- و هم أعرق الأمم طوال التاريخ الرسالي- نعيشها في تاريخنا المجيد، و لكي نحيد من تخلفاتها، و نستفيد من: كيف ابتدأت الرسالة الموسوية و واجهت عدوها الفرعوني اللدود، فكل حال ابن ماضيه و في الإسلام المزيد!.

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) «بني» جمع «ابن»: الولد الذكر، إلّا إذا أضيف فيعمه و الأنثى كما هنا، و في إضافتهم الى إسرائيل إيحاء بعبودية معمّقة في يعقوب جدّهم، فإسرائيل هو عبد اللّه، و إيحان ثان، لشرف هذه النسبة و كرامتها فليرجعوا إليها- و هم أحرى- فالحسنة من بيت النبوة أحسن و أجدى، كما السيئة منها أنكى و أردى، فليحذروا السوء و هم بنوا أنبياء!.

و هذا الخطاب الحنون يضم ذكرى النعمة الإلهية الخاصة لهم، و من ثم الأمر بالوفاء بعهد اللّه حتى يوفي بعهدهم، ثم‏ «وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ».

و ترى ما هي هذه النعمة القمة الذكرى، و ما هما العهدان، و الرهبة التي تخلّف النعمة و العهد؟.

توحي «نعمتي» بوحدة النعمة، أو أنها على كثرتها من نوع واحد، و أنها نعمة خاصة ربانية تفوق النعم المادية التي تعم المنعمين أيّا كانوا و أيّان، فهل هي تفضيلهم على العالمين، و هي قرينة معطوفة عليها؟:

«اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ» (2: 47) و 122).

أم هي النجاة من آل فرعون: «وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ يُذَبِّحُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 350

أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» (14:) 6).

و ما النجاة من فرعون إلّا نعمة سلبية تعبّد الطريق لظهور الرسالة الإلهية التي هي النعمة القمة! أم هي هي الرسالة المتوطّدة فيهم منذ إسرائيل إلى عيسى (عليهما السلام) و هو آخر أنبياء بني إسرائيل، طيّات قرون رسالية مشرقة تترى، تتوسطها شريعة التورات، مبتدءة بجذورها من إسرائيل، و متكملة بموسى (عليه السلام) و مهيمنة بكتابات هامشية للتورات من الرسل الإسرائيليين إلى المسيح (عليه السلام) حيث الإنجيل دعوة توراتية في شريعة الناموس، مهما تضمت توجيهات أخلاقية تربو على التوراة؟: «وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» (5: 22)؟.

لا نجد نعمة لهم أنعم من هذه النعمة القمة: الجمع بين النبوة و الملك، نعمة واحدة في اتجاهها، متعددة في بنودها و حدودها، حيث تنحو منحى تحقيق الرسالة و تطبيقها.

و ترى إنها تختلف عن تفضيلهم على العالمين إذ قرنت بها و عطفت هي عليها؟ و لا تفضيل فضيلا إلّا على ضوء فضيلة الرسالة الإلهية! أقول: إن تفضيلهم على العالمين نعمة تعم الرسالة و الملوكية، و انهم أوتوا ما لم يؤت أحد من العالمين، و ما سواها من نعم في سلبية النقم و ايجابية الرحمات التي عبّدت الطريق للرسالة الإسرائيلية.

فهذه نعم لتعددها، و هي نعمة لوحدة جذورها و اتجاهاتها، و لا نجد امة منذ آدم حتى المسيح جمعت لها ما جمعت لبني إسرائيل من نعمة، و هم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 351

المعنيون من «العالمين»: «وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ»: عالمي تاريخهم حاضرا و غابرا، دون الأمة الاسلامية السامية المفضّلة على العالمين في مثلث الزمان، في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، و هذه الأمة المجيدة التي حباها اللّه الخلافة و الرسالية الخالدة، إذ سلبها عن بني إسرائيل.

أ ترى إذ أنعم اللّه على السابقين من بني إسرائيل، فكيف يمتنّ بها على الحاضرين و قد أخذت عنهم نعمة الرسالة و حوّلت الى نبيّ إسماعيلي؟

أقول: لأن نعمة الرسالة المحمدية أكثر و أوفر من الرسالة الإسرائيلية، فهي لهم نعمة بعد نعمة، فليقبلوا إلى هذه الرسالة شكرا لما أنعم عليهم من الرسالات السابقة، المبشّرة بها، فذكر هذه النعمة السابقة السابغة يدفعهم للتنعّم باللّاحقة، لأنها نعمة تحمل البشارة بهذه النعمة! ثم ترى ما هو عهد اللّه عليهم حيث يناط بعهدهم عليه؟ عهد وجاه عهد، و وفاء وجاه وفاء؟

أهو العهد الاوّل المعقود بين فطرة الإنسان و بين اللّه: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ... ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» (30: 30) أن يوحّده و يعبده وحده لا شريك له؟ عهد مشدود إلى الفطرة، لا يحجبه او يفصله إلّا حجابات الانحراف و الغواية العامدة؟

أم هو العهد المعقود على آدم و ذريته إذ أهبطه و زوجه إلى الأرض:

«فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 38) و هما عهدان يعمان نوع الإنسان دون اختصاص ببني إسرائيل، و هما أمّ العهود التي تؤخذ على مختلف الأمم مهما اختلفت صيغها، حيث تنحو منحى أصلي الفطرة و الشريعة: عهد ذاتي و آخر خارجي يتجاوبان في تحقيق أوامر اللّه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 352

أو هو العهد المأخوذ على النبيين؟ و المخاطبون هنا ليسوا النبيين، و إنما بنو إسرائيل! أو هو العهد المأخوذ على أهل الكتاب و بنو إسرائيل هم القمة بينهم:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ» (3: 187) «وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ..» (5: 12) «لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى‏ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ» (5: 70) «وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (2: 93) .. مواثيق عليهم تلو بعض، تنحو منحى تصديق النبيين، و لا سيما النبي الإسماعيلي الذي نقموا منه و هم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» (2: 147) «... الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 20).

هذا هو العهد البارز المعروف عندهم، المأخوذ عليهم و على النبيين أجمعين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (3: 81) «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 353

صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (33: 8) «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ‏ ... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (7: 157).

«أَوْفُوا بِعَهْدِي» إيمانا بهذا الرسول النبي الأمي‏ «أُوفِ بِعَهْدِكُمْ»:

لأكفرن عنكم سيئاتكم و لأدخلنكم جنات .. الرحمة المكتوبة للذين آمنوا:

. الفلاح ..: فلاحا في الرحمة و رحمة في الفلاح بعد تكفير السيئات.

و قد يعني هذا العهد مجموعة العهود العامة و الخاصة المأخوذة عليهم كمكلفين- موحدين- اهل الكتاب- بني إسرائيل، و القدر المسلم عهد الرسالة الإسلامية كما يبرز هو فقط بعد هذه الآية دون فصل:

«وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ ...»! و لا تنافيه وحدة العهد «عهدي» حيث الكل واحدة في الاتجاه مهما اختلفت في صيغها و شكلياتها، على أن عهد الرسالة الإسلامية هو العهود كلها، حيث يجمعها- كأكملها- كلها، و سوف تمر عليك البشارات الكتابية بحق الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله) بطيّات آياتها.

«وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي» الذي عاهدته عليكم، فإن وفيتم‏ «أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» الذي عاهدته لكم: «.. لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ... فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ...» و ذلك بعد قوله تعالى: «وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ ...»!

و طالما الخطاب الظاهر هنا لبني إسرائيل و في إطارات خاصة و لكنه كضابطة عامة تعم كافة العهود المأخوذة على الأمم و الأفراد، المقابلة لما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 354

اخذه اللّه على نفسه جزاء لهم، فلا وفاء من اللّه لعهودهم إلّا بعد أن يوفوا له عهوده.

فليست عهود اللّه و وعوده فوضى تلعب بها الأهواء و الآمال، و إنما الأعمال هي التي تحدّد حدود تحقيق الوعود في كافة المجالات، فلئن سئلنا عن قول اللّه‏ «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» أنّا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قيل:

لأنكم لا تفون بعهده، و أن اللّه يقول‏ «أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ»

«و اللّه لو وفيتم للّه لوفى اللّه لكم» «1».

و عهده هنا هو الالتزام بطاعته، دون الشيطان: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» فعلى غرار وفاء نا يكون وفاءه جزاء وفاقا، دون فوضى يأملها البطالون‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»! فاللّه و فيّ يحب الأوفياء و يكون عند طلباتهم إن كانت صالحة تصلحهم او لا تضرهم، و لا يحب الناقضين اللّعناء مهما كانت ادعائاتهم الهاوية الخواء.

و كل وفاء تتطلب وفاء مثلها و في إطارها، إن في توحيد اللّه، أو تصديق أنبياءه أو أوصيائهم‏ «2» أو في تطبيق احكام اللّه ام ماذا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 73. عن تفسير القمي بسنده عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال له رجل جعلت فداك ان اللّه يقول: ..

(2)

نور الثقلين 1: 73 عن اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي» قال: بولاية امير المؤمنين (عليه السلام) «أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» «أوف لكم بالجنة»

أقول: و هذا من باب الجري و التطبيق لا التفسير، حيث الآية تعني أولا بني إسرائيل، و من ثم عامة المكلفين في عامة التكاليف، و الولاية هي على هامش النبوة فعهدها هي عهدها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 355

فكما «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» مهما كان عهد الإمامة في النبيين حيث موقعها في ابتلاء ابراهيم، و لكنها في وجهة أخرى تعم كافة العهود و كل الظالمين، فالذين يظلمون و ينتقصون عهود اللّه، لم يكن لينالهم عهودهم من اللّه، قاعدة عامة تعيش حياة التكليف ككل، و كذلك و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه ايضا عنه (عليه السلام) يا خيثمة! نحن عهد اللّه فمن وفي بعهدنا فقد وفى بعهد اللّه و من خفرها فقد خفر ذمة اللّه و عهده.

و

فيه عن معاني الاخبار باسناده الى ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): انزل اللّه عز و جل‏ «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» و اللّه لقد خرج آدم من الدنيا و قد عاهد قومه على الوفاء لولده شيت فما و في له، و لقد خرج نوح من الدنيا و عاهد قومه على الوفاء لوصيه سام فما وفت أمته، و لقد خرج ابراهيم من الدنيا و عاهد قومه على الوفاء لوصيه إسماعيل فما وفت أمته، و لقد خرج موسى من الدنيا و عاهد قومه على الوفاء لوصيه يوشع بن نون فما وفت أمته، و لقد رفع عيسى بن مريم الى السماء و قد عاهد قومه على الوفاء لوصيه شمعون بن حمون الصفا فما وفت أمته، و اني مفارقكم عن قريب و خارج من بين أظهركم و لقد عهدت الى امتي في علي بن أبي طالب، و انها (الامة) لراكبة سنن من قبلها من الأمم في مخالفة وصيي و عصيانه، ألّا و إني مجدد عليكم عهدي في علي‏ «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى‏ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ..»- ايها الناس! ان عليا إمامكم من بعدي و خليفتي عليكم و هو وصيي و وزيري و اخي و ناصري و زوج ابنتي و ابو ولدي و صاحب شفاعتي و حوضي، من عصى عليا فقد عصاني و من عصاني فقد عصى اللّه، و من أطاع عليا فقد اطاعني و من اطاعني فقد أطاع اللّه عز و جل، ايها الناس! من ردّ على علي في قول او فعل فقد رد عليّ، فمن ردّ عليّ فقد رد على اللّه فوق عرشه، ايها الناس! من اختار منكم على عليّ إماما فقد اختار عليّ نبيا، و من اختار علي نبيا فقد اختار على اللّه عز و جل ربا، ايها الناس! ان عليا سيد الوصيين و قائد الغر المحجلين و مولى المؤمنين، وليه وليي و وليي ولي اللّه و عدوه عدوي و عدوي عدو اللّه عز و جل، ايها الناس! أوفوا بعهد اللّه في علي يوف لكم بالجنة يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 356

«أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» تعم في تأويله و عموم لفظة كافة العهود، مهما خص خطابه بني إسرائيل، فإنما العبرة في الخطابات القرآنية عموم الألفاظ دون خصوص الموارد.

«وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ»:- «إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ» (16:) 51) فوفاءه تعالى بعهده لهم منوط بعد ما مضى بأن يرهبوه لا سواه، كما و ان التوراة «فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» (7:) 154) و أن دعوته رغبا و رهبا مستجابة شريطة المصالح الواقعية:

«فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ، وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ» (21: 90).

و الرهبة مخافة مع تحرّز و اضطراب، و هكذا يجب أن يخاف اللّه من عدله و ظلمنا، و فضله و جهلنا، لا من ظلمه فان اللّه ليس بظلام للعبيد! «وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ» حصر الرهبة في اللّه، أن يخاف اللّه- فقط- دون سواه-

«من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شي‏ء و من لم يخف اللّه أخافه اللّه من كل شي‏ء» «1».

و ترى ما هو موقف الفاء و النون في: «فارهبون»؟ .. علّ الفاء عاطفة لمدخولها على محذوف من شكله- إذ لا شاهد لغيره- ك «إياي ارهبون فارهبون» إيحاء إلى استمرارية الرهبة، تعقيبا زمنيا، و تكاملها رتيبا: أن يعيش الإنسان رهبة من اللّه لا سواه، و يتخطاها إلى أقوى فأرقى .. و هكذا يجوز اجتماع عاطفين في جملة واحدة، حيث الواو لعطف المحذوف على المذكور، و الفاء هنا لعطف المذكور على محذوف من جنسها، و ما أحسنه جمعا في عطف و عطفا في جمع!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عيون اخبار الرضا عن الامام الرضا (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 357

و النون ليس نون الجمع لمكان كسرها و الأمر، فليحذف نون الجمع جزما، بل هي نون الوحدة، الدالة بكسرها على ياءها: «فارهبوني».

إذا فهنا حصر بتقديم المفعول: «إياي» و تأكيد ان له بتكرار المفعول «ني» و الفعل: «ارهبون فارهبون» فهي أكثر من‏ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

و فيه إيماء إلى ما كان البعض من الأحبار يرهبون من بعض رهبة النكسة الروحية الإسرائيلية، و من الفراعنة رهبة الفرعنة، و من الأثرياء رهبة الفقر، فهم كانوا في ثالوث الرهبة من غير اللّه، فليتركوه إلى مثلث الرهبة من اللّه! فذكر نعمة اللّه و الوفاء بعهد اللّه و حصر الرهبة من اللّه، إنها تتبنّى الإنسان- أيّا كان- وفيّا نقيا زاهدا تقيا يعيش مرضاة اللّه، فيؤمن باللّه و لا يكفر، و لا يلبس الحق بالباطل و يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة و يركع مع الراكعين ...:

وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41).

أمران يتوسطهما نهيان، أمر بالايمان بما أنزل اللّه أولا و بتقواه أخيرا، و نهي عن أن يكونوا أوّل كافر بما أنزل، و أن يشتروا بآياتنا ثمنا قليلا:

سياج رباعي لا قبل له، و لا سيما لمن ذكر نعمة اللّه، و وفى بعهد اللّه، و رهب اللّه! فالنهيان سياجان لتحكيم الأمر الأوّل، و الأمر الأخير سياج للثلاثة:

تقوى اللّه في الايمان به و ترك ما نهاه.

و هل إن «ما أنزلت» يخص القرآن، فانه النازل من سماء الوحي، أم هو الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فانه ايضا نازل برسالته:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 358

«قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» (65: 11) حيث النزول هنا و هناك ليس من السماء، فان اللّه ليس ساكن السماء و ماكنها، و إنما من مقام عل، فكما القرآن نازل إلى أراضي القلوب من سموّ الربوبية و سماتها، كذلك الرسول نازل برسالته و وحيه، سواء، حيث هما من عل إلى دان.

و قد تتحمل الآية كلا النازلين، قرآن محمد و محمد القرآن، مهما كان القرآن الوحي أصلا، و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حامله فرعا، حيث الدليل الأصل على رسالته هو القرآن، كما هو وحيه الأصيل.

فالقرآن يصدق ما معهم من كتب الوحي و أنبياءه، و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يصدق ما معهم من أنبياءه و كتب الوحي، فمحمد هو القرآن كما القرآن هو محمد مهما اختلفا في مظهرين! «1».

هنا «ما أنزلت» و في أخرى‏ «بِما أَنْزَلَ اللَّهُ» (2: 91) يعمان الرسول و القرآن، و أما «آمِنُوا بِما نَزَّلْنا ..» (4: 47) فإنها خاصة بالقرآن لمكان التنزيل: التدريج، و لا تدرّج لأصل الرسالة، و لكنما القرآن منزل:

لنزوله جملة واحدة ليلة القدر، و منزّل أيضا لنزوله متدرجا نجوما طوال الرسالة.

و ترى ماذا يعني‏ «مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ»؟ و معهم خليط من وحي الأرض و السماء! فهل القرآن يصدقه كلّه: «لِما مَعَكُمْ»؟ ام بعضه: الذي لم يحرّف بعد ف «لبعض ما معكم» و النص «ما» لا «بعض ما»؟!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» هذه الآية من يس كما تأتي تجعل الرسول ذكرا و قرآنا مبينا إذ لا مرجع ل (هو) الا هو و لم يسبق ذكر من القرآن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 359

هناك آيات تصرح أن اليهود و النصارى حرفوا قسما و أقساما من آيات الوحي: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ‏ ... فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» (2: 79) فكيف يصدق القرآن ما يكذبه من آيات توراتية أو إنجيلية دخيلة؟.

إذا فليس القصد كلّ ما معهم، فهل هو- إذا- ما معهم من آيات الوحي لا سواها: «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» (5: 48) فالمصدّق هو كتاب اللّه، لا كل كتاب و لا كل ما معهم؟ و إنما بعض ما معهم؟.

و ليس في تصديق البعض لما معهم تحريض على الإيمان به، فان كلّ لاحق- لا محالة- يصدق البعض من سابقه، إذ لا يمكن تكذيبه ككلّ و إن كان كلّه من وحي الأرض!. بل و لا يستطيع أي كاذب محتال أن يجمع أكاذيب لا صدق فيها، فإنما يخلط كذبا بصدق، و يظهر كلّا بمظهر الآخر بغية الإضلال: «فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهناك استحوذ الشيطان على أولياءه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» بل و حتى إذا حاولوا أن يجمعوا كذبا خالصا لا يستطيعون!.

فترى إذا لا يقصد من «ما معهم» لا كله لمكان التحريف، و لا بعضه إذ لا يفيد، فما هو المصدّق إذا؟.

أقول: انه البشارات الموجودة في التوراة كما في آيات: «وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ» (2: 89) فقد كانوا من قبل أن يأتي محمد بالقرآن يستفتحون على المشركين انه يأتي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 360

بأقوى شريعة إلهية تقضي عليكم‏ «فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ...».

ف «ما معكم» هنا و في‏ «يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ» (2: 91) و في‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ» (4: 47). إنها- فقط- البشارات المودوعة في كتب السماء، ثم و فيما يعني الأعم منها و سائر آيات الوحي لا نجد «ما معهم» او «معكم» بل‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» (2: 97) و 3: 3) و «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ» (5: 48) و لا يعني بين يدي الرسول كرسول إلا ما أنزل قبله على من سبقه من الرسل، و قد يشير إلى ما معهم: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (2:) 146 و 6: 20) «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ ..» (7: 157).

و قد جمعنا في مؤلف خاص ما معهم من بشارات بحق الرسول الأعظم محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1» نستعرضها في مجالاتها حيث تشير إليها الآيات، و هنا مجال لاستعراض مواصفات القرآن في كتب السماء،.

«بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ» له وجهتان: عامة تشمل عموم القرآن، و خاصة تخص ببشارات للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فالقرآن و نبيه مبشّر بهما على سواء في كتب السماء.

فمن العامة: «ذلِكَ- الْكِتابُ- لا رَيْبَ فِيهِ»: ذلك القرآن هو الكتاب الذي بشر به من قبل: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى‏ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ. أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ» (26: 197).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رسول الإسلام في الكتب السماواة و فيه 59 من بشارات الوحي فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 361

و إليكم نموذجا من هذه التي كانت في التورات و لعبت بها ايدي التحريف و التجديف- مواصفات للقرآن كما في الأصل العبراني من كتاب اشعياء- 28: 9- 14.

إت مي يوره دعاه و إت مي يابين شموعاه غكمولي محالاب عتيمّي مشّادايم (9) كي صولا صاو صولا صاو قولا قاو قولاقاو زعير شام زعير شام (10) كي بلعجي شافاه و بلا شون أحرت يدبّر إل هاعام هذّه (11) أشر آمر إليهم زئت همّنوحاه هانيحو لعايف و زئت همّرجعاه و لا آبوء شموع (12) و هاياه لاهم دبر يهواه صولا صاو صولا صاو قولا قاو قولا قاو زعير شام زعير شام لمعن يلخو و خاشلو آحور و نشبار و نوقشو و نلكادوا (13) لاخن شمعو دبر يهواه أنشي لاصون مشلي هاعام هذّه أشر ييرو شالام (14):.

«لمن ترى يعلم العلم و لمن يفقّه في الخطاب أ للمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي (9) لأنه امر على أمر، امر على أمر، فرض على فرض فرض على فرض هنا قليل و هناك قليل (10) لأنه بلهجة لكناء و بلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب (11) الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح و هذه هي الرفاهية فأبوا أن يسمعوا (12) لذلك سيكون كلام الرب لهم أمرا على أمر، أمرا على أمر، فرضا على فرض فرضا على فرض هنا قليلا و هناك قليلا لكي يذهبوا و يسقطوا إلى الوراء فيحطّموا و يصطادوا فيؤخذوا (13) لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء! ولاة الشعب الذي في أورشليم» (14).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 362

إنها بشارات لطيفة للقرآن و نبيه، تصريحا بلغته «بلسان غير لسانهم» أن نبيا غير عبراني يكلمهم بغير لغتهم، بقرآن نازل عليه نجوما: «أمرا على أمر فرضا فرض هنا قليلا و هناك قليلا» قائلا لشعب إسرائيل: «هذه الراحة أريحوا الرازح: التعبان، و هذا هو السكون» و لكن ..

فمن يصدّق- إذا- بهذا النبي و بقرآنه، فقد صدق بسائر كتب السماء المبشّرة بهما، و من يكذب فقد كذب بها أجمع، فالمسلم مسلم و موسوي و مسيحي حيث صدقهما في إسلامه، و الكافر بالقرآن كافر بموسى و المسيح و من بينهما، الذين بشروا به! «آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ ...»!

و ترى النهي يخص اوّلية الكفر به فلو كفروا به آخرا او بعد آخرين فلا نهي؟! كلّا- إنه نهي عن مطلق الكفر به أولا و آخرا، و ذكر الاوّل هنا إيماء تنديد، أنهم رغم ما كان عليهم الإيمان به قبل الآخرين، لأنهم كانوا «يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ» دون الآخرين‏ «وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ» فكانوا أوّل كافر به- هنا ينهون عما كفروا خلاف المترقب منهم، نهيا عن واقع هو أفضح منكر فعلوه، كالنهي عن أكل الربا أضعافا مضاعفة: «لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً». إذ كانوا كذلك يفعلون، ف: لا تكونوا أوّل كافر بمحمد و القرآن، و بأنّ وصفه و كتابه في كتبكم مذكورة!.

فيا لهذا الكفر الاوّل من ضلال ذاتي و إضلال للآخرين، فإنهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 363

يستدلون بكفر الاوّلين فلا يؤمنون، أن لو كان خيرا فليكونوا هم أوّل المؤمنين إذ كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! و أهل البيت أدرى بما في البيت.

فقد منعوا هنا أن يكونوا قدوة في الكفر، فحجة للنفوس الضعيفة، رغم ما عليهم أن يكونوا أوّل المؤمنين، فقدوة للآخرين.

ثم الاوّلية المنهية هنا تعم الزمنية و الرتبية، و قد جمعوا بينهما، فكانوا أوّل كافر به منذ أوّل المواجهة من العهد المدني، قبل أن يكفر به غيرهم من مشركين و كتابيين هناك، و كانوا كذلك أوّل كافر به في ألدّه و أشده، مهما كانت الاوّلية الزمية في العهد المكي للمشركين حيث لم يكن هناك كتابيون، فهم أولاء كانوا الاوّلين و الآخرين في الكفر المكي، و بنو إسرائيل هم الاوّلون زمنا في العهد المدني، و رتبة في المكي ايضا و في كل العهود، حيث لم يعهد كفر أكفر من كفرهم و حتى الآن!.

«أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ» عليه وزره و وزر من كفر به إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أوزارهم، كما أن اوّل من آمن به له أجره و أجر من آمن به إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أجورهم، و كما

ثبت عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «من سن سنة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أجورهم شي‏ء و من سن سنة سيئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أوزارهم شي‏ء».

... وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (4) .. إنها آيات بيّنات في كتابات الرسل الإسرائيلين تحمل بشارات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 364

بالقرآن و نبيّه، اشتروا بها ثمنا قليلا أن حرفوها بزيادة أو نقصان او تحوير و تغيير، في التوراة و الإنجيل و ما بينهما من كتاب، كيلا يبقى أثر من محمد و قرآنه فيها، مغبة ثمن قليل و كلّ ثمن بجنب آيات اللّه قليل!: من أثمان مادية يأخذونها من الأثرياء المستغلين، و من معنوية يكتسبونها: بقاء و مزيدا على مناصبهم الروحية الإسرائيلية، و مكانة عند الفراعنة و القياصرة، هؤلاء الذين يرون شريعة القرآن خطرا على كيانهم، و مكانتهم فيما بينهم من الربانيين و الأحبار- أم ماذا!.

فهذه الأثمان كلها قليلة وجاه آيات اللّه، دون أن يعني «قليلا» هنا مقابل الكثرة، إذ لا كثرة في ايّ الأثمان في هذه التجارة البائرة الخاسرة، حيث تبوء خواء في الدنيا و الآخرة! هنا المثمن المباع هي آيات اللّه، و الثمن ما يكسبونه بتحريف آيات اللّه، و الثمن لا يشترى و إنما المثمن هو المباع و المشترى، فما هو التوجيه لكون الثمن هنا هو المشترى؟.

علّه أن الثمن هو المرغوب فيه دائما مهما كان نقدا أم سواه، فالذي يقدم ببيع ما عنده بما ليس عنده، ليس الّا لرغبته فيما ليس عنده، مهما كان ما عنده مرغوبا فيه أو مرغوبا عنه.

فهؤلاء المحرفون آيات البشارات كانوا راغبين عنها إذ يرون فيها انقضاء النبوة الإسرائيلية، و هم يزعمونهم: شعب اللّه المختار! فإذ يجدون ثمنا عما لا يحبون فهم إلى هذه التجارة يجنحون، فاشتراء ثمن ببيع آيات اللّه يوحي بأنهم عنها إليه راغبون.

فليس الثمن و المثمن إلّا بمقياس الرغبة، حيث المرغوب فيه ثمن و المرغوب عنه او المفضل عليه مثمن، ففي تبادل سلعتين تعتبر كل واحدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 365

ثمنا و مثمنا باعتبارين، دون فرق بين المتاع و النقد، فقد يكون النقد ايضا مثمنا كما يكون ثمنا.

و هنا- إذ كانت الرغبة- كل الرغبة- فيما يعتاضون به آيات اللّه المرغوب عنها، أصبح العوض ثمنا يشترى و الآيات مثمنا يشرى.

و لأن ما رغبوا فيه قليل بجنب آيات اللّه- ايّا كان- فالنهي يستأصل هذه التجارة بكل أثمانها أنها قليلة!.

و قد يكون المثمن مرغوبا عنه و لا يكون الثمن مرغوبا فيه و لكنه أفضل من الثمن عنده، فهنا يشرى المثمن و لا يشتري الثمن و كما في يوسف عند إخوته: «وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» (12: 20) دون و اشتروا به ثمنا بخسا.

إنهم اشتروا بآيات البشارة- و هي عهد اللّه- ثمنا قليلا: «وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا» (16: 95) خشية من الناس و تقاة: «وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ»- «فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ» (5:) 44) خلافا للميثاق الذي أخذ عليهم‏ «.. فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ» (3: 187).

تجارة خاسرة إسرائيلية أن اشتروا بآيات البشارات ثمنا قليلا، رهبة من السلطات الزمنية، خشية من الناس و تقاة و حفاظا على كياناتهم أحبارا و رهبانا، و استدرارا لما يدرّ عليهم من أموال‏ «1» فاشتروا هذه الأثمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 73 مجمع البيان: روي عن أبي جعفر (عليه السلام) في هذه الآية قال: كان حي بن اخطب و كعب بن الأشرف و آخرون من اليهود لهم مأكلة على اليهود في كل سنة فكرهوا بطلانها بأمر النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فحرفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته و ذكره، فذلك الثمن الذي أريد في الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 366

القليلة بعهد اللّه و ميثاقه الذي واثقهم به و النبيين.

فآيات البشارات كانت تباع حفاظا على السلطات الإسرائيلية، و آيات العقوبات على الأغنياء و الكبراء تباع حتى يأخذوا هم رواتبهم و لا تقع العقوبات على الأغنياء، و آيات الجزاء على الظلامات و الفرعنات تباع حتى لا تمس من كرامة الفراعنة و القياصرة .. و هكذا كانت شنشنة الإسرائيليين القديمة و حتى الآن، و إنهم كما يصرحون يرون: «ان الغاية تبرر الوسيلة» فيبرّرون التحريفات بغية الغايات.

وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42):

نهيان في استفهام انكار و تنديد: عن لبس الحق بالباطل، و عن كتمان الحق: «لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (3: 71) فالحق المكتوم بغير لباس او لبس الباطل لا يلبس بالباطل، و انما هو الحق الظاهر غير المكتوم يلبس بالباطل‏ «1».

فكما ان لبس الحق الظاهر بالباطل محرم، كذلك كتمان الحق، فلا بد للحق ان يظهر بصورته و صيغته حتى يتبعه أهلوه، و للباطل ان يظهر كذلك حتى يجتنبه مخالفوه، فلا تخلطوا الحق بالباطل فتعمى مسائله و تشكل معارفه.

و هم في هذا المجال من التحريف و التجديف كانوا و لا يزالون يزاولون كتمان الحق إن استطاعوا او تلبيسه بالباطل و تخليطه إذا ظهر، فقد حذفوا بشارات عن كتابات النبيين، و كتموا أخرى عن بسطائهم، أو حرفوها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «و تكنموا الحق» هنا مجزوم بالعطف على «لا تلبسوا ..» فتكرر لاء النهي و المعنى: و لا تكتموا الحق، لا ان تكون الواو حالية و تكتموا منصوبا ب «ان» المقدرة، حيث الحق المكتوم لا يلبس بالباطل الا بعد ظهوره او إظهاره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 367

بتلبيسها بالباطل، فيما كانت ظاهرة، أم علّها إذا ظهرت لا تدل على ما تدل، و القرآن يفضحهم في مواضيع شتى نتحدث عنها في طياتها.

و «لا تلبسوا» قد تكون من اللبس: التغطئة و التعمية خلاف الإيضاح، او من اللّبس الستر، الذي هو ايضا من اللّبس، فقد كانوا يلبسون الحق بالباطل: «لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ» (6: 137).

تغطية للبشائر الواضحة بما يعمي عليها من باطل التحوير و التغيير، او ما يسترها عن الدلالة بتأويل: تغيير اللفظ او تأويل المعنى، و هما باطلان يلبس بهما الحق، و لكنما الحق و هو: الثابت عند الفحص- له دولة، طالما الباطل- و هو الزائل عند الفحص- له جولة.

تعال معنا الى بشارات العهدين: عتيق التوراة و جديد الإنجيل، ترى عجبا من ذلك اللّبس و اللّبس و الكتمان الشامل، تجد تجديفاتهم و تحريفاتهم، بعد الفحص عن الآيات التي تحمل بشارات، و قد أفردنا بحثا عنها في: «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و في التالي عرض لبعض نماذجها:

عمدوا الى «محمد» في التوراة فحرفوه الى غير محمد كما في: (هوشع 9: 5- 9) من قوله تعالى حسب النص العبراني:

كي هنّيه هالخو ميشود ميصرييم تقبصم موف تقبرم «محمّد» لكسفام قيموش ييراشم حوح باهاليهم (6) بائوا يمّي هفقوداه بائوا يمّي هشّلوم يدعو ييسرائل إويل هنابئ مشوكاع إيش هاروح عل رب عونحا و ربّاه مسطماه (7).

ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب، فمصر تجمعهم و موف تدفنهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 368

و «محمد» لفضتهم و القرّاص يرثهم و العوسج يستولي على أخبيتهم 6 تأتي أيام التمييز. تأتي أيام الجزاء سيعلم إسرائيل ان النبي السفيه و رجل الروح مجنون لكثرة اثمك و شدة الحنق ف «محمد لفضتهم» تصريحة بينة باسمة المبارك و انه سوف يأخذ من فضتهم: أموالهم- جزية، و ان إسرائيل سيعلم ان هذا النبي- لكثرة اثمك و شدة الحنق- سوف يسفّه و يجنّن و هو رجل الروح القدسي الرسالي ...

و لكنهم حنقا عليه و حمقا منهم و إثما به دخلوا في مربع من التحريف:

«و القراص يرث فضتهم الشهية»- 2 «يرث القريص نفائس فضتهم»- 3 «الأمكنة المرغوبة لفضتهم» 4 «بيت الأمل لفضتهم»! ترجمة للإسم العلم: «محمد» بوصف: الشهية- نفائس- الأمكنة المرغوبة- بيت الأمل ترجمات متضادة مع بعض، مضادة للأصل معنويا و أدبيا.

فالأصل العبراني يقول: «موف تقبرم- موف تقبرهم- محمّد لكسفام- محمّد لفضتهم- قيموش ييراشم- القريص يرثهم!- حوح باهاليهم- يكون العوسج في منازلهم»! و هذه الترجمات الأربع حذفت حروفا أو أضافت أخرى، و قدمت كلمات و أخرت أخرى، حتى لبست حق البشارة بباطل لا يمتّ بصلة لبشارة.

فالترجمة الثانية جعلت «محمد» المفرد- جمعا «محمديم» مضافا- بحذف اللّام- إلى كسفام: «محمد يم كسفام»: نفائس فضتهم، و الأصل «محمد لكسفام» و أسقطت ميم الجمع عن «ييراشيم» فأصبحت الجملة: «قيموش ييراش محمد يم كسفام» فترجمت ب: يرث القريص نفائس فضتهم، و هم في عجالة التحريف نسوا أن يضيفوا ياء الجمع إلى محمد و يحذفوا اللام من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 369

«لكسفام» و ميم الجمع من «ييراشم» فأصبحت الترجمة غلطة على غلطات! و كذلك بقية الترجمات المفصلة بأخطائها في كتابنا: «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

فإذ قد نرى أنهم يعمدون إلى «محمد الرسول» في هذا النص ليحيدوه إلى غيره، فما ذا- إذا بالنسبة لما لا يحمل اسمه الخاص!.

فويلهم إذ يلبسون الحق بالباطل و يكتمون الحق و هم يعلمون حقه من باطله! وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ‏ 43 هل أمروا هؤلاء بالصلاة و الزكاة حسب شريعة التوراة؟ و قد أمروا قبله أن يؤمنوا بشريعة القرآن و لها صلاة و زكاة غير مالها! أم أمروا بهما حسب الإسلام و هم بعد لم يسلموا فلا يمكن إقام الصلاة و إيتاء الزكاة إسلاميا قبل الإسلام، و لو أتي بهما كأعمال و أقوال فأين إذا ركن النية المنوطة بقصد القربة؟.

في الحق إن الآية مما تدل على تكليف الكفار بالفروع كما هم مكلفون بالأصول، فيعذبون بتركها كترك الأصول و يسألون: «ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ .. وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ، وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ» (74: 47)، حيث يردف ترك الصلاة و الزكاة- قدما- على الخوض و التكذيب! و أما أنهم لا يستطيعون الإتيان بهكذا فروع مشروطة بنية القربة و الإسلام و هي مستحيلة قبل الإسلام؟ فهذا امتناع بالاختيار و لا ينافي الإختيار، حيث أمروا قبله بالإسلام ثم بفروعه، فإن أسلموا أمكن لهم الإتيان بهكذا فروع، و إن لم يسلموا تركوا الواجبين بما اختار و الكفر!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 370

فالصلاة الصلاة، الزكاة الزكاة ايها المسلمون، النصارى و اليهود، ايها الإنسان أيا كان:

«لأن الصلاة الإقرار بالربوبية، و هو صلاح عام، لان فيه خلع الأنداد و القيام بين يدي الجبار بالذل و الاستكانة. و الخضوع و الاعتراف و طلب الإقالة من سالف الزمان، و وضع الجبهة على الأرض كل يوم و ليلة، و يكون العبد ذاكرا للّه تعالى غير ناس، و يكون خاشعا وجلا متذللا طالبا راغبا في الزيادة للدين و الدنيا، مع ما فيه من الانزجار عن الفساد، و صار ذلك عليه في كل يوم و ليلة، لئلا ينسى العبد مدبره و خالقه فيبطر و يطغى، و ليكون في ذكر خالقه و القيام بين يدي ربه زجرا له عن المعاصي، و حاجزا و مانعا عن أنواع الفساد» «1».

فليس اللّه في عز ربوبيته بحاجة الى ذل عبوديتنا، إلّا ما يرجع إلينا من مصالح عقيدية- أخلاقية- فردية و جماعية، من اقام الصلاة، لولاها علها لم تجب! او إذا وجبت فلقوام القيم النفسية امّا هيه.

و «علة الزكاة من أجل قوت الفقراء و تحصين اموال الأغنياء، لأن اللّه عز و جل كلف اهل الصحة القيام بشأن اهل الزمانة و البلوى كما قال اللّه: «لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ»

في أموالكم إخراج الزكاة و في أنفسكم توطين النفس على الصبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم اللّه عز و جل، و الطمع في الزيادة، مع ما في ذلك من الزيادة و الرأفة و الرحمة لأهل الضعف، و العطف على اهل المسكنة، و الحث لهم على المواساة و تقوية الفقراء، و المعرفة لهم على امر الدين، و هو عظة لأهل الغنى و عبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم، و ما لهم من الحث في ذلك على الشكر للّه عز و جل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 74 عن عيون الاخبار في العلل التي ذكرها الفضل بن شاذان عن الرضا (عليه السلام) فان قال: فلم أمروا بالصلاة؟ قيل: لأن ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 371

لما خوّلهم و أعطاهم، و الدعاء و التضرع و الخوف من ان يصيروا مثلهم في امور كثيرة، في أداء الزكاة و الصدقات وصلة الأرحام و اصطناع المعروف» «1».

و هل الصلاة فرادى أم و في فرض ثان جماعات؟ فرضا على فرض؟.

«وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» توحي بفرض ثان، فالركوع لوحدك فرض، و ركوعك مع الراكعين فرض على فرض، فالركوع هنا يعني الصلاة، و المعية تعني جماعة الصلاة، معية الزمان و المكان و الكيان و الأركان، لا فحسب معية في أصل الإتيان بها، فانها حاصله بأصل الصلاة و قد امر بها قبل آن! «2».

و لماذا عبر عن الصلاة هنا بالركوع دون السجود و هو أفضل؟ علّه لأنه أوّل ما يشاهد من حالة الصلاة و لا سيما في الجماعات، و لذلك تسمى الركعة ركعة دون «سجدة»! و أن السجود يعم الصلاة و غيرها كعبادة مطلقة، و الركوع هيئة خاصة بالصلاة، لذلك ترى هذه المعية في الركوع فقط دون السجود حتى فيما يذكران معا: «يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» (3: 43) دون «و اسجدي مع الساجدين» حيث هو أعم من الصلاة و سواها، طالما يذكران على سواء فيما لا تعنى جماعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 74 عن من لا يحضره الفقيه و كتب الرضا علي بن موسى (عليه السلام) الى محمد بن سنان فيما كتب اليه من جواب مسائله ان علة الزكاة من اجل ...

(2) ملحقات الاحقاق ج 14: 276 اخرج العلامة اخطب خوارزم في المناقب ص 189 ط تبريز قال- سند متصل الى ابن عباس- في قوله تعالى: «وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» نزلت في رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و علي (عليه السلام) خاصة و هو اوّل من صلى و ركع ثم ذكر عدة طرق اخرى عنه مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 372

الصلاة: «أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (2:) 125) «تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» (48: 29) و لأن السجود أفضل من الركوع تراه مقدما عليه حتى في ركوع جماعة الصلاة: «.. وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» (3: 43).

ثم و لم يختص الركوع بين أركان الصلاة بذكره إلّا في هذه الآية تدليلا على عنايتها بالجماعة دون ذكر ركن أو أركان، و الركوع هو الخاص بالصلاة من بين أركانها، فتكبيرة الإحرام تعم هذه الصلاة و ما لا ركوع فيها و لا سجود كصلاة الأموات، و الحمد و سورة بعدها تقرئان في كافة المجالات، و أذكار الركوع و السجود، و حالة التشهد و السلام، و سبحانيات الأخريين، لا تخص شي‏ء منها بالصلاة، اللهم إلّا الركوع و هو أبرز حالة و لا سيما في الجماعات!.

و هذه الآية مما تدل على وجوب الجماعة في الصلاة، و سوف نوافيكم بإشباع البحث في آية صلاة الخوف إن شاء اللّه تعالى.

و بما أنهم أمروا بالصلاة بعد الإيمان، يعرف أن الصلاة هي أوّل ظاهرة من مظاهر الإيمان العبادة، فهي قمة العبادات و عمود الدين.

ثم أمروا بالزكاة بعد الصلاة تدليلا على أنها أفضل و أوجب العبادات المالية الجماعية، ثم‏ «وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» ايحاء أن الصلاة التي هي صلة فردية باللّه، يجب أن يؤتى في جماعات المصلين، فأصبح هذا الدين جماعيا في كافة الجهات و حتى في الصلاة.

و علّ المعية هنا فيما عنت، انضمام بني إسرائيل إلى صفوف المصلين المسلمين، دون استقلال لهم في صلاتهم إن أسلموا، استغلالا لقوميتهم، حيث الإسلام ينسي ما كان، و يتبنى الحياة جديدة نظيفة عن كافة الأدران، إضافة إلى ما يتعلمون من فرائض الصلاة حين يركعون مع الراكعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 373

أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (44).

استفهام إنكار بتقريع حار، يوجه إلى بني إسرائيل عجالة في هذه المواجهة المندّدة، و إلى كل من يفعل كما يفعلون: «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» و هو كل خير من قال او فعال او حال‏ «وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» نسيان تجاهل أم جهلا عن تناس‏ «تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» في تطبيق البر الذي به تأمرون، و لا سيما و أنتم في تركه تجاهرون حال‏ «وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» عقلا لموازين البر و الأمر به عن الكتاب، و عقلا في الدعوة إلى داعية الكتاب.

فقد ينهى الإنسان عما هو فاعله، أم يأمر بما هو تاركه غافلا قاصرا و في جهل مركب قاهر فهو معذور، أم علما بفرضه فعلا أو تركا و لكنه معذور يبين عذره او يبيّن فهو معذور، و أما أن ينسى نفسه فيما ينهى او يأمر عارفا عاقلا عن الكتاب و في أمره، متعمدا في تناسي الهزء و اللّامبالاة، فذلك قطعا غير معذور، فإنه خلاف عامد للكتاب و عقل الكتاب و عقل الأمر، كيف‏ «وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ»؟

فهنا الآية لا تندد- فقط- بترك البر، بل و يثقل النهى عن الأمر به و أنت تاركه‏ «1» فهو الذي ياتي بويلات عقائدية و أخلاقية و عملية فيمن يؤمرون.

إن معترف العصيان في هذا الميدان يخيّل إليه نفي العصيان، و إلا فكيف ينهى عالم الكتاب و يأمر و هو نفسه في نسيان! أم هو العالم يلعب بأمر الكتاب- إذا- فلا أصل للكتاب الذي يلعب به حملته! فهنالك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر

عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: انما يأمر بالمعروف و ينهى عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 374

شروط عدة لمن يأمر او ينهى‏ «1» و ليس بذلك الفوضى! فمن الشروط المتأصلة في جواز الأمر و النهي- الواجبين بشروطهما- أن لا ينسى الآمر الناهي نفسه فيما يأمر او ينهى، و هناك لأقل تقدير آيات ثلاث تدلنا بوضوح على هذا الشرط الأصيل، هذه أولاها، ثم ما ينقل عن العبد الصالح شعيب (عليه السلام):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المنكر من كانت فيه ثلاث خصال: عامل بما يأمر به تارك لما ينهى عنه عادل فيما يأمر عادل فيما ينهى رفيق فيما يأمر رفيق فيما ينهى‏ (11: 403 ح 10 الوسائل).

(1).

في اصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: قلت له عن الدعاء الى اللّه و الجهاد في سبيل اللّه اهو لقوم لا يحل الا لهم و لا يقوم به إلّا من كان منهم، او هو مباح لكل من وحّد اللّه عز و جل و آمن برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و من كان كذا فله ان يدعو الى اللّه عز و جل و الى طاعته و له ان يجاهد في سبيله؟ فقال: ذلك لقوم لا يحل الا لهم.، و لا يقوم بذلك الّا من كان منهم، قلت من أولئك؟ قال: من قام بشرائط اللّه تعالى في القتال و الجهاد على المجاهدين فهو مأذون له في الدعاء الى اللّه تعالى و من لم يكن قائما بشرائط اللّه تعالى في القتال و الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد و لا الدعاء الى اللّه حتى يحكم في نفسه بما أخذ اللّه عليه من شرائط الجهاد- الى ان قال- و من كان على خلاف ذلك فهو ظالم و ليس من المظلومين و ليس بمأذون له في القتال و لا بالنهي عن المنكر و الأمر بالمعروف لأنه ليس أهلا من ذلك و لا مأذونا في الدعاء الى اللّه- الى ان قال- و لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به و لا ينهى عن المنكر من قد أمر ان ينهى عنه، ثم قال (عليه السلام) ثم ذكر من اذن له في الدعاء اليه بعده و بعد رسوله في كتابه فقال: و لتكن منكم امة- الآية- ثم اخبر عن هذه الآمة و من هي و انها من ذرية ابراهيم و إسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير اللّه قط، الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم و إسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه إذ هب عنهم الرجس و طهرهم تطيرا- الحديث-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 375

«يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» (11: 88) حيث تعد مخالفته إلى ما ينهى عنه في عداد الإفساد و كما الأولى تعده خلاف العقل.

و التعدية هنا ب «الى» مضمّنة نفي الميل الى ما ينهى، لا- فقط- نفيا لاقترافه، بل و اقترابه و الميل إليه! فلا يحق او يجوز لناه ينهى عن خطيئة إلا بعد ما هو ناه نفسه قبله حتى عن الميل إليه، فضلا عن اقترافه أو اقترابه، فان ثالوث الميل قلبيا و الاقتراب أو الاقتراف عمليا هو من الإفساد، و كيف لي بذلك النهي و انا رسول؟ ف‏ «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» ما بقيت لي نفس أو نفس! ثم و ثالثه تثقل على آمره و ناهيه المقت الكبير: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» (61: 3) «1» فصحيح ان فاعل المعروف غير الآمر به، و تارك المنكر غير الناهي عنه مع توفر شروط الأمر و النهي، انه ممقوت عند اللّه، و كذلك الذي- فقط- يترك المعروف و يفعل المنكر، و لكنما المقت الكبير و الإفساد الكبير و خلاف العقل إنما هو على من يجمع بين الأمر قوليا و تركه عمليا، فإنه بذلك يأمر بالمنكر و ينهى عن المعروف بذلك الجمع المفسد المزري الضاري.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان (28: 298- 301) تجد تفصيلا لتفسير آية المقت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 376

فهنا الآيات، و على ضوءها الروايات تأتي بحملة قارصة كبيرة على هؤلاء المفسدين اللاعبين بالدين، الذين يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم، او يخالفون الناس الى ما ينهونهم عنه، و يقولون ما لا يفعلون،

«لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به و لا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه» «1»

حيث القصد من الأمر و النهي هو الإصلاح العقلاني للمجتمع، خلقا لجوّ الصلاح و الطمانينة ليعيشوا على رغد أمن و راحة، إضافة إلى ما فيه من نبعة فياضة للخير من الآمرين و الناهين، فكل إناء إنما يرشح بما فيه، و المسلم الملي‏ء من الخير يرشح به بعمله و لسانه، و النزيه عن الشرير يرشح كذلك نهيا عنه، واجبان: ذاتي يتبنّى إصلاح الفرد، و جماعي يتبنىّ إصلاح المجتمع، ابتداء من الذاتي و انتهاء إلى الجماعي.

نرى خطباء من أمة الإسلام يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم و هم على حدّ ما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «تقرض شفاههم بمقاريض من نار» «2»

«يجاء بأحدهم يوم القيامة فيلقى في النار فتذلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار» «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا من الحديث المفصل الماضي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قلت له عن الدعاء إلى الجهاد ..

(2)

الدر المنثور 1: 64- أخرجه جماعة عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء؟ قال: خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم و هم يتلون الكتاب أ فلا يعقلون.

(3)

الدر المنثور 1: 64- أخرجه احمد و البخاري و مسلم عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: يجاء برجل يوم القيامة فيلقى في النار ... فيقولون: يا فلان! ما لك ما أصابك؟ الم تكن تأمرنا بالمعروف و تنهانا عن المنكر فيقول: كنت آمركم بالمعروف و لا آتيه و أنهاكم عن المنكر و آتيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 377

ف‏

مثل العالم الذي يعلّم الناس الخير و لا يعمل به كمثل السراج يضي‏ء للناس و يحرق نفسه‏ «1» و لمّا يقال لأحدهم: يا ويله بم لقيت هذا إنما اهتدينا بك؟ قال: كنت أخالفكم الى ما أنهاكم عنه‏ «2».

فليكفّ الذي لا يعمل عن أن يأمر، أو ليعمل ثم يأمر و كما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «من دعا الناس الى قول او عمل و لم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف او يعمل ما قال و دعا إليه ..» «3»

فكفه عن الأمر بما ترك يكف عنه سخط اللّه- مهما كان هو تاركا كسائر التاركين- كما أن عمله بما قال يكف عنه سخط اللّه، حيث المعني من السخط في هذا المجال هو المقت الكبير، فلو ترك الأمر بشي‏ء و هو تاركه، كف عنه المقت الكبير، مهما بقي عليه مقت صغير.

ف‏

«من لم ينسلخ من هواجسه، و لم يتخلص من آفات نفسه و شهواتها، و لم يهزم الشيطان، و لم يدخل في كنف اللّه تعالى و توحيده و أمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذه الصفة فكلما أظهر أمرا يكون حجة عليه، و لا ينتفع الناس به .. و يقال له يا خائن! أ تطالب خلقي بما خنت به نفسك و أرخيت عنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 65- أخرجه الطبراني و الخطيب في الاقتضاء و الاصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(2)

المصدر عن جابر عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: اطلع قوم من اهل الجنة على قوم من اهل النار فقالوا: بم دخلتم النار و انما دخلنا الجنة بتعليمكم؟

قالوا: انا كنا نأمركم و لا نفعل.

(3) الدر المنثور 1: 65- أخرجه الطبراني عن أبي عمر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 378

عنانك؟!» «1».

أجل و انه‏

«كالذابح نفسه» «2»

كما يذبح غيره، مهما كان يهديه إن لم يعرف نفاقه! فهو من‏

«أعظم الناس حسرة يوم القيامة» «3»

«و أشدهم عذابا» «4».

و من أجهل و أمقت و أفسد و أضلّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ما تترك المعروف جهارا، او تفعل المنكر جهارا، ثم تأمر بما تترك و تنهى عما تفعل، و لماذا؟!.

أ لأنك تحب اللّه فتطالب حق اللّه من خلقه، فلما ذا تخونه أنت مجاهرا مستهترا حرمات اللّه أمام خلقه، خلافا للعقل الذي يرشدك إلى خلافه، فإما عملا بما تأمر، او تركا للأمر، فلما ذا تأمر بما تجاهر في تركه، أو تنهي عما تجاهر في فعله؟.

او إصلاحا للناس؟ و ليس إلّا إفسادا لهم و تشجيعا للناس في الجهار بترك شريعة الناس.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 75 عن مصباح الشريعة عن الامام الصادق (عليه السلام).

(2)

تفسير البرهان 1: 93- العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: قلت له قوله: «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ»، قال: فوضع يده على حلقه، قال: كالذابح نفسه.

(3)

نور الثقلين 1: 75- عن اصول الكافي باسناده الى خيثمة قال قال لي ابو جعفر (عليه السلام) ابلغ شيعتنا ان أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلا ثم خالفه الى غيره.

(4)

نور الثقلين 1: 75 عن اصول الكافي باسناده الى قتيبة الأعشى عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه قال: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من وصف عدلا و عمل بغيره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 379

فما لم تامر أنت التارك، او لم تنه أنت الفاعل، فالناس أمثالك يظلون كما هم، أما إذا تخالفهم الى ما تنهاهم عنه أو تأمرهم به، فأنت أنت تفسدهم أكثر مما كانوا، و تفسد نفسك أكثر مما كنت!.

أما نفسك فإنها حجة ظاهرة عليك: لم تقول ما لا تعمل و أنت تعلم؟.

و أما هم، فقد يزدادهم جرأة في هتكهم حرمات اللّه، و وهنهم في عقيدة الايمان، إن كانت، او فسقا على فسق، إذ يرون أنك مستهزء بشريعة اللّه، و إلّا فما ذا يدفعك للأمر بما أنت تاركه، أو النهي عما أنت فاعله؟. فهو- إذا- يستجر اللعنة و النكبة إلى الآمر الناهي و من يأمرهم و ينهاهم-

«لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له و الناهين عن المنكر العاملين به» «1»

«فانهوا عن المنكر و تناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي» «2».

هذه المظاهر المنافقة- و لا سيما ممن يتظاهر بخلافها- إنها الآفة التي تصيب النفوس بالشك و الريبة، لا في الدعاة وحدهم، بل و في الدعوات ذواتها أيضا، لا سيما إذا كانت الدعاة من رجال الدين، حيث العرف الأكثري الساذج من الناس تعتبرهم تجسيدا للدين، فنفاقهم في أقوالهم و أفعالهم يحسب نفاقا في الدين نفسه، فهي التي تبلبل قلوب الناس و أفكارهم، حيث يسمعون قولا جميلا و يرون معه فعلا أو تركا قبيحا، فتمتلكهم الحيرة بين هذا و ذاك، فلا يعودون يثقون بالدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة ج 11 ص 420 ح 9 محمد بن الحسين الرضي في نهج البلاغة عن علي (عليه السلام).

(2) المصدر ح 8 عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 380

فالكلمة الرنانة الطنانة البراقة، الخاوية عن واقع معناها، إنها تأخذ موقعها في مسامع السامعين، و لكنها تصل هامدة إلى قلوبهم، مجتثة بقية الإيمان لو كانت او تزيد في رينها و فسقها إن لم تكن.

في حين أن الكلمة التي تخرج من القلب، المفسّرة بالعمل قبل الإفصاح بها، إنها ترجمة حية عن جمال الواقع، فتصل الى شغاف القلوب وضّاءة فعّالة، مهما لم يكن لها طنين او بريق: «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» فالكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب و إذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

و ما أجمله جمعا بلاغة الكلام و فصاحته، مع التفسير الحيّ له من صاحب الكلام في فعل او حال، و أجمل منه الابتداء بالفعل ثم القول و كما

يروى: «مروا الناس بالمعروف و انهوهم عن المنكر بغير ألسنتكم».

هنا القرآن يوجّه بني إسرائيل حين يواجههم و يوجّه الناس أجمعين الى ضرورة الموافقة بين القول و العمل و ضراوة المنافقة بينهما، بخطاب تنديد و تهديد: «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ..» كما هناك يواجه المؤمنين بنفس النمط «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ» و هنالك ينقل عن العبد الصالح شعيب‏ «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» و معها عشرات من الروايات، التي تبرز شرط العمل كأبرز شرط للسماح بالأمر و النهي صلاحا ذاتيا و إصلاحا للمجتمع‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 65- اخرج ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان و ابن عساكر عن ابن عباس انه جاءه رجل فقال: يا بن عباس! إني أريد ان آمر بالمعروف و انهى عن المنكر، قال: او بلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: فان لم تخش ان تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب اللّه فافعل، قال: و ما هن؟ قال: قوله عز و جل: أ تأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم، أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني؟ قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 381

«أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ»: حيث كانوا قبل ظهور الإسلام يأمرون المشركين بالإيمان بمحمد الرسول الآتي و كانوا يستفتحون عليهم:

«فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ» و ثم إذ ظهر الإسلام كان البعض من أحبارهم يأمرون أقاربهم من المسلمين بالثبات على ايمانهم و هم به كافرون، او كانوا يأمرون فقراءهم و يكتمون الحق عن أغنيائهم مخافة انقطاع رواتبهم أو عطياتهم، و كانوا يأمرون الناس باتباع التوراة و هم يخالفونه في تكذيب محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، و يأمرون الناس بطاعة اللّه و هم يعصونه في محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! و هذه الشيمة الشنيعة مخالفة للكتاب‏ «وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ» و مخالفة للعقل‏ «أَ فَلا تَعْقِلُونَ».

تخالف كتاب اللّه الآمر بتصديق الرسول الآتي محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الناهي بصورة عامة- عن الأمر بشي‏ء مع نسيان نفسك فيه، و تخالف العقل حيث يستقبح النفاق، و لا سيما هذا النفاق الذي يظهر في الأمر و النهي بمظهر الإصلاح الوفاق، و إن هو إلّا إفسادا: ثالوث المخالفة للحق، يحمله أنكم‏ «تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ»! فلو أنهم كذبوا محمدا في صيغة واحدة قبل أن ياتي و لمّا، لم يكن بذلك الخطير المضلّل لضعفاء النفوس، حيث تكذيبهم- و هم أهل كتاب- بعد تصديقهم، يؤكّد لمن سواهم أن محمدا لم يأت ذكره في الكتاب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- قوله تعالى: لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند اللّه ان تقولوا ما لا تفعلون- أحكمت هذه الآية؟ قال: لا- قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب‏ «ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ»- أحكمت هذه الآية؟ قال: لا- قال:

فابدأ بنفسك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 382

«أَ فَلا تَعْقِلُونَ»: تقريع بعقولهم المعقولة المشدودة بأهوائهم في ثالوث اللّاعقل من أمرهم، فالمقصود من الأمر و النهي إرشاد الغير إلى ما يصلحه و اجتناب ما يفسده، و إرشاد النفس و الإحسان إليها أولى من الغير، و تقديم الغير خلاف العقل، و أن من يعظ الناس و لا يتعظ يرغّب الناس إلى العصيان أكثر مما كان، سنادا إلى أنه لو كان صادقا و صالحا لما تركه إلى غيره، و هذا يناقض غرض الأمر و النهي و هو الإصلاح، و أن على الآمر الناهي- إذ يهدف الإصلاح- أن يحاول في تأثير أكثر فيما يزاول، فإذ يقرنه بما يشجّع إلى العصيان، كان قد جمع بين المتضادين‏ «أَ فَلا تَعْقِلُونَ»؟

و هل يشترط في جواز الأمر و النهي كون الآمر الناهي فاعلا لكل برّ مستطاع له و تاركا لكل شرّ كذلك سرا و علانية، أن يكون عدلا في واقع أفعاله و تروكه لا في ظاهر حاله فحسب؟

قد يظن إطلاق التنديد له في آيتنا «أ تامرون» و لكنها لا تعني إلّا ما «تأمرون .. و تنسونه» و أما المعروف الذي لم تأمروا به و أنتم تاركوه فلا تشمله «تأمرون». و كذلك التنديد في آية النهي: «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» يخص المنع عن النهي بخصوص ما لم يتناه عنه، و آية المقت لا تشمل نصا غير القول المنافق للفعل، أمرا أو نهيا ثم لو اختص السماح بالأمر و النهي بهذا المضيق في العدالة المطلقة لم تكن في هؤلاء العدول الكفاية في هذه المكافحة، لأنهم قلة و الفاسقين كثرة، و واجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر هو المكافحة الكافية، فقد يكون‏

«حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك و تنهاهم عما تنهى نفسك» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لما نزلت هذه الآية «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً .. جلس رجل من المسلمين يبكي و قال: انا عجزت عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 383

كما النهي في‏

«لا يأمر بالمعروف من قد امر ان يؤمر به و لا ينهى عن المنكر من قد امر ان ينهى عنه» «1»

يخص التارك لخصوص ما أمر به و الناهي عن خصوص ما اقترفه، و كما يخصه «من دعى الناس إلى قول أو عمل و لم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال و دعى إليه» و معها أحاديث عدة.

كما و أن مورد آية البر لا يتجاوزه، و لا إطلاق لها تخصها بالعدالة المطلقة- «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» في ذلك البر .. لا و في بر لم تأمروا به! و أقل ما هنا أن البر المأمور به هو القدر المتيقن دون سواه.

و هل التارك لمعروف خفية يأمر به، أو الفاعل لمنكر خفية ينهى عنه؟

قد يقال: نعم، إذ يصلح المجتمع و لا يفسد حيث لا يعلمون كيف هو في سرّه؟ مهما كان كالذابح نفسه، فان المتجاهر يذبح نفسه و غيره فعليه اللّعن و المقت الكبير حيث يضر و لا ينفع، و غير المتجاهر إنما يذبح نفسه و ينجي غيره، فأمره و نهيه واجبان من الناحية الجماعية و محرمان من الناحية الشخصية، فان ترك الواجب و ترك الأمر به فإثمان، و إن أمر به فإثم واحد لتركه، و مقت مّا لأمره مع تركه رغم أنه واجب، واجب أن يأمر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نفسي كلفت اهلي، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حسبك ... (وسائل الشيعة ج 11 ص 417 عن الكافي).

و

في الوسائل ص 420 ح 10- في الإرشاد عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قيل له: لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله و لا ننهى عن المنكر حتى ننتهي عنه كله؟

فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا بل مروا بالمعروف و ان لم تعملوا به كله و انهوا عن المنكر و ان لم تنتهوا عنه كله».

(1). الدر المنثور 1: 65- أخرجه الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 384

بعد ما يأتمر، فإذ لم يأتمر سرا فليأمر.

او يقال: إن امر التارك و نهي المقترف لا يجبان و لا يحرمان، كما قد يستوحى من بعض ما مرّ من أحاديث، و لكنما المستفاد من إطلاقاتها كتصاريح و لا سيما الآيات، أن امره و نهيه محرمان ما دام لم يأتمر أو لم ينته و إن كانا هنا أخف مقتا ممن يجاهر بترك المعروف و فعل المنكر، و هما واجبان بوجوب الائتمار و الانتهاء، فالإتيان بالمعروف و ترك المنكر، واجبان شخصيا، و واجبان جماعيا، مهما كان الاوّل على الأعيان و الثاني كفائيا، فمن يترك واجبا و يفعل منكرا فيما لم يقم بالأمر و النهي من فيه الكفاية فتركه للواجب تركان، و فعله المنكر محظوران، مهما كان في ظرف الكفاية تركا أو محظورا واحدا، فالتارك الآمر بما ترك هو كتارك الأمر بما ترك و أضل سبيلا، كما الفاعل لما ينهى، فانه رغم ما أمر و نهى، لم يأمر و لم ينه كما أمر، و هكذا يصبح الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر سياجا سلبا و إيجابا على الجماعة المؤمنة، أن يحاولوا دوما في إصلاح أنفسهم و إصلاح مجتمعهم، لكي ينمو و يزدهر في كافة الأجواء و الأرجاء.

و لا عجب أن يجتمع الأمر و النهي في الأمر و النهي، حيث النهي عنهما فعلي، و الأمر بهما شأني يفرض على المكلفين الائتمار و الانتهاء ثم الأمر و النهي.

و إن تعجب فعجب قول جمع من الفقهاء كيف لم يشترطوا في وجوبهما الفعلي ائتمار الآمر و انتهاء الناهي، و عساكر الآيات و في ظلالها الروايات تمنع عن فعلية الأمر إلّا للمؤتمر، و عن فعلية النهي إلا للمنتهي؟! حيث تحثّ على الأمر بعد الايتمار، و على النهي بعد الانتهاء.

و سوف ناتي على قول فصل في حدود و شروط الأمر بالمعروف و النهي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 385

عن المنكر في مجالاتها الأنسب طيات آياتها إنشاء اللّه تعالى.

وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (46) هنا- و بعد أوامر ثمانية و نواهي أربعة متداخلة، و تنديد ببني إسرائيل- يأمرهم اللّه بغية تحقيق الائتمار و الانتهاء، و التحليق على عوائقهما، أن يستعينوا اللّه بالصبر و الصلاة، بجناحي السلب و الإيجاب.

و الصبر هو الصبر الاستقامة في الهزاهز، و الصمود عن نزوات الشهوات و اللذائذ، فرضا أم سواه، دون اختصاص بصبر الصوم‏ «1» و ان كان هو من أفضل الصبر، لبعده عن الرياء، و نفيه او حصره للشهوات، و هو سياج شامل لسائر الصبر بسائر مجالاته و جلواته، كصبر على المصيبة و صبر على الطاعة و صبر عن المعصية» «2».

إنه الصبر الجميل المتدرع درع اللّه الحصين في كل بأساء و ضراء و حين البأس، كطاقة صامدة سلبية تسلب عن الإنسان كل انتكاسة إيمانية في داخله أو خارجه، و يعبّد له الطريق لخوض المعارك الإيجابية في سبيل اللّه، فإنه شاق طويل، ملي بالأشلاء و الدماء، بالعقبات و العقوبات، و الصبر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إذ لو كان هو المعني فقط لأتي بلفظه الخاص «الصوم» لا ما يشمله و غيره، فالأحاديث المفسرة له بالصوم من باب الجري و بيان الصداق الأجلى، كما

يرويه في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية: يعني بالصبر الصوم و قال: إذا نزلت بالرجل النازلة و الشدة فليصم فان اللّه عز و جل يقول: و استعينوا بالصبر و الصلاة، و رواه مثله في الفقيه عنه (عليه السلام).

(2) الدر المنثور 1: 66- اخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر و ابو الشيخ في الثواب و الديلمي في مسند الفردوس عن علي قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 386

هو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة المشاكل‏

«و هو للمؤمن أمير جنوده» «1»

في كافة المعارك، بل‏

«الصبر نصف الإيمان» «2»

بل‏

«هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد و لا إيمان لمن لا صبر له» «3»

و

«لصبر أحدكم ساعة في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خاليا أربعين سنة» «4».

دون الصبر التخاذل و التكاسل و المسايرة الممايرة، صبرا على الظلم و الضيم، صبر الهزيمة الخواء عن استقامة الإيمان و الصمود!.

كما الصلاة هي الصّلات، فإنها عمود الدين و عماد اليقين، مهما شملت كافة الصّلات الإيجابية باللّه، إلّا أن الصلاة هي القمة فيها، و كما كان يستعين بها الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «5» عند الغمّة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 66- اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس قال: كنت ذات يوم رديف رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الا أعلمك خصالا ينفعك اللّه بهن؟ قلت: بلى- قال: عليك بالعلم فان العلم خليل المؤمن و الحلم وزيره و العقل دليله و العمل قيّمه و الرفق أبوه و اللين اخوه و الصبر امير جنوده.

(2)

الدر المنثور 1: 66 اخرج البيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «الصبر نصف الايمان و اليقين الإيمان كله».

(3) الدر المنثور 1: 66- اخرج ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان و البيهقي عن علي (عليه السلام) قال: ..

(4)

الدر المنثور 1: 67- أخرجه البيهقي عن عسعس‏ ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقد رجلا فسأل عنه فجاء فقال: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اني أردت ان آتي هذا الجبل فأخلو فيه و أتعبد فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: المسلم الذي يخالط الناس و يصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس و لا يصبر على أذاهم.

(5)

الدر المنثور 1: 67- اخرج احمد و ابو داود و ابن جرير عن حذيفة قال: كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 387

حيث القلب يستمد منها قوة و تحس الروح فيها صلة، و النفس زادا أنفس من عرض الحياة الدنيا و أعمال الآخرة، فهي إذا مدد حين تنقطع المدد، وصلة و رصيد حين تنقطع الصلة و ينفد الرصيد، و مزيد و مزيد للرعيل الأعلى كالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو الوثيق الصلة باللّه، دائب الرصيد إلى اللّه.

هنا يتقدم الصبر على الصلاة- على فضلها- لأنه سلب و هي إيجاب:

إزالة لما لا ينبغي ثم تحصيلا لما ينبغي، فإنه تخلية و هي تحلية، فهو تهيئة و هي تعبئة.

و هذان الجناحان هما لزام كل سالك سبيل اللّه، دون اختصاص بمن خوطبوا من بني إسرائيل و كما في سائر القرآن، حيث يعم كافة الأشباه و النظائر، و كما اختصت آية أخرى بالمؤمنين: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (2: 153) توجيها دائبا مستمر الإيحاء من هنا و هناك، دون رسوب فيمن خوطبوا في عجالة النزول.

فالصبر الذي لا يستعان به، و الصلاة التي لا يستعان بها، هما خاويان عن الصبر و الصلاة، و هما لغير الخاشعين:

«وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ».

ترى ما هي الكبيرة هنا إلّا على الخاشعين؟ أ هي الصلاة المستعان بها و نعما هي، فإنها ثقيلة شاقة إلّا على الخاشعين؟ أم الصلاة أية صلاة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا أحزنه امر فرغ الى الصلاة.

و

فيه اخرج احمد و النسائي و ابن حبان عن صهيب عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: كانوا- يعني الأنبياء- يفرغون إذا فزعوا الى الصلاة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 388

فكذلك الأمر، و إن كانت أخف حملا و ثقلا؟ أم هي الاستعانة بالصبر و الصلاة مهما اختلفا حملا في الاستعانة بهما؟ أو هي هما و ما قبلهما من فعل الواجبات و ترك المحرمات، مهما اختلفت هي ايضا في حملها؟.

لكلّ وجه على اختلاف درجاتها و مرجحاتها لفظيا او معنويا، و الجمع أوجه، فان الصلاة- فقط- كبيرة إلّا على الخاشعين، فضلا عن المستعان بها، و الاستعانة بها، ثم و الصبر، و المستعان به منه، و الاستعانة به، ثم و ما تقدمهما من فعل الواجبات و ترك المحرمات، و إن كانت الصلاة المستعان بها، غير الكبيرة الثقلية، تكفي حملا لحمل الصبر و ما قبل الصبر «وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ».

و من هم الخاشعون؟: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ»!.

الخشوع من حالات القلب: «أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» (57: 16) و الخضوع للجوارح، و يجمعهما خنوع التعظيم و العبودية للّه، فمن خشع قلبه للّه خضعت جوارحه للّه، و قد تخضع الجوارح و القلب فارغ فالخشوع للّه يتبنّى الإيمان السليم أن يخنع الخاشع بكله للّه، مهما اختلفت مراتبه، فكيف يفسر ب «الَّذِينَ يَظُنُّونَ ..» و الظن في مجال المعرفة مقدوح لا ممدوح؟: «ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ‏ ... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (6: 116).

و الحل أن الظن قد يقابل العلم كما هنا فهو ظن العقل و لا يكفي في الإيمان، بل و علم العقل إنما يفيد إذا دخل القلب و تحول اعتقادا راجحا ثم اليقين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 389

و قد يقابل اليقين فهو ظن القلب الذي يساور العلم، و هو أحيانا أقوى من علم العقل حيث الظانون في قلوبهم كلهم مؤمنون باللّه خاشعون للّه رغم العالمين بعقولهم إذ قد يجحدون: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» و آية الخاشعين الظانين تعني ظن القلب وجاه اليقين، لا ظن العقل وجاه العلم، كما و يدل عليه الخشوع و هو حالة للقلب لا سواه، و تماثلها آيات أخرى تمدح هكذا ظن: «قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» (2: 249) «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ» (:) «وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً» (72: 14) أو تندد بمن لا يظن: «أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» (83: 4).

فغير فصيح و لا صحيح أن يعبّر عن العلم بالظن‏ «1» و القرآن كتاب عربي مبين، و الظن هو الظن في موقفه و العلم هو العلم، طالما كان ظن القلب علما و من أقواه، كما و علم العقل ظن في القلب او من أضعفه، و من المايز بين العلم و اليقين و ظنهما، ان العلم و ظنه يحصلان ببرهان عقلي او حسي دون حاجة الى مراس في صالح، و احتراس عن اي طالح، و لكنما اليقين او ظنه لا يحصلان بعد العلم العقلي إلّا بالأعمال الصالحة و ترك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هكذا تفسّر الأحاديث التي تفسر الظن هنا بالعلم او اليقين كما

رواه في التوحيد عن علي (عليه السلام) في الآية: يعني انهم يوقنون انهم يبعثون و يحشرون و يحاسبون و يجزون بالثواب و العقاب و الظن هاهنا اليقين‏ (نور الثقلين 1: 76).

فلا يعني ان لغة الظن هنا تعني اليقين، بل ان الظن منهم يقين و كما

يروي في البرهان 1: 95- عن علي امير المؤمنين (عليه السلام): «يقول: يوقنون انهم مبعوثون و الظن منهم يقين»

إذ لا يصح ان تعني لغة الظن من بعض الظن و من بعض اليقين، اللهم الا باختلاف موطنه كظن القلب الذي هو علم و يقين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 390

الطالحة، حيث اليقين هو سكون الفهم و اطمئنان القلب مع ثبات الحكم، و العلم ثبات للحكم و قد يكون القلب جاحدا او مضطربا، لذلك ترى أن لليقين مراتب و ليست للعلم مراتب.

و ترى أليس يقين القلب من علمه و عينه و حقه أحق أن يكون تفسيرا للخشوع من ظنه؟ فلما ذا جي‏ء هنا بظنه، و كأن الخاشعين الموقنين في مثلثة الدرجات ليسوا من الخاشعين؟!.

ذلك لأن الآية تعني جموع الخاشعين بدرجاتهم، المبتدئة بظنه- بدرجاته- ثم يقينه بعلمه: «عِلْمَ الْيَقِينِ» و عينه: «عَيْنَ الْيَقِينِ» و حقه: «حَقُّ الْيَقِينِ» طالما اليقين في مثلّثه ايضا درجات فوق بعض و دون أن تقف لحدّ في مجالات المعرفة و الزلفي، كما المعروف: اللّه- ليس له حد محدود.

فكما أن ظن القلب و يقينه درجات فالخاشعون به أيضا درجات، يجمعها أن الصلاة أم ماذا؟ ليست عليهم كبيرة ثقيلة، فإنهم لبخوعهم أمام اللّه و خشوعهم للّه، يجنحون إلى عبادة اللّه و طاعته، بل ليس لهم في الحياة ألذّ من الصلاة، و كما

يروى عن أوّل العابدين: «و قرة عيني الصلاة»

: «يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ» (21: 90).

هؤلاء هم الخاشعون‏ «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» فما هو لقاء الرب؟ و ما هو الرجوع إلى الرب؟ دعامتان للخاشعين بعد الصلاة و هي عمود الدين؟

قرينة قرن اللقاء بالرجوع تدلنا على أن ليس اللقاء هو الرجوع مطابقا حتى يفسر برجوع الموت او الحساب او ما بعد الحساب، المختصة باللقاء منذ الموت، بل هو لقاء الرب ايّا كان و ايّان، في حياة الدنيا العمل و لا حساب، او الأخرى الحساب و لا عمل، و من أسباب لقاء الرب يوم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 391

الدنيا هو العمل الصالح النابع عن الإيمان: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (18: 110) «وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (2: 223) كدحا و سعيا و عناء في إزالة الحجب و ترك الهوى حتى يلقاه: «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» (84: 6) لقاء معرفيا و رضوانا من اللّه و هي الحياة الطيبة: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ..» (18: 110). و أما اللقاء القرب قيوميا و علميا فهو حاصل بين اللّه و ما سواه دون كدح، فإنه لزام ربوبيته و مربوبيتها، كما و أن اللقاء المعرفة الضرورية بالموت ثم الحشر يعم الجميع، مهما اختص لقاء الرحمة و الثواب بالذين آمنوا و عملوا الصالحات.

«الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ» هم العالمون باللّه العارفون اللّه فهم ملاقوه هنا بما خشعوا، كما يلاقونه في الأخرى لقاء مزيد المعرفة و الثواب، و الرحمة و الرضوان، فخشوعهم يدفعهم هنا إلى لقاءه- و لقاءهم يدفعهم إلى تحضيرهم للقائه منذ الموت، و علمهم بلقائه بعد الموت يدفعهم إلى مزيد و مزيد من خشوعهم و لقاءهم يوم الدنيا.

«وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» بعد لقيا الدنيا المعرفية بالصالحات، و بعد لقيا الحساب المؤقت في البرزخ، و لقيا الحساب النهائي يوم القيامة، و تكملات للقاء المعرفة و الرضوان، فمن ثمّ الرجوع الى اللّه، إلى عالم من الراحة و الأمان، تحت ظلال الإيمان و رحمة الرب المنان.

فليست- فقط- الحياة الأخرى في القيامة الكبرى هو مجال الرجوع إلى اللّه، مهما كان من درجات الرجوع: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (2: 28) حيث يتأخر الرجوع الأصل الأخير، عن الحياة الأخيرة بعد الحياة البرزخية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 392

و قد يعني من الرجوع هنا منذ الموت الى ما بعد الحياة الأخرى:

رجوعان الى اللّه يتقدمان الآخر، مثلث من اللقاء الرجوع و الرجوع اللقاء، بعد لقيا الحياة الدنيا المعرفية دون رجوع: «وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا» (24: 64) فهنا لقاء بلا رجوع كما هنا، و لقاء رجوع في مثلث الموت و الحشر و اللقاء الرجوع الأخير بعد الحياة الحشر.

و لماذا الرجوع و لم نكن قبل في هذه الثلاث، فانه الموت الأول، ثم الحياة البرزخية لاوّل مرة و الحياة الأخرى و رجوعها كذلك؟

الجواب: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» حيث كنا عنده دون تكليف و اختيار، إذ كنا أجنة في بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، و ما قبله أو بعده قبل التكليف و الإختيار، ثم خوّلنا إلى حال الإختيار- نعمل ما نشاء- اختبارا، ثم نرجع إليه منذ الموت كما كنا، إلى عالم الرب دون تدخّل فيه لأحد «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ».

فهنا صبر و صلات أخرى باللّه، خاشعين للّه، و من ثمّ لقاء اللّه و الرجوع إلى اللّه‏ «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ. (47) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (48).

آيات ثلاث تفضّل بني إسرائيل على العالمين و تحذرهم عن الجزاء يوم الدين، ثانيهما في السورة نفسها: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ. وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» (2:)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 393

123 و ثالثتها في الجاثية: «وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ. وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (45: 16).

و إنها تحدد موقف هذا التفضيل مبدئيا انه ليس فوضى جزاف، و إنما جعلت فيهم النبوة و نجاهم اللّه من آل فرعون مغبّة أن يؤمنوا، فقد فضّلوا هكذا لكي يحملوا الرسالة، رسلا كما حملوها، ثم أمة فمنهم من حملها و منهم دون ذلك، فلما بغوا و طغوا فلم يحملوها أمة بدلت الفضيلة رذيلة حيث بدلوا نعمة اللّه كفرا و أحلوا قومهم دار البوار.

كما أن هذه الفضيلة- في موقفها- تتحدد بالعالمين زمنهم، أو و منذ بزوغ الرسالات حتى الرسالة الموسوية، و من ثم العيسوية و ما بينهما، دون أن تعدوها إلى ما بعدها: «.. ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» حيث هي تتلو في الجاثية آية بغيهم بعد تفضيلهم.

إذا فهي فضيلة محددة وقتيا و في إطار الإيمان، و أما بعد الرسالة الإسلامية، و أما بعد كفرهم و تكذيبهم بآيات اللّه، و أنهم كانوا أوّل كافر بها إذ جاءت، إنهم بعد هذا و ذاك أصبحوا من أرذل الأمم، مهما كان المؤمنون منهم أفضل الأمم قبل الإسلام.

فإنما الايمان و عمل الصالحات فقط هما المنجيان يوم الجزاء، دون الانتسابات الجوفاء و الهويات و الأمنيات الفارغة: الهباء، «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (4: 123).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 394

فالحساب شخصي، و التبعة فردية، و «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»- «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» «لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ»: «إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (20: 109) «إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً» (19: 87) «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (43: 86) «إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» (21: 28) ...

مبدء اسلامي عظيم هو التبعة الفردية القائمة على المساعي و حتى في إطارات الشفاعات، مما يستجيش اليقظة الدائمة في الضمائر، في حالة عوان بين الخوف الرجاء.

و طالما الخطاب هنا لبني إسرائيل و لكنه يشمل كل نفس حيث النص:

لا تجزي نفس عن نفس، لا إسرائيلي عن إسرائيلي! فمربع السلب يسلب عن كل نفس أي جزاء و أية شفاعة أو عدل أو نصرة «إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏»: اللّه دينه.

1 لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ..» (31: 31).

فالجزاء هي الكفاية و الغنى كما المجازاة هي المكافاة، فالجزاء يوم الجزاء انما هي لكل نفس عن نفسها دون سواها، و لو كان الجازي هو الرسول فضلا عن سواه من والد او ما ولد ام من ذا؟ «يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» (44: 41) لا يغني «مولى» حتى لو كان نبيا «عن مولى» حتى زوجته و ولده كما في نوح لابنه و زوجته، و في لوط لزوجته: «.. فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ» (66: 10).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 395

و ذلك خلاف ما كانت اليهود و النصارى يزعمونه أن أنبياءهم أو آباءهم الأنبياء سوف يجزون عنهم و يغنون، أو لأنهم أبناء اللّه و أحبائه فلا يعذّبون، «وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى‏ نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» (5: 18).

كما و أن هناك هرطقات كنسية تهرف بما لا تعرف أو تتجاهل قائلة:

«أن المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا» (رسالة بولس إلى غلاطية صح: 3) .. ان تحمّل جميع لعنات شريعة الناموس بصلبه .. أنه جازى كل ملعون بلعنه صلبا و كذلك ذوقه حرّ النار، فأمته- إذا- أحرار، بعيدون عن النار، رغم تصريح التورات: «ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها و يقول جميع الشعب آمين» (تثنية 27: 26) و هكذا الإنجيل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل فمن نقض أحدى هذه الوصايا الصغرى و علم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات» (إنجيل متى 5:

17- 19) و من طريف الإعجاز أن بولص ناقض شريعة الناموس وافق اسمه إثمه حيث يعني الصغير! «1».

2 وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ: كضابطة عامة ألّا يقبل شفاعة للمجرمين من شافع، أو منهم أن يستشفعوا، حيث المرجع لضمير المؤنث في «منها» أعم من نفس شافعة أو مشفع لها: «يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ» (2: 254) «فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ» (74: 48).

3 وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ‏ و العدل هنا و العدل هو المثل، او الفدية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع «عقائدنا» ص 165- 170 حيث فصلنا فيه الكلام ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 396

المماثلة «1» فليس لأي نفس مثل تملكه حتى تؤتيه بديلا، و لو كان‏ «لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ».

4 وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ‏ هؤلاء المحرومون من الجزاء الكفاية و العدل و الشفاعة، ليس لهم أي ناصر و لا عاذر من دون اللّه: «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

قول فصل حول الشفاعة:

الشفاعة هي من الشفع قبال الوتر، فالعاصي بنفسه يستحق العقاب فيضم إلى نفسه وجيها عند صاحب الأمر فيستعين به في الغفران، إذا لم تحصل له وسيلة أخرى‏ «2» و كانت الشفاعة في إطار التشريع، أو أن سببا من الأسباب ينضم إلى الموجود الناقص فتتم السببية بهذه الشفاعة التكوينية إذا كانت في إطار التكوين كمعجزات الرسل، فإنها أفعال للّه لا سواه، تجري على أيدي أنبياء اللّه تدليلا على أنهم يحملون رسالة من اللّه، فلا يكفي أن يخلق المسيح من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ليكون طيرا إلّا بإذن اللّه و هذه شفاعة تكوينية للتدليل على الرسالة الإلهية.

و تأتي الشفاعة بمختلف صيغها و مسوغاتها أم الإحالة لها أو التي تفرضها في (31) موضعا من الذكر الحكيم:

و من آيات الشفاعة ما تنحو منحى التكوينية أو أنها الهدف الرئيسي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 68- اخرج ابن جرير عن عمر بن قيس الملائي عن رجل من بني امية من اهل الشام احسن الثناء عليه قال: قيل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما العدل؟ قال: العدل الفدية.

(2) كالتوبة و رجاحة الحسنات و اجتناب كبائر السيئات، حيث الشفاعة هي في المرحلة الرابعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 397

فيها: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ‏ ... ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ..» (10: 3) فإنها الشفاعة في الخلق و الإيجاد، فلا وسيط فيه تغييرا و تطويرا بعد الخلق الأوّل إلّا بإذنه، فإنه الوحيد في شئون الخالقية «1».

ثم هناك آيات كثيرة أخرى بين ناكرة نافية للشفاعة في التشريع مثل التي مضت و أضرابها حيث تنفي الشفاعة يوم الدين و تنكرها من كل نفس لكل نفس: «وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ» من نفس شافعة ان تشفع او مشفّع لها ان تشفّع، و ان كان الآية تبدء بخطاب بني إسرائيل، فإن هذه من مقررات يوم الدين، لهم و لمن سواهم على سواء، و آيات نفي الشفاعة لا تنفي مطلق الشفاعة و إنما المنفي فيها هو الشفاعة المطلقة.

و هنا آيات اخرى تثبت الشفاعة بعض الإثبات للّه و بأذن اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الشفاعة منها تكوينية و منها تشريعية، و من الثانية ان تشفع نفس متقاضية حكا من ربه بعطف من اللّه و لطفه كما فعل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في تحويل القبلة، او ان تشفع حكمة و مصلحة فيما يروم، و على اية حال فلا شفاعة في التشريع كأصل لغير اللّه فانه الشارع لا سواه، ثم لا إذن و لا توكيل و لا تخويل في تشريع لسواه! و من الاولى ان يشفع نفسه برحمة من اللّه حتى يوحي أو يلهم و يعلم، او يشفع فعله بارادة اللّه حتى يجعل له آية كما في المسيح (عليه السلام)، او يشفع استغفاره باستغفار المذنبين حتى يغفر اللّه لهم كما في الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، او يشفع نفسه بوجاهتها برحمة اللّه و هكذا الأمر، او يشفعها بشخص المذنب او بهما- و في كل ذلك ليس اللّه بحاجة الى شفع، فقد يشفع دون شفيع كما في التوبة او رجاحة الحسنات ام ترك كبائر السيئات في باب المعاصي، ام يشرع دون شفع كما في سائر الأحكام التشريعية، فما شفع الشافع إلا تكريما له، و تقريبا للمشفع له ان يتربى تربية بغية أن يشفع له.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 398

و يجمعها: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (39: 44) فله أن يشفع برحمته، أو يأذن لمن يشفع فيمن يشفع بشروط.

فلا شفاعة إلّا بإذنه، دون وكالة و تخويل: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (2: 256) «وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» (34:) 23) إذن للشافع أن يشفع و للمشفّع له أن يشفّع له، شفع الإذن و إذن الشفع، و ليس الإذن فوضى جزاف، و إنما على شروط فيهما، جميعا او فرادى، و منها الرضى: «وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى‏» (53: 26): يرضى الشافع دينا و يرضى له قولا: «يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (20: 109) «لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38) و يرضى المشفع له دينا: «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» (21: 28) من ارتضى اللّه دينه و هو

«من ساءته سيئة و سرته حسنته» «1»

أن يعيش ديّنا مهما يفلت منه فالت و يفوت عنه فائت، و يرضى له قولا في اعتذاره.

و منها الحفاظ على عهد الرحمان و اتخاذه: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً، وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى‏ جَهَنَّمَ وِرْداً. لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً» (19: 87) لا المتقون إلّا من اتخذ عند الرحمن عهد الشفاعة و اذنها، و لا المجرمون إلا من اتخذ عند الرحمن عهد العبودية:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

يروى عن الامام الرضا (عليه السلام) (تفسير البرهان عن امالي الصدوق) و في الكافي عن حفص المؤذن عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في رسالته الى أصحابه قال: و اعلموا انه ليس يغني عنكم من اللّه احد من خلقه لا ملك و لا نبي مرسل و لا من دون ذلك، من سره ان ينفعه شفاعة الشافعين عند اللّه فليطلب الى اللّه ان يرضى عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 399

«أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ..» أن يعيش حياته تطبيقا لعهد العبودية إلّا أن يفلت فالت من اللمم أم ماذا؟

و منها الشهادة بالحق و هم يعلمون: «وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (43: 86) 4 فلا شفاعة ممن يدعون من دون اللّه و لا لهم، اللهم إلّا لأهل اللّه شافعين و مشفعين أن يشهدوا بالحق عالمين، فيشهد الشافع أن فلانا كانت حياته إيمانية و يشهد المشفع بأعماله ما يصدّق الشافع‏ «1».

فمن عاش حياة الإيمان و مات على إيمان، و بقيت له سيئات من كبائر لم تكفّر و لم تغفر، فهو الذي يشفع له يوم القيامة، حيث التوبة شافعة يوم الدنيا لأي ذنب، و إن كان شركا، و الصغائر مكفّرة بترك الكبائر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) «وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ ..» (53: 32).

و برجاحة الحسنات الكبرى مثل الصلاة، فإنها يذهبن السيئات:

«وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ» (11: 114).

و من الحسنات ما يبدل السيئات حسنات: «إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» (25: 70).

و لا شفاعة إلّا في القيامة لمن رضي اللّه له قولا و دينا و اتخذ عند الرحمن عهدا و مات على إيمان، بعد ما كفّرت سيئاته بترك الكبائر أو بدلت حسنات، او

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الخصال عن علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ثلاثة يشفعون الى اللّه عز و جل فيشفّعون: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء.

العلماء هنا هم أوصياء الأنبياء و الشهداء هم شهداء الأعمال من الأولياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 400

أذهبت حسناته سيئات، ثم مات و عليه كبائر لم تكفر بما يجازى في البرزخ فاستحق العذاب يوم القيامة، فهنالك الشفاعة على شروطها لمن يأذن اللّه و يرضى، كما

يروى عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي» «1».

إذن فليست الشفاعة بالتي تشجّع على الانهماك في المعاصي دون مبالاة، و إنما هي سياج صارم على نزوات المسلم في حياته الإيمانية، ألّا يقنط من رحمة اللّه فيترك سائر الحسنات لأنه ترك واحدة، او يخوض في السيئات لأنه اقترف واحدة، لو لا الشفاعة بتوبة او رجاحة للحسنات، او ترك للكبائر، او شفاعة يوم القيامة.

فإنما الشفاعة الفوضى و دون شروط هي التي تشجّع على اللّامبالاة، و تناقض تشريع الأحكام، كالتي عند المسيحيين من الفداء الصليبي، كما أن نفي الشفاعة إطلاقا يخلّف قنوطا من رحمة اللّه، حيث الكثرة الكثيرة من الناس يبتلون أحيانا بمنكرات، فلولا الشفاعة لخاضوا المحرمات، إذ يرون أنفسهم من أهل النار، دون مناص و لا فرار! و الحالة العوان بين الخوف و الرجاء هي التي تصلح الإنسان، بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3 عن امالي الصدوق عن الامام الرضا عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من لم يؤمن بحوضي فلا أورده اللّه حوضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أنا له اللّه شفاعتي ثم قال:

انما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي فاما المحسنون فما عليهم من سبيل فقيل للرضا (عليه السلام) يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فما معنى قول اللّه عز و جل‏ «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» قال: من ارتضى اللّه دينه و هو من ساءته سيئته و حسنته‏

و رواه «انما شفاعتي» الفريقان بطرق عدة، فمن ليس من امة الإسلام لا تناله الشفاعة و من ليست له كبيرة ليس بحاجة الى شفاعة حيث كفرت صغائره بكبائر المنهيات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 401

تحذر من المعاصي و رجاء للغفران، بعد العلم أن كسب السيئات دون جبران ينهي بالإنسان إلى النار: «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

و إذا كان من الشروط الأصيلة للشفاعة أن يكون المشفّع له مرضيا عند اللّه قولا في اعتذار و إيمانا و فعلا، فليحاول المؤمن كلّ جهده أن يعيش حياة الإيمان، بتحقيق العهد الذي اتخذ عند الرحمن، لكي تنفعه شفاعة الشافعين، دون حياة اللّامبالاة اللّاإيمان، اتكالا على الإقرار باللسان و ادعاء الإيمان، دون أن يقوم بشرائط الإيمان، راجيا أن يشفع له الشافعون «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا و وجد اللّه عنده فوفّاه حسابه» كما نراه من كثيرين، يغترون بما يزخرفه لهم قراء التعازي أنه تكفيكم البكاء ثم اللّه يغفر لكم عدد النجوم و قطر السماء! خلافا لما ترسمه لنا آيات من القرآن.

فلا نصدق إفراط المفرطين في الشفاعة هكذا و لا تفريط المفرّطين في نكرانها، و إنما هي عوان بين ذلك، تصلح الأمة و تجعلها دوما بين الخوف و الرجاء، ثم الأحاديث لا تصدّق منها إلّا ما يصدقها كتاب اللّه، مهما كثرت رواتها و علت علّاتها، او ضعفت و كثرت علّاتها، حيث الأصل هو كتاب اللّه لا سواه.

و من الثابت كتابا و سنة أن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو أفضل الشافعين: «عَسى‏ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً» فانه بعث الشفاعة يوم الدين، لا بعث الرسالة يوم الدنيا حيث كان مبعوثا يوحى إليه، و استفاضت الأحاديث أن المقام المحمود هو الشفاعة، و ليست هي غرورا

«فهل يشفع إلّا لمن وجبت عليه النار» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير القمي في قوله تعالى‏ «وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» عن أبي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 402

و كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر و من وجبت عليه النار و لا يشفعون إلّا لمن ارتضى و من ارتكب الكبيرة لا يكون مرتضى؟؟- الجواب ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلّا ساءه ذلك و ندم عليه و كفى بالندم توبة و من سرته حسنته و سائته سيئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن و لم تجب له الشفاعة و كان ظالما و

«ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع ..» «1».

فجملة القول انه لا يشفع إلا لمن ارتضى اللّه دينه، الذي يتخوف عن المعصية و يندم عندها، و يرغب في الطاعة و يفرح عندها، حيث يعيش حياة الإيمان مهما اعتراه من عارض العصيان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العباس المكبر قال: دخل مولى لامراة علي بن الحسين يقال له: ابو ايمن فقال: يا أبا جعفر تغرون الناس و تقولون: شفاعة محمد شفاعة محمد! فغضب ابو جعفر (عليه السلام) حتى تربّد وجهه ثم قال: ويحك يا أبا ايمن أغرّك ان عف بطنك و فرجك؟

اما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ويلك فهل يشفع الا لمن وجبت له النار؟ ...

(1).

رواه في التوحيد عن الكاظم عن أبيه عن آبائه عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: انما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي فاما المحسنون فما عليهم من سبيل، قيل يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! و كيف. يكون مؤمنا من لا يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: ما من احد يرتكب كبيرة من المعاصي و هو يعلم انه سيعاقب عليه الا ندم على ما ارتكب و متى ندم كان تائبا مستحقا للشفاعة و متى لم يندم عليها كان مصرا و المصر لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب و لو كان مؤمنا بالعقوبة لندم و قد قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا كبيرة مع الاستغفار و لا صغيرة مع الإصرار و اما قول اللّه عز و جل: «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» فإنهم لا يشفعون الا لمن ارتضى اللّه دينه و الدين الإقرار بالجزاء على الحسنات و السيئات، فمن ارتضى دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبة في القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 403

و اما المنهمكون في الشهوات، الذين يهرعون إليها مسرعين، و إذا ما فاتتهم ذعروا مغضبين، ثم إذا حمّلوا على واجبات تحمّلوها نادمين، فهؤلاء ليسوا من المؤمنين‏ «فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ» بل «و ما لهم من شافعين».

و كذلك الذين لا يندمون، فهم يمارسون الشهوات ما يفسح لهم مجال، تسويفا للندم و رجاء للغفران، و إن كانوا يؤمنون بالحساب و العقاب، فان دينهم هذا خطأ غير مرضي معرفيا، كما أن أولئك أخطأوا عقيديا، و إن كانا يختلفان دركا باختلاف اللّامعرفة و اللّاإيمان.

فسواء عليك في حرمان الشفاعة أنك من الكافرين، أو لست من النادمين في مآسيك و معاصيك رغم سمة من الإيمان، لمكان وصمة العصيان اللزام، أو تسوّف الندم و تمارس العصيان، فدينك ليس مرضيا مهما اختلفت هذه الدركات، على أن تراكم المعاصي ترين على قلبك و تسلب عنك نور الإيمان: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» فتموت على غير إيمان خارجا عن أمة الإسلام.

فالمؤمن لا يخلد في النار شرط أن يلاقي ربه بالدين الحق و الإيمان المرضي، و لكنما الإيمان من حيث بقاءه على خطر عظيم من جهة الإدمان في العصيان، فليكن الأصل في حياة المؤمن الالتزام بشرائط الإيمان قدر الإمكان، ثم إذا فلت فالت فهنالك الندم و التوبة، و رجاحة الحسنات على السيئات، و ترك الكبائر، ثم أخيرا الشفاعة يوم القيامة بعد ما كلّت أو قلّت مكفراتها من ذي قبل، و لا شفاعة قبل الآخرة و لا في البرزخ و كما يروى عن الصادق (عليه السلام) وفقا للقرآن:

«و لكن و اللّه أتخوف عليكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 404

في البرزخ ..» «1»

و قد تكون في الدنيا باستغفار الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ام ذوية؟: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64) و كما الملائكة يستغفرون: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (40: 9).

ثم الشفاعة هي في حقوق اللّه إلّا الشرك: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» دون حقوق الناس اللّهم إلّا ان يرضي اللّه مظلوما يوم الحساب: «وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ. ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ» (40: 18).

حصيلة البحث حول الشفاعة:

هنالك شروط مشتركة بين الشافعين و المشفوع لهم: «مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا و اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً».

و للشافعين‏ «شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» و للمشفعين‏ «لِمَنِ ارْتَضى‏» اللّه دينه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

سفينة البحار 1: 71 عن الكافي عن عمر بن يزيد قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) اني سمعتك و أنت تقول: كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم؟ قال:

صدقتك كلهم و اللّه في الجنة، قال قلت جعلت فداك ان الذنوب كثيرة كبائر فقال: اما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) او وصي النبي (عليه السلام) و لكن و اللّه أتخوف عليكم في البرزخ. قلت: و ما البرزخ؟ قال:

القبر حين موته الى يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 405

شروط خمسة بينهما تقتضي قبول الشفاعة قضية آياتها.

ثم لا شفاعة في الدنيا و لا في البرزخ، إلّا ما تشفع التوبة و رفاقها من مكفرات دون الصالحين، فلو كانت في الدنيا لم يبق مجال للأخرى، و لو كانت في البرزخ لم يبق مجال للقيامة، و آيات الشفاعة كلها تنحو منحى القيامة، و يا لنسبة للذنوب التي لم تكفر بمكفرات الدنيا و البرزخ، كما و رواياتها في ظلالها طبقا عن طبق! إذا فلا شفاعة إلّا في كبائر السيئات و ترك كبائر الحسنات حيث الصغائر منها مكفرة بترك الكبائر، اللهم لمن جمع بينهما سلبا او إيجابا فلا مكفر لصغائره فتصبح صغائره كبائر قد يشفع فيها بشروطها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 406

[سورة البقرة (2): الآيات 49 الى 62]

وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَ إِذْ واعَدْنا مُوسى‏ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى‏ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى‏ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَ إِذِ اسْتَسْقى‏ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى‏ لَنْ نَصْبِرَ عَلى‏ طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى‏ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (61) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 408

عرض لنعم عشر بعد ما أجملت في‏ «نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» ترسم أمام الاختلاف مشاهدها التي كانت للإسلام، استحياء لمشاعرهم صور الكروب التي عاشها آباءهم و أنجاهم اللّه منها و هم قابلوا نعمة اللّه بالكفران و بدلوها كفرا فأحلوا قومهم دار البوار، عظة للأخلاف لكي يخالفوا الأسلاف في الكفران الطغيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 409

وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ‏ «1» يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ‏ 49.

نعمة أولى أن انجاءهم اللّه عن سوم العذاب، فالإنجاء من النجاء و النجوة و النجاة هو الفصل إلى عل، مكان مرتفع بعيد عن الأذى.

و سوم العذاب هو دوامه في دوّامة لمرعاه، كماشية سائمة ترعى دائمة، و لكنها ترعى في المرعى الكلاء، و هم يسأمون في المرعى البلاء، كأنها لهم غذاء، كما الكلاء دائمة للماشية السائمة.

فهذه الطغمة الطاغوتية النكراء كانت تسومهم سوء العذاب، كذبح الأبناء و استحياء النساء دونما انقطاع، و كأنه نعمة يمنون بها عليهم فعليهم الشكر كما السائمة في الكلاء.

و عدم العطف في «يذبحون- و يستحيون» يعطف بنا إلى أنهما فقط سوم العذاب، بيانا ردفا دون عطف لسوء العذاب، و كما في أخرى:

«.. يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ ..» (7: 141) مهما عطفا في ثالثة عليه‏ «.. وَ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ ..» (14: 6) آيات ثلاث في صيغة واحدة إلّا في «يقتلون» الوسطى و عطف الأخيرة، و هذا العطف لا يعني إلّا أنهما من أسوء العذاب الذي كانوا يسامونه: قتل الأبناء تضعيفا لساعدهم، و استحياء النساء خدمة لآل فرعون و متعة جنس.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «فرعون» اسم لملوك العمالقة كما قيل: «قيصر» لملك الروم و «كسرى» لملك الفرس و «خاقان» لملك الترك و «تبع» لملك التبابعة، إذا ففرعون لقب عام و قد كان في مصر فراعنة تلو بعض و فرعون موسى هو «رامسيس الأوّل» و قد رأيت جسده في.

معرض الآثار القديمة في القاهرة، و هو تصديق لقوله تعالى: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 410

فتقتيل الأبناء إبادة للنسل و الساعد، و عزاء دائب، و استحياء النساء: إبقاء لحياتهن خادمات، و إفناء لحيائهن في دعارات‏ «1» عذاب فوق العذاب، على ما ينالهن و غير الأبناء من سوء الخدمات الإجبارية، دون مقابل إلّا الإبقاء على رمق الحياة قدر ما يخدمون، و في الحق ان استحياء النساء كان أصعب عليهم و أنكى من تقتيل الأبناء! و ترى هل الأبناء المذبّحون هنا هم- فقط- الولائد حين الولادة كما تدل عليه روايات؟ أم هم الأبناء، ولائد أم كبارا ما هم أبناء، كما تدل عليه الآيات؟

لا ريبة هنا في العموم، حيث يشمل- لأقل تقدير- الأبناء الذين ولدوا منذ أخبر فرعون أنه سيولد فيهم من يهلك سلطانه، فالذين تنالهم أيدي البغي يقتلون حين ولادتهم، و من يفلت حينها يغتال أيا كان و أيان، و إن كان بالغا حد الغلمة أم زاد.

ثم النساء هنا أعم من الولائد و اللّدت و الكبيرات، فهن معفو عنهن في هذا النظام، خدمة للجنس و لآل فرعون.

و ترى ان البلاء العظيم هو فقط سوم العذاب؟ ام و إنجاءهم من سوم العذاب؟ لفظة البلاء تشملهما بلاء سيئا و حسنا «وَ فِي ذلِكُمْ» البعيد المدى من سوء البلاء و حسنه‏ «بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ»:

«وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً» (21: 35) «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

و ترى كيف ينسب سوء البلاء- بجنب حسنه- الى اللّه و هو من آل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاستحياء هو طلب الحياة إبقاء و طلب الحياء إزالة فهما- إذا- معنيّان كما هما الواقع في آل فرعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 411

فرعون؟ إنه سوء العذاب من آل فرعون ظلما و طغيانا حيث افتعلوه، و بلاء عظيم من ربكم إذ أمهله ردحا من الزمن دون ردع تسييرا و منعا، امتهانا لهم و إملاء ليزدادوا إثما و لهم عذاب اليم، ثم و امتحانا لكم و بلاء حسنا بعد هذا البلاء لكي تستعظموا نعمة ربكم بإنجاءكم و تشكروه، فإن فرعون عبّد بني إسرائيل و اعتبره نعمة عليهم و على موسى الرسول (عليه السلام): «وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ» (26: 22) فسامهم بذلك سوء العذاب.

و ترى و لماذا قتل الأبناء و هم أنفع له خدمة و أقوى؟ دون الكبار و هم حمل لا يتحملون خدمة لائقة! ذلك حيث أخبر فرعون أن هلاكه و قومه على يدي موسى (عليه السلام) الذي يولد من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء و قال لا يولد العام ولد إلا ذبح و وضع على أم موسى قابلة .. و لكن اللّه نجاه .. «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 79 عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده الى محمد الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان يوسف بن يعقوب (عليه السلام) حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب و هم ثمانون رجلا فقال: ان هؤلاء القبط سيظهرون عليكم و يسومونكم سوء العذاب و انما ينجيكم اللّه من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران (عليه السلام) غلام طوال جعد أدم، فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران و يسمي ابنه موسى-

فذكر ابان بن عثمان عن أبي الحصين عن أبي بصير عن أبي جعفر انه قال: ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذابا من بني إسرائيل كلهم يدعي انه موسى بن عمران فبلغ فرعون انه يرجعون و يطلبون هذا الغلام و قال له كهنته و سحرته: ان هلاك دينك و قومك على يدي هذا الغلام الذي يولد العام من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء و قال: لا يولد العام ولد إلّا ذبح و وضع على ام موسى قابلة فلما عرف ذلك بنو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 412

وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ‏ 50.

نعمة ثانية هنا لبني إسرائيل هي الأخيرة لهم في الجو الفرعوني الطاغي حيث أغرق آل فرعون و هم ينظرون، و البحر هو البحر، و لكن اللّه فرق بهم البحر فعبروه يبسا و رهوا، ثم أغرق فرعون و جنده آية عظيمة إلهية تبصر الأعمين و تنبّه النائمين.

و ترى كيف فرق بهم؟ فهل فرق البحر بهم: بسببهم، حيث دخلوه بكثرة و استعجال فرارا عن فرعون و ملئه؟ و البحر لا يفرق لأيّة جماعة إلّا و تغرق! و كما آل فرعون و هم كانوا كما هم و أعجل دخولا و أقوى وطأة، و انما ذلك آية معجزة إلهية بهم: بدخولهم البحر فرارا! و قد امر موسى ان يضرب بعصاه البحر: «فَأَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (26: 63) «وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى‏» (20: 77) «وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ» (44:) 24).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إسرائيل قالوا: إذا ذبح الغلمان و استحيى النساء هلكنا فلم نبق؟ فتعالوا لا نقرب النساء فقال عمران ابو موسى (عليه السلام) بل ائتوهن فان امر اللّه واقع و لو كره المشركون، اللهم من حرمه فاني لا احرمه و من تركه فاني لا اتركه و وقع على ام موسى فحملت فوضع على ام موسى قابلة تحرسها فإذا قامت قامت و إذا قعدت قعدت فلما حملته امه وقعت عليه المحبة فقالت لها القابلة مالك يا بنية تصفرين و تذوبين فقال لا تلوميني فاني إذا ولدت أخذ ولدي فذبح قالت لا تحزني فاني سوف اكتم عليك فلم تصدقها، فلما ان ولدت التفتت إليها و هي مقبلة فقالت: ما شاء اللّه، فقالت لها: الم اقل اني سوف اكتم عليك ثم حملته فأدخلته المخدع و أصلحت امره ثم خرجت الى الحرس فقالت: انصرفوا- و كانوا على الباب- فانما خرج دم مقطع فانصرفوا ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 413

فقد انفلق البحر و أصبح لهم طريقا يبسا بأن ضرب موسى عصاه، و بدخول بني إسرائيل، فلولا عصى موسى كما أرادها اللّه لم يفلق البحر و يفرق، و لو لا دخولهم البحر لم يضرب موسى عصاه، حيث الفرق الفلق كان لإنجاءهم و إن كانت كذلك آية لهم.

و ترى- بعد- أن انفلاق البحر و انفراقه طريقا يبسا، كل ذلك لصدفة جزر عظيم، او كثرة الواردين فيه؟ و كما يهرفه من لا يعرفه، هراء دائبا مغبة نكران المعجزات، مهما أقحم نفسه في المفسرين.

فالبحر المفروق لنبي إسرائيل نعمة إلهية حيث أنجاهم و أغرق آل فرعون و هم ينظرون، إذ انخدعوا بعبور بني إسرائيل فعبروا، و نعمة لهم إيقانا بأن اللّه هو الحق و أن ما يدعون من دونه الباطل، نعمة تجمع بين إنجاء أبد إنهم من غرق البحر و ملاحقة آل فرعون، و إنجاء أرواحهم من الشكوك التي اعترضتهم إذ «قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» (7: 129).

«فَأَنْجَيْناكُمْ- وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»: مشهد النجاة و الغرق بأم أعينكم.

و ترى كيف دخل آل فرعون عن آخرهم البحر، أ فلم يروا أوائلهم غارقين؟ انهم انخدعوا أن جاوزه بنو إسرائيل و هم ضعفاء، فهم أحرى بالجواز و هم أقوياء، فتجرءوا على الجواز، و قد ترك البحر رهوا كما اوحى اللّه لموسى: «وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ» (44: 24):

و الرهو هو الساكن المستوي بطريق يبس، فلما دخلوا كلهم غرقوا أجمعين:

«وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ. وَ أَنْجَيْنا مُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ» (26: 66) حيث تدل أن إغراقهم كان بعد إزلافهم و جمعهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 414

في البحر أجمعين، و بعد ما جاوز بنو إسرائيل البحر: «وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ ..» (10: 90).

أتبعوهم عدوا بسرعة ليدركوهم فأدركهم العرق قبل أن يدركوهم! وَ إِذْ واعَدْنا مُوسى‏ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ 51 ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ‏ 52.

«موسى» معرّب عن «موشة» عبرانية، كلمة مركبة تعني «ماء- شجر» حيث اخذه آل فرعون عن التابوت الذي ألقته أمه في اليم فوقف في الماء بين الشجر أمام القصر الفرعوني، ففيه تلميحة طريفة إلى المعجزة الربانية في إنجاء موسى بيد عدوه الذي قتل- بغية الحصول عليه و قتله- نيفا و عشرين ألفا من أبناء بني إسرائيل!.

يأتي ذكر «موسى» 136 مرة في القرآن في 35 سورة، من البقرة الى الأعلى، مما يدل على مدى مراسه في الدعوة و اكتراسه لها و مجابهاته وجاه عدوّه و بني إسرائيل الذين آذوه، أكثر من كافة المرسلين اللهم إلّا خاتم المرسلين‏ «1».

و هل كانت هذه المواعدة مرة هي أربعين كما هو اللائح هنا، او مرتين أولاها ثلاثين ثم العشر المتمم للأربعين، مواعدتين تلو بعض، فهما مع بعض مواعدة واحدة كاملة كما يعرف من الأعراف: «وَ واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..»؟ (7: 139)

و للأربعين مواقف مجيدة في مختلف الحقول، في الحق ان آيتي المواعدة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث يذكر اكثر منه بكثير بأشرف خطاب: الرسول- النبي- حين لم يذكر غيره فيما يذكر الا باسمه دون لقب الرسالة او النبوة إلّا قليلا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 415

تتجاوبان في تمام المواعدة، و أن ثلاثين الأولى لا تستقل عن الأربعين، حيث العشر مكملة لها، و إن كانت كأنها هي البداية «وَ واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ ..» فإنها ثلاثون في صيغة التعبير امتحانا لبني إسرائيل- لابداء للّه في التكميل- «1» حتى إذا تأخر موسى لحد الأربعين أهم باقون على إيمان أم هم مكذبون موسى و مكذبون اللّه كما فعلوا و التفصيل إلى الأعراف و طه.

و هذه المواعدة- هنا- نعمة ثالثة بإنزال التوراة على موسى و بمشهد من منتخبيهم جانب الطور الأيمن: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ..» (20: 80) مواعدة لهم ضمن ما لموسى (عليه السلام).

و لكنهم و هم بين نعمتين: الإنجاء من آل فرعون، و إنزال التوراة «اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» الذي صنعه السامري فعبدوه: «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ»: بعد موسى حيث غاب عنهم الى ميقات ربه و لما يتم او يرجع‏ «وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ»: أنفسكم‏ «إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ».

«ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» شرط التوبة بعد ان تقتلوا أنفسكم:

«فَتُوبُوا إِلى‏ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»- «عَفَوْنا ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم و نتيجة المواعدة الأربعين:

وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 97- نقلا عن تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) في آية الأربعين قال: كان في العلم و التقدير ثلاثين ليلة ثم بدا اللّه فزاد عشرا فتم ميقات ربه الاول و الآخر أربعين ليلة

أقول هل كان في العلم و التقدير ميقات ناقص لنقصان العلم و التقدير ثم كملا بالبداء؟ ان هذا إلّا اختلاق!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 416

و هدي إيتاء الكتاب و الفرقان هو أهم النعم التي أنعم عليكم، هنا الكتاب: التوراة- يقابل الفرقان، مما يدل على انه غيره، و حقا ان الفرقان و هو البرهان المفرق بين الحق و الباطل، ليس هو التوراة و لا غيرها من كتابات الوحي إلّا القرآن، فانه كتاب و فرقان لا سواه.

فلا نجد آية تصف كتاب وحي بالفرقان إلّا القرآن: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى‏ وَ الْفُرْقانِ» (2:) 185) و قد يختص باسم الفرقان: «وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ‏ ... وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ» (3: 4) «تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ». فالقرآن هو كتاب تشريع و هو فرقان، يفرق بين الحق و الباطل جملة و تفصيلا، و ما هكذا سائر كتب الوحي، و لا سيما بعد تحرّفها، و لقد أوتي المرسلون مع كتبهم فرقانا يدل على رسالتهم و وحيهم كموسى و هارون و اضرابهما:

«وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ» (21: 48) و قد يكون التوراة هنا ضياء و ذكرا على ضوء الفرقان: الآيات التسع التي أوتى موسى، حيث يهتدى بالكتاب و الفرقان: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم الفرقان درجات من فرقان الرسالات على درجاتها و في درجاتها، و هي المعجزات، و من فرقان التقوى الإيمان: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» (8: 29) او فرقان الحرب المنتصرة بنصر اللّه:

«إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى‏ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ» (8: 41) ففي كل ميدان من معتركات الحق و الباطل فرقان كما يناسب حقولها.

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى‏ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 417

نعمة خامسة يمن بها عليهم، و ترى كيف يكون حمل القتل لأنفسهم نعمة؟ إنها نعمة حيث هي في سبيل التوبة، فإنها خير من حياة اللعنة الدائبة في وصمة اتخاذ العجل.

«.. إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ» إلها تعبدونه، و ليس اللّه هو المظلوم: «وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (2: 57) حيث الظلم هو الانتقاص و اللّه لا ينتقص منه شي‏ء ذاتا أو صفات أو أفعالا- ف «لا يتغير بانغيار المخلوقين» و إنما الظلم الانتقاص راجع إلى الظالم نفسه، حيث يخرج عن مستوى العدل، مهما انتقص غيره من الخلق في الظلم المتعدي إليهم، و لا تجد آية تلمح بأن اللّه يظلم، و إنما هو لغير اللّه نفسه أم سواه.

و حيث‏ «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» فالتوبة عنه- و لا سيما من المرتد عن فطرة- إنها قد ترد و لا تقبل في الظاهر مهما قبلت في الباطن، و قد تقبل كما هنا و لكنه بعب‏ء عظيم.

«فَتُوبُوا إِلى‏ بارِئِكُمْ» و لماذا «إِلى‏ بارِئِكُمْ» دون «اللّه» او «خالقكم» او «ربكم» او ... لان البرء هو التخلص عن مرض او عيب او اي نقص، فالمريض المعيب المنتقص بالخروج عن حكم الفطرة يجب عليه التوبة: الرجوع- الى من برءه إذ خلقه حتى يبرئه بعد نقصه بظلمه، «هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ ..» (59: 24) حيث خلق ثم برء ما خلق ثم صور ما برء، و من برءه براءة الفطرة في يراعه التوحيد، فحيث تخلف عبدة العجل عن هذه البراءة، فتوبتهم هي الرجوع الى البارئ ليرجعهم الى هذه البراءة التي افتقدوها بكل غباوة، إذ عبدوا العجل الذي يضرب به المثل في الغباوة، فأصبحوا أحمق و أغبى من العجل في هذه العبادة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 418

و لأنهم قتلوا روح التوحيد و فطرته بما استهوته أنفسهم الأمارة الغبية، فليقتلوا أنفسهم قتلا بقتل حتى يحيوا حياة طيبة جديدة.

«فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»: أنتم الذين اتخذتم العجل إلها تعبدون، فإنما هم المأمورون أن يقتلوا أنفسهم حيث ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل، دون من لم يظلم حيث لم يتخذ العجل، خلافا لبعض ما يروى‏ «1».

و ترى انهم أمروا ان يقتل كل واحد نفسه انتحارا بنفسه؟ و إنه إبادة لهم أجمع فمن يبقى إذا حتى يتاب عليه لو أنهم ائتمروا كلهم؟ أم كيف يتاب على المتخلفين عن أمر الانتحار لو لم يأتمروا كلهم.

أو أنهم أمروا أن يقتلوا فيما بينهم، كل يقتل من تناله يده أيا كان؟

فكيف يعبر عن ذلك ب «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»!.

في الحق إن ذلك قتل لأنفسهم في زوايا ثلاث: أن يقتل كلّ نفسه الطائشة بعبادة العجل، فيعرض نفسه للقتل في معترك القتال فيما بينهم، و يقتل من هو كنفسه أبا أو ابنا أو أخا أو أيا كان‏ «2» قتلا لنفسه في هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كمرسلة المجمع: روي: ان موسى (عليه السلام) أمرهم ان يقوموا صفين فاغتسلوا و لبسوا أكفانهم فجاء هارون باثنى عشر ألفا ممن لم يعبدوا العجل و معهم الشفار المرهفة و كانوا يقتلونهم فلما قتلوا سبعين ألفا تاب اللّه على الباقين و جعل قتل الماضي شهادة لهم.

و

في تفسير البرهان 1: 98 عن الامام العسكري في الآية: و يقتل من لم يعبد العجل من عبده‏

أقول و هما مردودان لمخالفة الآية و المقبول هو المروي عن علي (عليه السلام) و عن غيره الآتي.

(2) أنفسكم هنا مثلها في أمثالها ك: لا تلمزوا أنفسكم- حيث المؤمنون كنفس واحدة- كذلك هؤلاء إذ كانوا أقارب اضافة الى قربة الايمان أيا كان، و كقوله: لو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم خيرا- فسلموا على أنفسكم- و أمثالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 419

الزوايا الثلاث توبة الى البارئ فتوبة منه عليهم، و إنه لتكليف شاق مرهق مرير، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه، كما و يقدم نفسه و يعرضه ليقتله أخوه، و هما يتطلبان قتل النفس الأمارة بالسوء في رأس الزاوية، و لكنه من وراء هذا الإرهاق تربية لتلك الحالة البئيسة الخوارة، التعيسة المنهارة التي تنهار إلى جحيم عبادة العجل، و بعد ما ترى من آيات اللّه البينات من فرق البحر أم ماذا؟ فليؤدوا هذه الضريبة الفادحة الكادحة: «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ».

و «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ» من أن تظلوا مرتكسين في حمأة الارتداد و الضلال، أو نادمين تائبين دون تقديم لشريطة التوبة، عائشين عجالة الحياة في وصمة عبادة العجل الدائبة لو لم تقدموا هذه الضريبة: «فَتابَ عَلَيْكُمْ» بعد ما تبتم إليه هكذا «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»: لمن يتوب و يسترحم كما يؤمر.

و قد تاب على القاتلين و المقتولين سواء «1»، إذ حققوا امر اللّه فيما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 69- اخرج ابن أبي حاتم عن علي (عليه السلام) قال: قالوا لموسى ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضا فأخذوا سكاكينهم فجعل الرجل يقتل أخاه و أباه و ابنه و اللّه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا فأوحى اللّه الى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم و قد غفر لمن قتل و يتب على من بقي‏

، و

في تفسير القمي قال (عليه السلام) ان موسى لما خرج إلى الميقات و رجع إلى قومه و قد عبدوا العجل قال لهم موسى: يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم- فقالوا له: كيف نقتل أنفسنا؟ فقال لهم موسى (عليه السلام) اغدوا كل واحد منكم الى بيت المقدس و معه سكين او حديدة او سيف فإذا صعدت انا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم ملثمين لا يعرف احد صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضا فاجتمعوا سبعين الف رجل ممن كان عبدوا العجل الى بيت المقدس فلما صلى بهم موسى و صعد المنبر اقبل بعضهم يقتل بعضا حتى نزل جبرائيل فقال: قل لهم. يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 420

بينهم سواء، حيث قتل من قتل بأمر اللّه، و قتل من قتل بأمر اللّه، مقدمين على هذا القتال في زواياه الثلاث.

و إن هذه منقبة لهؤلاء حيث اقتتلوا هكذا بأمر اللّه تفدية في التوبة إلى اللّه، كما و يندد بالمنافقين من المسلمين حيث لا يفعلونه إلّا قليلا: «وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً» (4: 66).

و توبة المرتد عن فطرة تقبل عندنا بقتله، كما قبلت من هؤلاء، مهما اختلفت شاكلته، حيث إنها في بني إسرائيل كانت بأمر خاص و أصعب مما عندنا و أنكى!.

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى‏ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56).

نعمة سادسة لهم ان بعثوا بعد موتهم بصاعقة العذاب الهون و هم ينظرون.

و لقد كان سؤال الرؤية قبل اتخاذ العجل: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى‏ أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ» (4: 153) أ ترى أن الذين سألوا الرؤية هم الذين عبدوا العجل؟ كأنهم هم كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

موسى ارفعوا القتل فقد تاب اللّه لكم فقتل منهم عشرة آلاف و انزل اللّه‏ «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

أقول: و اختلاف عدد القتلى و الذين عبدوا العجل في الحديثين لا مرجع له من كتاب او سنة يرجع اليه و لا يهمنا العدد و كما سكت اللّه عنه فلنسكت عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 421

تقول هذه الآية! و لكنهم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه حيث سألوا الرؤية، و من بعده عبد الباقون عجل السامري: «وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ..» (7: 155) «1» و لم يكن الميقات إلّا واحدا كما تلمح له «ميقاتنا»، فلأن عبادة العجل و سئوال الرؤية هما من باب واحد في تجسيم الإله- مهما اختلفا في تعيينه- نسبا معا إليهم جميعا، كما و ينسبان إلى الموجودين منهم زمن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لأن الشيمة في الأخلاف هي نفسها في الأسلاف، و الشكيمة هي نفس الشكيمة، طبيعة جاسية لا تؤمن إلّا بالمحسوس.

و لأن سئوال الروية كان أخف وطأة من عبادة العجل، كانت عقوبته كذلك أخف منها، حيث أولاء قتلوا بالصاعقة ثم بعثوا، و هؤلاء تقاتلوا دون بعث لمن قتلوا، و علّ القاتل منهم ترجّى ليته المقتول لعظم المشهد و هول المطلع.

فإطلال فترة الإذلال الفرعوني أفسد من فطرتهم الشي‏ء الكثير، الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل الطويل، تحطيما للفضائل و تحليلا للفواضل، و غرسا للرذائل، و استخذاء تحت رحمة الجلّاد، ثم تمردا بعد رفع السوط، و تبطرا حين النّهمة بالنعمة، على ما كانوا عليه من حب المادة، و صلابة العقيدة و الحماقة العميقة.

و لكن اللّه تعالى يمهلهم دون أن يهملهم، ففي كل مرة من تهريف او تجديف تدركهم رحمة اللّه و توهب لهم فرصة الحياة لعلهم يشكرون فلا يهرفون بما لا يعرفون: «ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

و في هذا البعث رجعة الى الحياة الدنيا دليل قاطع لا مردّ له على إمكانية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و يأتي تفصيل سؤال الرؤية منهم و من موسى في محاله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 422

الرجعة وقوعا فيما بعد كما نعتقده في دولة القائم المهدي (عليه السلام) و كما في آيات اخرى تبعث جماعات بعد موتهم‏ «1».

ثم و في هذه الآية دلالة باهرة على امتناع رؤية اللّه جهرة، فلو أمكنت لم يستحق طالب الرؤية لمزيد الايمان عقوبة و تنديدا، و لم يك ذلك منهم ظلما: «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى‏ أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ» (4: 153) و لم يك كذلك استكبارا و عتوا: «وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى‏ رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً» (25: 21) لا بالنسبة للناس العاديين فحسب بل و النبيين كذلك كما في موسى: «لَنْ تَرانِي ..» اضافة الى سائر الدلالات القرآنية و العقلية التي تحيل الرؤية البصرية جهرا في كافة العوالم.

وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) نعمة سابعة سابغة إذ كانوا في التيه‏ «2» نتيجة عصيانهم حيث لم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في‏ «الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ» و في الذي قتله بنو إسرائيل و أحياه اللّه ببعض بقرة: «فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏» و في‏ «كَالَّذِي مَرَّ عَلى‏ قَرْيَةٍ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها ... فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ..» و أضرابها التي يأتي تفاصيلها في طياتها.

(2)

نور الثقلين 1: 82 عن الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن أبيه عن آباءه عن الحسين بن علي (عليه السلام) فيما سأله اليهودي عن علي (عليه السلام) قال له اليهودي: فان موسى قد ظللّ عليه الغمام؟ قال له علي (عليه السلام) لقد كان كذلك و قد فعل ذلك لموسى في التيه و أعطي محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أفضل من هذا: ان الغمامة كانت لمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 423

يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب اللّه لهم فارتدوا على أدبارهم فانقلبوا خاسرين .. «قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» (5: 26): «.. وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (7: 160) «وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى‏» (20: 81).

نعمة تضم نعما ثلاث: تظليل الغمام- إنزال المن- إنزال السلوى- و الغمام من الغم: الستر، و هو لا يحمل ماء أو لا يمطر: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ» (2: 210) «وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا» (25: 25) ثم و لا تجد غمامة في آية تمطر و إنما تغم و تستر، بخلاف السحاب و الغيم و المزن و المعصر فإنها هي التي تمطر، و إن كانت كذلك تستر، فقد كان الغمام في أربعين التيه سترة لهم من الشمس دائبة، اللهم إلّا شتاء حيث تلزمهم نور الشمس و نارها.

و إنها لنعمة كبرى حيث يراعيهم ربهم بها في الصحراء الجرداء، يقيهم هجيرها بالغمام، و جوعهم- حيث هم منقطعون عن مواد الغذاء- بطيبات من الغذاء لا جهد فيها و لا عناء.

غمام يظلهم من الهاجرة التي كانت تفور بالنار، و منّ يمن به عليهم و سلوى يتسلون به، مثلث النعم السابغة رغم ما لهم من سوء الحال و السابقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

تظله من يوم ولد الى يوم قبض في حضره و سفره فهذا أفضل مما اعطي موسى (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 424

و ترى ما هو المن و ما هي السلوى اللذان رزقوهما في التيه؟

ذكرهما في موضع الامتنان دليل على أنهما لم يكونا من أرزاق التيه كبّر من البراري، و قد يلمح إنزالهما «إلى» لإتيانهما من السماء، كما و «طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» تشير إلى أنهما أو أحدهما مجموعة طيبات دون لون أو لونين من الأكل، و لا تنافيها الوحدة في قولهم: «لَنْ نَصْبِرَ عَلى‏ طَعامٍ واحِدٍ» إذ قد يعني النوع الواحد على طيبته كلّه، و هم تهوّسوا «مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها».

فهل هما اثنان: من و سلوى: طيبان؟ و هناك «طيبات»، أو أن المن ما يمن به من طعام و هو الطيبات، و السلوى ما يتسلى بها نفسيّا؟ لا نص في القرآن او ظاهر يفسرهما إلّا قدر ما فسّر: أنه أو أنهما طيبات ليس من رزق الأرض المعتاد، بل هي منزّلة السماء و إن كانت على أشجار.

و قد يروى أن‏

«الكمأه من المن و ماءها شفاء للعين» «1»

لا أنها فقط هي المن، و هي ثمرة بيضاء كالشحم تنبت من الأرض يقال لها شحم الأرض، فنزولها إذا هو كثرة إنباتها في التيه تقصّدا لأصحاب التيه، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواها أصحابنا و إخواننا جميعا، فمن الاول ابن بابويه القمي عن احمد بن محمد بن خالد البرقي عن محمد بن علي عن محمد بن الفضل عن عبد الرحمن بن زيد بن مسلم عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

و في الدر المنثور 1: 70- أخرجه احمد و البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... كما و أخرجه احمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و ابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... كما و أخرجه احمد و الترمذي من حديث أبي هريرة و النسائي من حديث جابر بن عبد اللّه و أبي سعيد الخدري و ابن عباس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 425

و منها «الترنجبين» «1» او شي‏ء كان يسقط على شجرة الترنجبين‏ «2» او ما كان ينزل عليهم بالليل فيقع على النبات و الشجر و الحجر فيأكلونه‏ «3» و جملة القول هنا أن ليس شي‏ء مما ذكر او يذكر «4» هو المن فقط، إذ لا تعنيها لغته، و إنما هي مصاديق عدة من المن: «ما يمن به عليهم في التيه من الأكل» و هي كلها «طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» فالأرضي منها نازلة من علوّ الرحمة، و السماوي منها نازلة من عل كما هي نازلة برحمة، فهما إذا نازلان من عل أيا كان.

ثم السلوى هي في الأصل ما يتسلى به و منه السّلوان و التسلي، و إذا كان المن منة الغذاء البدنية، فالسلوى إذا هي الغذاء النفسية، فالأوّل يصلح و يصحح البدن، و الثاني يؤمّن و يسلىّ الروح، و هما

«نعمتان مجهولتان الصحة و الأمان»

و الطير السماني الذي جاء تفسيرا للسلوى هو من المن، فان السلوى لغويا لا تعني طيرا أم شيئا خاصا، و قد يكون السماني سلوى في المن يسلي الذائقة بلحمه الملذّ بين سائر المنّ، لا أنه هو السلوى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 101- عن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) ان المن الترنجبين كان يسقط على شجرهم فيتناولونه ....

(2) الدر المنثور 1: 70- اخرج جماعة عن السدى: فانزل اللّه عليهم المن فكان يسقط على شجرة الترنجبين.

(3) علي بن ابراهيم القمي في معنى الآية.

(4) فعن عكرمة انه شي‏ء مثل الطلّ شبه الرب الغليظ، و عن مجاهد انه صمغة، و عن الربيع بن انس انه شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، و عن وهب بن منبه انه خبز الرقاق مثل الذر (الدر المنثور 1: 70) او شي‏ء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر (مفردات القرآن للراغب) و لعلّه المادة التي يصنع منها في ايران «الگز» و العرب اصطلحوا له المن بالاضافة الى السلوى، و لكنه فقط المن دون السلوى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 426

و السلوى هي- فقط- السماني‏ «1».

«كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» من المن، على السلوى الطمأنينة، حيث لا تطيب الطيبات على غير طمأنينة، فلا طيبات في المنّ- بل و لا منّ إلا بالسلوى.

«وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»: إنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم و كفرانهم نعم اللّه التي كانت تنزل عليهم تترى، و لا سيما في صحراء التيه القاحلة الجرداء، حيث سقاهم- إلى سائر النعم- عيون الماء:

«وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 1: 101 عن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) .. و السلوى:

السماني طير اطيب طير لحما يسترسل فيهم فيصطادونه ..»

و الشيخ مرسلا عن الصادق (عليه السلام) «.. و كان المن و السلوى ينزل على بني إسرائيل ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس فمن نام تلك الساعة لم ينزل نصيبه و كان إذا انتبه فلا يرى نصيبه احتاج الى السؤال و الطلب»

و نزول السلوى مع المن في هذه الفترة تدل على انها غير التسلية و لكنها رواية مرسلة.

ثم و التفسير المنسوب الى الامام (عليه السلام) مخدوش في نسبته، كما و ان متنه يشمل على غرائب من التفسير قد لا تلائم القرآن او يخالفه- و لم يرد تفسير السلوى بالسمانى الا فيه فلا حجة- إذا- فيه، و قد يؤول بما أوّلناه، حيث السلوى لا تعني- لغويا- السماني.

و في الدر المنثور 1: 70 عن ابن عباس ان السلوى طائر شبيه بالسمانى كانوا يأكلون منه ما شاءوا و كما أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة، و عن الضحاك- وفقا للعسكري-:

السماني هي السلوى، و عن قتادة كانت السلوى طيرا الى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فإذا تعدى فسد و لم يبق عنده، و عن وهب بن منبه قال: سألت، بنو إسرائيل موسى اللحم فقال اللّه: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحا فأذرت عند مساكنهم السلوى و هو السماني ميلا في ميل قيد رمح في السماء فخبّوا للغد فنتن اللحم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 427

مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (7: 160).

أ تراهم بعد كل ذلك شكروا، كلا! إنهم ظلموا حيث خالفوا أوامر اللّه إلى غيرها، و لكن كانوا أنفسهم يظلمون، و من مظالمهم:

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (59).

نعمة ثامنة: «وَ إِذْ قُلْنَا» لهم بعد ما تاهوا في الأرض أربعين سنة لتخلفّهم عن أمر ربهم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم عن مصر: «يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى‏ أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ. قالُوا يا مُوسى‏ إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ. قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قالُوا يا مُوسى‏ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ، قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ. قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» (5: 26).

فبعد ما تاهوا في الأرض هذه السنين، و أنعمنا عليهم فيها بطيبات و انتهى أمد التيه‏ «قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ»: الأرض المقدسة التي كتب اللّه لكم دخولا للسكنى: «وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 428

الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ» (7: 162).

أمروا أن يدخلوا باب القدس سجدا و يقولوا حطة، و ترى كيف يمكن الدخول سجدا و السجدة المعروفة هي وضع الجبهة على الأرض و لزامه السكون، و الدخول هو حركة المشي فكيف السجود؟.

إن قرينة الدخول الحركة تحوّل السجود عن الساكن منه إلى غاية الخضوع حالة الحراك في الدخول، أن يركعوا في دخولهم قدر المستطاع، حيث يمكنهم المشي حالته، فلا يعني السجود إلا غاية الخضوع، و لها في كل حقل ما لها من هيئة تناسبها على كونها غاية الخضوع حالها، و كما «أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ ..» (22: 18).

أ ترى أنها تسجد للّه على هيئة سواء؟ و إنما حالة خاشعة سواء في مداها، فكذلك يفسر «ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً» خشّعا للّه حيث تدخلون بيت اللّه، و لأن اللّه أدخلكم الأرض التي كتب لكم.

فهنا دخولان: «ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ» دخولا في قرية القدس، «وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً» دخولا في القدس نفسه: البيت المقدس من باب خاص و هو المعروف الآن بباب حطة، و علّها الباب الثامن أو التي كان يصلي إليها موسى.

«وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ ..» و لأن غفر الخطايا فرّع على قول حطة كما فرّع على دخول الباب سجدا كجزاء لهما، نعرف أن «حطة» تعني حطّ الخطايا، أن يستغفروا ربهم لكي يحط عنهم خطايا من كان منهم مخطئين، و أن يزيد في درجات من كانوا محسنين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 429

فهم لم يؤمروا فقط بالقول «حطة»: كيفية من الحط، كلمة مفردة لا تعني كلاما يفيد معنى! و إنما طلبا لانحطاط خطاياهم بكيفية خاصة يتقدمها الدخول سجدا، لكي تتكيف جوارحهم و ألسنتهم و معها قلوبهم بعباد منحطّين أذلاء حين يدخلون، شكرا لما أنعم عليهم و التماسا لحط خطاياهم‏ «1».

فلا يصح القول: أنهم أمروا أن يقولوا «حطة» بنفس اللغة و هي عربية و هم عبريون، بل ما يفيد معناها في كيفيتها الكلامية التامة بعبريتهم.

فكما أن سجدتهم كانت غير السجدة المعروفة، كذلك حطتهم كانت غير هذه الحطة في صيغة التعبير، و إنما معنى الحطة و معنى السجدة كما يناسب حالهم و مقالهم.

«نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ» ان كنتم مخطئين‏ «وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» من كان منكم محسنين- و لكن:

«فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» .. «الَّذِينَ ظَلَمُوا» خاصة، لا هم بأجمعهم، حيث كان فيهم محسنون دخلوا الباب سجدا و قالوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا وردت روايات‏

عن الائمة من آل الرسول (عليهم السلام) «انما مثلنا في هذه الامة كسفينة نوح و كباب حطة في بني إسرائيل»

ففي الدر المنثور 1: 73- اخرج ابن أبي شيبة عن علي بن أبي طالب قال: انما ...

و

نور الثقلين 1: 82 عن عيون الاخبار باسناده الى الحسين بن خالد عن الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن آباءه عن امير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليهم السلام) قال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لكل امة صديق و فاروق و صديق هذه الامة و فاروقها علي بن أبي طالب (عليه السلام) إن عليا سفينة نجاتها و باب حطتها.

أقول: و هكذا تظافرت الروايات من طريق أصحابنا و إخواننا ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 430

حطة: «وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

و قد تلمح‏ «الَّذِينَ ظَلَمُوا» بدلا عن «المخطئين» او «الظالمين» أنهم جماعة من الخاطئين إذ ظلموا بتبديل القول غير الذي قيل لهم، ظلما على خطيئتهم، لا كل الخاطئين، إذ تابعت فرقة منهم سيرة المحسنين، ففعلوا ما فعلوا و قالوا ما قالوا، و تخلفت أخرى قدما الى تخلفات اخرى:

«فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ»- «بِما كانُوا يَظْلِمُونَ» (7: 162) فهم إذا ثلاث: محسنون- تائبون- خاطئون ظالمون فاسقون- و لم يكن الرجز إلّا على الآخرين.

و ترى ان‏ «قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» يعني تبديل قول «حطة» فقط إلى غيره؟ دون تبديل لفعل: «ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً»؟ و الفعل أصعب تحقيقا و أقرب تخلفا! إن قولا- هنا- الموصوف بغير الذي قيل لهم هو مفعول ثان ل «بدل» فأوّلها: قول اللّه، فقد بدلوه الى غيره: ما يغايره- فتبديل قوله:

«ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً» دخولهم معاكسا، كأن يدخلوها زاحفين على أستاههم‏ «1» مقبلين لها بأدبارهم مهما كانوا راكعين لكي يعاكسوا امر اللّه مستهزئين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 71- اخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس و أبي هريرة قالا قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): دخلوا الباب الذي أمروا ان يدخلوا فيه سجدا يزحفون على أستاههم و هم يقولون: حنطة في شعيرة.

و رواه مثله في تفسير البرهان 1: 103 عن تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) بقوله: «لم يسجدوا كما أمروا و لا قالوا ما أمروا و لكن دخلوها مستقبيلها بأستاههم و قالوا: هطا سمقانا، يعني حنطة حمراء نتقوتها أحب إلينا من هذا الفعل و هذا القول ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 431

و تبديل قوله‏ «قُولُوا حِطَّةٌ» قولة معاكسة كالقول «لا حطة» او مستهزء ك «حنطة». أما هيه؟

و الرجز من السماء الذي أنزل على الظالمين منهم الفاسقين هو الاضطراب حيث تعنيه لغته و منه رجز البعير إذا تقارب خطوها و اضطرب لضعف فيها، و الرّجز لتقارب أجزاءه، فرجزهم هو الاضطراب المتتابع المتقارب، و كما و أنزل على آل فرعون رجزا من السماء: «فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ‏ ... وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ» (7: 134) و مهما عرف رجز آل فرعون كما هنا لم يعرف رجز بني إسرائيل إلّا بوصفه العام: عذاب مضطرب متناوب ينزل على الذين فسقوا و ظلموا دون أن يعرف قومية و لا عنصرية، على آل فرعون الظالمين او بني إسرائيل الظالمين سواء! وَ إِذِ اسْتَسْقى‏ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60).

نعمة تاسعة هي إسقاءهم في التيه في صحراء جرداء لا ماء فيها و لا كلاء، و جحيم الهاجرة تفور بالنار: «وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ ..» (7: 161).

فاستسقاء قومه- لا طلبهم للاعجاز- يلمح أنهم كانوا عطاشى في قفر،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 432

لا في مدينة او قرية، فهو التيه، و دلالة ثانية أمرهم بعد ذلك: «اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ» فقد تمت لهم مربع النعم السابغة و هم في التيه حيارى، رغم أنهم تاهوا جزاء عما تخلفوا من اقتحام القدس و فيها العمالقة الجبارون.

ثم الانبجاس و الإنفجار مترتبان تلو بعض، فلما ضرب بعصاه الحجر انبجس: انفراجا أضيق من الإنفجار، ثم انفجارا باثنتي عشرة عينا منبجسة عدد الأسباط المقطّعة اثنتي عشرة أمما، حيث كانوا يرجعون إلى اثني عشر سبطا عدد أحفاد يعقوب (عليه السلام) و هو إسرائيل المنسوبون إليه المتسللون عنه، و هم رءوس القبائل الإسرائيلية «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ» حيث عيّن لكلّ خاصة لا تعدوهم إلى سواهم، و قيل لهم:

«كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ» أكلا من طيبات المنّ و شربا من هذه العيون‏ «وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» حيث كانت لهم نفسيات مفكّكة و جبلّات متداعية هابطة، آبية من الارتفاع إلى مثل الأخلاق الأبيّة.

و أصل العثا شدة الفساد، فهو السعي في شديد الإفساد، فقد يكون الفساد نتيجة عدم انضباط النفس عن الحرام أحيانا مّا فهو من اللمم، و أخرى انضباط النفس غورا في الحرام و خوضا فيما لا يرام، و ثالثة تجنيدا للقوى للإفساد و هو عثا الإفساد و عيثه محسوسا و غير محسوس‏ «1» و هنا النهي موجّه إلى حالتهم الفعلية الرديئة: السعي في عيث الفساد حالة الإفساد، و هو غاية الطغيان و الكفران رغم أنهم نالوا من رحمة اللّه غاية النعمة، و اين نعمة من نقمة!.

ثم ترى أ كان هذا الحجر خصيصا من حجر التيه؟ أم حجرا منكرا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في غريب القرآن ان العيث و العثى متقاربان الا ان العيث اكثر ما يستعمل في الفساد المحسوس و العثى فيما يدرك حكما لاحسا أقول: و لعل العثى هنا تجمع بين الإفساد غير المحسوس و المحسوس، حيث الاوّل إذا تجاوز حده ظهر في المحسوس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 433

أيّ حجر؟ .. تعريف «الحجر» دون منكّره: «حجر» دليل الإختصاص، و كما ان عصاه عصى خاص: «بِعَصاكَ الْحَجَرَ» لا «بعصى حجرا» و هي عصى لها معجزاتها الأربع: فلق البحر- تفجير العيون- صيرورتها جانا تهتز (27: 10) و ثعبانا مبينا (7: 107) «فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ» (7: 117) و قد كان موسى يتوكأ عليها و يهش بها على غنمه و له فيها مآرب اخرى (20: 18).

و لزام هذا الحجر ان يكون من الكبر بقدر يمكن ان تتفجر منه اثنتى عشرة عينا ترد مشاربها مئات الآلاف من بني إسرائيل دون تضايق و انتظار، او تمانع و احتصار، بعيون واسعة، و مشارب شاسعة، فلا يمكن أن يكون حجرا صغيرا يحمل، كما لا يكون جبلا كبيرا، حيث النص «الحجر» لا «الجبل» فليكن حجرا كبيرا أيّا كان في جبل أو غير جبل حتى يستجيب طلب هكذا انفجار بمشارب فاسحة دون انتظار و احتصار، و النص لا يثبت هنا الإعجاز إلّا في انفجار العيون الاثنتي عشرة:

ان ضرب موسى بعصاه الحجر، دون أن يحمل الحجر- ايضا- على صغره كحمل بعير، هكذا انفجار شربا لعشرات الآلاف المنقسمة إلى أسباط اثنى عشر «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى أبي الجارود (و هو من الكذابين المعروفين بالجعل) قال قال ابو جعفر (عليه السلام) إذا خرج القائم من مكة ينادي مناديه الا لا يحملن احد طعاما و لا شرابا و حمل معه حجر موسى بن عمران (عليه السلام) و هو وقر بعير فلا ينزل منزلا الا انفجرت منه عيون فمن كان جائعا شبع و من كان ظمآنا روّي و رويت دوابهم حتى ينزلوا النجف من ظهر الكوفة.

و في الخرائج و الجرائح عن أبي سعيد الخراساني عن جعفر بن محمد عن أبيه مثله و في آخره: فإذا نزلوا ظاهره انبعث منه الماء و اللبن دائما فمن كان جائعا شبع و من كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 434

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى‏ لَنْ نَصْبِرَ عَلى‏ طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى‏ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (61).

نعمة عاشرة و تلك عشرة كاملة مما أنعم اللّه به عليهم و هم يكفرون و يقتلون و يعصون و يعتدون، «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ..».

«لَنْ نَصْبِرَ عَلى‏ طَعامٍ واحِدٍ» ف «لن» تحيل صبرهم، و طبعا إحالة- هنا- باختيار، أن لن يرضوا بمنّ اللّه في طيبات ما رزقهم: «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» كما مضت تفسيرا للمن أم و السلوى، فوحدة الطعام لا تعني الوحدة العددية صنفا فإنه المنّ: الطيبات، بل هي وحدة النهج بغيب نزوله: «وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏» بعيدا عن الاعتياد الأرضي و أتعابها و أشغابها، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير كرزق الجنة، حيث أرادوا الدّنيّة رغم أن اللّه اختار لهم العليّة، و لكن الطبائع المتخلفة النحسة ليست لتقبل إلّا الدنية.

هنا يسيئون الأدب بجنب اللّه مرة حيث استحالوا صبرهم على هذه الطيبات، و أخرى إذ طلبوا من موسى متعنتين: «فَادْعُ لَنا رَبَّكَ» كأنه- فقط- ربه و ليس ربهم، وليتهم طلبوا ما هو أطيب و أعلى! و لكنهم طلبوا من رزق الأرض الأرذل الأدنى: «مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عطشانا روي‏

، أقول: بهذا المرسل و ذلك المخدوش لا يمكن اثبات معجزة لا تشير إليها الآية و اللّه اعلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 435

فالفوم: الثوم- و البصل هما الخبيثان على‏

لسان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «من أكل هذين الخبيثين فلا يقرب مسجدنا»

خبث الريح و أمثاله، مهما طابا في مآرب اخرى أكلا ام سواه، و القثاء ليست طعاما يغني من جوع و لا فاكهة، و البقل و العدس ليسا من الحاجيات الدائبة.

فرغم أن هذه الخمسة من المأكولات، و لكنها ليست من ضروريات الطيبات،: «أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى‏ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً ...»

ف «اهبطوا» توحي الى انتقالهم من حياة عالية الى حياة هابطة، و «مصرا» تشير تنكيرها الى انها ليست مصرا معينة فليكن مصرا: الذي خرجوا منها حيث لم يقل «مصر» حتى تعنيها.

فإجابة هذه الطلبة الهينة الزهيدة لا تتطلب دعاء و لا محاولة إلهية فانها موفورة في كافة الأمصار، فلا حاجة الى: «فَادْعُ لَنا رَبَّكَ» اللهم إلّا في خروجهم عن التيه الى مصر، و لكنهم لم يطلبوه و انما «مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها ..» في التيه ام سواه! و إذ أنتم ترفضون حياة الطيبات دون صراع و مخانقة في تحصيلها «اهْبِطُوا مِصْراً ..» الى حياة خانعة خانقة متعبة حيث تجدون بغيتكم حاضرة: من بقلها و قثاءها و فومها و عدسها و بصلها ..

«وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ» و ترى ما هي هذه الذلة و هذه المسكنة؟ و لماذا ضربت عليهم؟ و حتى متى؟ و هل ضربت عليهم- فقط- ام يعدوهم الى اضرابهم بما يفتعلون؟ اسئولة تطرح نفسها في الظرف الذي احتلت إسرائيل فسلطيننا و قدسنا فاختلت الموازين بهذا الاحتلال الاختلال، فهل هم بعد أذلّاء مساكين؟!.

في الحق ان الذلة و المسكنة هما لزامان لكل من يحذو حذوهم كما قال اللّه: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 436

بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» و لا نجد شعبا أنحس منهم في تاريخهم الأسود،، و لذلك نرى الذلة و المسكنة لزامهم دائبا، إلّا بحبل من اللّه و حبل من الناس: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» (3: 112): عصيانا للّه حيث يكفرون بآيات اللّه، و اعتداء على عباد اللّه حيث يقتلون أنبياء اللّه، شر عصيان بجنب اللّه و شر اعتداء على عباد اللّه، كسيرة لهم دائبة مهما اختلفت صورته، فعصيانهم للّه و كفرهم و تكذيبهم بآيات اللّه مستمر، و قتلهم رسل اللّه كذلك حيث اختلقوا عليهم في كتابات الوحي الإسرائيلية ما يمس من كراماتهم كرسل و صالحين، و أنكروا محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شر نكير، و لو كان بين أظهرهم لقتلوه كما حاولوه في زمنه‏ «1» و يأبى اللّه إلّا ان يتم نوره و لو كره الكافرون.

فهم- إذا- قتّالون لرسل اللّه و رسالاته كما يستطيعون بسيرة واحدة مهما اختلفت الصورة، فالسيره هي السيرة و السريرة هي السريرة «و كل انسان يعمل على شاكلته».

ثم المسكنة هي حياتهم دائبا أيا كانوا و أيان و كما نراهم حتى في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 84 عن اصول الكافي بسنده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: و اللّه ما قتلوهم بأيديهم و لا ضربوهم بأسيافهم و لكنهم سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا فصار قتلا و اعتداء و معصية

أقول: هذا من باب التطبيق و بيان مصداق خفي لقتلهم، لا انهم ما قتلوهم ابدا، ففريق قتلوهم بما دلهم آخرون ثم و فريق رضوا و هم شركاء ثلاثة في قتلهم، كما ان الذين حرّفوا شرائعهم و كذبوهم و افتروا عليهم، فقد قتلوا رسالاتهم فهم كلهم شرع سواء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 437

دويلتهم لأول مرة يعيشون بأضيق المعيشة رغم انهم يمتلكون أضخم الثروات، حيث يصرفونها في الأسلحة المحافظة على استمرارية الاحتلال، فميزانية التسليح للجنود، و التصليح لما يدمر دوما من عمرانهم بالعمليات الفدائية، هذه الميزانية هي اضعاف ما تصرف في حاجياتهم المعيشية، رغم كافة الحيل و الاحتيالات في جمعهم للأموال و الثروات من كافة أنحاء العالم، فهم أقناهم رغم انهم أغناهم، و أسكنهم حين انهم أثراهم! ثم الذلة هي حياتهم‏ «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ» و ليس لهم هكذا حبل طول تاريخهم العتيق‏ «وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» و ذلك حينما أخذت تستحكم حبلا من الناس المستعمرين يمنة و يسرة بكل شغب و عسرة، عمالة عجالة للاستعمار حتى تشكيل دويلة العصابات، و ترى أن هذا الحبل يدوم؟ كلّا فإنه ينفصم بعباد صالحين مرتين ثم لا حبل لهم الى يوم الدين‏ «1»؟.

ثم و لا يتغلب حبلهم من هؤلاء الناس النسناس إلّا حين ترك المسلمون حبلهم من اللّه و من الناس: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ..» (3: 112) و ليس المخاطبون ب «لَنْ يَضُرُّوكُمْ» هنا إلّا المسلمون المتمسكون بالحبلين و كما تتقدم آيتهما آياتهما:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ‏ ... وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا ... وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ‏ ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان 15 تفسير سورة الاسراء آية بني إسرائيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 438

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ. لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً ...» (3: 96- 111).

فحبل من اللّه هو الإيمان و الاعتصام باللّه و تقوى اللّه، و الاعتصام بحبل اللّه: كتاب اللّه و نبي اللّه- عقيدة الإيمان و عمل الإيمان، إنها حبل من اللّه، ثم جماعية الاعتصام بحبل اللّه على تكوّن أمة فيهم داعية الى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، و عدم التفرق عن دين اللّه أو في دين اللّه، إنها حبل من الناس، دون سناد إلى النسناس. و إذا: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً».

ثم حبل اليهود من الناس لن يفيدهم خروجا عن ظاهر الذل إلّا مرتين على بقاءهم في مسكنتهم: «وَ قَضَيْنا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً» إفسادا في الأرض كل الأرض مرتين، و علوا كبيرا مرة واحدة هي الثانية «فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولًا» و احتلال فلسطيني و من ثم القدس و لحد الآن هي المرة الأولى من الإفساد العالمي بعلوّ غير كبير، و سوف يقضي عليهم‏ «عِباداً لَنا» أقوياء صالحون يجوسون خلال الديار «وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولًا».

«ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ» ردا لإسرائيل الى ما كانت اوّل مرة و أقوى علوا: «وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ... فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ» المرة الآخرة الثانية، «ليسوءوا» هؤلاء العباد الصالحون «وجوهكم» أسوء من الأولى‏ «وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ () لأقصى) كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً» (17: 7).

و لم يسبق لإسرائيل إفساد عالمي طول تاريخ إفسادهم أن يؤسسوا دولة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 439

الإفساد إلّا في احتلال القدس، و لا علو كبير عالمي إلّا مستقبلا بعد ان يدخل‏ «عِباداً لَنا» القدس بجوسهم خلال الديار اوّل مرة، ثم رجوعهم الى ما كانوا و أفسد و أعلى‏ «فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ» حيث يرجعون الى المسجد الأقصى‏ «وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً».

و هم منذ وجدوا مفسدين و الى يوم الدين يسأمون سوء العذاب و حتى في قوتهم و شوكتهم حيث دويلة العصابات: «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (7: 167) سوء عذاب دائب بعباد صالحين كما هنا و هناك و منذ التأديبات المتتالية زمن الرسالات الاسرائيلية و الرسالة الاسلامية حتى الآن، ام و طالحين كالهلتريين ام من ذا؟ حيث هم قبل دويلة العصابات المغتصبة كانوا مشردين نيلة كل نائل و غيلة كل غائل، و هم في دويلتهم الآن في خطر دائب و تفجرات داخل أراضيهم ليل نهار، أ فلا يكفي هذا لسومهم سوء العذاب؟! إذا فالمسكنة لزامهم مضروبة عليهم ضرب السكة لا تمحى، مهما كانت الذلة «إِلَّا ... وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» حيث لا يبقى، و انما ردح من الزمن «مرتين» على سومهم سوء العذاب حتى في هاتين المرتين، كما و انهما مضروبتان لكل من يفتعل فعلتهم: تركا لحبل من اللّه و حبل من الناس حتى و ان كانوا مسلمين و «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» دون المتمسكين بالحبلين، القائمين بشروط اللّه حتى و ان كانوا غير مسلمين ف: «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 440

بِالْمُتَّقِينَ» (3: 115).

و هذه الآيات تأتي بعد التي تأمر المسلمين بما تأمر و تضرب على اليهود الذلة و المسكنة «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» (4:) 124).

فانما هو الايمان و عمل الصالحات فقط دون جنسيات او هويات:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (62).

طوائف اربع ذكروا ردف بعض بمختلف أسماءهم الحاكية عن مختلف شرائعهم و طرائقهم، ثم جمعوا و أمثالهم غير المذكورين هنا في طابع الإيمان باللّه و اليوم الآخر و العمل الصالح، كما يوحي لذلك ترك الضمير الراجع إليهم «من آمن» دون «منهم» مما يوحي بأن الضابطة العامة في مثلث النجاة: «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ- وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ- وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» إنها- فقط- مثلث: الايمان باللّه- و اليوم الآخر- و العمل الصالح، مهما كانوا من الذين آمنوا او الذين هادوا او النصارى و الصابئين، أم أيا كانوا من الموحدين، و كما دلت آية «لَيْسُوا سَواءً» ان اهل الكتاب منهم ليسوا سواء فيما يذكر لليهود منهم، فحتى اليهود ايضا إن كانوا في مثلث الإيمان فهم ناجون، فضلا عن سواهم! و كما أن الثلاث الاخرى موحدون، كذلك الصابئون، حيث ذكروا معهم ثم يشملهم «من آمن ..» و إلّا لم يكن لذكرهم في شمل الموحدين هنا من معنى.

و في حين انهم يتأخرون هنا ذكرا عن الذين هادوا و النصارى، نراهم في المائدة يتوسطون بينهم: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 441

وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى‏ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» تدليلا على انهم و إياهم سواء في التوحيد مهما اختلفوا في شرائع التوحيد.

ثم نراهم بنفس الصيغة في الحج و مع المجوس يردفان بالثلاث الأخرى من الموحدين، خمسا تجاه المشركين: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى‏ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» مما يدل على ان الخمس الأوّل ليسوا في عداد المشركين مهما كانوا منحرفين في عقيدة التوحيد، و لكنهم تجمعهم كلمة التوحيد: ان ليسوا وثنيين.

و من الملاحظ ان الأوليين تحكمان بالنجاة لمن آمن منهم إذ لم يكن بينهم مشركون، ثم الثالثة تأتي بكلمة الفصل فيما بينهم بدل النجاة، حيث الانفصالية للذين أشركوا عمن سواهم في عقيدة التوحيد، مما يبرهن ان العبرة في مجال النجاة انما هي بحقيقة العقيدة، دون عصبية جنس او طائفية ام ماذا من الفوارق.

لذلك ترى‏ «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» لا تكفي نجاة بمجرد أنهم مسلمون، كما الألقاب الأخرى على سواء، اللهم إلّا بانضمام الحقيقة الى الادعاء:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً» دون الادعاءات الخاوية الجوفاء من: مسلمين او الذين هادوا و النصارى و الصابئين و المجوس ام من ذا؟

من المنسلكين في سلك التوحيد بألسنتهم- فقط- ام و في عقائدهم ايضا، إلّا بمظهر العمل الصالح للايمان باللّه و اليوم الآخر.

«الَّذِينَ آمَنُوا» هنا هم المسلمون المؤمنون بالرسالة الإسلامية دون المنافقين إذ لا ايمان لهم و لا عمل صالحا، إنما هم المؤمنون، دخل الايمان في قلوبهم او لمّا يدخل و هم في سبيل الإيمان، و هذه مواصفة للمسلمين غير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 442

المنافقين في مئات الآيات تكريما لهم بكرامة الإيمان، دون الألقاب الخاوية الأخرى‏ «1» و لا ينافي تكراره ذيل الآية بملحقات أخرى‏ «مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ...» حيث المعني من الأول مطلق الايمان و الآخر هو الإيمان المطلق كما في: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ...».

«وَ الَّذِينَ هادُوا» هم اليهود، يذكرون بهذه الصيغة في آيات عشر، و كما يذكرون هودا او اليهود، و علّ الأصل من «هدنا إليك» «2» رجوعا عما طلبوا من رؤية اللّه جهرة، و عما عبدوا العجل، الى اللّه وحده حيث مقالهم: «.. وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ ...».

«وَ الَّذِينَ هادُوا» قد تأتي علما لليهود كطائفة، هادوا هكذا أو لم يهودوا، كما هنا، حيث يستثنى أخيرا في النجاة من آمن باللّه و اليوم الآخر و عمل صالحا كما للمؤمنين و سواهم من المذكورين، و قد تأتي تنديدا و تعريضا بالذين سمّوا هودا و لم يهودوا: «قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تتكرر هذه المواصفة لهم في القرآن (258) مرة في مختلف الواجهات، و الدرجات الايمانية، و لكنما المنافقون لا يعبر عنهم الا به او يشملهم المسلمون حيث يعمهم و المؤمنين بقلوبهم و الذين هم في سبيل الايمان.

(2)

الدر المنثور 1: 74- اخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم من طريق عبد اللّه بن نجى عن علي (عليه السلام) قال: انما سميت اليهود لأنهم قالوا: انا هدنا إليك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 443

و لم تأت كمدح و مواصفة لهودهم و رجوعهم إلى اللّه إلّا في آية يتيمة هي الأصل في تسميتهم هودا: «إنا هدنا إليك» ثم اشتقت منها صيغ الهود و اليهود تنبيها على الأصل، و تأنيبا على الشاذين عن هذا الأصل.

«و النصارى» الآتية في (14) موضعا علّه جمع نصري‏ «1»: المنسوب الى النصر حيث‏ «قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ» لما قال المسيح‏ «مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ» كما و ان المسيح و الحواريين كانوا في «الناصرة» حيث يقال: «المسيح الناصري» «2» و لكنما الأصل في «النصارى» قرآنيا و في اللغة هو النصري، و ليس الناصري، مهما لمح اليه النصري هامشيا «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا هو المشهور من مفردها مثل صهري و صهاري، و في غريب القرآن للراغب:

سموا بذلك انتسابا الى قرية يقال لها نصران فيقال: نصراني و جمعه نصارى أقول:

هذه القرية هي الناصرة و منسوبها ناصري لا نصراني، ثم الناصري ليست جمعا للنصراني و انما جمعها نصرانيون، و جمع الناصري ايضا ناصريون، و لا يناسب النصارى هذه المفردات، و انما نصرى او نصري و الثاني أوفق بالنسبة الى النصر المدلول عليه في مقالة النصارى: نحن أنصار اللّه، و في الكشاف انها جمع نصران، أقول: عله مثل سكران سكارى و لكن فاء الجمع هنا مضموم و هناك مفتوح إذا فمفردها بين نصري و نصرى.

(2) في قاموس الكتاب المقدس: ذكرت الناصرة (29) مرة في العهد الجديد، و لقد امضى المسيح ايام طفولته فيها فاشتهرت بوطنه و لقب المسيح الناصري كما الحواريون ناصريون (متى 13: 54- 58)- (مرقس 6: 1- 6)- (اعمال الرسل 2:

22 و 3: 6 و 4: 10 و 6: 14) و الجيل السادس من المسيحيين أخذ يزورون الناصرة.

(3)

نور الثقلين 1: 85 في عيون الاخبار باسناده الى الرضا (عليه السلام) قيل له:

فلم سمي النصارى نصارى؟ قال: لأنهم من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام نزلها مريم و عيسى بعد رجوعهما من مصر

أقول: لم يكن كل النصارى من الناصرة، و انما هو المسيح و الحواريون، و قد تناسب هذه النسبة على هامش النصرة الإلهية كما قلناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 444

و كما كانت «هود» كذلك «النصارى» تأتي عاما كما هنا حيث تشمل المؤمن الناصر للحق، و المنتسب اليه بالهوية، و تأتي عاما بترك النصرة:

«.. وَ قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» كما و تأتي مدحا بالنصرة: «وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏».

«وَ الصَّابِئِينَ» هم الذين صبأوا و انتقلوا من دين الى دين، فهل من دين التوحيد الى الشرك؟ و هذا ينافي ردفهم بالموحدين و نجاتهم بالإيمان باللّه و اليوم الآخر و عمل الصالحات، كذلك و مقابلتهم بالذين أشركوا (22: 17)! إذا فهم الصابئون من الشرك إلى التوحيد، «1» متحللين عن اي كتاب سماوي، ام صابئين من توحيد كتابي كشريعة ابراهيم الى شريعة خليطة من وحي الأرض الزردشي و وحي السماء الإبراهيمي كما تؤيده الروايات‏ «2» كم المجوس ايضا من الموحدين‏ «3» مهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كان العرب يسمون النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) صابئا لأنه اظهر دينا بخلاف أديانهم.

(2)

الدر المنثور 1: 73- اخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده و ابن أبي حاتم عن سلمان قال: سألت النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن اهل دين كنت معهم فذكر من صلاتهم و عبادتهم فنزلت الآية-

أقول و لا شك ان من كان سلمان معهم و منهم هم الزرادشت الايرانيون‏

(3) و فيه عن وهب بن منبه الصابئي هو الذي يعرف اللّه وحده و ليست له شريعة يعمل بها و من المحتمل انهم اتباع ماني و على‏

حد المروي عن الصادق (عليه السلام) و قد سئل لم سمي المجوس مجوسا قال: لأنهم تمجسوا في السريانية و ادعوا على آدم و شيت و هو هبة اللّه انهما أطلقا نكاح الأمهات و الأخوات و البنات و الخالات و العمات و الحرمات من النساء و لم يجعلوا لصلاتهم وقتا و انما هو افتراء على اللّه و على آدم و شيت‏ (مجمع البحرين).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 445

اخطأ هؤلاء و هؤلاء في توحيد اللّه، و في الصبوء و التمجّس عن الشريعة الكتابية، و مهما يكن من شي‏ء فليس الصابئون و المجوس من اهل الكتاب تماما مهما يحترم فريق منهم النار الا انه ليس لحد الإشراك باللّه، و عبادة من دون اللّه.

هؤلاء الطوائف الخمس الموحدون، من كتابين و سواهم، هم المشهورون المذكورون في القران بأسمائهم، و قد أجمل عن ذكر موحدين آخرين كانوا او تكوّنوا ام سوف يكونون، من‏ «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» و هكذا تحدد شاكلة الايمان المنجي أولا و أخيرا كضابطة عامة تحلّق على الألقاب: مسلم- يهودي- نصراني- صابئي- مجوسي أمّن ذا؟

فمن مات على غير الايمان بالرسالة الاسلامية موحدا: كتابيا من هود او نصارى، ام غير كتابي كالصابئين و المجوس، «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» شريطة القصور و الاستضعاف حيث لم يسمعوا بهذه الرسالة «1» او لم يعرفوا حقها، دون المقصرين في التعرف إليها، او الذين‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا».

فالجحد بآيات اللّه و تكذيب آيات اللّه ينافيان الإيمان باللّه، و نكران يوم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 74- اخرج ابن جرير عن مجاهد قال: سأل سلمان الفارسي النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن أولئك النصارى و ما رأى من اعمالهم؟ قال: لم يموتوا على الإسلام، قال سلمان: فأظلمت علي الأرض و ذكرت اجتهادهم فنزلت هذه الآية: «الَّذِينَ هادُوا ...» فدعى سلمان فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

نزلت هذه الآية في أصحابك، ثم قال: من مات على دين عيسى قبل ان يسمع بي فهو على خير و من سمع بي و لم يؤمن بي فقد هلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 446

لقاء اللّه ينقص من الايمان باللّه، و ترك الصالحات التي تناسب الإيمان، دليل على خواء الإيمان، فهؤلاء ليسوا من المبشّرين بالأجر و عدم الخوف و الحزن، و إنما هم المؤمنون باللّه و اليوم الآخر و العاملون الصالحات، و مهما كانوا درجات في مثلث الايمان، فهم درجات في مثلث النجاة، كما أن من سواهم دركات في اللّاإيمان و اللّانجاة دون تسوية هنا و هناك‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» في نقير الإيمان و عمل الصالحات، دون ترسب على عنصريات او طائفيات، فبعد ما ضربت آية الضرب الذلة و المسكنة على اليهود، تستدرك هذه الآية عما ربما يختلج بالبال انه خاص باليهود، فهناك بينت سبب الذلة المسكنة انه الكفر و التكذيب و الاعتداء أينما كانت، و هنا تبين سبب النجاة في مثلثه أينما كان، دون فرق بين الموحدين، من «الذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين و المجوس» لا هنا و لا هناك! «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ» على غرار ما آمنوا و عملوا «عِنْدَ رَبِّهِمْ» في عالم الرب يوم الأجر و الجزاء «وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» من عذاب‏ «وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» لما فات عنهم، جمعا لهم بين أمن الحاضر و المستقبل و الغابر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 447

[سورة البقرة (2): الآيات 63 الى 66]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (64) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (65) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (64).

الميثاق هنا هو ميثاق الكتاب حيث يشمل المواثيق كلها، ميثاق واحد هو جمعية الميثاق، كما توحي له وحدة «ميثاقكم» و يصرح به ميثاق الكتاب: «.. أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ‏ ... وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ‏ ... وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ...».

و قد رفع فوقهم الطور بميثاقهم المأخوذ عليهم: «وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 448

بِمِيثاقِهِمْ» حيث سببه الميثاق لكي يعرفوا مدى تحمّل الميثاق و حمله كما يرفع الطور بقوة، و حتى يخافوا من ترك الميثاق فقد أمروا حينه:

«خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» كما هنا و في الأعراف، او «و اسمعوا ما فيه» كما في أخرى: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ ..» فالأصل هو أخذ ما أوتوا بقوة، بأن يذكروا ما فيه و يسمعوا و يعوا ثم يعملوا.

و لقد رفع الطور فوقهم نتقا: «وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» فالجبل هنا هو الطور دون ريب كما توحيه لام التعريف، و لم يكن المعروف عندهم إلّا الطور كما و هو في التوراة «طور» او: جبل الزيتون، و الجبل الذي امام أورشليم، و الذي على شرقى البلد.

و نتق الشي‏ء جذبه و نزعه حتى يسترخي كنتق عرى الحمل، فقد جذب اللّه الطور و نزعه فاسترخى فرفعه‏ «فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ».

مع نتق الجبل فوقهم بميثاقهم نراهم في مثلث الأمر حيث حمله كحمل الجبل: 1 «خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ» بقوة الأبدان و القلوب‏ «1» حيث يعم التكاليف البدنية و النفسية: عقلية ام قلبية، استجاشة لكافة القوى حتى يتم الأخذ الذي يحمل آخذه على التقوى.

2- «وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ» حيث الأخذ الصحيح ليس واردا إلّا بعد الفهم الصحيح، و تذكّر ما فيه، دون غفلة و غفوة، او لفتة عما فيه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 105- العياشي عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه: «خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ» أ قوة في الأبدان ام قوة في القلوب؟ قال: فيهما جميعا و رواه عن ابن بابويه مسندا الى إسحاق و يونس مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 449

3- «وَ اسْمَعُوا» بسماع آذانكم‏ «1» ما يقرء عليكم رسولكم حيث يقرع به أسماعكم، و من ثم بآذان قلوبكم لكي يكمل الوعي، فيحصل العمل: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»: حيث إن فطنة الاتقاء و مغبته ليس إلّا بعد التحليق في هذا المثلث بتحقيق زواياه، آخذا من ظن الاتقاء و علمه و واقعه اليقين.

و يا له من مشهد متناسق في لزام القوتين: نتق الجبل فوقهم كأنه ظلّة، و أخذ الميثاق بقوة، مما يوحي بانه من معجزاتهم كما نتق الجبل معجزة، بما عرف من إخلادهم إلى الأرض و اتباع أهوائهم و فرط أمرهم و انجذابهم الى جواذب الفسوق و العصيان و نزعات الطغيان، و كما الجبل منجذب لا محالة الى الأرض إلّا بقوة اللّه، فليأخذ و اما أوتوا بقوة التصميم حسب المستطاع، و ليستعينوا باللّه في تحقيق ميثاق اللّه باستجماع نفس و تصميم.

هذا المشهد الرائع المروّع المتناسق ينبههم ان المجال في ميثاق الكتاب لا يتحمل أية رخاوة و تميّع و فلول، و لا أية أنصاف حلول، و إنما هو نتق لجبل الإنيات و الشهوات و النزعات، لا سبيل فيه إلّا الجد بكافة الطاقات و الإمكانيات، حيث يودّ عون حياه الدعة و الرخاوة و اللامبالات و يقبلون الى اللّه بكلهم اقبال الجادّ العارف المصمم.

فميثاق الكتاب منهج حياة ايمانية: يقينا فنظاما ينظم الحياة في كافة حقولها كما يريد اللّه‏ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لان «اسمعوا ما فيه» يذكر في آيته بدلا عن‏ «اذْكُرُوا ما فِيهِ» في آيتيه، نعرف ان سمع ما فيه هو سمع القلب كما الذكر هو فعل القلب، فسمع القلب هو ذكره و ذكره سمعه، يتجاوبان في آيتيهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 450

و ترى انهم أخذوه بقوة و سمعوه و تذكروا ما فيه؟ .. انهم خادعوا اللّه حيث تظاهروا- و الجبل فوقهم كأنه ظلة- كأنهم موفون بميثاق الكتاب خشية وقوع الجبل عليهم، ثم تولّوا: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» و كان لزاما نتق الجبل و وقوعه عليهم بعد ذلك: «فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ».

ليس فحسب انهم تولوا من بعد ذلك، بل و قالوا قولتهم الفاتكة بعد ما قيل لهم‏ «.. خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا»-: «قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

«ثم» في آيتنا توخر قولتهم الفاتكة عن واقعة الجبل، و تفسر هذه: «قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا» أنها كانت بعد الواقعة، فلو كانت عندها لوقعت الوقعة حيث لم ينتق الجبل حينه إلّا إخافة.

و لم يكن رفع الجبل اكراها لهم في الدين: العقيدة- حتى تنافيه‏ «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ» و إنما حملا لهم على تطبيق الدين بعد ما تبين لهم كعقيدة، حيث النص: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» فقد كان أخذ الميثاق قبل رفع الطور و بعد ظاهر الإيمان بما أخذ عليهم ميثاقه، ثم تحقق رفع الطور بذلك الميثاق: «وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ ..» (4:) 154).

و رفع الجبل هذا كان لهم موعظة و ذكرى و إخافة

«ان لم تقبلوه وقع عليكم الجبل فقبلوه و طأطأوا رؤوسهم» «1».

آية إلهية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 85 عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) لما انزل اللّه التوراة على بني إسرائيل لم يقبلوه فرفع اللّه عليهم جبل طور سيناء فقال لهم موسى (عليه السلام): ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 451

تزيد في الايمان باللّه، فالتمسك بميثاق اللّه، و الإخافة عن النكثة النكسة عما أخذ عليهم للّه، آية يتيمة في تاريخهم لم تتكرر، حيث الآيات التي عاشوها زمن الرسالة الموسوية لم تكن لتحمل إخافة لبني إسرائيل، إلّا هذه التي تضمنها بجنب الحجة و الموعظة.

و هكذا ينطق الجبل بنتقه آية إلهية ليست بمقدور من سوى اللّه ان يرفع فوقهم كأنه ظلّة دون عمد يرونها إلّا ارادة اللّه، فمهما ينتق الإنسان جبالا من حديد ام ماذا بعمد يصنعها، و لكنه ليس إلّا بوسائل معروفة علمية، لا فقط إرادة النتق مهما كانت هناك عمد إلهية أخرى، مما لا يرى.

فمن الهراء القولة الناكرة للمعجزات: إن بني إسرائيل كانوا في أصل الجبل فزعزع و زلزل حتى أظل رأسه عليهم فظنوا أنه واقع بهم،! فإنه تاويل عليل للنص: «رفعنا .. نتقنا الجبل» و ترى إذ يراد الإفصاح عن رفع الجبل و نتقه، هل هناك نص أو في من رفعه و نتقه؟ ..

أم لو اريدت الزلزال و الزعزعة كيف لا يعبر عنهما بنصه؟ رغم أنهما لا تنتقان الجبل و ترفعانه فوقهم كأنه ظلّة.

و ترى ما هو موقع الترجي في‏ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»؟ و اللّه لا يترجى، بل الذي لا يعلم عواقب الأمور هو الذي يترجى!.

الجواب: أن المقام هو مقام الرجاء و إن كان اللّه لا يترجى، و إنما المكلف بأمر اللّه له أن يترجى الاتقاء عن المحاظير إن حقق أمر اللّه، حيث الأخذ بما أوتوا بقوة مترجىّ، ثم الاتقاء بعد ذلك رجاء بعد رجاء، حيث العوائق قد تحول بين الأخذ و الاتقاء، إلا أن يشاء اللّه، فلا يملك العبد على أية حال إلّا الخوف و الرجاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 452

و لعل أخذ ما أوتوا بقوة هو أخذ التصميم بالإيمان كما و أن ذكر ما فيه و سمعه هو الإرادة القلبية عن بصيرة و يقين، و هذا كله تقوى باطنية، «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» تعني التقوى الظاهرية حيث تترجى على أثر التقوى الباطنية، و لكلّ وجه و الجمع أوجه.

و «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» تشمل الغابرين حيث‏ «قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا» و كذلك الحاضرين زمن الخطاب حيث كانوا تاركين التوراة كالغابرين، مهما لم يكونوا قائلين قولتهم: «سَمِعْنا وَ عَصَيْنا» او قالوها، فإنما العبرة بالتطبيق المفقود هنا و هناك على سواء، فتراهم يمارسون تحريف التوراة لفظيا و معنويا و عمليّا، عائشين مثلث التحريف و التجديف، في وهدة التهريف و حدّة التزييف! حيث تعنيها كلها: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ».

و من فضل اللّه عليهم أن لم يسحقهم بوقعة الجبل بعد ما عصوا «فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ» المعدمين بسحق آباءكم العاصين!.

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (65) فَجَعَلْناها نَكالًا لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66).

.. هنا اعتداء في السبت عمليا تحت ستار ماكر يخادعون اللّه فيه، إذ لم يسبتوا عن العمل و الصيد يوم سبتهم متظاهرين أنهم سبتوا بما مكروا في خدعة شرعية! هازئة بحكم اللّه: «وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ‏ ... فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» (7: 166).

فكوّنهم بما اعتدوا قردة خاسئين‏ «نَكالًا لِما بَيْنَ يَدَيْها» الحاضرين‏ «وَ ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 453

خَلْفَها»: المستقلبين، ممن سلكوا سبيلهم- حيث تنكلهم: تقيدهم عما يشتهون، و كذلك نكالا للحياة الحاضرة الأولى و المستقبلة الأخرى، «وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ» الذين يتقون طيب أنفسهم، أن تقيدهم و تنكلهم تقواهم عن طغواهم، فليست القردة الخاسئة لهم نكالا، و انما هي موعظة بها يتعظون.

ان هذا التطور القاصد: تحويل الخاطئين الى قردة خاسئين، يضم إلى زاويتيهما لجمعي الطاغين و المتقين، ثالثة هي اللعنة عليهم يوم الدنيا و يوم الدين: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى‏ أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» (4: 47).

هذا الاعتداء السافر الماكر بعد ما «قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً» (4: 154) و إنما جعل عليهم بما اختلفوا في ابراهيم بلاء و امتحانا و حرمانا مؤقتا: «إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ» () براهيم) (16: 124).

و السبت لغويا هو القطع كما «جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً»: قطعا لحركات التعب و نهضات النصب، كذلك جعل السبت على الذين هادوا حكما رابعا من النواميس العشرة التوراتية (الخروج 20: 8) و هو حكم ثابت في الشريعة التوراتية حتى جاء الإسلام و نسخه إلى الجمعة، و كما ليس لنا تحويل الجمعة بفرضها و أحكامها إلى غيرها، كذلك السبت ثابت طوال الزمن التوراتي.

فمن الهراء قولة المسيحيين: (لنا تغيير السبت إلى يوم الأحد لأن المراد منه الانقطاع إلى عبادة اللّه في كل سبعة واحدة، سواء السبت او الأحد أم ماذا) لذلك يسمى النصارى الأحد سبت المسيحية لأنه اليوم الذي قام فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 454

المسيح من دور الأموات بعد صلبه يوم الخميس، فدخل جحيم النار ليذوق العذاب بجسمه البشري ثم صعد إلى أبيه في السماوات‏ «1» و قد حادوا اللّه في تغيير السبت إلى الأحد، و أهانوا المسيح أن اتخذوا يوم جحيمه- على حد قولهم- يوم عيدهم، و هكذا فعلوا و افتعلوا بشريعة التورات بما أضلهم سامريهم بولس الرسول!.

ثم القول: «كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» ليس لفظة قول، و انما هي إرادة فعل، فقوله تعالى فعله في مجالات التكوين، كما: «قال‏ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» (41: 11) فعبارة القول إشارة الى مدى نفاذ أمره دونما وقفة أو شريطة أمر آخر أو امر أخرى، «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (36: 82). و تعني «خاسئين» مهانين بعيدين، حيث القردة العاديين ليست خاسئة حيث خلقت قردة كسائر الحيوان المخلوقة حيوانا دونما بعد عن رحمة اللّه و كرامته، و هؤلاء حوّلوا قردة بعد ما خلقوا أناسي، فحوّلوا إلى «خاسئين» طريدين مهانين بعيدين عن رحمة اللّه.

و ترى أنهم كوّنوا قردة- فقط- في أبدانهم أو أرواحهم، أم فيهما معا؟

علّ اللائح من‏ «كُونُوا قِرَدَةً» تحوّل الجزئين إلى قردة، و لم يقل: كونوا في أرواحكم، او في أبدانكم! أو يقال: الأمر لا يوّجه إلا الى العاقل و ليست الأبدان بالتي تعقل فتقبل الأمر أو لا تقبل؟ و لكنما الأمر هنا أمر التكوين فيعم مطلق التكوين عاقلا و سواه و كما «قال لها و للأرض أتيا طوعا أو كرها».

و لعل «خاسئين» دون «خاسئة» تلمح الى بقاء أرواحهم الإنسانية عاقلة، لمكان جمع العاقل، و لأن نكالهم لا يبقى لأنفسهم ما عاشوا لو حوّلت أرواحهم قردة، فإنها لا تشعر تحوّلها، ثم و لأن القردة المحولة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا: عقائدنا عند البحث عن الصلب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 455

بجزئيها عن جزئي الإنسان لا تبقى مكلفة تعذب هنا و في الأخرى، كما لو جنّ عاقل عاص و مات مجنونا، حيث المعيار في الحساب هو الحالة التي يموت فيها المحاسب، إن عاقلا فإلى ثواب او عقاب، و إن مجنونا أو قردا أم أي حيوان لا يعقل فلا حساب إلّا قدر ما يشعر.

فالروح الإنسانية التي عاشت جسمها فترة، ثم حول جسمها إلى قرد إنها تذوق أشد العذاب بما تعقل.

و أما أن تحوّل أرواحهم- فقط- قردة مع بقاء أبدانهم فلا نكال لهم- إذا- و لا لما بين يديها و لا خلفها، حيث لا يرون نكالها.

هنا تحوّل إلى قردة خاسئين نكالا او موعظة، فما ذا تحوّل القردة أناسي- على حدّ مزعمة دارون- فإذ نقبل التحول الأول بدليل قاطع كما هنا، لسنا لنقبل التحول الآخر بمجرد التشابه دون دليل، و آيات خلق الإنسان من طين لازب- من صلصال من حماء مسنون- و كالفخار، ليست لتقبل هكذا تأويل، و البحث آت في طيات آياته.

فَجَعَلْناها نَكالًا لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66).

النكال هو الضعف و العجر و القيد و الحجز، فالنكال العجز و الحجز مجعول هنا لمثلث‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْها- وَ ما خَلْفَها- وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».

و ترى‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها» أهم الأمم التي كانت تشاهدها من حاضرين لمشهدها ليكون نواحا ذرين عن محتدها «وَ ما خَلْفَها» هم الأمم التي أتت بعدها و هوت هواها فطغت طغواها «1»؟ إذا فلما ذا «ما» و هي تلمح لغير ذوي العقول؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير البرهان 1: 105 عن زرارة عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (عليهما السلام) في الآية قال: لما معها ينظر إليها من اهل القرى، و لما خلفها قال: نحن و لنا فيها و عظة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 456

او «لِما بَيْنَ يَدَيْها» هم القريبون الناظرون، و «ما خلفها» هم البعيدون عن مشهدها أمكنة كمعاصريها، أو أزمنة كمستقبليها «1»؟ فكذلك الأمر؟.

أو أن‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْها» حياتها الحاضرة الدنيا «وَ ما خَلْفَها» حياتها الآتية الأخرى، حيث النكال هنا ضعف و عجز، كما أنه هناك قيد و حجز؟ و هذا يناسب صيغة اللفظ «ما» و سياق المعنى، إذا النكال عنى ضعفا و عجزا، لا قيدا و حجزا، اللّهم إلّا للآخرين؟

او أن «ما» تعني مثلث المعنى- «لِما بَيْنَ يَدَيْها» من الناظرين او الحاضرين المعاصرين، ناظرين و سواهم، او الحياة الدنيا للخاسئين و سواهم من أضرابهم، و «ما خلفها» من المعاصرين البعيدين غير الحاضرين ذلك المشهد، او المستقبلين من مواطنين و سواهم، أو الحياة الأخرى؟ و هذا هو الأحرى حيث تتحمله الآية.

كما و أن «نكالا» تعني القيد و الحجز ل «من بين يديها و من خلفها» و الضعف و العجز «لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها» من الحياتين للخاسئين.

و ترى في المحتملة الأولى‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها» كيف اعتبرت الأمم التالية للقردة الخاسئين «ما خلفها» رغم ان كل امة تستقبل الحياة و الأمم الأخرى، فهي إذا «لِما بَيْنَ يَدَيْها» لا «ما خلفها»؟

علّه لأنه يجمعه و المحتملين الآخرين، و أن هذه الخاسئة خلّفت أمما كأمثالها في طغواها: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ» (7: 169) و قد كانت القردة الخاسئة مخلدة إلى حاضرها، ناظرة الى غابرها، ناكرة لحياتها الأخرى، فهي إذا لم تكن لتستقبل الحياة الأخرى، مهما كانت الأخرى و الأمم الاخرى تستقبلها، فالواقع أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)- و في الرقم (2) الآتي‏

عن الرضا (عليه السلام) و جعل غطة و عبرة للخلق ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 457

مستقبل كل امة- من أمة و من الحياة الأخرى- هو بين يديها، و لتنظر إليه نظرة البصيرة النافذة، إلّا أن هذه الأوغاد المناكيد لم يكونوا يفكرون في مستقبل الأخرى، فأصبحت الأمم و الحياة الاخرى‏ «بَيْنَ يَدَيْها» هي بنفسها «ما خلفها» في نظرة مركوسة مطموسة.

هذا هو نكال القردة الخاسئة في مثلث الأضلاع، حيث ينكل الخاسئة أنفسها ضعفا و عجزا في‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْها»: دنياها و «ما خلفها»:

عقباها، و تنكل كذلك أضرابها من الطغاة، من هم‏ «بَيْنَ يَدَيْها»:

حاضرة ناظرة، او معاصرة سامعة، و من هم «خلفها»: الآتية العاتية، تنكلهم جميعا قيدا و حجزا، كما نكلت القردة ضعفا و عجزا.

«وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ» .. كما كانت القردة الخاسئة: البعيدة المهانة نكالا لأهل الطغوى، كذلك هي موعظة لأهل التقوى، من كانوا بين يديها أو أتوا و يأتون من خلفها، حيث يتخذونها عبرة و عظة.

و ترى أن القردة الخاسئين هل ظلت مشهد النكال و الموعظة لأهل الطغوى و التقوى بأنفسها أحياء، أن عاشت زمنا بعيدا؟ أم هلكت بعد ثلاثة ايام كما يروى‏ «1» أم ماذا؟

واقع النكال و الموعظة للآخرين- و إن لزمن تعيشه سائر القردة- يحكم بالبقاء، حيث الهلاك بعد ثلاثة و ما إليها يحول دون نكالها «لِما بَيْنَ يَدَيْها»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 906 في من لا يحضره الفقيه و قد روي‏ ان المسوخ لم تبق اكثر من ثلاثة ايام و ان هذه مثل لها فنهى اللّه عز و جل عن أكلها

، و

في المجمع وردت الرواية عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه لم يمسخ شيئا فجعل له نسلا و عقبا

و في الدر المنثور 1: 75 عن ابن عباس: و لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة ايام و لم يأكل و لم يشرب و لم ينسل، و اخرج ابن المنذر عن الحسن قال: انقطع ذلك النسل،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏1، ص: 458

ككل المعاصرين، فضلا عن «ما خلفها».

إلا ان النكال هذا لا يختص بالآخرين، حيث يعني- و بأحرى- أنفس القردة الخاسئين في الأولى‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْها» و الأخرى «و ما خلفها» و إن لثلاثة أيام هنا.

ثم النكال للآخرين لا يختص بحاضر المشهد و شاهده، فشاهده يتنكّل او يتقي، و غائبه يقبل من شاهده حيث الخبر المتواتر يقبل، و ليس النكال القيد و الحجز إلّا لواقع الواقعة و كما في الواقعة و لمّا تأت، دون خصوص الشهود، و هكذا يكون دور النكال و الموعظة لكل واقعة هي عبرة و تذكرة، لكل من يسمعها و يصدقها.

فلقد حق عليهم النكول عن أمر اللّه فتحول نكالا، و لو أنهم لم يكونوا قردة في نفسياتهم لم ينكصوا هكذا عن أمر اللّه، و لكنهم نكصوا فانتكسوا قردة خاسئين، حيث انطباعات الشعور- عن تقصير لا عن قصور- تعكس على الوجوه، لزاما في الأخرى، و أحيانا في الأولى.

و هل إن سائر القردة هي من نسل هذه الخاسئة؟ قد تروى: نعم‏ «1» و لكنه، لا و كما تروى‏ «2» و ان المقطوع تكوّن سائر القردة قبل الخاسئة بدهر طويل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا أحاديث يفسرها الحديث الاول الى غير اللائح منها،

ففي نور الثقلين 1:

73 في عيون الاخبار عن محمد بن سنان عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل و فيه: كذلك حرّم القردة لأنه مسخ مثل الخنزير و جعل عظة و عبرة للخلق دليلا على ما مسخ على خلقه و صورته و جعل فيه شبه من الإنسان ليدل على انه من الخلق المغضوب عليه.

و

فيه عن جعفر عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب (عليهم السلام) قال: سالت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن المسوخ فقال: هم ثلاثة عشر: الفيل- الى ان قال: و اما القردة فقوم اعتدوا في السبت.

(2) مضت روايته في الرقم (1) هنا.